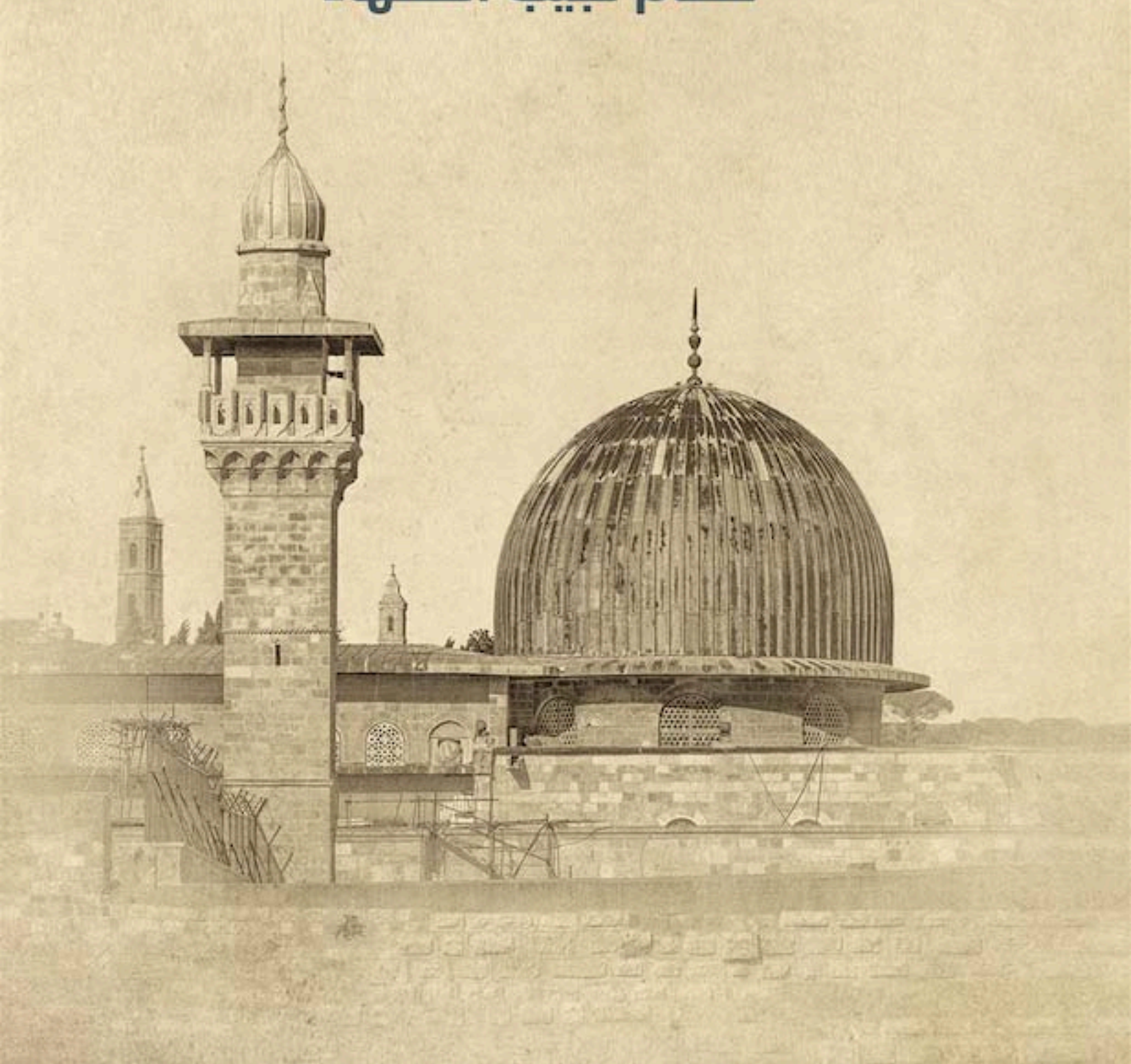


عبقرية القدس

الأستاذ الدكتور
عصام نجيب الفقهاء



الأستاذ الدكتور
عصام نجيب الفقهاء

عبقرية القدس

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2020 / 1 / 168)
9560411

الفقهاء، عصام نجيب
عبقرية القدس / عصام نجيب الفقهاء . (322 صفحة).
ر.ا.: 2020 / 1 / 168
المواصفات: القدس / المناطق العربية المحتلة/
المقاومة الفلسطينية / تاريخ فلسطين
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى
مصنّفه ولا يعبر هذا المصنّف عن رأي دائرة المكتبة
الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

تم تحكيم هذا الكتاب وطباعته بدعم من عمادة
البحث العلمي والدراسات العليا في
جامعة فيلادلفيا / المملكة الأردنية الهاشمية

لا يجوز نشر أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته
بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي طريق، سواء أكانت الكترونية،
أم ميكانيكية، أم بالتصوير، أم بالتسجيل، أم بخلاف ذلك، دون الحصول
على إذن المؤلف الخطي. وبخلاف ذلك يتعرض الفاعل للملاحقة
القانونية.

إهداء

إلى روح المناضل الشهيد ابن الشهيد
الحاج الطيب عبدالرحيم محمود
« أمين عام الرئاسة الفلسطينية سابقاً »



.. كنت في قلب الحدث مجاهداً قيادياً في حركة المقاومة الفلسطينية منذ البدايات، وفارساً تحافظ على الثوابت الوطنية في ميادين الكفاح المسلح والعمل الثوري والسياسي، وأيقونة تضحية وفداء لتحرير كامل التراب الوطني المغتصب.

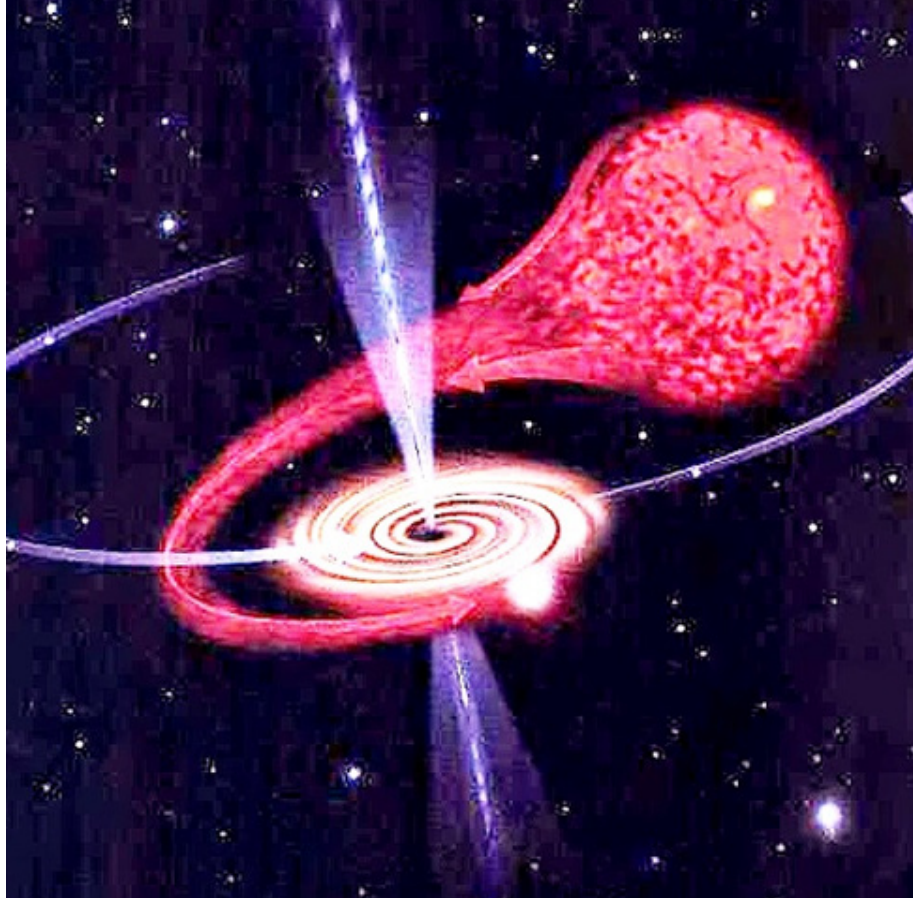
.. أحسب أن إيمانك كان راسخاً بنظرية الشهيد والدك « الحق ليس براجع لذويه إلا بالحراب»، وبأن المباحثات مع العدو عبث سياسي لن يحقق سلاماً مشرفاً. وأتنبأ انك كنت دائم التحسب والخشية من أحداث ربع الساعة الأخير واللفة الأخيرة في مسيرة العمل الثوري.

.. اتوقع أنك رصدت نقاطاً غير مشرقة تشوب مسيرة العمل المقاوم، فكتمت ذلك حرصاً على ألق الثورة المتأججة في ضمائر الأجيال، وأنت الشاهد الأمين عليها، والمؤهل الأول لتوثيق تاريخها.

.. تقديراً لروحك الطاهرة وأرواح الشهداء، ووفاء للأسرى والجرحى والمرابطين في فلسطين، أهدي هذا الكتاب. ويبرز الفصل الأخير منه صحة نهج الكفاح المسلح سبيلاً للتحرير.

الله ما أبهاك في كبد السما ازددت فيها رفعة وجلالاً

تغمذك الله بواسع رحمته أيها الطيب الأمين.



صورة الثقوب السوداء الموجودة في السماء والتي يعتقد أن واحداً منها فوق مدينة القدس وأن معراج المسيح ومحمد عليهما السلام كان من خلالها كما صورها عالم الفيزياء البريطاني ستيفن هوكنج وهو يؤكد أن وصفها الجامع المانع ورد في سورة " النجم " في القرآن الكريم

المحتويات

الفصل الأول: بنية الشخصية والعبقرية

17	تمهيد
19	الشخصية: المفهوم والأنماط
23	العبقرية والموهوبية: مفاهيم متداخلة
28	الإنسان منجم طاقات
30	الروح محرك أساسي للحياة
34	سيكولوجية القدرات الإبداعية
35	صفات الشخصية العبقرية
40	نظريات تفسر العبقرية
42	مراحل تطور الشخصية العبقرية
46	الذكاء التواصلي سمة أساس للعبقرية
50	الخلاصة

الفصل الثاني: عبقرية المكان

55	روح المكان: إطار مفاهيمي
59	طبيعة المكان والإحساس به
60	روح القدس
62	بيت المقدس وأكنافه
63	القدس: وعبقرية المكان
72	شواهد على أماكن ذات شخصية عبقرية في القدس
85	الشخصية العبقرية وعلاقتها بالأسطورة
88	القدس تستحق أيقونة عبقرية المكان

الفصل الثالث: العبقورية وفضاء الزمان

97 أثر الزمان والمكان في عبقورية الإنسان في القدس
101 شخصيات عبقورية عربية عاشت في القدس
105 محطات رئيسة في تاريخ القدس وأكنافها
109 أرض فلسطين أقدم المناطق الحضارية في العالم
115 التناقض الواضح في الموقف التركي من القدس
121 المواطنة: استراتيجية إسرائيلية خبيثة لسلب السيادة في القدس
123 الفلسطيني المقهور: القدس أيقونة عبقورية الزمان

الفصل الرابع: عبقورية القدس وعلاقتها بالخريطة الثقافية

133 مفهوم الهوية الثقافية
135 الخريطة الثقافية الفردية والجمعية
137 مراحل التطور الثقافي الفردي والجمعي
140 الصدمة الثقافية
145 البيئة النفسية المواطنة لتطور الشخصية العبقورية للقدس
146 مراكز التنمية الثقافية في شرقي القدس
157 المتاحف في القدس الشرقية
160 هدير الصمت الثقافي المتقوش على وجه التاريخ

الفصل الخامس: العبقورية الفلسطينية وعلاقتها بالموروث الشعبي

173 الشخصية العبقورية للإنسان في القدس
174 العائلات المقدسية القديمة
174 العائلات المقدسية الجديدة
177 التخلف الثقافي
180 ظاهرة فصام الشخصية الثقافية
184 إطلالة تاريخية على أرض الرسل والأنبياء

184	فلسطين في العصور القديمة
191	علاقة الأسطورة بالثقافة الشعبية العربية الفلسطينية
192	الدين والأساطير أساس السياسة الوطنية الفلسطينية
197	الاساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية
198	الفولكلور الشعبي وعلاقته بالثقافة الوطنية الفلسطينية
202	النشيد الوطني الفلسطيني: تجسيد لرؤية شعب
204	اللباس الشعبي جزء من الثقافة العربية الفلسطينية
206	الرقص الفولكلوري الفلسطيني
208	أطباق الطعام الفلسطينية
208	القدس أيقونة عبقرية الإنسان

الفصل السادس: العبقرية وعلاقتها بالحرية والديمقراطية

213	العلاقة الارتباطية بين الحرية والإبداع
217	شروط تحفيز الإبداع
221	درجة الحرية المواتية للإبداع والعبقرية
224	الإبداع وعلاقته بالقهر الاجتماعي
225	معوقات الحرية واستراتيجيات التخلص منها
226	استراتيجيات اكتساب الحرية
237	علاقة الشخصية العبقرية بالكاريزما
239	الفلسطينيون في الشتات: نماذج نبوغ وعبقرية
244	الحرية المفجبة: القدس أيقونة العبقرية اليتيمة

الفصل السابع: تجليات العبقرية الفلسطينية في الأدب والفن

249	معمارية النص الأدبي الإبداعي
250	طوبوغرافية الشعر العربي
253	جدول تشرحي للعناصر الإبداعية في القصيدة العربية
256	التفعيلات الشعرية تثوير جذري للفكر والعلاقة مع الآخر

260	معمارية القصة والرواية والمسرحية
262	الأسس النفسية لدراسة الإبداع الأدبي والفني
265	أنماط شخصيات المقدسيين ومدى تذوقهم للأدب والفن
269	الفن التشكيلي الفلسطيني بين الأيديولوجية والتراث
271	أساسيات الفن التشكيلي والأدبي
273	القدس أيقونة عبقرية الأدب والفن العربي الفلسطيني

الفصل الثامن: عبقرية المقاومة العربية الفلسطينية

281	القدس بين ثقافة المقاومة والمقاومة الثقافية للاحتلال
283	معادلات المقاومة الثقافية
303	المقاومة الديموغرافية قمة استراتيجيات المقاومة الفلسطينية
306	المقاومة بالكفاح المسلح
311	القدس أيقونة المقاومة العبقريّة
314	الخاتمة
321	المراجع والمصادر

قائمة الجداول

- الجدول رقم (١) مقياس التقييم الذاتي لمستوى التفكير الإبداعي 51
- الجدول رقم (٢) مقياس درجة الإبداعية في شخصية المكان 89
- الجدول رقم (٣) مقياس تحديد ملامح البيئة المادية والبشرية المواتية
للشخصية العبقرية..... 124
- الجدول رقم (٤) اختبار قياس المستوى الثقافي 161
- الجدول رقم (٥) الهدف من استخدام الأسطر الشعرية في القصيدة 258
- الجدول رقم (٦) قوانين صياغة القصة والرواية والمسرحية 261
- الجدول رقم (٧) ميزان الإبداع الشعري 275
- الجدول رقم (٨) معايير قياس مدى تحقق شروط انتصار المقاومة الثقافية .. 299
- الجدول رقم (٩) أبرز فصائل المقاومة الفلسطينية وفق الترتيب الزمني
لتشكيلها 309

قائمة الأشكال

- الشكل رقم (١) خارطة تبين حدود أكناف بيت المقدس 62
- الشكل رقم (٢) أحياء القدس القديمة 78
- الشكل رقم (٣) فلسطين والأنبياء عبر الزمن 125
- الشكل رقم (٤) فلسطين على مر العصور 126
- الشكل رقم (٥) الخريطة الثقافية وفق بعدي القيم التقليدية في مقابل
العلمانية العقلانية، وقيم البقاء على قيد الحياة مقابل قيم التعبير عن الذات
- الشكل رقم (٦) مثلث الصدمة الثقافية 141



المقدمة

هذا الكتاب الموسوم (عبقرية القدس) هجين في تركيبه. فهو في جانب منه تاريخي وصفي، وفي جانب ثان أيديولوجي عقائدي، وفي جانب ثالث تحليلي فلسفي وتطبيقي نفسي. يتلمس الكتاب ملامح عبقرية القدس، كنموذج للمدن التي تعتبر بيئات حاضنة للعبقرية. وتتجلى تلك الملامح في أبهى صورها لدى الدراسة المعمقة لعبقرية الجغرافيا الطبيعية والسكانية والتاريخية والروحية للمكان. وهي عبقرية يتيمة نظراً لغياب الحرية عنها في ظل الاحتلال الصهيوني الغاشم.

يتلمس الكتاب ملامح عبقرية المكان والزمان والإنسان في القدس. فللمدينة مكانة قدسية خاصة منذ أقدم العصور، وهي أيقونة الضمير العربي على مر الأزمنة. لكن سكانها يعانون من ظروف سياسية حرجة تشكل في مجملها خلفية لظروف سلبية، وحرمان من عناصر أساسية لازمة للإبداع الخلقى والتواصل. فقد خضعت القدس خلال تاريخها الطويل لاثنتين وثلاثين سلطة حاكمة وثقافة سائدة، وتعرضت للتدمير مرتين، وحوصرت ثلاثاً وعشرين مرة، وهوجمت اثنتين وخمسين مرة، لكنها بقيت عبر التاريخ عاصمة فلسطين، وقبله العرب أتباع الديانات السماوية الثلاث. ويشكل ذلك مؤثرات على جذور العبقرية التي تتسم بها المدينة.

تتجلى الحيوية التاريخية لسكان القدس خاصة، والشعب الفلسطيني عامة، في القدرة على الصمود الطويل في وطنهم المغتصب على امتداد فترة احتلاله، والتحدي العنيد والإصرار الذي لا يلين في الحفاظ على الهوية. كما تتجلى في خلق صور إبداعية للمقاومة الراضية للاستعمار الإسرائيلي الاستيطاني في فلسطين، وبشكل متطور وصل حد المقاومة الديموغرافية واستخدام الطائرات الورقية الحارقة، وهي أنماط مقاومة عبقرية فاعلة، تمثل في مجملها صوراً جلية للعبقرية التي يتضافر المكان والزمان والإنسان في تشكيلها.

يتسم الجهد العلمي المبذول في الكتاب بأن له نكهة القيمة المضافة بلغة الاقتصاد، بفضل ميزة معايشة المؤلف الميدانية للناس على أرض فلسطين، وإطلاعه على جغرافية المكان، ومعرفته العلمية المعمقة بمواضيع الشخصية والعبقرية. فلم يقتصر الكتاب على المجال الجيوسياسي، بل تعدى ذلك إلى تناول العبقرية والعلاقة بين البعد الزمكاني وشخصية الإنسان الفلسطيني، وفكرة الندية الثقافية كسبيل لاستدامة تلك العبقرية.

يتألف الكتاب من ثمانية فصول ومقدمة وخاتمة. ووضع في بداية كل فصل عمل فني

فلسطيني، وفي نهايته قصيدة مختارة عشوائياً من روائع الشعر الفلسطيني الثري، لتعزيز الأفكار المتضمنة فيه، وتشكيل محطة استراحة تسمح القارئ بالتأمل.

ويتناول الفصل الأول الإطار المفاهيمي الذي يستند إليه الكتاب في تناوله للشخصية العبقريّة للقدس. فيرسم معالم الشخصية العبقريّة، ويحدد المفاهيم التي يتمحور الكتاب حولها. ويبحث الفصل الثاني في عبقريّة المكان، فيوضح مفهومي روح المكان والإحساس به. ويعرض شواهد على عبقريّة المكان في القدس.

ويتناول الفصل الثالث عبقريّة الزمان، وتأثير عاملي الزمان والمكان في عبقريّة الإنسان في القدس، ويعدد شخصيات عاشت في القدس، ويحدد محطات رئيسة في تاريخ القدس، ويقدم وصفاً مقتضباً لتاريخها الحديث والقضية الفلسطينية.

ويبحث الفصل الرابع موضوع العلاقة بين الشخصية العبقريّة للإنسان وهويته الثقافيّة. ويوضح الخريطة الثقافيّة الفرديّة والجمعيّة، ومراحل التطور الثقافي الفردي والجمعي. ويوضح الفصل الخامس علاقة الأسطورة والفولكلور الشعبي والأزياء والمأكولات الشعبيّة بالثقافة الشعبيّة الفلسطينيّة.

ويتناول الفصل السادس موضوع العلاقة بين الشخصية العبقريّة والحرية والديمقراطيّة، ودرجة الحرية المواتية للإبداع والعبقريّة، وعلاقة الإبداع بالقهر الاجتماعي والجندي، ومعوقات الحرية واستراتيجيات التخلص منها. كما يعرض تاريخ فلسطين عبر العصور. أما الفصل السابع فيتناول ملامح العبقريّة في الأدب والفن الفلسطيني المعاصر، ودورهما المقاوم للاحتلال الاستيطاني.

يعرض الفصل الثامن ثقافة المقاومة والمقاومة الثقافيّة للاحتلال. ويحدد ست معادلات للمقاومة الثقافيّة، فضلاً عن المقاومة الديموغرافيّة، والمقاومة المسلحة. وتقدم الخاتمة استنتاجات تتعلق بمدى عبقريّة القدس، وسبل تحريرها من الصهاينة الغاصبين.

ومن المؤمل أن يتوج هذا الجهد بتحقيق الهدف المقصود منه، وهو الدفاع عن الشخصية العبقريّة للقدس ضد ممارسات الاحتلال الغاصب للمكان، والقاهر للإنسان، والمحرّف لمعطيات الزمان والمكان، أملاً في أن يزيّف لذاته تاريخاً. وتكمن أداة الانتصار للقدس، وخارطة الطريق القويم للحفاظ على عبقريّتها، في توجيه الأنظار إلى أهميتها، كأيقونة للعبقريّة بمعناها الشامل، وإلى ضرورة الإبقاء على جذوة العنصر الروحي المقترن بها، والتأكيد على أهمية تدعيم الشخصية الوطنيّة الفلسطينيّة المتمسكة بأصالتها الثقافيّة،

والمتفتحة على العالم.

إذا كان الله يأمر بالعدل والإحسان، وكان العدل هو الإنصاف، والإحسان هو الفضل، فيإني أتقدم بالشكر لأهله مستحقاً للأخوة المراجعين والمحكمين. فقد أتوا على صفحات هذا الكتاب متمتعين فصوبوه، وتساءلوا، وعلّقوا، وشجّعوا، واستحسنوا، فكان لما قاموا به أثر واضح في النهوض بمستواه. وطوبى لمن كان بصره في قلبه. والله ولي التوفيق»،



لوحة جمل المحامل للفنان سليمان منصور

الفصل الأول

بنية الشخصية والعبقرية

- تمهيد
- الشخصية: المفهوم والأنماط
- العبقرية والموهوبية: مفاهيم متداخلة
- الإنسان منجم طاقات
- الروح محرك أساسي للحياة
- سيكولوجية القدرات الإبداعية
- صفات الشخصية العبقرية
- نظريات تفسر العبقرية
- مراحل تطور الشخصية العبقرية
- الذكاء التواصلي سمة أساس للعبقرية
- الخلاصة
- مقياس التقييم الذاتي لمستوى التفكير الإبداعي
- في القدس: الشاعر الفلسطيني محمود درويش



الفنان التشكيلي الفلسطيني مصطفى الحلاج

الفصل الأول

بنية الشخصية والعبقرية

تمهيد:

يقدم الفصل الأول من الكتاب إطاراً مفاهيمياً أساسياً لازماً لدراسة شخصية القدس، وعبقرية المكان والإنسان والزمان فيها. فيوضح مفاهيم الشخصية، والإبداع، والعبقرية، والموهوبية. كما يحدد ملامح سمات الشخصية العبقرية، وأتماطها، ومبادئ تحفيزها. ويشرح سيكولوجية القدرات الإبداعية عند الإنسان، ومراحل تطورها، وما يميزها عن الموهوبية. وإذا كان الفصل الأول متركزاً حول شخصية الانسان وعبقريته، فان الكتاب في مجمله يتناول شخصية القدس، عاصمة فلسطين، كمكان عبقرى بارك الله حوله، وكإنسان فلسطيني ينتمي لخير أمة أخرجت للناس، وكزمان اختصر تاريخ اثنتين وثلاثين حضارة في كل واحد عبقرى.

هناك توافق في الثقافة الغربية على أن لمدينة أثينا شخصية عبقرية. وقد كانت قبل ألفي سنة مركزاً سياسياً، واقتصادياً، وثقافياً. وكان الأثينيون فخورين ببلدهم، ويتقبلون الآخر وفكره، ويؤمنون بالذكاء التواصلي قبل صياغة المصطلح نفسه، ويتصفون بكمال أجسامهم، ورزانة تفكيرهم. وهناك توافق على اعتبار فلورنسا مدينة عبقرية أيضاً. وقد استثمرت أموال الكنيسة المتحصلة من بيع صكوك الغفران في عصر النهضة في تنمية الجانب الفني فيها، فظهر فيها عباقره كبار، أمثال مايكل أنجلو وليوناردو دافنشي. وتوسم مدينة سان فرانسيسكو بأنها عبقرية أيضاً، وصار وادي السيليكون رمزاً للاختراع والتقدم التقني.

[٢١: ص ٩٧]

ومن المؤكد أن بيت القدس، أو إيلياء كما كانت تسمى أيام الفتح الإسلامي، لديها صك رباني بأنها في طليعة المدن ذات الشخصية العبقرية مكاناً وزماناً وإنساناً، إذ اصطفاها الله من بين المدن، وطلب من سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يبني فيها بيتاً لعبادة رب العالمين، بعد أن أتم بناء الكعبة بأريعين عاماً. القدس مسرى نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم، وقد عرج منها إلى السماء. وقد وصفت أرض بيت المقدس بالبركة في خمس من آيات القرآن الكريم. وهي مهد كافة الأديان السماوية، وأرض الرباط والجهاد. وفي تفسير سر الاهتمام الدولي بالقدس وفلسطين، يقول المؤرخ البريطاني توينبي (Toynbe)

أن بلاد الشام مركز الحضارة الإنسانية، وأن القدس مركز بلاد الشام، وهي جزء من الأرض التي تدر لبناً وعسلاً، وأن ذلك هو سر الصراع على المدينة. أما المستشرق والفيلسوف الفرنسي رينان (Renan)، فقال أن لكل إنسان وطنان، أولهما وطنه الذي ينتمي إليه، وثانيهما فلسطين مهد الحضارات. ويضيف في معرض تقييمه لأهمية القدس، وبلاد الشام عامة، أن المسيحية اتخذت فيها الشكل الذي انتشرت به عبر كل العالم الهيليني. ويدعو ذلك الغرب إلى تفعيل الحضارة الهيلينية، لمواجهة طغيان الحضارة الإسلامية كمحور وريث لأقدم حضارات العالم حسب مقولة هنتنغتون. ويفسر ذلك سر التهافت الغربي على مساعدة الصهاينة في احتلالهم الاستيطاني لكامل أرض فلسطين، أرض المحشر والمنشر بالنسبة للمسلمين. [٧:٤٢ ص]

وهناك من يقول أن أهمية القدس، وفلسطين عامة، تعود إلى أسباب اقتصادية بحتة بغطاء عقائدي بالنسبة للصهاينة. فالقدس قبلة أصحاب الديانات السماوية الثلاث، والسياحة الدينية تدر دخلاً يفوق كل ما يمكن أن تقدمه الثروات الطبيعية في أي بلد. وفي سعيهم لإيجاد دولة لهم تتوفر فيها مقومات الحياة لدولة ناشئة، وجدوا في فلسطين، وعاصمتها القدس، أفضل خيار لإقامة دولتهم. كما أن في قيام الحركة الصهيونية بمحاولات تهويد القدس، ترسيخ لفكرة شعب الله المختار، في مقابل الحكم الإلهي للأمة الإسلامية بأنها خير أمة أخرجت للناس.

في كتابه الشيطان يسكن المدينة الصادر عن دار نهضة مصر عام ٢٠٠٧، ذكر عزت السعدني أنهم يقولون أن فلسطين أرض الميعاد، وقد دأبوا على تحريف الكلام، والصحيح أن هناك أرض العهد، كما جاء في العهد القديم والعهد الجديد، وهي ممتدة من الفرات إلى النيل، وقد انتهى ذلك العهد بنبوّة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. وهناك أرض الموعد، وهي أرض فلسطين، التي سيظهرها السيد المسيح عليه السلام لدى عودته من اليهود الكفار، وقد ضرب فيها موعداً للعيش المشترك والتسامح، بحيث يتعايش فيها المؤمنون بالله من كافة بقاع الأرض.

لقد أحاط الصهاينة فلسطين بدخان كثيف من الأساطير، منها الإشارة إلى أنها أرض بلا شعب، وأنه يمكن للصهاينة شراؤها وتفريغ سكانها منها، أي أنه تم إدراك الأمور باعتبار فلسطين مكاناً لا زمان له، وأن فلسطين بلا تاريخ، وبلا ذاكرة. بل إن الجماعات اليهودية في العالم، والتي يشار إليها باعتبار الشعب اليهودي، أصبحت جماعة من البشر يدور تاريخها

حول المكان، فهو تعبير عن الرغبة في العودة إلى فلسطين آرتس إسرائيل، كما كان توقف فيه التاريخ، وكأن فلسطين تنتظر عودتهم بفارغ الصبر. وإنكار الزمان واحدة من سمات العقل الصهيوني الذي يحول الزمان إلى مكان مصمت، والزمان بالنسبة للعربي هو الحيز الذي يمكنه أن ينهض فيه ويحرر أرضه ونفسه.^[٢٨]

ويقول المركز الفلسطيني للإعلام في بيروت، إن إنشاء الكيان الصهيوني يهدف القيام بدور الدولة الحاجزة (Buffer Zone). وتلك فكرة دعمها الاستعمار الغربي، وخصوصاً بريطانيا، بهدف شطر جناحي العالم الإسلامي في آسيا وأفريقيا إلى شطرين منفصلين، مما يضمن إضعافه، ومنع وحدته، وإبقائه مفككاً عاجزاً عن النهضة، قابلاً في دائرة التبعية، منتجاً للمواد الأولية اللازمة لصناعة الغرب، ومستهلكاً لمنتجاته. إن معادلة بقاء الكيان الصهيوني، واستقراره، ونموه في وسطٍ معادٍ مرتبطة بضمان ضعف ما حوله من أقطار المسلمين، وتفككها، وتخلفها. وإن معادلة نهضة الأمة، ووحدتها، وقوتها، مرتبطة بالقضاء على ذلك الكيان الصهيوني الجاثم على أرضها.^[٣٢ ص: ٥٠]

الشخصية: المفهوم والأنماط

لعل من الضروري التعرف على مفهوم الشخصية، وملامحها، ومراحل تطورها، قبل محاولة رسم معالم شخصية القدس، وعناصر عبقريتها. والحقيقة أن علماء النفس قدموا تعريفات محددة مقتضبة للشخصية، يذكر منها ما يأتي:

ألبرت (Allport): الشخصية هي التنظيم الميكانيكي للعوامل الجسمية والنفسية للفرد، أو العوامل الجغرافية والمعمارية والحضارية للمكان، أو العوامل التاريخية والحكومية للزمان. وتحدد تلك العوامل في مجموعها مدى تكيفه مع البيئة المحيطة به.

- نيوكومب (Newcomb): تتجلى شخصية الفرد من خلال مشاهدة سلوكه، وأكثر أنواع السلوك دلالة على شخصية الفرد هو سلوك لعب الأدوار.

- ايزنك (Eysenck): الشخصية هي المجموع المتكامل لسلوك الفرد ومزاجه وذكائه وبنائه الجسمي. ويحدد ذلك المجموع المترابط طريقة الشخص المتفردة في التكيف مع البيئة.

- كاتل (Cattel): الشخصية هي ما ييسر التنبؤ بسلوك الفرد في مواقف محددة، وتضم جميع أوجه السلوك الشعوري واللاشعوري للفرد وكذلك للجماعة.^[٣٢ ص: ٥٠]

ويتضح من ذلك كله أن الشخصية مصطلح عام وشامل، ويعني البناء الخاص بصفات

الفرد، وأمط سلوكه، وطريقته المتفردة في التكيف مع البيئة المحيطة به، وأسلوبه الخاص في التعامل مع نفسه ومع الآخرين. أو هي ذلك المجموع المتكامل المترابط لسمات الشخصية، والعمليات النفسية الممتزجة بوساطة كل المؤثرات الخارجية. ويمكن الوقوف على بناء شخصية الفرد والعوامل الوراثية السائدة من خلال العوامل البيولوجية المؤثرة، والظروف المجتمعية التي تتكشف أثناء السلوك اليومي الروتيني. لذا، يفترض أن يتضمن أي وصف لشخصية الفرد وصفاً لمظهره العام، وطبيعة قدراته، ودوافعه، وردود أفعاله العاطفية، وطبيعة الخبرات التي مر بها، ومجموعة الاتجاهات والميول والقيم التي توجه سلوكه.

تتلخص وظيفة الشخصية في رأي معظم علماء النفس، بتحديد السلوك الإنساني وتوجيهه. وحدد موري وكلاكهون (Murray & Klukhon) ست مهام رئيسة للشخصية. [١٣: ص ١٣٨] أولها إحداث التوتر الناتج عن الشعور بالحاجة، لأن عدم الشعور بأية حاجات يؤدي إلى حالة من الاكتئاب.

وثانيها إزالة التوتر الناتج عن الشعور بالحاجة، وذلك بالعمل على إشباع الحاجات.

وثالثها تنظيم الوقت لإشباع الحاجات.

ورابعها التعبير عن النفس.

وخامسها تعديل مستوى الطموح.

وسادسها مراعاة النظم الاجتماعية والعادات والتقاليد.

وبالنسبة للعوامل المؤثرة في تكوين الشخصية، فهي: العوامل الحيوية، والوراثة، والبيئة، والنضج، والتعلم، والثقافة، والأسرة، والمدرسة، وزملاء اللعب والأصحاب والشلة، ووسائل الإعلام، ودور العبادة، والأدوار الاجتماعية ضمن الجماعة. [١٨: ص ٩٦]

تصنف النظريات التي تحاول دراسة الشخصية في خمس فئات رئيسية هي: نظريات الأمط، ونظريات السمات، والنظريات التطورية، والنظريات الديناميكية، والنظريات الإنسانية. [١٩: ص ٣٧]

ومن أبرز رواد النظريات الإنسانية روجرز (Rogers)، الذي سماها نظرية الذات. ويعني روجرز بالذات كينونة الفرد. وتتكون نتيجة التفاعل مع البيئة، وتشمل الذات المدركة والذات الاجتماعية والذات المثالية، وتسعى للتوقف والالتزان والثبات، وتنمو نتيجة النضج والتحكم، وتصبح المركز الذي تنتظم حوله كل الخبرات.

ويتكون مفهوم الذات من أفكار الفرد الخاصة به والمتعلقة بوجوده الداخلي، وهي منسقة ومحددة الأبعاد بهدف تشكيل علاقته بالمحيط الخارجي. ويقوم مفهوم الذات بدور الدافع لتكوين عالم الخبرة، وتكامله، وتنسيقه، وتنظيمه، تبعاً لتغير الخبرة التي يكتسبها الفرد من المحيط الذي يعيش فيه. فمفهوم الذات منظم للسلوك ومحدد له، ويسعى الفرد دوماً لتحقيق ذاته وتعزيزها، وهو بحاجة إلى مفهوم موجب للذات، يعيه بشعوره، وإن كانت الذات تضم عناصر لا شعورية. [١٥: ص ١١٦]

يتضح من كل ما تقدم من عرض لنظريات الشخصية التقليدية، أنها تؤكد على أن شخصية الفرد مؤلفة من مكونات وهمية يمكن أن تخضع للفحص المجهرى الدقيق، من أجل الوصول إلى وصف دقيق لعناصر الشخصية. ويعني ذلك أن كلاً من عناصر الشخصية يعمل بصورة مستقلة عن العناصر الأخرى. أما النظريات الحديثة، فإنها تنظر إلى شخصية الفرد كوحدة منظمة تعمل ككل متكامل، وتعمل العناصر المكونة للشخصية في علاقات محددة يقتضي دراستها دراسة وافية. ولا يتأتى فهم شخصية الفرد من مجرد الوقوف على مظاهر محددة من شخصيته، بل بالتعرف عليها كوحدة متكاملة فاعلة في مواقف حياته حقيقية. ولعل من المناسب الإشارة إلى نظرية ديفيد كيرسي (David Keirse) حول أنماط الشخصية. فهي تؤكد إن الإنسان منظومة موحدة من الطاقة، تنمو فيها الشخصية ككل واحد، وإن شخصية الفرد تزداد تعقيداً وتميزاً مع مرور الزمن، بحيث يصبح من المتعذر طمس معالمها. ويتبع ذلك أن شخصية الفرد تحدد مسار النمو الشخصي للفرد على مدى الحياة. كما تؤكد هذه النظرية على أنه يمكن فهم شخصية الفرد من خلال الوقوف على نمط شخصيته كوحدة متكاملة فاعلة في مواقف حياتية حقيقية، وأن شخصية الفرد وحدة منظمة تعمل ككل متكامل، وأن مكونات الشخصية تعمل معاً في علاقات محددة مع بعضها البعض، وأن توفر صورة واضحة المعالم للشخصية ييسر التعرف على أي من مكوناتها من خلال صورة الشخصية، ونتيجة الاتصال الحيوي بها. والحقيقة أن النظر للشخصية ككل منظم يمنع من طغيان أي من مكوناتها، ويحد مما قد ينجم عن ذلك من تعميمات متحيزة، كأن يحكم على سلوك معين لشخص ما بالسوء، ثم يستخلص من ذلك أن الشخص نفسه سيء مثلاً. [١٧: ص ٨١]

لقد تبنى كيرسي مفهوم احترام الذات، وأكد أنه الهدف الأسمى للسلوك الإنساني، وأن ذلك كله يعتمد على المزاج الذي يعده كيرسي الهيئة الفطرية للكائن البشري. ويمكن

للمزاج، كما يقول كيرسي، أن يكون مؤشراً يدل على توحيد القوى المتباينة للفرد. والمزاج عند كيرسي نوع من التجسيد للكل، وتوحيد لمكوناته المتناثرة. إن المزاج أصلي في الإنسان، بمعنى أنه يولد مزوداً به. بينما تعتبر القدرات والعواطف والاتجاهات مكتسبة تتغير وفق المتغيرات البيئية. ومزاج الفرد يجعله أكثر ميلاً إلى طرق تفكير وإدراك معينة، كما يجعله أكثر تحمساً إلى تبني قيم معينة دون غيرها، أو الانقياد لدوافع ورغبات تختلف من شخص إلى آخر.

ويتبين من ذلك كله أن نظرية كيرسي تعتمد النظرية الإنسانية التي تتبنى مفهوم الذات، وتقديرها أن احترام الذات هو الهدف الأسمى للسلوك الإنساني. كما تعتمد نظرية السمات، إذ تعتبر المزاج، وهي صفات موروثية تتسم بالثبات النسبي، وتتأثر بالبيئة والتجربة. كما تعتبره الهيئة النظرية للكائن البشري، ونوعاً من التجسيد للهيئة الكلية للفرد، وعاملاً يقوم بإجراء تآلف وتوحيد المكونات الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية للشخصية. تميز نظرية كيرسي أربعة أمطاط أساسية للشخصية الإنسانية، لكل منها طرق تفكير محددة، ورغبات مميزة، تسبب استقرار السلوك وانتظامه. وهي [١٧: ص ٧٣]:

أولها النمط الحسي (Dionysian)؛ وثانيها النمط البراجماتي (Epimethean)؛ وثالثها النمط العقلي (Promethean)؛ ورابعها النمط المثالي (Apollonian Temperament). ولو تمثلت مدينة القدس عروساً، كما يحلو للبعض، لقلت أنها من النمط المثالي. ويميل هذا النمط إلى إنكار الذات، وتحقيق هوية متفردة تحظى باحترام الآخرين وتقديرهم. لذا فإن أصحاب النمط المثالي يعملون المستحيل سعياً لإشباع رغباتهم في تحقيق شخصيات متفردة في أعمالهم، وعلاقاتهم مع الغير.

يتمتع أصحاب النمط المثالي بإحساس عميق بالتكامل الشخصي. فهم يحرصون على التعامل بصدق مع الآخرين، ويرفضون التظاهر والادعاء، ويرون في التخلي عن صدق التعامل إنكاراً لذواتهم، وبناء لحياتهم على أسس فاسدة. إنهم يسعون لفهم الوجود فهماً شاملاً، وانتقاء أهدافهم، والتخطيط لمستقبلهم، والمحافظة على نسق حياتهم. يتشكل فهم هذا النمط للحياة وفق العواطف التي تثيرها، وتتطور تلك العواطف لتشكل نظرة ميتافيزيقية للإنسان. أما معيار الاختبار لتشكيل الإحساس بالحياة، فهو درجة أهمية الشيء وفق القيم المجتمعية السائدة. والإيمان بأثر القوى الميتافيزيقية واضح في كل قرار يتخذه صاحب النمط المثالي.

لدى أصحاب النمط المثالي رغبة جامحة، وقدرة كبيرة على تقويم الآخرين. وتشكل الفنون التعبيرية التي تتضمن الاتصال اللفظي والكتابي وسيلة يستخدمها أفراد هذا النمط لإعادة بناء الواقع وفق أحكامهم القيمة الميتافيزيقية، ومدخلا للتعريف بجوانب الخبرات الإنسانية الأجدى والأهم، وأسلوباً لتجسيد نظرتهم للإنسان ووجوده. [١٨:ص ٧٧]

يتمتع ذوو النمط المثالي بالرغبة الجامحة لتنمية عظمة الإنسان، ونبله، وذكائه، وتحريره من البؤس والمرض. وتدفعهم تلك الرغبة للعمل في مهن محددة كالطب والتعليم والرهبة، لأنها تيسر لهم فرص مساعدة الآخرين، ليكونوا أكثر لطفاً، وأصدق حياً ومودة للأفراد الذين يتعاملون معهم. كما يسعون لتحقيق شخصية متفردة مستقلة، والحصول على اعتراف الآخرين بقيمة تلك الشخصية. ولدى الشعور بأي تهديد لاستقلاليتهم، فإنهم يصبحون سلبين، مقاومين للسلطات الحاكمة.

البيئة المتشدة تشعهم بالعزلة وعدم الطمأنينة، بينما يؤدي الجو المتساهل إلى إشعارهم بالإحباط، وخلق شعور لديهم بعدم أهميتهم. ويتوق أصحاب هذا النمط للإحساس بهوياتهم، ويتأق ذلك من خلال الاعتراف بشخصياتهم المستقلة. ومن أصحاب النمط المثالي للشخصية الروائيين العظام، أمثال فيكتور هيجو ودوستوفسكي، وبعض كتاب المسرح المشهورين أمثال فريدريك شيلر.

وبالتالي فإن أهم سمات شخصية القدس أنها تنوق لتحقيق هوية متفردة تحظى باحترام العالم وتقديره، وتؤمن بأثر القوى الميتافيزيقية في تشكيل الإحساس بالحياة، وبأن الفنون التعبيرية التي تتضمن الاتصال اللفظي والكتابي تشكل وسيلة لإعادة بناء الواقع وفق الأحكام القيمة الميتافيزيقية، التي تعتبر أسلوباً لتجسيد النظرة للإنسان ووجوده. تلك أهم معالم شخصية القدس، أيقونة العبقرية.

العبقرية والموهوبية: مفاهيم متداخلة

العبقرية تعني الحصول على مراتب عليا على سلم الإبداع الإنساني. وهي صفة إنسانية بعض عناصرها موروث، والبعض الآخر مكتسب، إذ تتشكل بصورة تراكمية بفعل عاملي الزمان والمكان. وتاريخ الحضارة الإنسانية في حقيقة الأمر سلسلة من الإنجازات الإبداعية المتراكمة على مر العصور، وليس مجرد سرد لانتصارات أو هزائم في حروب. ولذلك يجري الحديث عن أناس مبدعين، مثل ألبرت أينشتاين، بغض النظر عن تبعيتهم الإثنية أو

الدينية، وعن مدن تم التوافق على اعتبارها حاضنات للعبقرية ومحفزة لها. وقد أبرز إيريك فاينر (Eric Weiner) في كتابه جغرافية الإبداع مدناً عبقرية، مثل أثينا وفلورنسا وسان فرانسيسكو وكلكتا. وقال أنه لو شاء أن يقترح أماكن عبقرية أخرى تتمتع بسمة العبقرية لذكر فلسطين، أو إسرائيل كما ذكر نصاً. [٣١: ص ٣٣٣]

وشكل ذلك حافزاً عند المؤلف لتلمس الملامح المميزة للقدس، عاصمة فلسطين، كمكان عبقري، وإلى تاريخها الطويل كمجموع تراكمي لأزمة عبقرية، وإلى الإنسان الفلسطيني الذي صيرته الظروف القاسية وروح المكان نموذجاً فذاً للعبقرية.

يعد الإبداع الإنساني عملية مركبة، تتضمن عناصر عقلية وانفعالية وسلوكية. العنصر العقلي من تلك العملية يأخذ صيغة التفكير الإبداعي، أي التفكير حيال الظواهر بطريقة جديدة. ومن ذلك النمط من التفكير تتولد شحنات انفعالية وجدانية، كالرضا أو القلق أو الخوف. ثم تتجسد العناصر العقلية والانفعالية في سلوك إبداعي ظاهر من خلال عمل يظهر للعيان بصورة عمل أدبي أو اختراع. وقد يتوقف الإبداع كعملية نفسية اجتماعية عند مستوى العنصر الأول المتمثل بالتفكير، أو العنصر الثاني الذي يأخذ صورة الانفعال، وربما لا يظهر كسلوك أبداً.

يمثل الإبداع استجابة جديدة متفردة، وأكثر جدوى وفعالية، لمثير قائم في البيئة الاجتماعية أو الطبيعية. ويتجلى في تلك الاستجابة التعبير عن النفس بتلقائية تخلو من التبعية للمعايير السائدة في مجال معين، والتغلب على ضغوط الامتثال والمحاكاة. كما يمكن القول أن الإبداع هو القدرة على التخيل، ورؤية علاقات جديدة بين حقائق الحياة بأشكالها المختلفة، والقدرة على اختراق حواجز العرف والعادة والتقاليد السائدة في مجالات الفكر الإنساني كافة. [١٣: ص ١١٣].

الإبداع هو في حقيقة الأمر إعادة مزج العناصر المعرفية بطرق جديدة، وإيجاد علاقات وروابط بين أشياء تم التعارف على أنها غير متشابهة. أو هو القدرة على إيجاد مداخل لحلول أصيلة للمسائل الغامضة والقضايا المعقدة. وهو على المستوى الفردي نوع من الصراع الدائم بين الثقافتين الذاتية والجمعية. والمقصود بمستوى الثقافة الذاتية درجة الحرية الداخلية للفرد، وشدة الحاجة والتوتر التي تعد أم الاختراع. بينما تشير الثقافة الجمعية إلى هامش الحرية الخارجية، ومدى الديمقراطية المنبثقة من الايديولوجيا العامة، والتي تعد الأب الروحي للإبداع. ويتناسب مستوى الإبداع طردياً مع حدة الصراع بين

نمطي الثقافة الذاتية والجمعية. فإن بلغ الصراع أوجه، وصل الإبداع في سموه حد العبقرية، أي المستوى الأعلى من الإبداع.^[١: ص ٣٨]

ويدور كثير من الجدل حول إمكانية الموازنة بين قدرة عبقرية المكان على تحقيق عبقرية الإنسان ضمن إطار عبقرية الزمان من جهة، والحاجات الملحة للمجتمع الذي يعيش المرء فيه من جهة أخرى. وذلك على طريق تطوير المهارات الأدائية اللازمة لتنفيذ الخطط الاقتصادية والتنموية، على كافة المستويات المحلية والوطنية والقومية والعالمية. ويكمن السبيل الأمثل لتحقيق تلك الموازنة في الاهتمام بتنمية العبقرية لدى الأفراد، والاهتمام بقدرتهم على التوافق مع مقتضيات البيئة بشكل عام. ويعتمد ذلك على عوامل شخصية متعددة، أهمها مقدار البرمجيات المتوفرة لدى المرء، ومستوى الإبداع عنده. ويقصد بالبرمجيات ما يتوافر في المخزون المعرفي للفرد أو الجماعة من تراث ثقافي، ورصيد علمي وفني وأدبي. ويستدعي ذلك الوقوف على أجواء التوتر، والمعاناة، والشعور بالرفض، والعزلة، والفوضى الإثنية والروحية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وعدم الاستقرار السياسي.

في بداية القرن الحادي والعشرين، بدأت بالتميز والاتضح ملامح الانتقال الحتمي من التعامل على أساس مبدأ التنافسية بين الناس إلى التشاركية، والتعاون فيما بينهم. التنافسية تدعو إلى كبت روح الإبداع، أما التشاركية فتدعو للاهتمام بالتنوع، والتداخل المعرفي، ومكافأة الفكر الإبداعي، وتنمية روح المغامرة، وتحفيز اقتراح الفرضيات، ومناقشتها، وعدم معاقبة الأخطاء، والتركيز على الأفكار العامة بدلاً من الحقائق الضيقة. ويتطلب ذلك الوقوف على مستويات الإبداع لدى الناس، ورعاية كافة المحاولات التدريبية التي تهدف تطوير سلوكهم الإبداعي، كي يتمكنوا من استخدام أساليب إبداعية، تحقق الغايات القادرة على تشكيل الانسان المعاصر، الذي يفكر بنفسه، ولنفسه، وللغير، ويحترم ذاته والغير، ويتمكن من مواجهة قضايا العالم المتغير بكفاءة واقتدار.

لقد قدم الكاتب الأمريكي ماري نيمير (Marty Neumeier) ستاً وأربعين قاعدة للعبقرية، تلخص على النحو الآتي: كسر القواعد وتخطيها، وتمنى ما يريده المرء، والشعور قبل التفكير، والنظر إلى ما هو غير موجود، وطرح أسئلة كبيرة، وتحديد المشكلات في أطر دقيقة، وتقليب كافة الأفكار، وارتياح المخاطر، وانتهاج تقديم الإجابات بشكل غير مباشر، وتوقع المصاعب، واستخدام الجمال كعيار، واتباع أسلوب التصميم السريع والتقرير البطيء، واستخدام العملية الخطية للعناصر الساكنة، واستخدام العملية الديناميكية للعناصر التفاعلية، والعمل

على هيكل مناسب، والتعبير عن العناصر ذات الصلة بطريقة مماثلة، وتطابق شكل الوظيفة مع وظيفة التشكيل، وأن لا يكون المرء مملأً، ووضع المفاجأة حيث يريد الاهتمام، وتطبيق جماليات بشكل متعمد، والتصور مع الرسومات أو النماذج، واحتضان الفوضى، واختبار الأفكار في مواقف واقعية، والتبسيط، وتعلم كيفية التعلم، والبدء بالفضول وليس الإيمان، وامتلاك المشاريع الخاصة، والاحتفاظ بملف البطل، والاستثمار في الأصالة، والتعلم استراتيجياً، ودعم نقاط الضعف الخاصة، وقضاء ساعات طويلة في حالة فرح، والقيام بأخطاء تعليمية، والتماس النقد المفيد، والإثارة العاطفية، وتطوير نمط أصيل، والممارسة، والالتزام مهمة، والمحافظة على التركيز، واتباع منهجية، والتصميم الجيد، وبناء الدعم بشكل منهجي، وعدم لوم الآخرين، والانضمام إلى شبكة اجتماعية، والتصرف وفق الذات، وصنع قواعد جديدة. [١٧: ص ٨١].

ويعد ستيف بول جوبز (Steve Paul Jobs) واحداً من أقطاب التفكير الإبداعي والريادي بين رجال الأعمال في الولايات المتحدة. وعُرف بأنه المؤسس والمدير التنفيذي ورئيس مجلس الإدارة في شركة أبل (Apple)، والرئيس التنفيذي لشركة بيكسار، وعضو مجلس إدارة شركة والت ديزني. وأثناء إدارته لشركة أبل، استطاع أن يخترع جهاز الحاسوب ماركة الماكنتوش (ماك) بأنواعه، وثلاثة من الأجهزة المحمولة هي (آيبود) و(آيفون) و(آي باد). وهو ممن يشهد لهم بالعبقرية. ومن أقواله الملهمة المحفزة للتفكير المجانف الإبداعي، والتي تشكل المرتكزات الأساسية للعبقرية، ما يأتي [٣: ص ٢٤]:

• الفنانون الجيدون ينسخون الأشياء ويقلدونها، كما يقول بيكاسو. أما العباقرة العظماء، فيسرقون الأفكار ويعيدون صياغتها. فلا يخجلن أحد من سرقة الأفكار وتطبيقها في مجالات جديدة. فمن أسباب نجاح شركة ماكنتوش مثلاً أن معظم العاملين فيها كانوا في الأصل موسيقيين وشعراء وعلماء أحياء ومؤرخين، فضلاً عن أنهم كانوا أيضاً خبراء في علم الحاسوب. فتعرّف على أفضل ما أنتجته البشرية، وقم بإدماجه وتذويته مع ما تعرف وتفعّل.

• خلّق الإنسان ليضيف شيئاً إلى الحياة والوجود، فإن لم يفعل فلا معنى لوجوده فيها. تتولد الاختراعات من أناس يلتقون في أفكارهم، ويتواصلون في كل وقت، معبرين عن أفكار جديدة وطرق مبتكرة لحل المشكلات.

• الإبداع هو فن ربط الأشياء ببعضها. فإن سألت مبدعاً عن كيفية توصله لاختراعاته،

شعر بالذنب لأنه لم يَقم بعمل شيء، بل رأى الأشياء بصورة جديدة.
 . من الأفضل أن تكون قرصاناً على أن تكون مجرد بحار، بمعنى أن من الضروري الاهتمام
 بالتفرد والاختلاف.

. الأشياء العظيمة لا يقوم بها فرد بصورة منفردة، بل بمساعدة فريق عمل. ويعد فريق
 البيتلز نموذجاً يحتذى به، إذ يقوم كل واحد من أعضائه الأربعة بسد النقص والملاحم
 السلبية التي يحس به كل منهم في الآخرين.

تلك أقوال ستيف جوبز بعبقريته الفذة، وعظمة اختراعاته، ونجاحه الفائق. وهو مثل
 يحتذى في فكره، وعمله، وإيمانه بأن الموهبة والعبقرية قدرات أساسية لازمة للتوافق مع
 متطلبات العالم المتغير.

لقد اتسم النصف الأول من القرن العشرين بالاهتمام بالقدرة العقلية العامة التي أطلق
 عليها تعبير الذكاء. فدرس علماء النفس طبيعة الذكاء العام واختباراته. أما النصف الثاني
 من القرن العشرين، فقد اتسم باهتمام العلماء بالإبداع، وطرق تدريبه. ويعود ذلك إلى
 أن الحرب العالمية الثانية أدت إلى الاهتمام ببذل الجهود للابتكار، وخاصة في مجال التسليح،
 حتى تكثرت الجهود باختراع القنبلة الذرية. وتالت الحروب، وسباق التسليح، ثم الحرب
 الباردة، وظهور عصر الفضاء، وتطلب ذلك كله تهيئة المبدعين للإفادة منهم في مختلف
 الميادين.

والحقيقة أنه يجري كثير من الخلط بين معاني كل من الخلق والإبداع والابتكار والاختراع.
 فالخلق يعني الإيجاد من العدم، وهي صفة إلهية. أما الابتكار، فلفظة تدل على أنه لم
 يطرق ذلك المجال أحد من قبل. يتصف المنتج بالجدة والأصالة والحدثة. وأما الاختراع،
 فلفظة تدل على أن الشيء المبتكر يثير الدهشة والانبهار في نفس من يشاهده. ويعرف
 الإبداع، الذي يشكل في مستوياته العليا الإطار العام للعبقرية، بأنه المقدرة على تكوين
 أبنية أو تنظيمات جديدة تظهر على شكل مبادرات، يبيدها الفرد للتخلص من السياق
 العادي للتفكير، واتباع نمط تفكير جديد، فيجد أوجه شبه بين أشياء مختلفة. وهذا ما
 يتضمنه علم البديع في اللغة العربية. كما أن عبقرية نيوتن (Newton) ظهرت في قدرته
 على الربط بين سقوط التفاحة والجاذبية؛ وعبقرية فرويد (Freud) في قدرته على الربط
 بين هفوات اللسان وزلات القلم والأحلام بمدلولات عالم اللاشعور والرغبات المكبوتة؛
 وعبقرية بافلوف (Pavlov) في قدرته على الربط بين إفراز اللعاب والمنبهات الشرطية.

ويقول بعض علماء النفس أن الإبداع يتمثل بظهور إنتاج جديد يطوره الفرد عن طريق تفاعله مع الخبرات المكتسبة، ويجمعون على أن كافة تعاريف الإبداع تركز على أربعة عوامل هي العلاقة بين العناصر العقلية والانفعالية والسلوكية، والصراع الذهني، وحل المشكلات، والبيئة.

يعد الإبداع، والعبقرية أعلى مستوياته، مفهوماً افتراضياً كغيره من المفاهيم السيكولوجية. وهو عملية ضمنية يمكن التحقق منها عن طريق معاينة نتائجها، ويمكن اختبارها بمقاييس محددة. كما يعد الإبداع عملية معرفية ذهنية، يكون الفرد نشطاً، وحيوياً، وفاعلاً فيها، في مجال تنظيم الخبرات والمعلومات المتحصلة لديه سابقاً، من أجل الوصول إلى حلول أو أفكار جديدة، ومواجهة المواقف الجديدة بكفاءة وفاعلية. وبسبب تميز الفرد المبدع بقدرات قد لا تتوافر عند غيره، فإنه يقوم بنشاط ذهني معقد، كي يصل إلى حل لم يتوصل إليه سواه من قبل، أو إلى إنتاج صورة جديدة لم يتم تشكيلها سابقاً.

وللتمييز بين العبقرية والموهوبة، فإن الموهوبين هم الذين يظهرون قدراً عالياً من القدرات والاستعدادات التالية منفردة أو مجتمعة^[١١١:٣٦]: القدرة العقلية العامة، والاستعداد الأكاديمي الخاص، والتفكير الإنتاجي أو الإبداعي، والقدرة القيادية الاستثنائية، والاستعداد الفني البصري أو الأدائي، والقدرة الحسية الحركية.

أما المعايير الموضوعية لاختيار صاحب الموهبة، فهي اختبارات القدرات العقلية مثل اختبارات معامل الذكاء (ستانفورد- بينيه) وويكسلر- بلفيو، واختبارات الإبداع مثل اختبار تورانس، واختبارات التحصيل الأكاديمي واختبارات القابلية أي الاختبارات المقتنة. وأما المعايير الذاتية لاختيار صاحب الموهبة، فهي ترشيح المدرس للطالب الذي يرى فيه موهبة في مجال واحد أو أكثر، و ترشيح الآباء والأمهات لأطفالهم الموهوبين، وترشيح الزملاء والأقران لمن يرون فيه موهبة خاصة، وترشيح الطالب لنفسه، والأخذ بنتائج الاختبارات في المدرسة.

الإنسان منجم طاقات:

يقول بعض العلماء أن المعلومات الزائدة تمثل عبئاً زائداً على المخ البشري، وأنها تعتبر عملية غير مرغوبة لأنها تعطل التفكير الإبتكاري. فالمعرفة الواسعة تؤدي إلى خمول الفكر، وذلك لأنها تحمل خميرة الجمود داخل أطر جامدة، ولا تعطي للعالم أو الفنان

إمكانية مشاهدة الأشياء ضمن أطر أخرى. ولذا يرى البعض أن العالم يجب أن يطلع على مجهودات السابقين والمعاصرين. ولكن زيادة الاطلاع والمعرفة الزائدة تؤدي إلى انخفاض ابتكارية المواهب عند العلماء. وهذه وجهة نظر قابلة للنقاش بشكل عام، ولكنها تستحق البحث والدراسة المعمقة في الوطن العربي، إذ يتباهى العالم العربي بأن أبناءه هم الأكثر علماً وتحصيلاً معرفياً، ولكن إبداعهم قليل بسبب ما يشار إليه من عبء زائد على المخ، مما يند روح الابتكار والإبداع لديهم.

لقد فقد الإنسان منظوره إلى نفسه كمبادر ومدرك خلال القرن العشرين، نتيجة افتتانه بالاكتشافات العلمية. والأصل أن يدرك الإنسان كنه ذاته. فقد يكون الإحساس الموسع بمهية الإدراك والتفكير والإبداع هو الجواب الخلاق للمأزق الحالي في المجتمع البشري. والسبب أن امتلاك الدهشة والتعطش إلى المعرفة لا يقل أهمية عن امتلاك المعلومات. وفقد نقل عن جون جاردنر (John Gardener) الفيلسوف الأمريكي المعروف ووزير التربية والتعليم في أوائل الستينات من القرن العشرين قوله إن المجتمع الذي يفقد صفارة الدهشة، والميل إلى المغامرة، وتحمل المخاطرة، والتصميم، والرغبة في الاكتشاف مصيره كتب التاريخ (يعني سلة المهملات). [٣١: ص ٦٥]

هل تدبّر الإنسان في سبب نجاح بعض الناس وفشل البعض الآخر..؟ وهل فكر في سبب نجاح أحدهم في مهنته وشقاء آخر طيلة العمر دون أي مردود مادي يذكر..؟ إن ذلك كله يعزى بلا شك إلى قوى العقل الباطن التي تعمل لدى الفرد ليل نهار، والتي تتضمن كافة الخبرات الحياتية، قبل أن يمحّصها الضمير الإنساني، وينقيها من كل ما يتعارض مع العرف والعادة والقيم الاجتماعية والدين. وعلى كل امرئ أن يتذكر ما أبرزه جوزيف ميرفي من أن هناك كنزاً دفيناً في داخل المرء هو العقل الباطن. وهو يجيب على كل ما يخطر بالبال من تساؤلات. فسّر نجاح العظماء على مرّ التاريخ يكمن في قوة العقل الباطن لديهم. والعقل الباطن هو الذي يوجه سير المرء، ويحدد نمط حياته. فإذا قال المرء لعقله الباطن أنه يريد الاستيقاظ الساعة السادسة، فسيوقظه في ذلك الوقت. والعقل الباطن هو الذي يمي على المرء أن كل فكرة تشكّل سبباً، وكل حالة تشكّل في حد ذاتها نتيجة. فإذا أراد امرؤ أن يكتب كتاباً أو مسرحية، أو أن يلقي محاضرة، فليعط الفكرة لعقله الباطن، وهو يعينه لتشكيل ما يصبو إليه. إن قانون الحياة يكمن في الاعتقاد الراسخ في العقل. فعلى المرء أن لا يؤمن بأشياء تضره أو تؤذيه. وعليه أن يؤمن في قدرة العقل الباطن على العلاج

النفسي والتمكين الذاتي والنجاح. وقد يماً قيل غير أفكارك يتغير مصيرك. [١٩: ص ٣٢]

ثمة أناس يصنعون الأحداث، ويخطون معالم حياتهم بفكر إيجابي منظم، واتباع استراتيجيات تفكير مناسبة. وثمة آخرون يستهويهم العيش على هامش الحياة، ويكتفون بأن يأخذوا صفة المراقب لما يحدث حوالهم. فإن أردت أن تكون من النمط الأول من الناس، وهو الأفضل بطبيعة الحال، عليك أن تعي أن منجماً من الطاقات يعمر ذاتك، وأن عليك استثمار تلك الطاقات لتعيش حياة تفيض نشاطاً وحيوية. وتعلم أن الإنسان لا يستغل سوى ربع ما يكتنز من قدرات عقلية. فلماذا تظل ثلاثة أرباع القدرات دون استثمار مجدي واستغلال نافع؟! إن على كل امرئ أن يعرف كيف يعيش حياته بالطول والعرض كما يقال، وكيف يستمتع بكل ثانية من حياته على المستويات الجسمية والعقلية والروحية. وليدرك كل إنسان أن طريق المعرفة الحقيقية تتمثل في ثلاثية تصاغ على النحو الآتي: تبني الأفكار (Adopt)، فتعديلها وتكييفها (Adapt)، ومن ثم تطويرها والإضافة إليها (Advance). ويعني ذلك أن بإمكان الفرد أن يتبنى أفكار الغير، ومن ثم القيام بتعديلها وتذويتها (Personalization)، ثم يقوم بتطويرها والإضافة إليها. لقد خلق الإنسان جحوداً، إذ مكنه الله من العالم كله، وأعطاه الحكمة، فسد منابع الحب النابض في ثنايا قلبه بمحض إرادته، وعطل قدرات التفكير الإيجابي والإبداعي لديه، وهدر نعمة الحياة بمحض اختياره.

[٣: ص ٨٦]

يخطر بالبال قصة المهراجا الهندي، الذي تعود أن يتدرب على الموت، بأن يسير في جنازة ينظمها لذاته صباح كل يوم، وينوح وهو يرثي نفسه بتعداد إنجازاته. كان يردد لنفسه أنه عاش حياته بالطول والعرض. وعندما سئل عن سبب تكراره لذلك، قال أنه يؤكد لنفسه أهمية الحياة، وأن عليه أن ينجز كل ما يتمناه في ذلك اليوم، لأنه لا يثق إن كان الغد قادماً فعلاً. وبذلك التأكيد يصبح كمال العيش جزءاً من أهداف حياته. وهو بذلك أيضاً يتصرف كما لو أنه يموت غداً، وليس كما لو كان يعيش أبداً.

الروح محرك أساسي للحياة:

يتصرف الإنسان بنوعين متفاعلين من الدوافع الفطرية والناشئة، يعملان كوحدة واحدة غير مجزأة: أولهما فطري وهو الغرائز، والآخر ناشئ وهو القدرة على التعلم. ولكل من نوعي الدوافع جهاز دماغي خاص، يقوم بآليات عصبية دافعة للسلوك. أما الغرائز، فيتحكم بها

جهاز العاطفة أو ما يسمى جهاز الأرب، وهو آلة الدماغ العاطفية أو آلة الإطلاق الذاتي. وأما القدرة على التعلم، فيتحكم بها جهاز الفكر. والواقع أن جهاز العاطفة هو ما يطلق عليه مصطلح (النفس)، وجهاز الفكر هو ما اصطلح على تسميته بالروح. وقد توصل الباحثون في علم الحياة إلى أن هناك منطقة في الدماغ تعمل على حفظ التوازن بين جهازي الفكر والعاطفة، ومركزها في جبهة الإنسان في مقدمة الرأس. ولعل كلمة (جبهة) تعود في أصل اشتقاقها إلى طبيعة المنطقة التي تدل عليها الكلمة، إذ تمثل ساحة صراع بين الفكر والعاطفة.

تضفي الروح على الجسد صفة الحياة والوجود، وتجعله يقوم بدوره في حركية العالم، وبناء مظاهر تطوره. وتبقى الحضارة الإنسانية راكدة، طالما لم تحركها الروح والتفكير الروحاني. ولعل من غرائب الأمور أن يهتم الإنسان بالجسد ومفاته، وينسى التعرف على كنه الروح التي تعتبر المحرك الأساسي له. فإذا تحرر الإنسان من الوهم والعظمة الزائفة، وفهم معنى الخلود، وتخلص من الشهوات المادية، ومن التفكير بجدلية البؤس والسعادة، واستوعب مقولة أن من يتوكل على الله فهو حسبه، حظي بعيشة راضية في ملكوت الله الخالدة، التي تغمرها سعادة الدنيا والآخرة. ومن اكتملت هويته الروحية، وتخلص من المفهوم المادي للوجود، وتحرر من الوهم، وتسامى فوق الطبيعة المادية للأشياء، وزهد بالمتع الحسية، أصبح تواباً، وتقبل فكرة الموت والرجوع إلى الله، وبلغ السعادة الحقيقية في الحياة. ومن ذلك المنطلق الفكري، يمكن الوقوف على توزع الناس ضمن أربعة أماط، وهي: الحسي (Sensuous)، والزاهد (Pious)، والمتأمل (Meditator)، والصوفي (Mystic).

[٣: ص ٥٧]

أما النمط الحسي، فهو بالإجمال منتج، يعمل ليل نهار ابتغاء الكسب والربح المادي. ويتصف بإعلاء ما تفرضه الغرائز الفطرية والشهوات البهيمية النابعة من النفس الأمارة بالسوء، دون تدخل الضمير أو النفس اللوامة التي تحاول ضبط السلوك، وتعديله، ومنعه من الشطط والانفلات. وهو في ذلك لا يختلف عن الحيوانات والبهائم. إنه يعيش ليأكل ويأكل ليعيش، وبعثدي على الآخر في سبيل تأمين لقمة عيشه، حتى لو كان الآخر أقرب الناس إليه. إنه يتصف بالميل إلى التملك والاكتمال، فيعمل على جمع المال بأية وسيلة، ودون أي رادع أو تمييز بين حلال وحرام. إن كل مظاهر حياة هذا النمط من الناس زائفة. أذكر حكاية ملك أحب فتاة جميلة، وأصر على الزواج منها لجمالها. أما هي فكرته،

وأرادت أن تعلمه درساً. فطلبت مجموعة أدوية تسبب القيء والإسهال. وجمعت كل ما أخرجته من بول وبراز في أوان خاصة، وحفظتها في غرفة. وبدأ وجهها بالشحوب، وجسمها بالنحول، وغارت عيناها، وتجددت بشرتها. ثم طلبت من الملك زيارتها. فبهت لما رأى أن جمالها ذوى. ثم أدخلته الغرفة التي حفظت فيها كل الفضلات، ورائحتها الكريهة تملأ المكان. وقالت له أن كل ما رآه من فضلات هي أصل جمالها الذاوي. وإن عليه أن ينفذ إلى الجوهر وحقيقة الأمور، ولا يكتفي بالنظر إلى القشور والمظهر.

وأما النمط الزاهد، فإنه لا يأبه بالعمل بسبب إيمانه المطلق بأن الله سيكفيه قوت يومه، كما الطير والنحل وحيوانات الغاب، ودون الحاجة لصنعة يتقنها ويتكسب منها، إنه يسعى للتخلص من مآسي الحياة وهمومها، ويفكر في الحياة وأسرار الخلاص من مآسيها، ويجهد لحل ألغاز مسائل الحياة المتعلقة بالميلاد والموت والشيخوخة والمرض. وهو امرؤ حام يعيش في عالم يبينه لنفسه، ويكفيه فيه عيش الكفاف وتناول الخبز والزيتون.

وأما المتأمل، فإنه يسعى لاكتساب قدرات مادية سحرية مذهشة تبهر الناظرين. إنها قوى تتمركز في مواقع الطاقة الست الأولى عند الإنسان، والتي تختص بالنواحي الجسدية والانفعالية، لكنها بعيدة عن المركز السابع للطاقة الإنسانية الذي يشمل كل ما هو روحي. وأما الصوفي، فهو المفكر الذي يعبد الله تعالى حباً له وتقديراً لفضله. فهو لا يرجو منه شيئاً، ولا يدعوه أن يهبه مالاً وبنين، ولا جاهاً أو عافية. إنه كالأم التي تحنو على طفلها لمجرد حبها له، ولا تنتظر أية فائدة ترجى من ذلك. وفي ذلك كمال ما بعده كمال، وتعبد يصل الفرد بربه والتوحد معه. وذاك هو السبيل القويم للتواصل الفعال مع الذات الإلهية. قد يفسر ما تقدم خطأ بالدعوة إلى التمسك بالصوفية والرهبة. والأصح أن على الإنسان أن يوازن بين الأنماط الأربعة، فيكون حسيماً زاهداً متأملاً صوفياً في آن معاً، وبنسب معقولة متوازنة.

إن التواصل لدعم أي ابتكار جديد مستدام لا يقتصر على الناس في الدول النامية. فشركات مثل نايك، وبست باي، وكريترف كومنز، وإديو، وماونت إكويمنت، ونقابات الصناعات المعدة للتصدير، وسيلزفورس، وتو دجريز، وياهو، كلها أسست أسواقاً إلكترونية اسمها (GreenXchange- GX). وتقوم الشركات فيها بتبادل الاطلاع على الملكيات الفكرية الخاصة بها، من أجل خلق نماذج ومبتكرات تجارية مستدامة. [١٢:ص ٢٥]

إن الأنظمة التربوية العربية تشجع استراتيجيات التفكير المنطقي بما في ذلك التفكير

التحليلي والاستدلالي والاستقرائي، وقد تتعدى ذلك لتصل التفكير الناقد. اما التفكير الحدسي والاستكشافي والاستقصائي والاستبصاري والنظمي وحل المسائل والإبداعي، فلا تحظى بأي اهتمام. وتلك قضية أساسية تستوجب تأمل والدراسة المعمقة، والخروج باستنتاجات إجرائية يجري تطبيقها في المجالات التربوية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

إن مراجعة الأدب المتعلق بالإبداع تبرز أن المجتمع العربي يهدر الإمكانات الإبداعية المتوفرة فيه، إذ يشكل المبدعون عادة ما نسبته خمسة إلى سبعة في المائة من أية شريحة عمرية في المجتمعات الإنسانية بشكل عام. كما يهدر إمكاناته البشرية والمادية الأخرى. والقلة القليلة من أصحاب القدرات الإبداعية الذين يفلتون من الشباك المجتمعية التي تصادر تلك القدرات يتجهون في الأعم الأغلب إلى مجالات الإبداع الفني والأدبي. وإذا اتجه بعضهم إلى المجالات العلمية، فإنهم يختارون ميادين العلوم التطبيقية ذات المردود المادي والمعنوي المجزي، كالطب والهندسة. ولما كانت الأنظمة التربوية أداة التغلب الرئيسية على هذه العوامل المعوقة للفكر العربي، وأداة تشكيل الفكر بشقيه العلمي التقني والفلسفي الأيديولوجي، فإن الحاجة ملحة للثورة على الأنظمة التربوية العربية التقليدية، وإحداث تغييرات جذرية تشجع المبادرات التجديدية الهادفة إلى إنقاذ العالم العربي مما هو فيه، وجعل الأمة العربية خير أمة أخرجت للناس ترجمة لقول الله تعالى، عن طريق خلق الإنسان العربي المعاصر المبدع الذي يحتفظ بذاتيته، ويحترم إنسانيته وإنسانية الآخرين، ويقوم بتكييف التراث الثقافي ليلائم الواقع، كما يقوم بتكييف نفسه معه.

إن صناعة المستقبل تبدأ من هذه اللحظة، وإن اتجه الفعل في الحاضر تحدد صورة المستقبل، وينبع ذلك الاتجاه من داخل الإنسان ورؤيته الثقافية بالمعنى الدقيق الشامل للثقافة. وما زال العالم العربي يتبنى مفاهيم تقليدية تشجع الاستقبال السلبي غير الفعال لعناصر التراث الثقافي في القرن الحادي والعشرين. فيعنى بالتزود بالمعارف والمعلومات من دون تمحيص كمي ونوعي؛ وتبهره نظريات الذكاء ومقاييسه، مع الالتزام التام بأن درجة الذكاء (١٦٠ فما فوق) هي ما يتعارف عليه بالموهوبية؛ ولا يعير أي اهتمام بعناصر الإبداع، الذي يطلق على المستوى الأعلى منه تعبير العبقرية. وبالنتيجة، فإن العالم العربي يهيم في طريق الاستهلاك التقني والفكري، مما يلحق به هزيمة نكراء أمام الهجمة التقنية العالمية، إذ يظل يستورد من الدول المتقدمة الأجهزة المتقدمة والتكنولوجيا الحديثة مغلفة بشكل لا يسمح بتفكيكها وفهمها، ومن ثم محاولة تقليدها. وإزاء ذلك كله، يقتضي الدعوة للاهتمام

بتكنولوجيا المعلومات، وعلم هندسة المعرفة، والتفكير الإبداعي واستراتيجياته، وطرق تهيئة المبدعين لمواجهة مسائل الحياة المعاصرة المختلفة.

سيكولوجية القدرات الإبداعية:

حاول بيرت (Burt) توضيح معالم الطريق لفهم سيكولوجية القدرات الإبداعية، فذكر أن هذه المعالم تبدأ بأعمال جالتون (Galton) لقياس العمليات العقلية العليا، وبناء اختبارات التفكير الإنتاجي. وقد أشار جالتون، في العقد الأول من القرن العشرين، إلى أن العقل المبدع الخلاق يزخر دائماً بالأفكار والتصورات الجديدة المبتكرة، وذلك إلى جانب عنصرين آخرين من عناصر العملية الإبداعية، هما قدرة العقل على تقبل الجديد والاستجابة له، ثم الحدس ونفاذ البصيرة.

وتجدر الإشارة إلى أن فرنسيس جالتون هو حفيد إرازموس داروين (Darwin)، وأحد أبناء عمومة تشارلز داروين. وكان جالتون يرى أن بالإمكان الحصول على العباقرة والنوابغ عن طريق الاستيلاء، أي بنفس الطريقة التي نحصل بها على السلالات الممتازة من الخيول أو الثيران، وإلى أن هناك نوعاً من التسلسل في المواهب داخل السلالة البشرية الواحدة. وهو في ذلك يماثل وجهة النظر النازية. ثم أضاف ماكدوجال (McDougall) عاملي الربط الإنتاجي التباعدي والحماس إلى مكونات العملية الإبداعية [١٣: ص ١٠٩].

لقد لفت هارجريفز (Hargreaves) الانتباه إلى دور الخيال في التفكير الإبداعي، وأدخل فكرة عامل الطلاقة التي تعتبر إحدى عناصر الخيال الأساسية. وقام ماكيلر بجمع دراسات تجريبية كثيرة في مجال التفكير والخيال، وحاول إبراز العلاقة بين الخيال والتفكير الإبداعي، وشرح التفاعل بين أحلام اليقظة والتفكير الواقعي في العملية الإبداعية.

[١٣: ص ١١٣].

أما سبيرمان (Spearman)، فقد ذكر في كتابه العقل الإبداعي أن الذكاء كقدرة عامة متضمنة في الأنشطة الإبداعية، ولم يؤمن بأن أياً من عناصر القدرة الإبداعية موجود كهيئة مستقلة، بل قال أن الخيال الذي يعود إلى الإبداع معتمد بصورة كلية على الذكاء.

[١: ص ٣٩].

ينطوي أحد مداخل دراسة العلاقة بين الإبداع والعقل والإنجاز على تحليل لشخصيات أفراد اتصفوا بالإبداع، ودراسة العمليات التي يتبعونها لإنجاز أعمالهم الإبداعية، مواصفات

الظروف البيئية التي تستثيرهم.

وهيّل بعض العلماء إلى القول أن العالم يجب أن يطلع على مجهودات السابقين والمعاصرين. لكن الإطلاع الدائم والمعرفة الواسعة جداً تؤدي إلى انخفاض ابتكارية مواهب العلماء. وهذه وجهة نظر قابلة للنقاش بشكل عام، ولكنها تستحق الدراسة في الوطن العربي، حيث يتم التباهي بأن أبناءه هم الأكثر علماً وحصيلة معرفية، ولكن إبداعهم قليل بسبب ما يشار إليه من عبء زائد على المخ، مما يند روح الابتكار والإبداع لديهم.

[٢٠: ص ١٥٦].

صفات الشخصية العبقرية:

لقد درس العلماء الصفات المميزة للعباقرة في مجالات العمارة، والكتابة، والرياضيات، والبحث الصناعي. فحدّدوا عدداً من الصفات الشخصية للمبدع، كالميل إلى الهيمنة في العلاقات الاجتماعية، والاتصاف بما يقود إلى تحقيق مركز اجتماعي متميز، والانزواء أو الانطواء على الذات، ودرجة عالية من تقدير الذات، والحساسية، والاستقلالية، وروح الفكاهة، وتقديم إجابات غير تقليدية. [١٦: ص ٧٥].

إن العبقري شخص ذلق اللسان، ويتصف بالتحدي، والتمركز حول الذات. وهو متفوه مقنع، وواثق النفس، ودائم التعبير عن مشاكله ومصادر همومه لكل من يتواجد حوله. وهو متحرر من القيود التقليدية، وغير متشبث بانطباعاته عن الآخرين، وقادر على قبول وجهات النظر غير العادية، ولديه الدافعية للنجاح في الظروف التي تتطلب استقلالية التفكير والعمل في الظروف التي تتطلب سلوكاً تقليدياً. إنه أكثر مرونة من غيره في النواحي السيكولوجية والمعرفية، واهتماماته أكثر شبيهاً باهتمامات الإناث. وهو متفتح للخبرات المعقدة وغير المنظمة، ويميل للإدراك الحدسي دون الحسي في إصدار الأحكام، ويتصف بأنه من ذوي الضبط الداخلي أكثر من ميله للاتصاف بالضبط الخارجي.

وقمّنتايلور (Taylor)) من التوصل إلى خصائص مميزة للشخص المبدع بشكل عام، والعبقري بشكل خاص، وأجملها بما يأتي: المرونة، والاستقلال، والمثابرة، والاعتماد على النفس، والانطواء والانعزالية، والمغامرة، وتنوع الاهتمامات، وتنوع طرق التعبير عن المشاعر، والاندفاع، والميل إلى المنافسة. [٢٠: ص ١١٨]

وخلص فنست روجيرو (Vincent Ruggiero) إلى القول أن الشخص العبقري هو من يحقق

درجة عليا من الإبداع، ويتصف بما يأتي: [١٧:ص ١٧١]

الديناميكية والنشاط: فالشخص المبدع لا يسمح لعقله أن يكون سلبياً يتقبل الأمور دون تساؤل، بل يبقى على جذوة حب الاستطلاع متقدة في داخله. ومن مظاهر ذلك النشاط ميله للعب. فإذا كان الطفل يميل للعب بالدمى، فإن المبدع يميل للعب بالأفكار، فيعيد تنظيمها، ويتبنى منظوراً مختلفاً كلما أعاد النظر في الفكرة. وقد نقل عن نيوتن قوله لا أعرف كيف ينظر العالم إلي، لكنني أبدو أمام نفسي كطفل يلعب على شاطئ البحر، فيجد صدفة جميلة هنا، ويلاحظ شيئاً جميلاً هناك. أتجول بفكري بينما يبقى مجال رحب من الحقائق غير المكتشفة منبسط أمامي. ولعل مثل ذلك القول، وتلك الفكرة، تمثل الدافع الأساسي لآينشتاين للقول أن اللعب مظهر أساسي من مظاهر التفكير المنتج الإبداعي.

الجرأة: فالتفكير بالنسبة للشخص المبدع نوع من المغامرة يحوم حول الخبرة. وهو يتحلى بما سماه كارل روجرز الانفتاح للخبرات، التي هي نقيض الدفاع والتبرير. فالمبدع متحرر من كل ما هو متعارف عليه من وجهات نظر، وهو مخالف لأنماط التفكير السائدة. وهو جريء في طرحه للأفكار غير الاعتيادية والاحتمالات الصارخة والأفكار المبدعة، شأنه في ذلك شأن جاليليو وكولمبوس وأديسون والأخوين رايت.

الدهاء والقدرة على إيجاد الحلول الممكنة والخارقة: فعلى الرغم من قلة الموارد، فإن المبدع يتمكن من إيجاد ما يحل به المشكلات التي يتعرض لها، ولا تقاس تلك القدرة بمعامل الذكاء (IQ)، ولكنها واحدة من أهم مظاهر الذكاء العملي.

المثابرة: فقد نقل عن توماس أديسون قوله أن (٩٩%) من العبقرية عرق وجهد، وأن (١%) منها إلهام. كما نقل عن جورج برنارد شو قوله: عندما كنت شاباً، لاحظت أن كل تسعة أشياء من عشرة كنت أقوم بها كانت تعتبر فشلاً ذريعاً، وما أتي لم أكن أرغب في الفشل، فقد بذلت عشرة أضعاف الجهد الذي كنت أبذله.

المنافسة: وهي تعني للشخص العبقرى شيئاً مختلفاً. ففي حين أن التنافس يعني لعامة الناس سباقاً بين شخصين أو مجموعتين، فإن التنافس بالنسبة للعبقري يكون بينه وبين الأفكار.

الاستقلالية: فمع أن الشخص العبقرى يرغب في أن يكون له أصدقاء، إلا أنه لا يبالي في أن يكون شاذاً غريباً حين يطرح أفكاره. إنه واثق النفس، لا ينتظر القبول من أحد، كما لا ينتظر مساعدة أحد.

وبالإجمال، يميل الفرد العبقري إلى العزلة والانسحاب من المجتمع، لأن ذلك يتيح له فرصة إدراك القوى الكامنة عنده، والتي قد تبقى خامدة إذا لم يتخلص من مشاكله الاجتماعية مؤقتاً. وسواء كان ذلك الانسحاب ناتجاً عن ظروف قاهرة لا حول للفرد فيها ولا قوة، أو كان نتيجة ظروف اختارها هو بنفسه، فإن مثل ذلك الانسحاب ضروري لمواجهة الذات من ناحية، وتصور نوع من التغيير الذي يجب إنجازه من ناحية أخرى، بعيداً عن مجتمعه، وإلا فقد إنسانيته، وصار حيواناً أو إلهاً على حد تعبير أرسطو.

هناك ثلاث مجموعات من السمات الإنسانية المتفاعلة:

القدرة الإبداعية: حب المخاطرة، والمثابرة، والاستقلالية، والقيادية؛

والقدرات العقلية العامة بدرجة فوق المتوسط: أي الموهوبية، وتشمل سرعة التعلم والاستيعاب، وحب الاستطلاع الزائد؛

والدافعية: بما في ذلك المبادرة، وتنوع الميول، وعمقها.

ويمكن تمثيل العلاقة بين مجموعات السمات الثلاث على النحو الآتي:

القدرة الإبداعية = الموهوبية + الدافعية.

وأجمعت الدراسات على أن المتفوقين يتسمون بمنظومة من الخصائص في المجالات التالية:

الخصائص العقلية: تعتبر الخصائص والصفات العقلية من أهم الخصائص التي تميز الموهوب عن العاديين. فهو أكثر ذكاءً بما يفوق المتوسط (١٣٠° أو ١٤٠° فأكثر)، كما أنه قادر على فهم السبب والنتيجة وإدراك الارتباطات والعلائق بين الأشياء، ويستطيع تحمل الغموض، والقدرة على الإدراك والفهم والإستيعاب، والتعمق في العلوم التجريبية، ولديه اهتمامات عديدة في موضوعات علمية وغير علمية في آن واحد، ولديه قدرة عالية على التركيز.

الخصائص الانفعالية الاجتماعية: فقد استخدمت وسائل متنوعة لقياس العديد من تلك الصفات لدى الموهوبين، كالاختبارات الإسقاطية والوسائل السوسيومترية والاستفتاء، وأهم ما خرجت به الدراسات أن الموهوبين يتسمون بالاتزان الانفعالي والعاطفي، وعدم العصبية، والميل إلى المرح والدعابة، واللطف في التعامل مع الآخرين، وضبط الذات، وأكثر حساسية اجتماعية من العاديين، وأكثر قدرة على تحمل المسؤولية.^[١: ص ٦٨]

الخصائص الجسمية: فقد لوحظ أن التكوين الجسماني للموهوبين أفضل قليلاً من التكوين الجسماني للعاديين، بحيث أنهم أكثر طولاً ووزناً وحجماً، وهذا ما يعبر عنه بالتكوين

العيني، عدا عن الطاقة العضلية والقدرة على المشي. الخصائص المعرفية: يمكن القول أنها ليست ثابتة، بل تتطور من خلال التفاعل مع المحيط بدرجات متفاوتة. ومن أهم تلك الخصائص إدراك النظم الرمزية، والأفكار المجردة، وحب الإستطلاع، والاستقلالية، وقوة التركيز، وقوة الذاكرة، والولع بالمطالعة.

الخصائص النفسية: الموهوبون أكثر نضجاً من العاديين في استقرارهم النفسي، وأقل تعرضاً للأمراض النفسية، إلا أن (كوفمان) يشير إلى أنهم قد يتعرضوا للأمراض النفسية كغيرهم من الناس.

والواقع أن هناك خلط كثير بين صفتي العبقرية والموهوبية، إذ يطلق علماء النفس صفة العبقري على كل من حصل على درجة ذكاء عالية جداً (أكثر من ١٤٥ درجة). والأنسب علمياً أن يسمى أمثالهم بالموهوبين، ونسبتهم لا تتجاوز (١%) من أفراد أي مجتمع. أما صفة العبقري، فتدل على الموهوب المتميز بالذكاء الإبداعي والإنجاز المبدع الأصيل. وكثيراً ما يقال أن العباقرة أشباه المجانين، وأنهم لا يفهمون سوى ما اختصوا به في المجال العلمي أو الفني. وقد ذهب العلماء مذاهب شتى في محاولاتهم تفسير الإبداع، إلى درجة أن بعض العلماء المتشائمين أمثال نورداو (Nordau) يرون أن شخصية السوبرمان ليست سوى نزوة باثولوجية غير متوازنة، وتعاني من بعض المتاعب العقلية، وتكاد تشبه إلى حد كبير شخصية الإنسان المصاب بالصرع، الذي كان يوصف في وقت من الأوقات بأنه مرض مقدس، وأنه ليس ثمة من هو أكثر أصالة من الشخص المعتموه، كما أنه ليس ما هو أكثر غرابة وخيالاً من الحلم.

وعلى ذلك، فرمياً لا يكون الشخص العبقري إلا كمن يسير وهو نائم، ولكن أحلامه أصابت كبد الحقيقة بطريق الصدفة البحتة. ولعل ذلك قريب من النظرية العربية في الإبداع، مما دعا العرب لاستخدام تسمية المبدع بالعبقري، نسبة إلى وادي عبقر، الذي تسكنه الجن والشياطين حسب اعتقادهم في عصور ما قبل الإسلام. والحقيقة أنه ليس من الضروري أن يكون كل عبقري شاذاً غريب الطباع، إذ أن الغالبية الساحقة من العباقرة أشخاص أسوياء تماماً. ومن الأمثلة على هؤلاء أرسطو، وداروين، وباستور، وآينشتاين، ودانتي، وابن سينا، والفارابي. ووجود بعض العباقرة المشكلين لا يبرر تعميم صفة الجنون والشذوذ على العباقرة. فالرسام الهولندي كوخ انتحر بعد إصابته بالجنون، والكاتب الأمريكي الكبير إدغار ألن بو كان سكيراً، والروائي الروسي ديستوفسكي كان مقامراً، والكاتب النرويجي

إيسن كان متعجباً.

لقد ذكر نيلر (Kneller) أن التفكير الإبداعي يتصف بالجدّة، والاكتشاف، والمخاطرة، والبعد عن كل ما هو تقليدي، والانجذاب نحو كل ما هو غامض ومجهول. ومهما يكن من أمر، فإن ذوي التفكير المبدع يتميزون بخصال متعددة، يذكر منها أنهم مستقلون، وأنهم لا يحبون السلطة، وهم مهذبون في تعاملهم، ولديهم روح الدعابة والفكاهة، ولديهم قدرة عالية على التكيف الاجتماعي، ويكرهون الروتين، وهم مغامرون يميلون لاكتشاف المجهول، ويتصفون بسعة المعرفة وحدة الذاكرة. لذلك فإن على كل امرئ أن يتبنى رسالة خماسية تتضمن تطوير نظرة إيجابية إلى الحياة، وتنمية أمّاط التفكير الإيجابي لديه، والعيش بسلام واستمتاع، وبصورة متوازنة إلى أقصى مدى ممكن، والتأثير الإيجابي في المجتمع الذي يعيش فيه، وتشكيل مثل يحتذى لعائلته وأصدقائه وزملائه ولكل من له علاقة به، وشكر الله على نعمة النجاح. وعليه أن يتخلص من كافة صور التفكير السلبي؛ والوعي التام بأن التعلم المستمر يمنح المرء شباباً متجدداً، وأن الصحة ثروة؛ والإيمان بأن المرء يصير عبداً إن لم يستطع تخصيص ثلثي يومه لذاته. [٣: ص ٣٦].

تلك هي مواصفات المبدع حسب متغير الفرد. أما الإبداع حسب متغير العملية الإبداعية، فيمكن تحديد خمسة مستويات له، وهي الإبداع التعبيري، والإنتاجي، والاختراعي، والتجديدي، والابتثاقي.

وهناك نمطان من الإبداع تتضح ملامحهما حسب متغير المنتج، وهما التجديدي التواصلي، والاختراعي الابتكاري. ويشمل الأول أغلب أمّاط الانتاج الفني، والأدبي التعبيري، والأدائي بصره المتميزة والمألوفة، دون قفزات طفرية تغيّر مساره، أو مسار الحياة برمتها. ويمتاز عن الإبداع الاختراعي الابتكاري بأنه لا يستدعي تحطيم الوضع القائم بالكامل، بل يكفي بتحسينه عن طريق إعادة تنسيق جزئياته القادرة على التناغم مع المستوى نفسه عند المتلقي، فتنحقق درجة أعلى من القبول. وتتم تلك العملية سعياً لإرضاء الآخرين. وفي الوقت الذي يواجه فيه الشخص المبدع الابتكاري رفضاً واضطهاداً بسبب مخالفته لكل ما هو مألوف، وبخاصة في بداية الأمر، فإن المبدع التجديدي التواصلي يجد تقبلاً واستحساناً، لأن ما يقدمه لا يشكل ثورة على كل ما هو متعارف عليه، بل يعد إعادة تنظيم له. أما الإبداع التجديدي، فيمثل الهدف الأعلى لغريزة الجنس، التي يشكل الالتحام الجسدي المتداخل الشكل الأولي لتلك الغريزة، والتناسل والتواصل وظيفتها البدائية، والعشق والغرام

التعبير المعاصر عنها، واضطرابات الشخصية والمرض النفسي أهم آثار الكبت المفرط لها. وأما الإبداع الاختراعي الابتكاري، فيتركز من الناحية السيكلوجية على غريزة العدوان، التي يمثل هذا النمط من الإبداع هدفها الأعلى، بينما يمثل القتل أو الاتهام شكلها البدائي، وحفظ حياة الفرد وظيفتها البدائية، وتأكيد الذات والتعبير المعاصر عنها وظيفتها العليا. وتتمثل آثار الكبت المفرط لها في التعويض التفوقى واضطرابات الشخصية والمرض النفسي. [١٩: ص ٦٦].

نظريات تفسر العبقرية:

لقد عالجت مواضيع العبقرية والإبداع والموهبة والتفوق نظريات عديدة، ويذكر منها ما يأتي. [١: ص ٤٣]:

النظرية المرضية: تقوم هذه النظرية على الربط بين الجنون والعبقرية والتفوق بأشكاله المختلفة، وخاصة التفوق الابتكاري، إلى الحد الذي يذهب ببعض أتباع هذه النظرية إلى المطابقة بينهما. وقد شاع أن بين العبقرية والجنون رباط متين. ومن بقايا هذه النظرية في العصر الحديث من ينادي بأن المرض العقلي أكثر انتشاراً بين العباقر.

النظرية الفسيولوجية: تهتم هذه النظرية بالنخاع أكثر من القشرة الدماغية، إذ أن نشاط النخاع يمكن أن ينبئ بالنشاط العقلي الناتج عن عملية إمداد الذهن بالطاقة للعمل. ويفترض أتباع هذه النظرية أن الأذكاء وأرباب القدرة الفائقة على التحصيل والتفوق لديهم نشاط نخاعي أدرياليني أكثر من العادين. وقد ثبت أن ذوي التحصيل العالي لديهم إفراز أدريالين أكثر من ذوي التحصيل العادي والمنخفض. كما تبين أن الذكور أكثر إفرازاً للأدريالين من الإناث من ذوي التحصيل العالي.

النظرية الوراثة: تعتمد هذه النظرية على الدلائل التي تشير إلى أن التكوين العقلي للفرد يتحدد بالعوامل الوراثة أكثر مما يتحدد بالعوامل البيئية، أو بعبارة أخرى، فإن الجزء الأكبر من التباين في مستويات أداء مجموعات من الأفراد من اختبارات تقيس القدرات العقلية والعبقرية يرجع إلى عوامل وراثية.

النظرية البيئية: تعد هذه النظرية مقابلة للنظرية الوراثة ومناقضة لها. وهي تقوم على أساس أن العبقرية تتأثر بالبيئة أكثر من الوراثة. بمعنى أن العوامل البيئية المواتية يمكنها أن تساعد على التفوق وبلوغ درجة العبقرية. وتعني العوامل البيئية كل ما يحيط بالفرد

من بيئة طبيعية واجتماعية واقتصادية وثقافية.

نظرية التحليل النفسي الفرويدي: ترجع هذه النظرية إلى فرويد الذي فسّر ظاهرة التفوق والعبقرية في ضوء ميكانيزم التسامي، أو الإعلاء، أو التصعيد الذي يعني به فرويد تقبل الأنا للدافع الغريزي، ولكن مع تحويل طاقته من موضوعه الأصلي إلى موضوع بديل ذي قيمة ثقافية واجتماعية. وهذه العملية اللاشعورية هي التي تفسر التفوق، والعبقرية، وعمليات الإبداع عند فرويد.

نظرية علم النفس الفردي: ترجع هذه النظرية إلى الفرد أدلر الذي فسّر ظاهرة العبقرية والتفوق بصفة عامة في ضوء عقدة النقص، التي تستوجب القيام بعملية تعويض، لخلق الابتكار والتفوق. حيث يدفع الضرير إلى النبوغ في الأدب، أو الأصم إلى الموسيقى. ويعتقد أدلر أن الحافز للتفوق من أقوى موجّهات السلوك الاجتماعي، وأن ممارسة هذا الحافز أمر أساسي للنمو الفردي، حيث أن الفرد يسعى للحصول على تقدير الآخرين، وقبولهم من خلال انجازاته.

نظرية الدافعية للإنجاز: ترجع هذه النظرية إلى هنري موراي الذي أرجع مفهوم العبقرية والتفوق إلى الحاجة للإنجاز. وافترض أن الحاجة أو الدافع للإنجاز تندرج تحت حاجة كبرى أعم وأشمل هي الحاجة للتفوق، وبذلك يمكن تفسير ظاهرة التفوق من خلال دافعية الفرد وحاجته للإنجاز وإحراز النجاح.

النظرية الكيفية (النوعية): تفسر هذه النظرية التفوق تفسيراً يعزلها عزلاً تاماً. فالاختلاف بين قدرات الفرد العادي أو أي فيلسوف عادي وبين أرسطو أو برتراندرسل اختلاف في النوع أكثر منه اختلاف في الدرجة. أي أن هؤلاء العباقرة يتميزون بقدرات ومواهب لا تظهر عند الفرد العادي، وهذا ما ينطبق على المتفوقين.

النظرية الكمية (القياسية الإحصائية): تقرر هذه النظرية أن الفارق بين المتفوقين وغير المتفوقين فارق في الكم أساسه تفاوت في درجة وجود السمات المختلفة. أما العبقرية فهي أيضاً بهذا المعنى، كما يظهر في نسب الذكاء، وفي مستويات القدرات العقلية المعرفية التي يشتمل عليها الذكاء والتفوق الدراسي.

النظرية التكاملية: إن تفسير ظاهرة العبقرية في ضوء هذه النظرية تنبع من أن ظاهرة التفوق تخضع لبعض العمليات والأنشطة الفيسيولوجية. فيحتاج المتفوق إلى قدر من الذكاء والدافعية للإنجاز أو التفوق، والتسامي، وبعض القدرات المساعدة على التفوق.

مراحل تطور الشخصية العبقرية:

تتسم الشخصية العبقرية بصفات محددة أهمها الديناميكية، والنشاط، والجرأة، والمثابرة، والدهاء، والقدرة على التوسع في الأفكار. أما من الناحية الأدائية، فيتحقق لدى العبقري قدر عال من الطلاقة، والمرونة، والأصالة، والقدرة على التوسع. ولا يشترط توفر الموهوبية في الشخص العبقري، بل يكفي بتمتعه بدرجة ذكاء من مستوى ذي فما فوق ($109 \leq$ أي) درجة).

يكون ذوو التفكير الإبداعي على الأعم الأغلب من أصحاب نمطي الشخصية العقلاني والمثالي. فيميل ذوو نمط الشخصية العقلاني للتعلم عن طريق التجربة والاكتشاف، كما يفضلون استنباط القواعد العلمية اللازمة لتوضيح الظروف الطبيعية والاجتماعية، ولديهم قدرة على التركيز، ويتوجهون نحو الأعمال التي تتطلب التفكير المنطقي ووضع النظريات واستخدامها، ويعدون اللعب عملاً، كما يعدون العمل نوعاً من اللهو، ويحبون استعمال الألفاظ الرشيقة، والكلام المقتضب، والمفردات متعددة المقاطع، والالتزام بقواعد اللغة، وتتصف عواطفهم بالبرود، ويجدون صعوبة في إظهار مشاعرهم نحو الآخرين، ويتصف تفكيرهم بالتحليل الموضوعي، والنقد البناء، والتوضيح، والتنبؤ.

أما أصحاب نمط الشخصية المثالي، فيتصفون بتفضيلهم الزمن المستقبل على الزمن الماضي والحاضر، ويركزون على ضرورة مراعاة الفروق الفردية، ويتصفون بالنجاح الأكاديمي، ويرفضون العقاب وسخرية الآخرين، ويتصفون بالاستقامة والمثالية، ويستمتعون بعمليات التواصل اللفظي والكتابي، ولديهم القدرة على الكلام بطلاقة والكتابة بيسر، ويهتمون بالفنون التعبيرية، والانفتاح على الآخرين، وتنمية العلاقات معهم، ويحترمون الآخرين ويهتمون بإمكاناتهم، ويتصفون بسعة الأفق والخيال والتأمل، ويميلون إلى التعبير عن أحاسيسهم بصراحة.

قد يبدو بعض حديثي الولادة أكثر إبداعاً من البعض الآخر، فيظهرون نشاطاً وحيوية، ويلاحظون كل شيء، ويستجيبون لكل مؤثر في بيئاتهم، ويعبرون عن حاجاتهم كي يفهموها من حولهم. ثم يبدأ الأطفال بتفحص كل شيء بفضول واضح. والحقيقة أن حب الاستطلاع أكثر عناصر الإبداع أهمية، لأن فحواه تفحص مدى قدرة الأساليب التعبيرية المتضمنة في الأنشطة الإبداعية على سد الحاجات، وتلبية المتطلبات.

ولا يقتصر حب الاستطلاع على كل ما هو جديد وغير مألوف، لأن المجهول يثير في الفرد

شعوراً بالخوف، بل إنه يتضمن الأشياء المألوفة جزئياً، إذ أن الألفة النسبية بالمواد أمر ضروري لدفع عملية الإبداع. وتجري تنمية الفروق الفردية بين الأطفال في مجال الإبداع تدريجياً من خلال أساليب التنشئة التي يتبعها الوالدان في مواجهتهم للقدرات الإبداعية عند أبنائهم.

في السنة الأولى من العمر، تظهر عند الطفل القدرة على التركيب. فتبدأ الأنشطة التجريبية، كمسك الأشياء من حوله، واستخدامها في البناء، ثم التجميع الهادف للأشياء، ثم الاختيار والتشكيل. وفي السنة الثانية، يصبح الطفل غير مقتنع بمجرد عمل أكوام من المكعبات، أو وضع بعضها فوق بعض. بل يتعدى ذلك إلى صياغة أشكال كالبيت والجسر والقطار. وتتحول عملية البناء والتشكيل إلى أعمال إبداعية حين تتصف هذه الأعمال بالخيال والأصالة. ويميل الطفل بشكل طبيعي إلى استخدام خبرات مألوفة وغير مألوفة. فالمرحلة الأولى من العملية الإبداعية تتضمن التقليد المباشر وغير المباشر، مما لا يتنافى والأصالة، إذ أن الطفل يبدأ بالتقليد، ثم يتحول نحو الأصالة الإبداعية.

ومما يجدر ذكره أنه يجب أن يعطى كل طفل فرصة كافية للتعبير عن ذاته بحرية. وبغير ذلك فإن قدراته الإبداعية ستتأثر سلباً. الأب الذي يصر على عمل شيء نيابة عن ابنه، وهو يعلم أنه قادر على عمله بنفسه، يوحى للإبن أنه مقصر وغير فعال. وتكرار ذلك يشوه الصورة التي يشكلها الفرد لذاته. وهذا يفسر ما يلاحظ من أن الفروق في الإبداع بين الأطفال تنمحي تدريجياً بواسطة أساليب التنشئة التي يتبعها الوالدان، وكل من يحيط بالأطفال في مواجهتهم للقدرات الإبداعية.

يحدد غوان (Gowan) مراحل النمو الإبداعي ضمن فترات الكمون وفترات تحديد الهوية وفترة الإبداع. [10: ص 97]:

فترة الكمون (The Latency Period): ويتعرف الطفل فيها على الأشياء من حوله، وهي المراحل الأولى (السنة الأولى من العمر) والرابعة (من سن السادسة إلى سن البلوغ) والسابعة (سن الثانية والعشرين تقريباً).

فترة الهوية (Identity Period): وهي المرحلة الثانية (السنة الثانية من العمر) والخامسة (فترة المراهقة) والثامنة (مرحلة الشباب). ويقوم الطفل والراشد فيها بالتساؤل عن هويته. فترة الإبداع (Creativity Period): وهي المرحلة الثالثة (من سن الثالثة إلى الخامسة تقريباً) والسادسة (مرحلة المراهقة المتأخرة من سن الثامنة عشرة إلى الحادية والعشرين

تقريباً) والتاسعة (من سن الأربعين إلى الستين) [١٤: ص ١٠٢].

لقد وجد غوان (Gowan) وتورانس (Torrance) وكاتينا (Katina) أن نمو قدرات التفكير الإبداعي لا يسير بشكل مضطرب، فثمة فترات واضحة من الكمون والتدني في هذه القدرات تحدث في سن الثامنة والتاسعة والثالثة عشرة والسابعة عشرة، وأن أسوأ تلك الفترات تحدث في سن التاسعة (أي سن الطلبة في الصف الثالث أو الرابع الابتدائي)، حيث يتعرض الطفل لأسوأ الاضطرابات الشخصية ومشكلات السلوك ومصاعب التعلم. وهناك من يقول أن هذا النمو الإبداعي يمر في فترة طفرة في المرحلة الثالثة (أي مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية) والمرحلة السادسة (أي مرحلة المراهقة المتأخرة)، وأنه يصل قمته في الفترة ما بين سن الأربعين والخمسين، ثم يحدث نوع من الانخفاض في معدل الإبداع بعدها. وهناك من يقول أن الشعراء مثلاً يصلون ذروة الإبداع قبل علماء الرياضيات. ويظهر من ذلك أن المرحلة العمرية التي يمر بها طلبة الجامعات تقابل فترة طفرة في النمو الإبداعي.

والحقيقة أن نمو التفكير الإبداعي يشبه في مراحل تطوره نمو الذكاء الذي يخضع في أطوار نموه لسرعة النمو العقلي المعرفي، وللسرعة الكلية للنمو. فالذكاء ينمو بسرعة في الطفولة، وخاصة في سني المهدد. ثم تقل سرعته في فترة المراهقة، وتستقر على مستوى ثابت تقريباً في مرحلة الرشد، ثم يبدأ بالانحدار مع بداية مرحلة الشيخوخة، وبصورة تختلف في سرعتها وفقاً لطبيعة المهنة التي يمارسها الفرد. [١٤: ص ١١٢].

وعلى كل حال، فإن معظم العلماء والفنانين يصلون ذروة الإبداع والعبقرية قبل سن الخمسين، إلا أن ذلك اتجاه عام لا يجوز تعميمه، فهناك من يستمر في عطائه الإبداعي حتى ما بعد ذلك بكثير. ويعني ذلك أن القدرات الإبداعية تنمو بسرعة في الفترة التي تبدأ بدخول الطفل مرحلة التعلم في رياض الأطفال، وتستمر حتى الصف الأول الابتدائي، ثم يحصل كمون أو هبوط ملحوظ في سني مرحلة الدراسة الابتدائية. ويتبع ذلك فترة تحديد الهوية، حيث يحاول الحدث البحث عن هويته في سني الدراسة الإعدادية والثانوية، حين يبدأ الطالب بالتأهب للجلوس لامتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة، وينصب اهتمامه على تحصيل المعلومات والمعارف، ليتمكن من اجتياز الامتحان، والحصول على معدل يؤهله للالتحاق بالجامعات. ولا شك أن نمط امتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة أثراً كبيراً في إيقاف تيار الإبداع. ثم يتبع ذلك فترة طفرة جديدة في القدرات الإبداعية

في المرحلة الجامعية الأولى. ويسبب انتقال الطلبة من مرحلة تعليمية إلى مرحلة أخرى قلقاً وتوتراً نفسياً، يفرض على الأهل والمعلمين مساعدتهم للتكيف مع المحيط الجديد، مما يتيح لهم الإبقاء على شعلة الإبداع ملتهبة. وبقينا أن على مؤسسات التعليم العالي رعاية ذلك الدفق الإبداعي، عن طريق بناء علاقة إبداعية بين المدرس والطالب والبيئة التعليمية في الجامعة. ويقتضي ذلك أن يكون المعلم ذا نفس محبة للتفكير، مستعدة للمغامرة، متمتعة بقدر كاف من الخيال، متقبلة للنقد والمناقشة. وقد أشارت الدراسات

إلى أن المبدعين والمتفوقين يتسمون بمنظومة من الخصائص في المجالات الآتية:

الخصائص العقلية: تعتبر الخصائص والصفات العقلية من أهم الخصائص التي تميز المتفوق عن غيره من العاديين، فهم أكثر ذكاءً يفوق المتوسط (١٣٠ أو ١٤٠ فأكثر)، كما أنهم قادرون على فهم السبب والنتيجة وإدراك الارتباطات والعلائق بين الأشياء، ويستطيعون تحمل الغموض، والقدرة على الإدراك والفهم والإستيعاب، والتعمق في العلوم التجريبية، ولديهم اهتمامات عديدة في موضوعات علمية وغير علمية في آن واحد، ولديهم قدرة عالية على التركيز.

الخصائص الإنفعالية - الاجتماعية: استخدمت وسائل متنوعة لقياس العديد من الصفات الانفعالية الاجتماعية لدى المتفوقين، كالإختبارات الإسقاطية والوسائل السوسيومترية والاستفتاء، وأهم ما خرجت به هذه الدراسات أن المتفوقين يتسمون بالاتزان الانفعالي والعاطفي، وعدم العصبية، والميل إلى المرح والدعابة، واللطف في التعامل مع الآخرين، وضبط الذات، وأكثر حساسية اجتماعية من العاديين، وأكثر قدرة على تحمل المسؤولية. الخصائص الجسمية: لقد لوحظ أن التكوين الجسماني للمتفوقين أفضل قليلاً من العاديين، بحيث أنهم أطول وأضخم وأكثر سمناً. وهذا ما يعبر عنه بالتكوين العيني، فضلاً عن الطاقة العضلية، وهو القدرة على المشي.

الخصائص المعرفية: إن الخصائص المعرفية ليست ثابتة، بل تتطور من خلال التفاعل مع المحيط بدرجات متفاوتة. ومن أهم هذه الخصائص إدراك النظم الرمزية والأفكار المجردة وحب الإستطلاع، والاستقلالية، وقوة التركيز، وقوة الذاكرة، والولع بالمطالعة.

الخصائص النفسية: المتفوقون أكثر نضجاً من العاديين في استقرارهم النفسي، وأقل تعرضاً للأمراض النفسية، إلا أن (كوفمان) يشير إلى أنهم قد يتعرضوا للأمراض النفسية كغيرهم من الناس.

الذكاء التواصلي سمة أساس للعبقرية:

في النصف الثاني من القرن العشرين، كان الإبداع يعزى في غالبته إلى عامل أساسي هو الذكاء العام (IQ=Intelligence Quotient)، كقدرة عقلية عامة تضم سبعة أممات من الذكاء هي الذكاء اللغوي، والأدائي، والموسيقي، والرياضي، والمكاني، والزمني، وفهم الذات والآخر. إن قيمة الذكاء العام معروفة لدى الجميع. وقد ظهرت أهميته بعد اختراع آلات الطباعة، حين أصبح بإمكان الناس مشاطرة الأفكار عن طريق قراءة الكتب. وأدى ذلك إلى إحداث تطورات علمية سريعة، وتطوير نماذج إدارية حديثة، وابتكار منتجات كثيرة نقلت الدنيا إلى العالم المعاصر.

وفي التسعينيات من القرن العشرين، تحول الاهتمام من التركيز على الذكاء العام إلى نوع آخر يدعى الذكاء العاطفي (Quotient EQ = Emotional Intelligence)، والذي اعتبر عاملاً أساسياً في النجاح. وتزايدت أهمية الذكاء العاطفي أو الاجتماعي بصورة مضطردة مع ظهور المدن الكبيرة المأهولة بأعداد كبيرة من السكان، وتشكيل منظمات ينتشر آلاف العاملين فيها على كافة أنحاء العالم. والواقع أن ارتفاع مستوى الذكاء العاطفي شرط أساسي للقيادة الحكيمة، إذ يعد مؤهلاً أساسياً للحصول على وظائف قيادية في مؤسسات القطاعين العام والخاص.

وفي عام ٢٠١٥ م، برز نوع جديد من الذكاء، يتمثل بالقدرة على ربط المعرفة الناتجة عن التواصل مع الآخرين بالطموح ورأس المال البشري، واصطلح على تسميته الذكاء التواصلي (Intelligence CQ = Connectional Quotient). ولدى الحديث عن هذا النمط من الذكاء، يذكر أن الإنسان تواصلي بالطبع. ويشكل حب الاستطلاع والتفاعل مع الآخر جزءاً أساسياً من الدوافع الإنسانية الاجتماعية المكتسبة. كما يعيش الناس في عصر جديد لم تعد فيه الطرق التقليدية للنجاح مقتصرة على العلاقات الاجتماعية والحسب والنسب والدراسة في المدارس والجامعات المتميزة. ولم يسبق أن تمكن بلايين الناس من شتى الأصول والمنابت والأوضاع الاقتصادية وعلى مر العصور من التواصل المستمر لتدارس أفكار ومعلومات ومصادر معرفية متشعبة كما هو متاح لهم حالياً. كانت مظاهر الاتصال والتواصل الحديثة مقتصرة على النخبة سابقاً. ولم تكن إمكانيات الوصول إلى البيانات والمعارف والقوة العقلية المتوفرة من خلال الهاتف الخليوي والتكنولوجيا الاجتماعية والرقمية متوفرة لدى الكثير من الناس. وطبيعي أن مثل ذلك التواصل يعطي قدرة على حل المشكلات،

وتحقيق الأحلام، وابتكار المنتجات الابتكارية، وتحسين مستوى الحياة للأجيال القادمة، وتغيير السياسة المجتمعية، واكتشاف المنتجات العلاجية التي تنقذ حياة الناس، وغير ذلك كثير. فإذا ربط ذلك بالخيال والفكر الجمعي لدى بلايين البشر، يمكن فهم مغزى الذكاء التواصلي الذي يغيّر معالم الحياة. [١٢: ص ١٧١].

يعرف الذكاء التواصلي بأنه القدرة على ربط الناس، على تنوعهم العرقي والاجتماعي والاقتصادي، بالشبكات والمصادر المعرفية في كافة المجالات، وصهر ذلك كله في بوتقة تواصلية واحدة يتم فيها استنباط نتائج ذات معنى وقيمة. فبعد تعميم استخدام الإنترنت في الحياة الاجتماعية، برزت الحاجة لدليل يوضح كيفية تشكيل العلاقات وتفعيلها. فثمة تطبيقات أكثر ضخامة وأوقع أثراً من مجرد الاهتمام بأعداد المتابعين على صفحات التواصل الاجتماعي. فالذكاء التواصلي يدفع الناس جميعاً إلى آفاق أرحب من مجرد التشبيك والترفيه، ويتمثل ذلك في تحسين نوعية حياة الناس، وبناء مجتمعات مستدامة، وتشكيل مستقبل واعد. [١٢: ص ١٥٩].

ولا بد من تفسير الذكاء التواصلي بأنه القدرة على ربط كافة الناس في العالم، بكافة تنوعاتهم العرقية والاجتماعية والاقتصادية، بالشبكات والمصادر المعرفية في كافة المجالات، وصهر ذلك كله ضمن بوتقة تواصل واحدة، يتم فيها استنباط نتائج ذات معنى وقيمة. فبعد ربع قرن من طغيان الإنترنت على الحياة الاجتماعية، ظهرت تطبيقات مهمة عديدة أكثر ضخامة، وأوقع أثراً، من أعداد المتابعين على صفحات تويتر، أو المعجبين على صفحات الفيسبوك. فالذكاء التواصلي يدفع الناس جميعاً إلى آفاق أرحب من مجرد التشبيك والترفيه نحو هدف أسمى، وآفاق تتمثل بتحسين نوعية حياة الناس، وبناء مجتمعات مستدامة، وتشكيل المستقبل.

لقد أصبح الذكاء التواصلي مهارة تشكل إطاراً لإعادة دراسة الماضي، والتوجه بثقة أكثر نحو المستقبل، وتشكيله بالصورة الأمثل. ومن الأمور المفتاحية التي يجب فهمها أن الذكاء التواصلي تكوين مفاهيمي ديمقراطي فطري، ويمكن قياسه وفق استبانة مقننة تدل على نسبة توفره لدى المرء. ولا يعني الذكاء التواصلي مجرد القدرة على التغيير، والنجاح في الأعمال، وتحقيق أحلام خلاقية طموحة، بل يعني فوق ذلك أن استخدام التقنيات الحديثة والذكاء التواصلي تمكنان الناس من الاستجابة للكوارث الطبيعية، والاضطرابات الاجتماعية، وأعمال الإرهاب، وغير ذلك من صور المعاناة الإنسانية بسرعة وكفاءة وفاعلية.

فالذكاء التواصلي أحد أسس العبقرية التي تبدأ بمحادثة، وعلى وجه التحديد بأسئلة من مثل (ماذا لو؟): ماذا لو لاحظت شيئاً معيناً بحد ذاته..؟ وماذا لو تعرفت على أحد يمكن أن يساعدك..؟ وماذا لو عملت مع آخرين وأجريت تجربة، أو بدأت تجربة مخبرية، أو قمتم بعمل مختلف، ربما يفشل مرة، ولكنه يمكن أن ينجح..؟ [٢١: ص ٢٠٢]

أعلن مارك باركر (Mark Parker) المدير التنفيذي لشركة (Nike) عن التزام الشركة بوضع أربعمائة من منتجاتها على موقع السوق الإلكتروني (GX) لأغراض البحث، وذلك لإيمان الشركة بأن أفضل طريقة لتحفيز الابتكارات المستدامة هو الابتكار مفتوح المصدر. وقال أنه يأمل في أن يؤدي ذلك إلى إطلاق العنان لمبتكرات جديدة تساهم في تخطي العقبات الحالية التي تواجه قضايا الاستدامة. إن ما قامت به شركة نايك يعد عملياً نوعاً من الكفر بمبادئ الملكية الفكرية المقدسة في بيئات الأعمال، التي تعتبر الماركات المسجلة الخاصة بها تيجاناً على رؤوسها. والفكرة المناقضة لذلك هي تشجيع الابتكار في صناعات بيئية مستدامة، لم تشأ شركة نايك والشركات الأخرى التنافس في مجالها. ولكي تجعل تقاسم اسم المستخدم أكثر قبولاً، قامت كل واحدة من الشركات المساهمة باسم تجاري في الموقع بتحديد مدى المشاركة المسموح بها. فمثلاً، حين تعرض نايك منتجاً تملك علامته التجارية، فإن أي تحسين ممكن يجري على المنتج يكون من حقها. فهي بذلك تساعد بيئة الأعمال بتوفير فرصة الاطلاع الآمن على منتجاتها، والحصول مجاناً في الوقت ذاته على الفوائد المحتملة للأفكار الإبداعية التي يقدمها مئات العلماء والمهندسين والمخترعين، مما يزيد استخدام منتجاتها في العالم. [١٢: ص ٢٠٧].

من الأمثلة على أثر الموقع الإلكتروني الموسوم (GreenXchange)، أن شركة قطع غيار الدراجات الصالحة ل صعود الجبال (Mountain Equipment Co-op) أجازت استخدام أحد منتجات شركة نايك المطاطية الصديقة للبيئة في تجديد الإطار الداخلي للعجل، فقدمت بذلك منتجاً أفضل تم تسويقه بسهولة، وبسعر أرخص مما لو كانت الشركة قد أنتجته بنفسها. ومثال آخر يوضح كيفية استفادة شركة نايك من جهود الاستدامة، أن الشركة طورت أداة تصميم ملابس وأغلفة صديقة للبيئة، ضمن برنامج إلكتروني يعتمد فهرس تصميم معتمد من نايك. وتيسر تلك الأداة لكافة المصممين، أينما كانوا، إمكانية الحصول على تقارير سريعة تحدد أثر التركيبات التي يقترحونها على البيئة. وكان لإصدار تلك الأداة أثر في تسريع التعاون بين الشركات، كطريق سريع للابتكار المستدام، وفي تقليص استخدام

المصادر الطبيعية. وقد كلف ذلك شركة نايك ستة ملايين دولاراً، فضلاً عن جهود موظفيها على مدى سبع سنوات. [١٣: ص ١٩٢].

قام مصممو شركة نايك في جنوب إفريقيا باستخدام أداة التصميم تلك لإنتاج قمصان للاعبين كرة القدم، مصنوعة من البوليسترين الخالص، والمعاد تدويره. وكانت المادة النظيفة بيئياً، والمستعملة في صناعة تلك القمصان، مأخوذة من ثلاثة عشر مليون قارورة بلاستيكية، كان من المقرر طمرها في الأرض. تلك كانت البداية، إذ قامت شركة نايك بمضاعفة استخدامها للبوليسترين المعاد تدويره في عام واحد، حيث تم إنقاذ (٨٢) مليون قارورة بلاستيكية من الطمر في الأرض. تخيل ماذا يمكن أن يحدث لو قامت كل شركات الملابس العالمية باستخدام البوليسترين المعاد تدويره في الملابس التي تصنعها. وفق ذلك السيناريو، سيزداد الطلب على القوارير البلاستيكية. وقد يسرت شركة نايك تخيل النتيجة عن طريق تعميم استخدام البرنامج الموسوم (Green Xchange). وهو برنامج يتحدى الشركات الأخرى على المشاركة بالتواصل في حوار شجاع، تشارك فيه بما لديها من مبتكرات قيمة، فتكافأ لتعاونها، وتحقق التأثير المجتمعي الإيجابي المرغوب. [١٣: ص ١٨٤].

والحقيقة أن القدرات المتضمنة في الذكاء التواصلي هي الآتية [١٣: ص ٤٢]:

حب الاستطلاع (Curiosity)، أي مدى القدرة على صياغة الأسئلة وطرحها لتشكيل وجهات نظر جديدة؛

والقدرة على الربط (Combination)، أي مدى القدرة على الربط بين الأفكار والمصادر المعرفية والمنتجات لتشكيل مفاهيم جديدة وطرق تفكير مبتكرة ونتائج إبداعية؛
والقدرة على التوافق الاجتماعي (Community)، أي مدى القدرة على إحداث حالة من التآلف والتوافق بين الناس لتشكيل أفكار جديدة، وبناء جو من التفاهم والتراحم بينهم؛
والجرأة والشجاعة (Courage)، أي مدى الجاذبية واستقطاب الأضواء في مختلف أنواع الحوار، على الرغم من حالات الخوف وعدم اليقين، والإبقاء على جذوة التواصل وإثرائه؛
والتفاعلية (Combustion)، أي مدى القدرة على تفعيل الشبكات الاجتماعية لإحداث التغيير.

القدرة على التجديد؛

والقدرة على التحليل والتركيب؛

والقدرة على الإغلاق (Closure)، أي القدرة على تأجيل إكمال مهمة ما إلى وقت يسمح

بإنتاج الأفكار الأصيلة.

فليبادر كل امرئ باتباع آلية الذكاء التواصلي للتغيير نحو التفكير الإيجابي، وصياغة المستقبل المشرق الذي ينشد. وليكن على يقين من أنه لا يمكن لأحد تغيير العالم حوالبه إلا إذا غيّر من نفسه ونظرته إلى الحياة.

الخلاصة:

لقد حدد الفصل الأول من الكتاب الإطار المفاهيمي للشخصية العبقرية بصورة كافية وافية، وهو متكئ في محتواه على كتابي الموسوم تجليات الإبداع . فرسم معالم تلك الشخصية بصورة مستفيضة، وبين أنواعها، وحدد مبادئ تحفيزها، وسيكولوجية القدرات الإبداعية عند الإنسان، ومراحل تطورها، وما يميزها عن الموهوبية. وإذا كان الفصل في مجمله متركز حول مفاهيم الشخصية والعبقرية والموهوبية بشكل عام، فإن الفصول السبعة اللاحقة تتناول عبقرية المكان والزمان والإنسان بالنسبة لمدينة القدس عاصمة فلسطين، وبيان علاقتها بالثقافة والحرية والأدب والفن، على وجه التحديد. ويرسم الفصل الثامن ملامح ست معادلات للتحرر والتحرير، كخطة استراتيجية لإنقاذ القدس من حمأة ما تعانيه من احتلال استعماري استيطاني بغيض.

الجدول رقم (١)

مقياس التقييم الذاتي لمستوى التفكير الإبداعي [١٠٤ ص *]

الإستجابة			بند التقييم	
لا أعرف	لا	نعم	أعتبر نفسي مرتباً	١
لا أعرف	لا	نعم	أحب أن أعرف ماذا يجري في الأماكن الأخرى	٢
لا أعرف	لا	نعم	أحب أن أقوم برحلات إلى أماكن جديدة مع الآخرين وليس لوحدي	٣
لا أعرف	لا	نعم	أحب أن أكون مبدعاً في مجال معين	٤
لا أعرف	لا	نعم	أميل للاحتفاظ بكل ما أملك لنفسي ولا أشارك به أحداً	٥
لا أعرف	لا	نعم	أشعر بالاستياء من نفسي إذا لم يكن العمل الذي أقوم به على أكمل وجه	٦
لا أعرف	لا	نعم	أحب أن أعرف طريقة عمل كل شيء	٧
لا أعرف	لا	نعم	أعتبر نفسي غير محبوب في الأوساط التي أتعامل معها	٨
لا أعرف	لا	نعم	أصرف كالأطفال أحياناً	٩
لا أعرف	لا	نعم	لا تتنبئني أية معوقات عن القيام بما أرغب به من أعمال	١٠
لا أعرف	لا	نعم	أفضل العمل مع الآخرين، ولا أرغب في العمل منفرداً	١١
لا أعرف	لا	نعم	أعرف متى يمكنني عمل شيء ما بطريقة جيدة	١٢
لا أعرف	لا	نعم	أميل إلى تغيير وجهة نظري إذا عارضها الآخرون رغم إيماني بصحتها	١٣
لا أعرف	لا	نعم	أثق أنني سأكون مرموقاً بعد إنهاء دراستي	١٤
لا أعرف	لا	نعم	أشعر بالانزعاج كثيراً حين ارتكب أي خطأ	١٥
لا أعرف	لا	نعم	أحب النظر إلى الأشياء الجميلة	١٦
لا أعرف	لا	نعم	يعتريني شعور بالملل في معظم الأحيان	١٧
لا أعرف	لا	نعم	أحب أن أعرف ماذا يمكن أن يحدث إذا قمت بعمل شيء ما	١٨
لا أعرف	لا	نعم	أفضل مزاولة الألعاب التي أعرفها على ابتكار ألعاب جديدة	١٩
لا أعرف	لا	نعم	أميل إلى عدم ارتياد المخاطر حينما أشارك في اللعب	٢٠

* تحتسب فيه علامة لمن يجيب (نعم) على بنود التقييم التي تحمل الأرقام (١٨، ١٦، ١٤، ١٢، ١٠، ٩، ٨، ٧، ٤، ٢، ١). وعلامة أخرى لمن يجيب (لا) على البنود (٢٠، ١٩، ١٧، ١٥، ١٣، ١١، ١٠، ٩، ٨، ٧، ٤، ٢، ١). ويطلب إلى الشخص المفحوص وضع إشارة (X) مقابل كل صفة تنطبق عليه.

في القدس

الشاعر الفلسطيني محمود درويش

في القدس، أعني داخل السور القديم،
 أسير من زمن إلى زمن بلا ذكرى
 تصوّبي. فإن الأنبياء هناك يقتسمون
 تاريخ المقدّس... يصعدون إلى السماء
 ويرجعون أقلّ إحباطاً وحرناً، فالمحبّة
 والسلام مُقدّسان وقادمان إلى المدينة.
 كنت أمشي فوق مُنحدرٍ وأهجس: كيف
 يختلف الرّواية على كلام الضوء في حَجَرٍ؟
 أمّن حَجَرٍ شحيح الضوء تندلّع الحروب؟
 أسير في نومي. أحملق في منامي. لا
 أرى أحداً ورائي. لا أرى أحداً أمامي.
 كلُّ هذا الضوء لي. أمشي. أخفُّ. أطيّر
 ثم أصير غيري في التّجليّ. تثبّت
 الكلمات كالأعشاب من فم أشعيا
 النّبويّ: (إن لم تُؤمنوا لن تأمنوا).
 أمشي كأني واحدٌ غيري. وجرحي ورذّة
 بيضاء إنجيليّة. ويداي مثل حمامتين
 على الصليب تُحلّقان وتحملان الأرض.
 لا أمشي، أطيّر، أصير غيري في
 التّجليّ. لا مكان و لا زمان. فمن أنا؟
 أنا لا أنا في حضرة المعراج. لكنني
 أفكر: وَحَدّه، كان النّبيّ محمّدٌ
 يتكلّم العربيّة الفُصحى. (وماذا بعد؟)
 ماذا بعد؟ صاحت فجأةً جديّةً:
 هو أنت ثانية؟ ألم أقتلك؟
 قلت: قتلّتي... ونسيّت، مثلك، أن أموت.

الفصل الثاني

عبقرية المكان

- روح المكان: إطار مفاهيمي
- طبيعة المكان والإحساس به
- روح القدس
- بيت المقدس وأكنافه
- القدس وعبقرية المكان
- شواهد على أماكن ذات شخصية عبقرية في القدس
- حارات القدس القديمة ومعالم رئيسة أخرى
- الشخصية العبقرية والأسطورة
- القدس أيقونة عبقرية المكان
- مقياس درجة الإبداعية في شخصية المكان
- في القدس: الشاعر الفلسطيني تميم البرغوثي



الفنان التشكيلي الفلسطيني سمير سلامة

الفصل الثاني عبقرية المكان

روح المكان: إطار مفاهيمي

روح المكان (Spirit of the Place) تعبير عام يدل على وصف للبيئة الخارجية الخاصة بالموقع الجغرافي الطبيعي المحدد، في فترة زمنية محددة. فيتم وصف تضاريسه، وطبيعة أرضه، ومناظره، وأجوائه. [١٢: ص ٣٧].

ولدى الحديث عن روح مدينة القدس مثلاً، يتم تناول ما بها من أسوار وبوابات وجبال ووديان وأسواق وشوارع ومساجد وكنائس، وخاصة المسجد الأقصى وقبة الصخرة وكنيسة القيامة. ولدى الحديث عن القاهرة مثلاً، تقفز إلى الذاكرة صور الأهرام. ولدى مشاهدة محطات التلفزة، تجد أن صورة موقع محدد بذاته يستخدم رمزاً للدلالة على المكان، فيكون بمثابة الروح بالنسبة إليه. فترمز صورة المسجد الأقصى أو قبة الصخرة المشرفة إلى القدس وفلسطين بشكل عام. كما يشير تعبير روح المكان إلى الرمز الراعي له. فخص الله تعالى مدينة القدس بأن فيها ثالث الحرمين الشريفين. وخص مدينة الخليل بأن الناس فيها يعيشون حتى يومنا هذا في كنف نبي الله إبراهيم عليه السلام. فمن إيراد الوقف الإبراهيمي، لا يوجد إنسان جائع فيها، حيث يتوفر الطعام لكل محتاج. وفي كافة القرى الفلسطينية، تجد الناس يطلقون على الأماكن أسماء رعاة لها، كجبل المكبر وتلة الشيخ بدر في القدس، وجبل الشيخ عيسى وجبل أبو العز في بلدي عنتبا، وغير ذلك كثير.

أما الإحساس بالمكان (Sense of the Place) والانطباع النفسي عنه، فهو تعبير يشير إلى الإحساس الفردي الداخلي بالمكان ضمن البيئة الاجتماعية السائدة، مما يضيف على المكان معنى فردياً يتمسك المرء به. فالقدس بالنسبة لبعض الناس تعني الكثير، وربما بصورة تفوق مشاعر الكثيرين من سكانها. ورب جولة يقوم المرء بها في باب العامود في القدس، وعبق رائحة التوابل في أسواقها، أو طعم الكعك في القدس، أو الكنافة في نابلس، تعطيه نشوة وانتعاشاً أكثر من أي مكان في أي بلد آخر في العالم. [١٢: ص ٤٤].

كان أحدهم دائم السؤال عن مزبلة محددة في القرية التي ولد فيها، إلى درجة جعلت الناس يمجون سؤاله. وقد تطورت القرية، وصار فيها منشآت وعمارات شاهقة، وقصور

فخمة، وشوارع واسعة منظمة حلت مكان الأزقة الضيقة. ولدى شرح ذلك له، قال أن الروائح المنبثقة من تلك المزبلة التي يسأل عنها ما زالت تعشش في أنفه، وتستحوذ على حاسة الشم عنده منذ صغره، وأنه يحن إليها، فهي بالنسبة إليه أفضل من أي مكان آخر في العالم.

وأما عبقرية المكان (Genius Loci)، فتعبير فني شمولي يستخدم في مجال هندسة العمارة والتصميم، ويقصد به روح المكان مع القيمة المضاعفة للإحساس به معاً. ويضم ذلك المناظر العامة والأجواء الخارجية للبيئة الطبيعية والاجتماعية المحددة مع الإحساس الفردي أو الموقع الذي يتركه كل ذلك في النفس. فعبقرية أية مدينة تكوين مفاهيمي يتضمن ما يطلق عليه تعبير روح المدينة (Spirit of the Place) مع الإحساس الذي تتركه في النفس (Sense of the Place). [ص: ٢٢٢، ٥٥].

عبقرية المكان = روح المكان + الإحساس بالمكان أو الانطباع الذي يتركه في النفس وتكمن عبقرية مدينة القدس في اختلافها وتفردتها، وفي ما فيها من جبال، وأسوار، وشوارع، وأزقة، ومناظر طبيعية، وأبنية، ومساجد، وكنائس، وزوايا، ومقاهي، ومطاعم. كما تكمن في سكانها من الجنسين، بما في ذلك العلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي تحكم تصرفاتهم. فعبقرية المكان مزيج من روح المكان ومستوى الإحساس به. [ص: ٩١، ١٢].

وليس أدل على روح القدس من سور المدينة وأبوابه، وسور الحرم القدسي وأبوابه، وكنيسة القيامة، ومحلات التحف والمساح والأيقونات الدينية والشموع التي تباع للحجاج والسياح، ومنظر النساء القرويات على درجات باب العمود يعرضن ما لديهن من خضار وفواكه ومنتجات ألبان لتسويقها، وشراء الحلوى لأطفالهن بما يجمعن من نقود. فروح المكان ثابت كأماكن وظواهر يصعب تغييرها من دون تدخل.

أما الإحساس بالمكان، فمتغير وفق طبيعة الفرد وحالته النفسية. فقد يشد مبنى المسجد الأقصى أحداً للقدس بدوافع دينية ثقافية، بينما يجذب آخر للمدينة بفعل طعم كعك القدس، وارتباطه به في مرحلة الطفولة. وبالإجمال، فإن المكان العبقرية، الذي تجمع معالمه حصيلة ثراء روح المكان والإحساس به، أو الأثر الذي يتركه المكان في النفس، يتسم بدزينة من المواصفات التي يمكن تلخيصها على النحو الآتي [ص: ١٧، ١٠١]:

الاعتمادية: يحفز المكان السكان على إبراز ما يتعلمونه بأنفسهم.
الربط: يعطي المكان سكانه فرصاً لتبادل الأفكار ووجهات النظر.

التحفيز: يركز المكان على اكتساب سكانه المهارات المعرفية الأساسية.
إصدار الأحكام: يشجع المكان الأفراد على دراسة الأفكار بتعمق أكثر، قبل اتخاذ موقف بشأنها.

المرونة: تحاول مؤسسات المكان سبر أفكار الأفراد لتشجيع استراتيجيات التفكير لديهم.
التقييم: مؤسسات المكان العبقرية تؤكد ضرورة مراجعة الأعمال قبل عرضها للتقييم، ومتابعة مقترحات الآخرين والاهتمام بدراساتها.

إعطاء الفرص: يحفز المكان الأفراد على تجربة الخبرات في مواقف متنوعة.
التعامل مع حالات الإحباط: تؤكد مؤسسات المكان على أهمية تقديم المساعدة المعنوية لمن يعاني من الإحباط، وتدعو لإتاحة فرص العمل الجماعي بصورة منتظمة.
الجانب المعرفي الإداري: تؤكد مؤسسات المكان على أهمية المعرفة الواسعة والمعمقة في المجالات التخصصية.

الجانب الأدائي النفسحركي: تؤكد مؤسسات المكان على أهمية إتقان مهارات التواصل اللفظي والكتابي.

الجانب الانفعالي الاجتماعي: يركز المكان على القدرة على العمل التشاركي، والعمل بروح الفريق، وفهم شامل للقضايا الاجتماعية والأخلاقية في مجال العمل.
السلوك الإبداعي: يؤكد المكان على أهمية عناصر الانفتاح على الخبرات، والطلاقة، والمرونة، والأصالة، والقدرة على التوسع.

وقد أعلى ألكسندر بوب (Alexander Pope) من شأن عبقرية المكان كقاعدة أساسية في تصميم الحدائق والأمكنة، وذلك في رسالته لدوق برلنجتون ريتشارد بويل (Richard Boyle)، حيث قال [١٢: ٤٨]:

حكّم عبقرية المكان في كافة الأمور..
إنها تجعل الماء يتدفق إلى الأعلى أو الأسفل،
وتجعل التلة الطموحة تعانق السماء،
وتجرف الوادي في دوائر متتالية،
فتتردد أصداءه في الفيافي والأماكن الفسيحة،
إنها تجمع الأشجار لتشكّل الغابات، وتميز الظلال عن غيرها،
فتقطع الخطوط أو تتماشى معها،

وترسم وأنت تزرع، وتصمم وأنت تعمل.

Consult the genius of the place in all;
That tells the waters or to rise, or fall;
Or helps th' ambitious hill the heav'ns to scale,
Or scoops in circling theatres the vale;
Calls in the country, catches opening glades,
Joins willing woods, and varies shades from shades,
Now breaks, or now directs, th' intending lines;
Paints as you plant, and, as you work, designs.

يشكل كل ما تمّ تقديمه من تفسير مفاهيمي لروح المكان، والإحساس به، وعبقريته، قاعدة أساسية للتمعن بعناصر العبقرية التي تجمعت في القدس على مر العصور، لتشكل روحها، وعناصر الإحساس بها. فعبقرية القدس تكمن في أنها كانت حاضنة تاريخ الشعوب، وهي بوتقة تتجمع فيها الثقافات المتعاقبة عليها، والآمال والآلام المتراكمة فيها، لتصاغ في كل واحد يعرف بتاريخ ذلك المكان. لكن تحريف المكان، وتعديل النقوش المحفورة على جدرانه، وتشويه صورته بدعوى التحديث، وإعادة التسمية، والاستيطان الإحلالي العنصري، كما يفعل الغاصبون الصهاينة في القدس وباقي الأراضي الفلسطينية المحتلة، لا يصنع لليهود تاريخاً. وتلك مشكلة أساس تعاني منها دولة الاحتلال المغتصبة لأرض فلسطين. فقد قامت قبل سنوات بأعمال حفر ضخمة في منطقة باب العامود في القدس، مروراً بباب خان الزيت وشارع الوادي وصولاً إلى حارة اليهود. واكتشفت على عمق أمتار في منطقة باب العامود مكتبه مليئة بكتب قديمة، فأخفتها، ربما لأن ما فيها يدحض ما يلفقونه من مزاعم تاريخية حول المكان. كما اكتشفت بالقرب من نفس الموقع آثار كنيسة وأرضية فسيفاء، فردمتها للتقليل من شأن الآخر المهم في تاريخ المكان.

وتتأبر دولة الاحتلال على القيام بأعمال ترميم أو تحوير متلاحقة، بصورة تشير إلى التغيير التدريجي الدائم لتشكيل مؤشرات تاريخية تثبت حقهم في ما لا يملكون، ومحاولة خلق تاريخ ملفق سرعان ما يتبين زيفه. فقالوا عن حائط البراق في الجانب الغربي للمسجد الأقصى أنه حائط المبكى. ويعترفون أن الأنفاق تحته من آثار الأمويين والأيوبيين والمماليك. ومن الأماكن العبقرية الأخرى من وجهة نظرهم قلعة القدس المسماة قلعة داود، وهو

في الحقيقة غير داود بن سليمان، وكنيس في حارة اليهود مبني في القرن الثامن عشر [٢٤].

طبيعة المكان والإحساس به:

يعود تاريخ القدس كمدينة إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد. شيدتها إحدى القبائل الكنعانية العمورية التي نزحت من شبه الجزيرة العربية. فأول من بنى المدينة وسكنها هو الملك اليبوسي سالم، الذي كان يُعرّف باسم ملك السلام، بسبب تقواه وورعه وعدم إراقتة للدماء. وسماها ييوس، وبنى حصن المدينة بهدف الدفاع عنها في مواجهة الأعداء. وكان للمدينة في تلك الفترة أهمية تجارية كبيرة، لوقوعها على اثنين من الطرق التجارية المهمة، أحدهما يربط بين البحر والصحراء. وبقي اسمها ييوس حتى الفتح الإسلامي عام ١٥هـ. أما أهمية المدينة من الناحية الحربية، فتكمن في موقعها الاستراتيجي بين التلال المرتفعة، حيث كانت ميداناً للصراع بين اليبوسيين والعبانيين الذين حاولوا غزوها أكثر من مرة، مما دفع حاكمها اليبوسي إلى طلب العون من حاكم مصر تحتتمس الأول لمساعدته في ردعهم.

أما اسم القدس، فقد ورد في بعض النقوش التي تعود إلى عهد الإسكندر الأكبر. وسماها اليونان هيروسوليمًا، كما سموها إيليا كابيتولينا. وعرفت باسم إيليا أو بيت إيل أي بيت الرب في أوائل الفتح الإسلامي. ومن أسمائها القرية، والساهرة، وبيت المقدس، والبيت المقدس، والأرض المقدسة، ومدينة الله. كما سميت أورسالم أو أورشليم، وهو اسم أطلقه عليها الكنعانيون الذين سكنوا مدينة القدس قبل العبرانيين. ويقال إن هذا الاسم بابلي الأصل، ومشتق من اللغة الآرامية القديمة، ثم تحوّر من الكنعانية إلى بيروساليم باليونانية، وإلى أورشليم بالعبرية.

وقد أطلق الرومان عليها اسم سوليموس، بعد أن احتلوها. وفي عهد الرومان صارت المدينة موطناً للصراعات والاضطرابات. وأدى ذلك إلى تخريب المدينة، وبناء مدينة جديدة تحمل اسم إيليا كابيتولينا. ومنع هادريان اليهود من دخول مدينة القدس، أو كابيتولينا، بسبب إثارته للشغب فيها، وبقيت المدينة تُعرف بهذا الاسم حتى جاء الفتح الإسلامي، وعَرَّب المسلمون اسمها ليصبح إيلياء [٨: ص ١١٣]. وكان أول ظهور لاسم القدس في زمن الخليفة العباسي المأمون، حيث صك أول عملة نقدية كتب عليها اسم القدس سنة ٢١٧ هجرية.

روح القدس:

إن مجموعة المواقع التاريخية والدينية الفريدة (الإسلامية والمسيحية) تشكل عبقرية القدس بامتياز. وأن المعرفة الشمولية بالواقع الثقافي والسكاني والاجتماعي المعقد في مدينة القدس في بداية القرن الحادي والعشرين، يساهم في صياغة أطر تفكير إبداعية تتناول العلاقة بين الأصول الثقافية للمدينة وعبقرية المكان فيها. وفي هذا الصدد، لا بد من الإشارة إلى ما ورد في العهد القديم من تحديد لهوية القدس: " هكذا قال الرب لأورشليم: مخرجك ومولدك أرض كنعان، أبوك أموري وأمك حثية. "

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا كل هذا الاهتمام بالقدس وفلسطين..؟

يقول البعض أن الأوروبيين أرادوا التخلص من اليهود، فوجهوهم إلى أماكن بعيدة عنهم بدعوى الدين والأرض التي تدر لبناً وعسلاً. ويقول المؤرخ البريطاني توينبي (Toynbe) أن بلاد الشام مركز الحضارة الانسانية، والقدس مركز بلاد الشام، وذلك هو سر صراع الحضارات الدائر حول المدينة، وشبه اليهود بالنازيين.^[٦١ ص ٤٢]

إن مدينة القدس موزعة سياسياً بين قطبين: الأول عربي مسلم ومسيحي، يتمسك بالأرض وطناً منذ غابر الزمان، والآخر صهيوني، يمثل الحاخام الاسرائيلي جوناثان بلاس، الذي قال في معرض التعبير عن التمسك بالقدس بعد احتلالها عام ١٩٦٧م: إن السلام يعني الكثير.. لكن القدس شيء أثن من السلام، بمعنى الدعوة إلى التضحية بالسلام في سبيل احتلال القدس.

إنها واحدة من أقدم المدن في التاريخ، وفيها العديد من المساجد والكنائس، مما يشير إلى قدسيتها بالنسبة للديانات السماوية. وفي حين تبوّأت مدينة كيوتو اليابانية مثلاً المركز الأول كأفضل مدن العالم من ناحية المعالم السياحية لعام ٢٠١٨م، وللسنة الثانية على التوالي، وتبوّأت ساوث كارولينا المركز الثاني، تلتها مدينة سيم ريب (Reap Siem) في كمبوديا، فإن القدس كانت المدينة العربية الوحيدة ضمن قائمة أفضل عشر مدن سياحية.^[٢٤]

تعتبر القدس من بين أهم المعالم التاريخية المقدسة. وخلال تاريخها الطويل، تعرضت للتدمير والمحاصرة والاحتلال، لكنها بقيت عبر التاريخ قبلة العرب والمسلمين والمسيحيين، وعاصمة فلسطين.

من أهم معالم مدينة القدس القديمة المسجد الأقصى الذي يقع في ناحيتها الشرقية، وكذلك مسجد عمر بن الخطاب، ومسجد القلعة. وتحيط بحاراتها أسواق محلية صغيرة يعود

تاريخ بعضها إلى عهد الأمويين. وتعود غالبية المساجد والمآذن فيها إلى العصر المملوكي، كالمئذنة الفخرية، ومئذنة باب الغواصة، ومئذنة باب الأسباط. ومن المفارقات أن من المساجد التي بنيت في العهد العثماني مسجد النبي داود الذي أنشأه السلطان سليمان القانوني، لكن الصهانية الغاصبين حوّلوه إلى كنيس، وأزالوا منه الكتابات القرآنية، واستبدلوها بكتابة عبرية، بدعوى أن من بناه هو نبي الله داود.

ومن معالم القدس كنيسة القيامة الواقعة على تلة الجلجلة، حيث يقال في الثقافة المسيحية أنه تم صلب يسوع المسيح هناك، وفيها المكان الذي قيل وفق الديانة المسيحية أنه دفن فيه، لذلك يحجّ المسيحيون من كافة أنحاء العالم إلى تلك الكنيسة.

وفي القدس أيضاً، أعني داخلَ السور القديم، ضريح السيدة مريم العذراء، وطريق الآلام التي سار عليها المسيح. وهناك حائط البراق المعروف أيضاً بحائط المبكى، ويمثّل أحد أقدس الأماكن الدينية بالنسبة لليهود والمسلمين، ويذهب إليه اليهود منذ القرن الرابع الميلادي لتلاوة صلواتهم. وفيها أيضاً عين سلوان، التي تعتبر مياهما، في الثقافتين المسيحية واليهودية، مثل مياه زمزم عند المسلمين. وفيها مغارة سلوان، التي يقال أن الطريق إلى جهنم يكمن داخلها. ولعل فوقها واحدة من الفتحات في الفضاء أو الثقوب السوداء التي لا ينفذ إنس ولا جن إلى السماوات إلا من خلالها. ولعل معجزة معراج سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماوات العلى كان من خلالها، فكان المعراج في حد ذاته واحدة من آيات الله الكبرى.^[٣٦]

لقد ورد في كتابي الموسوم " أبجدية الصوت وصوت الأبجدية " أن مدلولات الحروف ومعانيها جاءت نتيجة أبحاث لغوية معمقة أجراها عدد من الباحثين الغربيين والأخصائيين في علم الأصوات، أمثال جيمس دانجلو (James D'Angelo) ويهودا تاجار (Yehuda Taagar)، الذين قضوا فترات طويلة في دراسة معاني الحروف وأصواتها. وتشير الدراسات إلى أن معاني أصوات الحروف التي تشكل كلمة قدس على النحو الآتي:^[٣٧ ص:٢٥]

- صوت القاف له مفعول التطهير والتنبيه والتخلص من حالة الغفلة. وتجد الصوت متضمناً في كلمات تدل على التدين والحب.

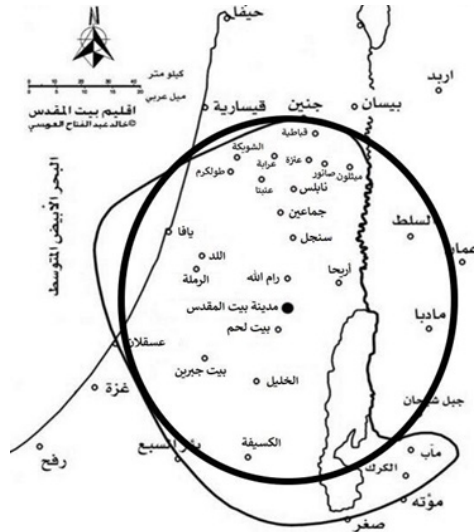
- وصوت الدال يعني الأرض والقاعدة، والحدود، والصلابة.

- وصوت السين يمثل الطاقة الروحية وطاقة الحياة ذاتها. وهو ينشط القدرة على الحدس الذي يعد أساس العملية الإبداعية، ويشكل حرارة الجسد مثلما تفعل الشمس. يرتبط صوت السين بالمستوى العقلي وبالأحاسيس الإنسانية.

فالمدينة في معنى الحروف المكونة لاسمها تدل على الطهارة، والطاقة الروحية، والأحاسيس الإنسانية. [٢: ص ٣٥].

بيت المقدس وأكنافه:

يشير تعبير بيت المقدس إلى منطقة تشمل أغلب فلسطين وأجزاء من الاردن وفق الحدود الحالية. وقد استخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصطلح بيت المقدس للدلالة على هذا الاقليم والمسجد الاقصى فيه. وهو إقليم له خلفية تاريخية خصبة، وأهمية دينية، وارتباط ثقافي، واهتمام دولي. وقد ورد ذكر بيت المقدس في الحديث الشريف بالاشارة إلى المسجد، والمدينة، والاقليم. ويمتد إقليم بيت المقدس إلى جنين كأقصى حدّ شمالاً، وبئر السبع إلى الجنوب الغربي، ومؤتة والكرك إلى الجنوب الشرقي، بحيث تبلغ مساحة الإقليم في حدّه الأقصى ٨٥,٤ كيلومتراً مربعاً. كما يشمل مساحة في مياه البحر الأبيض المتوسط تمتدّ غرب مدينة يافا بمساحة تغطي حدود المياه الإقليمية لفلسطين. ومن المدن الداخليّة للإقليم نابلس، وأريحا، وطولكرم، وبيت لحم، وعسقلان، والرّملة، واللّد، والخليل، وغيرها. حدود إقليم بيت المقدس ليست حدوداً طبيعية أو سياسية أو إدارية، إنّما هي حدود ثابتة مقدّسة غير قابلة للتغيير. يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: الحرم محرّم بمقداره من السّموات والأرض، وبيت المقدس مقدّس بمقداره من السّموات و الأرض.



الشكل رقم (١): خارطة تبين حدود أكناف بيت المقدس (بتصرف عن موسوعة بيت المقدس الإلكترونية، وتظهر حدودها، والدائرة بالخط الغامق تمثل الحدود من وجهة نظر المؤلف) [٢٦]

ولعل فلسفة رخصة الجمع في الصلاة والإفطار في رمضان مبنية على مبدأ السفر أكثر من ثمانين كيلومتراً، أي الخروج من الإقليم الذي يعيش المرء فيه. ولعل التحديد الأكثر دقة، وفق اجتهاد خاص من المؤلف، هو أن يكون الإقليم ضمن دائرة نصف قطرها حوالي ثمانين كيلومتراً، وهي المسافة إلى حدود الفضاء أيضاً. وبذا لا يكون نهر الأردن حداً طبيعياً للإقليم مثلاً، كما هو مبين في خارطة أكناف بيت المقدس.

القدس وعبقرية المكان

من الناحية الطبوغرافية، تقع مدينة القدس على هضبة غير مستوية، ومتوسط ارتفاعها فوق سطح البحر المتوسط من اتجاه الغرب سبعمائة وخمسون متراً، وترتفع تجاه الشرق حوالي ألف ومائة وأربعون متراً من سطح البحر الميت. ويبعد مركزها حوالي خمسين كيلومتراً عن البحر الأبيض المتوسط غرباً، وحوالي ثمانية وعشرين كيلومتراً عن البحر الميت شرقاً، وثلاثين كيلومتراً عن كل من مدينة الخليل ومدينة نابلس.

تقع المدينة على خط عرض (١٣٣١) وعلى خط طول (١٣٣٥) وتحيط بها أودية عميقة أهمها وادي قدرون ووادي سلوان. ومن أبرز جبالها ما يأتي^[١٣٣]:

- جبل الزيتون الذي يسميه الفلسطينيون جبل الطور، ويسميه اليهود جبل المسح أو جبل التتويج، لأنهم كانوا يستخلصون من زيتونه الزيت المقدس المستخدم في تتويج ملوكهم.
- جبل بطن الهوا، وهو امتداد لجبل الزيتون من الجنوب الشرقي للقدس، واشتهر عند اليهود بالجبل الفاضح. ويزعمون أن المعابد الوثنية لنساء سليمان الأجنبية أقيمت عليه.
- جبل المشارف أو المكبر، وعرف عند اليهود بجبل المراقبين، وعند الغربيين بجبل سكوبس. وقد أقيمت عليه الجامعة العبرية ومركز هداسا الطبي. وهو امتداد طبيعي لجبل الزيتون من الشمال الشرقي وحتى الشمال.

- جبل صهيون الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية للقدس، وعليه قلعة (مدينة داود).

- جبل بيت المقدس الذي يعرف عند اليهود باسم (جبل الموريا)، وعليه المسجد الأقصى، وقد دعي باسم (جبل الحرم).

أما أسوار القدس القديمة، فاليبوسيون العرب سكان القدس هم أول من أحاط المدينة بسور. وقام داود وسليمان بترميمه بعد استيلائهما على المدينة. أما السور الحالي، وطوله (٤٢٠٠) متراً، فقد جده السلطان العثماني سليمان القانوني، وله أربعة وثلاثون برجاً

لحمايتها. وارتفاع السور الحالي متفاوت يصل في بعض المناطق إلى (٣٠م)، لكنه في المتوسط (١٢) متراً، وينغمس أساسه نحو عشرة أمتار ونصف أخرى في الأساس، وحجارته ضخمة. ويوجد في سور القدس القديمة أحد عشر باباً، سبعة منها مفتوحة. وتجدر الإشارة إلى أن بعض أبواب القدس القديمة هي ذات الأبواب في سور المسجد الأقصى. وفيما يأتي ملخص توضيحي بالبوابات السبعة المفتوحة في سور القدس^[١٢٣ ص:٨]:

اسم البوابة باللغة العربية	اسم البوابة باللغة الإنجليزية	أسماء بديلة	سنة البناء	الموقع
الباب الجديد	New Gate	باب عبد الحميد	١٨٨٧م	الناحية الشمالية الغربية من السور
باب العامود	Damascus Gate	باب دمشق، باب نابلس	١٥٣٧م	منتصف الحائط الشمالي لسور القدس
باب الساهرة	Herod's Gate	باب الورد، باب الغنم، باب هيروودس	١٨٧٥م	الجانب الشمالي من سور القدس
باب الأسباط	Lions' Gate	باب «ستي مريم»، بوابة القديس ستيفان	١٥٣٨-٣٩م	الحائط الشرقي
باب المغاربة	Dung Gate	بوابة سلوان	١٥٣٨-٤٠م	الحائط الجنوبي لسور القدس
باب النبي داود	Zion Gate	باب صهيون	١٥٤٠م	منتصف الحائط الجنوبي لسور القدس
باب الخليل	Jaffa Gate	باب يافا، باب داود	١٥٣٠م	الحائط الغربي لسور القدس

وهناك أربع بوابات مغلقة وهي على النحو الآتي:

الوصف	فترة البناء	الموقع	اسم البوابة باللغة الإنجليزية	اسم البوابة باللغة العربية
هو باب مزدوج أُغلق آخر مرة سنة ١٥٤١م، وهو معروف بالعربية باسم «باب الحياة الأبدية»، وكل باب من البابين له اسم خاص به: باب الرحمة (الباب الجنوبي)، باب التوبة (الباب الشمالي).	القرن السادس الميلادي	الجزء الشمالي الشرقي	Golden Gate	الباب الذهبي
هو الباب المؤدي إلى اسطبلات سليمان -المعروفة اليوم باسم المصلى المرواني تحت ساحات الحرم القدسي الشريف	زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان	الحائط الجنوبي للحرم القدسي الشريف	Single Gate	الباب المفرد
يتألف من قوسين، وهو مغطى جزئياً من قبل عمارة العصور الوسطى	زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان	الحائط الجنوبي للحرم القدسي الشريف	Double Gate	الباب المزدوج
يتألف من ثلاثة أقواس، وهو معروف أيضاً بباب النبي.	زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان	الحائط الجنوبي للحرم القدسي الشريف	Triple Gate	الباب المثلث

يضم الحرم الشريف في القدس كثيراً من الآثار الإسلامية، مثل مسجد الصخرة، والمسجد الأقصى، وما بينهما من منشآت حتى الأسوار. وطول أرض الحرم من الناحية الشرقية (٤٧٤) متراً، ومن الناحية الغربية (٤٩٠) متراً، ومن الناحية الشمالية (٣٢١) متراً، ومن الناحية القبليّة (٢٨٣) متراً. وكان موضع الحرم القدسي الحالي يدعى قديماً (تل المريّا) الذي ورد ذكره في سفر التكوين. وهو عند المسلمين أولى القبليتين وثالث الحرمين الشريفين. وللحرم عشرة أبواب مفتوحة مرتبة مكانياً من الشمال إلى الغرب على النحو الآتي^[٢٤]:

باب الأسباط؛ وباب حطه؛ وباب شرف الأنبياء (ويطلق عليه الباب العتم أو باب الداودية أو باب الملك فيصل)؛ وباب الغوامة (ويطلق عليه باب الخليل أو باب الوليد)؛ وباب الناظر (ويطلق عليه باب علاء الدين البصير أو باب الحبس أو باب ميكائيل)؛ وباب الحديد؛ وباب القطنين؛ وباب المتوضأ (ويطلق عليه باب المطهرة)؛ وباب السلسلة (ويطلق عليه باب داود)؛ وباب المغاربة (ويطلق عليه باب النبي).

وهناك أربعة أبواب مغلقة هي الآتية: من الغرب باب السكينة ويطلق عليه باب السحرة، ومن الشرق باب الرحمة، وباب التوبة، وباب البراق ويطلق عليه باب الجنائز. ومآذن الحرم الشريف أربعة، وهي مئذنة باب المغاربة، ومئذنة باب السلسلة، ومئذنة باب الغوامة، ومئذنة باب الأسباط.

ويوجد في القدس مغارة الكتان، التي تسمى أيضاً مغارة القطن أو مغارة سليمان. وتقع بين بابي العامود والساهرة من أبواب البلدة القديمة في القدس. وتبلغ مساحتها (٩٠٠٠) متراً مربعاً، إلا أن (٢٥٠) متراً فقط منها مفتوحة الآن أمام الزوار، فيما تمتد في عمق الأرض (٣٠٠٠) متراً تحت البلدة القديمة. وتعد مغارة الكتان معلماً تاريخياً أثرياً. وقد تعددت الروايات حول أصل وتاريخ المغارة، لكنّ باحثين مقدسين أكدوا أنها تعود إلى العهد الكنعاني، واستخرجت منها حجارة البناء في العصور الإسلامية، وكانت مصدراً لحجارة البناء التي شيّدت عمران القدس من مبانٍ وقصور وأسوار، منذ مئات السنين في عصور النهضة العربية الإسلامية. إلا أن الاحتلال أطلق عليها اسم مغارة صدقياهو، نسبة إلى أحد ملوك إسرائيل القدامى، ويسعى حالياً إلى إزالة تاريخ مغارة الكتان، واستبداله برواياته وأساطيره المزعومة. وكانت تقارير عبرية قد كشفت عن شروع الاحتلال في تكوين مدينة يهودية تحت الأرض، فيها وسائل نقل حديثة، تمتد من وسط بلدة سلوان جنوباً، وتمر أسفل المسجد الأقصى والبلدة القديمة، وأسفل المدرسة العمرية في الجهة الشمالية من الأقصى، وتصل إلى منطقة باب العامود، ومغارة الكتان شمال القدس القديمة.

ومن الأودية التي تحيط بالقدس يذكر وادي جهنم، واسمه القديم (قدرون)، ويسميه العرب (وادي سلوان). وفي الثقافة اليهودية والمسيحية، يعتقد أن وادي سلوان هو طريق الجحيم، كما ورد في جحيم دانتلي. كما يذكر وادي الربابة واسمه القديم (هنوم). وهناك الوادي المسمى (تيروبيون)، ومعناه بالعربية (صانعو الجبن).^{١٣٣}.

وكانت مدينة القدس الشريف محاطة بمجموعة من الابار وعيون المياه التي تمثل موارد المياه الأساسية للمدينة. وأقرب نبع لها هو عين أم الدرج بالقرب من سلوان جنوبي شرق المدينة المقدسة. ولذلك اعتمدت المدينة منذ تاريخها القديم على تخزين مياه الأمطار في برك وبار، وعلى عدد من العيون الطبيعية والابار القليلة مثل أم الدرج وبيئر أيوب والبركة التحتانية المسماة بالبركة الحمراء. أما عين سلوان، ويسمى أيضاً بعين أم الدرج وعين جيحون و عين العذراء. تقع العين على مسافة ثلاثمائة متر من الزاوية الجنوبية

الشرقية للحرم القدسي، وقد ذكرها الرحالة كثيراً في كتبهم، وذهب البعض الى أن مياهها قادرة على شفاء الأمراض، وأنها قريبة في قدسيتها من مياه بئر زمزم، وقد قام الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه بوقف مياه العين على فقراء بيت المقدس. وقد أعطى الافرنجة الصليبيون أهمية خاصة لعين الماء هذه أثناء فترة احتلالهم للمدينة خلال السنوات ١٠٩٩-١١٨٧م، لاعتقادهم أن السيدة مريم العذراء قامت بغسل ملابس السيد المسيح عليه السلام وهو صغير فيها. وقد أطلق المقدسيون على عين المياه هذه اسم عين أم الدرج لان الوصول إليها يتم عن طريق درج أو سلم.

تقع سلوان جنوب سور الحرم القدسي الشريف، وسميت بهذا الاسم نسبة الى مجموعة من عيون المياه، التي يقال أن النبي عيسى عليه السلام أمر رجلاً أعمى أن يغتسل فيها ليبراً، ففعل الرجل فعاد إليه بصره. فضلاً عن عين سلوان، هناك بئر أيوب، التي يقال أن نبي الله أيوب عليه السلام حفرها، وجدد بناءها صلاح الدين الأيوبي. وبركة السلطان سليمان القانوني التي أنشأها السلطان العثماني على بعد نحو خمسة كيلومترات إلى الجنوب الغربي من مدينة بيت لحم. وتضم البركة ثلاثة آبار مفتوحة، وسعتها المائية الاجمالية ما يقارب من مائتي مليون لتر من الماء، وبالتالي لعبت البركة دوراً هاماً في إمداد المياه لمدينتي بيت لحم والقدس الشريف لعدة قرون. وتصل مياه البركة مدينة بيت لحم فقط حالياً. وهناك نهر جيحون، وهو مجرى مائي يمر بوادي جهنم أو (وادي قدرون) في مدينة القدس الشريف، وهو نفس الوادي الذي توجد فيه عين سلوان. وتسقي مياه هذا الوادي الصغير مع مياه العين أرضاً هي من أخصب أراضي فلسطين. ويعتقد اليهود أن النهر ينبع من فرع واحد من فروع نهر جنات عدن. وذكر جيحون كنهر رابع، بالاضافة إلى أنهار الفرات ودجلة وسيحون حسب المعتقدات اليهودية. وهناك أيضاً عين العذراء، وهو نبع ماء قديم يقع في وادي مريم العذراء في شرق مدينة القدس الشريف، وورد ذكره في التوراة باسم جيحون، بخلاف نهر جيحون سالف الذكر، ويعرف اليوم باسم عين العذراء، ومنه نشأت عين سلوان. وهناك جدول عين كارم الذي ينبع من جبال القدس الشريف عند قرية عين كارم، ويسير من الاتجاه القادم من جنوبي غربي المدينة، وعبر أودية المدينة ذاتها من ناحية الغرب. تعتبر مياه الينبوع مقدسة من قبل بعض الكاثوليك والحجاج الأرثوذكس الذين يزورون الموقع لشرب مياهها. وهناك بركة بيت حسدا، وتقع قرب باب الأسباط في الحارة الإسلامية في المدينة المقدسة. استخدمت البركة في السابق كمستودع

للمياه والعلاج. كذلك هناك مجموعة من العيون في مجموعة من الأودية المختلفة مثل وادي العروب ووادي البيار والبالوع إذ تتفجر عيون المياه وتصب في برك سليمان. وأهم معالم مدينة القدس المسجد الأقصى الذي يقع في ناحيتها الشرقية. وتضم القدس عددا كبيرا من المساجد غير المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة، أبرزها في ساحة الحرم مسجد عمر بن الخطاب، وجامع قبة موسى، وجامع باب حطة، وجامع كرسي سليمان، وجامع المغاربة، وجامع باب الغوامة، وجامع دار الإمام. ومن الجوامع خارج الحرم وداخل السور جامع باب خان الزيت، وجامع الخانقاه، وجامع قمبر، وجامع العمري، وجامع إيلعقوبي، وجامع الشيخ لولو، والجامع الصغير، وجامع حارة اليهود الصغير، وجامع سويقه علون، وجامع القلعة، وجامع حارة النصارى، وجامع البازار، وجامع الزاوية النقشبندية، وجامع المولوية، وجامع زاوية الهنود، وجامع البراق، وجامع خان السلطان. وتوجد جوامع أخرى لكنها مهجورة^[٢٥].

يوجد في القدس عدد من الزوايا التي يجتمع فيها الدراويش من مختلف المذاهب، ولنزول الغرباء من المسلمين الذين يزورون القدس، منها زاوية الهنود، والزاوية الأدهمية، والزاوية الرفاعية، وزاوية الشيخ جراح، والزاوية اللؤلؤية، والزاوية القادرية، والزاوية المولوية، والزاوية المجيدية، والزاوية النقشبندية. [٢٥].

ومن الآثار المسيحية كنيسة القيامة، ودير السلطان، ودير مار أنطونيوس، ودير مار جرجس، ودير القديس يعقوب الكبير، وكنيسة القديس توما، ودير السريان، وكنيسة الثلاث مريمات، وكنيسة القديسة حنة، وبركتنا بيت حسدا، وطريق الآلام. ومن الآثار اليهودية المقدسة البارزة في القدس حائط المبكي، وهو نفسه حائط البراق عند المسلمين، وبضع كنس حديثة العهد، وبعض القبور مثل قبر زكريا وقبر أبشالوم وقبر يعقوب. وليس للقبور أثر كبير في عبقرية المكان.

من الناحية الاقتصادية قبل عام ١٩٤٨م، كان في المدينة مطار على طريق رام الله في الشمال. وكان في فلسطين مطار آخر في اللد، كما كان فيها نحو (٥٢٣) شركة صناعية وزراعية. وستة عشر بنكاً وطنياً وأجنبياً.

والواقع أن كل واحد من حجارة شوارع القدس العتيقة يحكي تاريخاً يمتد آلاف السنين. فهذا طريق الآلام، وهناك حائط البراق، ومن هنا دخل صلاح الدين الأيوبي، وهناك وقف الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب، ومن هنا سرقت ساعة بيج بن إلى لندن، وهكذا.

إن تفرّد القدس بتقدير إلهي، قضى به الله حين أوحى لنبي الله إبراهيم أن يبني مسجداً يعبد الله فيه في مكة، ومن ثم في القدس، وأخيراً في الخليل. والله بديع السماوات والأرض، وهو العالم بطبيعة المكان، وبأهليته لأن يكون مركز عبقرية إنسانية. القدس أيقونة العبقرية، كلمات أحس أنها محفورة بالإزميل فوق بوابات سور القدس القديمة. وفي الإرث الأسطوري أخبار مستفيضة عن سيدنا إبراهيم خليل الله، وهو أب الأنبياء، ويحظى بتقدير المسلمين. كان عازار والد إبراهيم الخليل نحاتاً، ووزيراً للنمرود. وأجبر الناس ملكهم النمرود على أن يعبدوه كإله. وذات ليلة حلم أن نبياً سيولد، ويقضي على عباده الأصنام، ويقضي على النمرود. ولذلك أقام النمرود مذبحاً قتل فيها كل الأطفال حديثي الولادة، واتخذ إجراءات احتياطية لقتل كل طفل ذكر يولد، وعندما جاءت ساعة المخاض لزوجة عازار، قادتها الملائكة إلى كهف خفي، وهناك ولدت بكل سهولة ويسر وبعباية الله، وتركت طفلها بعناية خادمات إلهية، وعادت للبيت. وظلت الأم تتردد على الطفل في المغارة، ووجدته ذات يوم يرضع أصابعه التي كان يبتشق منها حليب وزبدة وماء، وهكذا نجا إبراهيم الخليل. وقد تكررت هذه الأسطورة في حالة المسيح، ولعلها كانت تكراراً لأسطورة سامية أقدم.^[٢٦]

هرب النبي إبراهيم عليه السلام من النمرود، وتوجه إلى مكة ليبنى الكعبة فيها كما أمره الله. وأراد إبليس أن يخلق خلافاً بين إبراهيم وهاجر زوجته، فأغراها لتفنع زوجها بعدم بناء الكعبة، فتناولت حجراً ورجمت إبليس به، ومن هذا الحادث حصل إبليس على لقب الشيطان الرجيم.

بعد ان انتهى من بناء الكعبة، أمر الله سيدنا إبراهيم عليه السلام ببناء حرم آخر يعبد فيه الله في القدس، ثم أمره ببناء حرم ثالث في الخليل. وقد استدل إبراهيم على مكان الحرم في الخليل بواسطة ضوء سماوي سلط على المكان ليلاً. وهناك أسطورة أخرى تقول أنه اهتدى إلى المكان وفق قصة قدوم ثلاثة من الملائكة على شكل بشر إلى إبراهيم، فظنهم ضيوفاً، فذهب ليذبح لهم ذبيحة، وهرب العجل الذي يود إبراهيم ذبحه، وتبعه حتى دخل إلى كهف، وهناك سمع صوتاً يقول له إنك في ضريح آدم، وعليه يجب أن تبني مزاراً في الموقع. وتقول أسطورة أخرى أن جمللاً دل إبراهيم على مكان المزار. ولكن إبليس ضلله، وبعد أن بنى جزءاً من البناء، هداه الله إلى المكان الصحيح.

فالكعبة المشرفة في مكة والمسجد الأقصى في القدس والمسجد الإبراهيمي الشريف في الخليل

بنيت قبل نزول الديانات السماوية الثلاث. وهي إرث إنساني لا يجوز ادعاء تبعيتها لأي من الديانات، بل تم اختيارها بهدي من الله سبحانه وتعالى. وكلها نماذج لعبقرية المكان في أجلى صورها. وليس أدل على عبقرية القدس كمكان من تسمية الله رب العالمين للمسجد الأقصى بأنه أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

إن الشكل الهندسي لكل من المسجد الأقصى والكعبة المشرفة، هو الشكل المختلف الأضلاع، وهو من الأشكال النادرة الاستعمال في مجال التصميم المعماري للمباني، لعدم وجود ضلع فيه يساوي أو يوازي أي من الأضلاع الأخرى. كما أن النسب الهندسية لكل من المسجدين متطابقة تقريباً وتتساوى مع النسبة الذهبية، وهي (١:١,٦)، والتي تعتبر من أجمل النسب الهندسية على الإطلاق. فهل يمكن اعتبار هذا التطابق الهندسي من ناحية الشكل أو النسب الهندسية مصادفة..؟ أم أن ذلك التطابق الهندسي يوضح مدى الارتباط المادي ما بين المسجد الأقصى المبارك والكعبة المشرفة، والذي ربط بينهما القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة..؟ وهو ما يؤكد الهوية الإسلامية للمسجد الأقصى المبارك بما لا يدع مجالاً للشك، وبخاصة أن قبلته تتجه لمكة المكرمة، حتى من قبل الفتح الإسلامي لبيت المقدس بعدة قرون. إن اتجاه الهيكل، كما يقول اليهود، إلى الغرب. فكيف يكون الهيكل مكان المسجد الأقصى، وقبلته مكة المكرمة..؟!

يضاف إلى دواعي عبقرية المكان معراج رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماوات العلى من القدس، واحتمال وجود واحدة من الثقوب السوداء فوقها. وعلى الرغم من عدم تناول علم الفلك لظاهرة الثقوب السوداء، وأن النجوم تهوى فيها، حتى عام ٢٠١١م، إلا أن علماء الفيزياء الفلكية تمكنوا من رصد هذه الظاهرة حتى عام ٢٠١٦م في ثلاث حالات فقط. والواقع أن سورة في القرآن الكريم عنوانها سورة النجم، تشرح صفات منطقة الثقوب السوداء هذه بدقة متناهية. ويؤمن المسلمون بأن الله يسر للنبي محمد صلى الله عليه وسلم رحلة المعراج عبر السماوات، بعد الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. وكانت تلك الرحلة آية من آيات الله في حد ذاتها، لعدم توفر تقنيات تتيح للنبي القيام بتلك الرحلة في ذلك الوقت. فلم تكن الطائرة والصاروخ ومركبة الفضاء قد اخترعت بعد.

في الآية (١٦) من سورة النجم، يصف القرآن الكريم هذه المنطقة من الفضاء بأنها مظلمة تماماً، يغشاها ظلام دامس. ولدى الثقوب السوداء هذه قوة جاذبية عالية جداً إلى درجة

عدم إمكانية النفاذ منها. ولا يمكن مشاهدة تلك المناطق من الفضاء بأية وسيلة، لأن البصر الطبيعي يزوغ عنها، ويتخطى حدود المنطقة. وقوة الجاذبية الهائلة لتلك المناطق تجعل خطوط الضوء تنحني حولها، محدثة صورة بصرية في المواد المحيطة بها، يطلق عليها اسم ظل الثقب الأسود. وأثبت علماء الفيزياء الفلكية أن الثقب الأسود يحني الضوء ليعمل كعدسة كونية مكبرة. وبذلك يتيح للعلماء إمكانية رؤية أية مجرة وراءه أبعد منه، وهذا ما يسمى عدسة الجاذبية.

والمعجزة القرآنية في سورة النجم في الآية (١٧)، أن بصر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ما زاغ بصره فيها، وما طغى، ورأى من آيات ربه الكبرى. ويصف القرآن الكريم شكل تلك المنطقة من الفضاء بأنها واسعة من الأعلى، ومنحدرة في الجوانب، وتضيق في القاع، أي مثل القمع تقريباً. [١٤:ص٦٦].

وفي الآية (١٤) من سورة النجم في القرآن الكريم، يقول الله تعالى عند سدره المنتهى، وشكل شجرة السدر يحمل نفس مواصفات شكل القمع التي ذكر من قبل عن الثقب الأسود. فيحدث ثقباً عميقاً في نسيج الفضاء. ولهذا يبدو شكله مثل القمع. وعلى الرغم من تأثيرات الثقب الأسود على حركة المادة، وقوة الجاذبية الهائلة لديه، فإن الثقب الأسود يظل مخفياً خلف أفق الحدث دائماً، محاطاً بمنطقته التي لا تسمح حتى للضوء بالخروج منها. ولهذا لا توجد إمكانية لرؤيتها بشكل مباشر.

ومرة أخرى في نفس الآية من سورة النجم، جاء أن منطقة الثقوب السوداء من الفضاء لها منتهى. فقد كان من المعتقد أن الثقوب السوداء تتمتع بقوة جاذبية لا منتهية، وتبع من أعماقها، وأن لا شيء بما في ذلك الضوء يمكنه أن يتجاوزها، وأن الرحلة عبر الثقب الأسود تكون رحلة في اتجاه واحد، وليس لها تذكرة رجوع. فإذا عبرت أفق الحدث، ووصلت إلى المنطقة التي لا يستطيع الضوء أن ينفذ منها، فلا عودة. ولكن بعض العلماء تمكنوا من إثبات عكس ذلك، وأن الطاقة يمكنها النفاذ من داخل الثقوب السوداء، وأن الثقوب السوداء لها منتهى. وهذا يعني أن من يعبر الثقوب السوداء، فإنه ينتقل إلى عالم آخر. وقد دعم عالم الفيزياء المشهور ستيفن هوكينج ذلك الرأي، ووضع رسماً توضيحياً للثقب الأسود، على النحو المبين على غلاف هذا الكتاب. وأوضح أن هناك مخرجاً من الثقب الأسود، وقال كلمته الشهيرة إذا وجدت نفسك في ثقب أسود، فلا تستسلم. فسيكون هناك مخرج، قد تجد نفسك في عالم آخر، ولكن لن تعود إلى عالمنا مرة أخرى. ويشير ذلك إلى

أن لمنطقة الثقب الأسود، وفقاً للقرآن الكريم، منتهى (عند سدرة المنتهى)، يعد مدخلا لعالم آخر (عندها جنة المأوى). وهي مدخل إلى جنة المأوى (عندها جنة المأوى)، وهو ما يترتب على العلماء أن يثبتوه. وإذا كانت الطريق إلى سدرة المنتهى تمر من القدس، فإن الطريق إلى الجحيم يمر من القدس أيضاً، كما قال دانتي. وهناك شارع في القدس اسمه طريق جهنم، ويدعى الباب المؤدي إليه باب الساهرة.

وإذا ثبت أن القدس تمتاز بوجود واحدة من هذه الثقوب فوقها [١٤: ص ١١٦]، فإن معراج الرسول محمد عليه الصلاة والسلام إلى السماوات العلى قد يكون جرى من خلالها، والله تعالى أعلم. وذلك دليل كاف على عبقرية المكان، وتفرد، ومصدره قرآني لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، ويلقف كافة الادعاءات المزيفة ومحاولات التزوير وتغيير المعالم. لكن ملامح عبقرية القدس لا تقتصر على الجوانب الإلهية التي خصها الله بها. بل تتعدى ذلك إلى التفاعل الحيوي بين عناصر روح المكان والإحساس به. وفي معرض حديثها عن عبقرية المكان، ومحاولة تمييزها عن مصطلحي روح المكان والإحساس به، تقول مارجريت وودز (Margaret L. Woods) [١٢: ص ٣٣]:

هنا.. في الأرض التي لم تطأها قدم إنسان.. ربما تجوب إحدى قوى الطبيعة المفتونة بصوت خريف مياه الجداول وعظمة الحقول الشاسعة المزدانة باللون الأرجواني في شهر أيار.

Yet here, where never muse or god did haunt,
Still may some nameless power of Nature stray,
Pleased with the reedy stream's continual chant
And purple pomp of these broad fields in May.

شواهد على أماكن ذات شخصية عبقرية في القدس:

من الأماكن التي يشهد لها بالعبقرية على مر التاريخ مدينة أثينا، التي تعتبر موئل العبقرية في الفكر الغربي. ففي اللغات الأوروبية اشتقاق كثير من اللغة اللاتينية. والإغريق بناء مفهوم الديمقراطية، وهم المدافعون عن حرية الرأي والتعبير عند الفرد والجماعة، وحرية تبني أفكار غريبة، والفخر بالوطن بكل أطيافه. وهم أول من يخطر بالبال لدى الحديث عن القدرة على التساؤل، وحماية مبدأ الشك كطريق إلى اليقين. وهم رعاة العلوم والفلسفة والفن والتفكير المجانف الذي يعد أساس الإبداع والعبقرية، كما يقول المؤرخ

هاملتون. وما زال العالم يردد أقوال سقراط وأفلاطون منذ ألفي عام. ويشهد بالعبقرية لمدينة فلورنسا الإيطالية أيضاً. فهي مركز إنتاج الأيقونات في عصر النهضة. وهي موطن عائلات ثرية داعمة للريادة في الأعمال الفنية والمعمارية، والكنيسة الكاثوليكية التي جمعت ثروات طائلة نتيجة تبنيها فكرة صكوك الغفران، ثم استغلت ذلك في دعم الأعمال الفنية والمعمارية، مما ساهم في ظهور عبقرية ميخائيل أنجلو وليوناردو دافنشي. ومن خلال التجارة، أدخلت فلورنسا إلى العالم الغربي نظام الأرقام العربية، وذلك بجهود حثيثة من ليوناردو فيبوناتسي (Leonardo Fibonacci).

ومن الأماكن العبقرية الحديثة مدينة سان فرانسيسكو الأمريكية. ففي العقد الثالث من القرن العشرين، أنشأ فريد تيرمان (Fred Terman) عميد كلية الهندسة في جامعة ستانفورد حاضنة أعمال فيها، وأطلق عليها فيما بعد تعبير سيليكون فالي (Silicon Valley). وكان مدفوعاً للعمل مبدأين أساسيين يعدان ركائز للإبداع، أولهما الفشل الناجح (successful failure) الذي يشير إلى أهمية المثابرة وعدم اليأس في تنمية الإبداع، وثانيهما استغلال العلاقات الضعيفة (weak ties) مع المهتمين بمختلف التخصصات، وفي ذلك تركيز على أهمية الذكاء التواصلي في الإبداع.

ولا يمكن تجاهل عبقرية مدينة فينا في القرن الثامن عشر، حين كان موزارت (Mozart) يقوم بعمل تشاركي في الإبداع مع جمهور المستمعين لموسيقاه، إذ كان للجمهور متطلبات صعبة يلبيها موزارت باستمرار، حتى صار ذلك الجمهور يطالب بالحاح للاعتراف بعبقريته. فكانت العبقرية وفق ذلك قراراً اجتماعياً، وموضة يفرضها الذوق العام (Fashionista Theory of Genius).

وتذكر مدينة كالكوته في الهند، وهانجزو (Hangzhou) في الصين، وأدنبرة في أيرلندا كنماذج تدل على عبقرية المكان. وذلك لتمييز كل منها بوحدة أو أكثر من مواصفات العبقرية. وأجزم أن مدينة القدس، عاصمة فلسطين، من المدن العبقرية. وعبقريتها سبب ثقافي للصراع عليها، لكنه صراع تفوح منه رائحة العنصرية الدينية، كما كان الاحتلال الصليبي قديماً. فكأنه صراع بين أتباع الديانة اليهودية في مقابل أتباع الديانتين المسيحية والإسلام. إن الحديث عن عبقرية مدينة القدس بالمطلق، يقود إلى التفكير فيما يتحدث عنه علم الفضاء من وجود فتحات في الغلاف الجوي، وهي على ارتفاع ثمانين كيلومتراً عن سطح الأرض، حيث يتمركز المطر الشهيبي الذي يمنع المرور إلى ما فوقه إلا بسُلطان وشروط.

ومن الشواهد على ذلك أنه بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، لم يتمكن رؤاد الفضاء الروس من الصعود إلى الفضاء من أي مكانٍ فوق روسيا، وبقيت روسيا مُجبرَةً على الذهاب إلى مركز بايكانور في دولة كازاخستان، لتتمكن من الصعود إلى الفضاء من هناك. أما مركز إطلاق رؤاد الفضاء الأمريكيين، فهو من جزيرة ميريت على المحيط الأطلسي. فهناك فتحات محددة للنفاد إلى الفضاء. وهناك فرضية تقول أنه يمكن أن تكون إحدى تلك الفتحات فوق القدس، وأن معراج الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماوات العلى كان من خلال واحدة منها. ويدعو ذلك إلى التأمل بالثقوب السوداء التي ورد ذكرها في تفسير العلماء لسورة النجم في القرآن الكريم.

تفاصيل مدينة القدس كثيرة، وتاريخها غني. وتعاقبت عليها على مر العصور حضارات وثقافات مختلفة أثرت في طبائع أهلها وطريقة عيشتهم، وتركت في شوارعها بصمات عمرانية متنوعة. ويمكن للمتجول في شوارع القدس وحاراتها أن يرى أبنية بديعة. وفيما يأتي تعريف ببعض تلك المنشآت والمباني البارزة^[٣٤]:

المسجد الأقصى:



المسجد الأقصى هو واحد من المساجد الكبيرة في العالم، ومن أكثرها قدسيةً للمسلمين، وهو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين في الإسلام. يقع المسجد الأقصى داخل البلدة القديمة في القدس في فلسطين. وتبلغ مساحته قرابة ١٤٤,٠٠٠ متراً مربعاً، ويشمل قبة

الصخرة والمسجد القبلي والمصلى المرواني وعدة معالم أخرى يصل عددها إلى ٢٠٠ معلم. يقع المسجد الأقصى فوق هضبة صغيرة تُسمى هضبة موريا، وتعد الصخرة أعلى نقطة فيه، وتقع في قلبه. وقد ذُكر المسجد الأقصى في القرآن: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} سورة الإسراء، الآية (١). ويُقدّس اليهود أيضًا المكان نفسه، ويطلقون على ساحات المسجد الأقصى اسم «جبل الهيكل» نسبة إلى هيكل النبي سليمان. وتُحاول العديد من المنظمات اليهودية المتطرفة التذرع بهذه الحجة لبناء الهيكل حسب معتقدها. لا يُعرف متى بُني المسجد الأقصى لأول مرة بشكل دقيق، ولكن ورد في أحاديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم أن بناءه كان بعد بناء الكعبة بأربعين عامًا. فعن أبي ذر أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة.

مسجد قبة الصخرة:



تتميز القبة بشكلها الهندسي، وجماليتها المعمارية، وبالزخارف التي تحويها. بنيت القبة على (أ)

مداميك، تمثلاً بقول الله تعالى: ويحمل عرش ربك يومئذ فوقهم ثمانية. وللقبة أربعة أبواب ترمز إلى فصول السنة الأربعة. وعند الدخول من أي باب تجد خمسة أعمدة، وهي كناية عن الصلوات الخمس. وللقبة أيضاً (٥٢) نافذة تمثل أسابيع السنة، وفي أروقتها زخارف تشير إلى ثمار الجنة وأشجارها.

كنيسة الجثمانية أو كنيسة كل الأمم:



تقع الكنيسة على سفح جبل الزيتون شرقي البلدة القديمة للقدس. وقد بنيت، حسب المعتقد المسيحي، فوق الصخرة التي صلى عليها المسيح قبل اعتقاله، وتوجد في منتصف بهو الكنيسة صخرة محاطة بسياج حديدي قصير يعتقد أنها هي تلك الصخرة. في حديقة الكنيسة أشجار زيتون معمرة، يصل عمر بعضها إلى ألفي عام. ويعود تاريخ الكنيسة إلى القرن الرابع الميلادي، وقد أعاد بناءها الصليبيون في القرن الثاني عشر، ومن ثم جُددت على شكلها الحالي عام ١٩٢٤م. صممها المعماري الإيطالي انطونيو بارلوزي، واشتركت في تكاليف بنائها (١٦) دولة أجنبية، ومن هنا اكتسبت اسمها كنيسة كل الأمم.

وقد تم تخليد ذكر هذه الدول الممولة لبناء الكنيسة برسم في سقف الكنيسة. على واجهة الكنيسة لوحة فسيفساء ضخمة ترمز إلى يوم القيامة، وإلى أن المسيح هو الوسيط أو الرابط بين البشر والله. إضافة إلى ذلك، تعلو أعمدة الواجهة أربع تماثيل ترمز إلى تلاميذ المسيح الأربعة (متى ولوقا ومرقص ويوحنا).

قصر الست طنشق المظفرية:



يرى كثير من المؤرخين أن الفترة المملوكية في فلسطين هي الفترة التي شهدت الحركة العمرانية الأكثر ازدهاراً على مرّ العصور. فخلالها بنيت أبنية شتى لتلبية حاجة الناس، كالحانات، والأسواق، والمدارس والحمامات، والتكايا، والجسور. وبعد قصر الست طنشق المظفرية الذي شيد عام ١٣٩٢م واحداً من تلك الأبنية.

يقع القصر أو دار الست طنشق على بعد أمتار قليلة من المسجد الأقصى، في عقبة التكية في قلب البلدة القديمة. للقصر ثلاثة أبواب فخمة، ليس له منافس في عمارات القدس الأخرى، وبعضها مزخرفاً بآيات قرآنية وبخط النسخ المملوكي. استخدم في بناء هذه الأبواب أسلوب الأبلق، وهو الاستخدام المعكوس للحجارة ذات الألوان المختلفة، واستخدمت الحجارة البيضاء والحمراء والسوداء.

في العهد العثماني، استخدم القصر الذي يضم أكثر من (٢٥) غرفة مقرراً لمصرفية القدس. وفي عهد الانتداب البريطاني تحوّل إلى مدرسة للأيتام. وحتى اليوم، ما زالت تشغله مدرسة الأيتام التابعة لدائرة الاوقاف الإسلامية في القدس.

حارات القدس القديمة ومعالم رئيسة أخرى [٥: ص ١١٥]:

توزعت القدس بين جزأها الشرقي والغربي بعد حرب عام ١٩٤٨م، كما تتوزع القدس القديمة بين أربع حارات على النحو المبين في الشكل (٢).



الشكل رقم (٢): أحياء القدس القديمة

حارة النصارى

تقع حارة النصارى في الزاوية الشمالية الغربية من البلدة القديمة، ويمتد على طول الجدار من البوابة الجديدة في الشمال الغربي للمدينة القديمة إلى باب الخليل. يقع الجدار الغربي في الجنوب بالنسبة لباب الخليل محاذياً للأحياء اليهودية والأرمنية وباب العامود في الشرق الذي يقع على الحدود مع الحي الإسلامي. توجد كنيسة القيامة التي تعتبر من أقدس الأماكن المسيحية في هذا الحي.

حارة المسلمين

وهو الحي الأكبر والأكثر اكتظاظاً بالسكان من بين الأحياء الأربعة، ويقع في الزاوية الشمالية الشرقية من البلدة القديمة، ويمتد من باب الأسباط في الشرق على طول الجدار الشمالي للمسجد الأقصى في الجنوب إلى باب العامود. بلغ عدد سكانه اثنان وعشرون ألف نسمة في عام ٢٠٠٥م. سكن الحي الإسلامي والأحياء الأخرى مزيج من المسلمين والمسيحيين واليهود. وظلّ المشهد كذلك حتى ثورة البراق عام ١٩٢٩م.

حارة الأرمن

حارة الأرمن تعدّ أصغر أحياء البلدة القديمة. وعلى الرغم من أن الأرمن مسيحيون، إلا أن الحي الأرمني يختلف عن الحي المسيحي. وعلى الرغم من صغر حجم هذا الحي، وقلة عدد سكانه، إلا أنّ الأرمن وبطريركتهم لا يزالون مستقلين بشكل كبير، ويشكلون تواجداً قوياً في البلدة القديمة. واليوم يعيش أكثر من (٣٠٠٠) أرمني في القدس، منهم (٥٠٠) في الحي الأرمني، وبعضهم مقيمون مؤقتاً يدرسون في المعهد، أو يعملون كموظفين في الكنيسة. وتملك البطريكية الأرض في هذا الحي، فضلاً عن الممتلكات القيمة في القدس الغربية، وأماكن أخرى. في عام ١٩٧٥م، أنشئت مدرسة دينية لاهوتية في الحي الأرمني.

حارة اليهود

يقع الحي اليهودي في القسم الجنوبي الشرقي من حائط المدينة. ويمتد من باب حارة اليهود في الجنوب، بجوار الحي الأرمني في الغرب، على طول الكاردو (شارع روماني) إلى شارع السلسلة في الشمال، ويمتد شرقاً إلى الجدار الغربي والمسجد الأقصى. كان الحي اليهودي تحت الحكم الأردني إلى أن تم إعادة الاستيلاء عليه في حرب عام ١٩٦٧م. وبعد عدة أيام، أمرت السلطات الإسرائيلية بهدم الحي المغربي المجاور، وتهجير جميع السكان قسراً، من أجل تسهيل الوصول إلى الجدار الغربي. وكان عدد سكانه (٢٣٤٨) نسمة عام ٢٠٠٥م.

حيّ المغاربة

حيّ مغربيّ صغير في البلدة القديمة، وقد تم تدميره في غضون أسبوع من نهاية حرب عام ١٩٦٧م لتيسير الوصول إلى الجدار الغربي بإنشاء ساحة الجدار الغربي. أما الأجزاء التي لم يتم تدميرها من الحي المغربي، فقد أصبحت جزءاً من الحي اليهودي. ومن المعالم الرئيسية الأخرى التي ترسم معالم شخصية القدس ما يأتي [٥٠ ص ٧٢ - ٧٨]:

طاحونة باب الخليل أو طاحونة مونتيفيوري:

هي طاحونة ومعلم سياحي، تم بناؤها في نهاية الحقبة العثمانية في فلسطين، وتحديدًا في عام ١٨٥٧م في وسط مدينة القدس. تم تصميمها بواسطة عدد من المعماريين الإنجليز، لتكون بمثابة مطاحن للدقيق. تبلغ سماكة جدران قاعدة البرج حوالي ٩١٠ ملم (٣ أقدام)،

كما يبلغ إرتفاعه ١٥,٢٤ متر. وتُعتبر الطاحونة اليوم بمثابة متحف صغير مخصص لتكريم منجزات مؤسسها الإنجليزي موسى مونتيفيوري.

المسكوبية (أو المجمع الروسي في القدس):

هي إحدى أقدم المناطق في وسط مدينة القدس، تعود فترة إنشائها إلى نهاية الحقبة العثمانية في فلسطين. تقع في القدس الغربية بالقرب من الحدود التي كانت تفصلها عن الشطر الشرقي قبل حرب ١٩٦٧ م. تم بناء المجمع في عام ١٨٦٤م، على الطراز الكلاسيكي من قبل الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، وبدعم من قيصر روسيا لخدمة الحجاج الروس إلى الأرض المقدسة. تمتد المسكوبية على مساحة (٦٨,٠٠٠) متراً مربعاً بين شارع يافا وشارع الأنبياء على بعد مئات الأمتار من سور القدس ويضم المجمع كنيسة أرثوذكسية روسية كبيرة هي كاتدرائية الثالوث الأقدس وقنصلية ومستشفى ومركزاً تجارياً وكنيسة ونزلين كبيرين للحجاج الروس. وقد حوّلت بريطانيا جزءاً من هذا المجمع إلى مقر للشرطة ومركز للتوقيف بعد إحتلالها للقدس عام ١٩١٧م، كما أبقّت إسرائيل على هذا الوضع إلى اليوم منذ إستيلائها على غرب المدينة عام ١٩٤٨م.

برج قلعة القدس:



يقع في الجهة الشمالية الغربية للبلدة القديمة للقدس، داخل باب الخليل. ويعد من أهم معالم مدينة القدس الشرقية. يطلق عليه اسم القلعة، أو قلعة باب الخليل، أو قلعة القدس. والبرج معروف اليوم باسم قلعة داود، مع الأخذ بالاعتبار عدم وجود أي

علاقة لذلك بدادود بن سليمان. والتسمية جاءت عن طريق الخطأ، وانتشر في الكتابات عن القدس. يعود أول بناء في الموقع إلى القرن الثاني قبل الميلاد، حيث توجد آثار لسور المدينة الإغريقي؛ ولاحقاً أضيف العديد من التحصينات الضخمة المتمثلة بثلاثة أبراج ضخمة لتحسين مدخل المدينة. لكنه باغنيها لم يبن قلعة، بل خلد بهذه الأبراج زوجته وأخيه وصديقه المقرب. وما زال أحد هذه الأبراج شامخاً حتى الآن، ويعتقد أنه برج أخيه فصايل، وهو البرج الذي اكتسب خطأ اسم برج داود. لم يكن اختيار مكان القلعة اعتباطاً، فالقدس المحصنة بموانع طبيعية من عدة جهات، وتفتقر إلى ذلك في جهتها الغربية، لأنها منطقة مرتفعة ومشرفة على جميع نواحي المدينة.

إن القلعة اليوم نقطة التقاء بين بلدة القدس القديمة، والمدينة الحديثة التي امتدت خارج الأسوار. والقلعة بشكلها الحالي بناء مملوكي أقامه الناصر محمد بن قلاوون، بإضافات وترميمات عثمانية عديدة، أهمها التحصين الذي أقامه السلطان سليمان القانوني. وأبرز معالم القلعة المسجد المملوكي، والمسجد الصفي الذي أقامه سليمان القانوني، ومئذنة من الفترة العثمانية بنيت في زمن السلطان محمد باشا عام ١٦٥٥م.

قلعة أنطونيا ومكان حكم الامبراطور بيلاطس



في المنطقة التي تعرف حسب تقليد قديم بقلعة أنطونيا ومكان حكم الأمبراطور بيلاطس، حيث تم إدانة يسوع وتسليمه ليتم صلبه، قام معهد الدراسات الأنجيلي الفرنسيسكاني بتسليط الأضواء على موقع أثري هام مع العديد من البقايا الأثرية المميزة. وتم الحفاظ

على الموقع لعدة سنوات باعتباره «لاييداريوم» (غرفة التخزين)، وهو جزء من مبنى يعود الى أواخر القرن التاسع عشر مقر معهد الدراسات الانجيليه الفرنسيسكاني الآن.

عمارة المجلس الإسلامي الأعلى



على مقربة من باب الخليل، ومحاذة مقبرة مأمّن الله، كبرى مقابر القدس وأشهرها، تقع عمارة المجلس الإسلامي الأعلى، أو فندق بالاس، أو فندق المفتي. بنيت هذه العمارة الفخمة عام ١٩٢٩م بمبادرة من المجلس الإسلامي الأعلى بقيادة الحاج أمين الحسيني. يتميز المبنى بالفخامة وبطرازه المعماري الأندلسي في أغلب أجزائه، وقد صممه مهندس تركي. وعلى لافتة عُلقت عليه كُتب: مثلما بنى آباؤنا وفعلوا نبني ونفعل. الرواية الشهيرة تقول إن الحاج أمين الحسيني أراد بناء فندق عصري بلامح معمارية إسلامية في محاولة لمنافسة المشاريع المعمارية المتصاعدة للحركة الصهيونية أيام الانتداب البريطاني، وكنوع من المنافسة لفندق الملك داوود الذي بنى باستثمار مصري يهودي في شارع قريب منه.

وقد استولت حكومة الانتداب على المبنى عام ١٩٣٦م وحولته إلى مقر حكومي، ثم استولت عليه سلطات الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٤٨م، وصنفته ضمن أملاك الغائبين. ولفترة طويلة شغلته وزارة التشغيل والتجارة الإسرائيلية، ثم باعته سلطات الاحتلال لمجموعة فنادق هيلتون العالمية التي قامت بإعادة بنائه من الداخل، مبقيةً على واجهته

الفاخرة كما هي. ويعد الفندق واسمه الحالي ,,فندق وولدوف استوريا,, من أفخم الفنادق الإسرائيلية، خاصة أنه يقع في منطقة حيوية بالقرب من البلدة القديمة للقدس، وعلى تقاطع شوارع رئيسي غربي القدس.

قصر إسعاف النشاشيبي:



يقع قصر الأديب الفلسطيني إسعاف النشاشيبي في حي الشيخ جراح شمالي البلدة القديمة للقدس. وقد بُني عام ١٩٢٢م. وهو مكون من طابقين وتسوية. يتميز القصر بالقيشاني الأزرق الذي يزين واجهته ونوافذه، بالإضافة إلى حديقته الجميلة.

كان اسعاف النشاشيبي أديباً وشاعراً، وقد لقب أديب العربية، وكان قصره محجّةً للأدباء والمبدعين العرب، ومنهم معروف الرصافي من العراق، ومحمد عبد الوهاب وأحمد حسن الزيات ومكرم عبيد من مصر، وشكيب أرسلان وبشارة الخوري من الشّام. ومن أقوال أمين الريحاني:

ثلاثة سأذكرهم على الدوام: الحرم الشريف، وجبل الزيتون، وإسعاف النشاشيبي. تدير القصر اليوم مؤسسة دار الطفل العربي. وفي الطابق العلوي منه مكتبة لخدمة الباحثين، وفي التسوية مقهى تجاري.

بيت إنضوي وإفلين برامكي



في شارع سعد وسعيد، أو ما يعرف اليوم بشارع رقم (١) شمالي باب العمود، يرى الزائر على يساره بيتاً عربياً وسط بيوت عشوائية وعمارات مكتظة يسكنها المستوطنون. شرفات البيت شبه مهدمة، ونوافذه مسدودة بالباطون، وعلى واجهته لافتة دعائية لمتحف «خطّ التماس» الذي يشغل البيت حالياً.

بنى هذا البيت المعماري الفلسطيني إنضوي برامكي عام ١٩٣٢م وأهداه إلى زوجته إفلين. وفي العام ١٩٤٨م، وبعد احتلال (٧٨٪) من مساحة فلسطين التاريخية، ومن ضمنها غربي القدس، تم استيلاء العصابات الصهيونية على البيت، ورحلت العائلة إلى رام الله. كان شارع سعد وسعيد يشكل الحد الفاصل بين القدس المحتلة وشرقي القدس التي أصبحت تحت الحكم الأردني. ولذلك استخدم جيش الاحتلال البيت المذكور كنقطة عسكرية للمراقبة. وبالقرب منه كانت تقع بوابة مندلبوم، وهي نقطة العبور الوحيدة بين شرقي المدينة وغربها بين العامين ١٩٤٨ م و١٩٦٧م.

كان برامكي يعتلي سطح مبنى جمعية الشبان المسيحية الواقع مقابل بيته في الشطر الشرقي من المدينة ليراقب ما حل ببيته. وبعد حرب العام ١٩٦٧م وتمدد الاحتلال، حاول برامكي استعادة بيته، لكنه اصطدم بقانون أملاك الغائبين الذي سنته سلطات الاحتلال عام ١٩٥٠م، ويعد أن مَنْ كان غائباً عن المدينة تصادَر أملاكه لحساب الدولة. البيت معرض صور إسرائيلي يوثق احتلال المدينة. وفي العام ١٩٩٩م، وبفضل تبرّع سخي من عائلة

ألمانية، افتتح متحف باسم (على خطّ التماس) في بيت برامكي، وراح يستضيف عروضاً فنية من مختلف دول العالم.

وبلغت الوقاحة الإسرائيلية حد الإدعاء أن هذا المتحف الاستعماري، الذي أقيم في بيت مسروق، يسعى إلى تعزيز الحوار المشترك بين الناس من أجل توحيدهم لا تقسيمهم.

الشخصية العبقرية وعلاقتها بالأسطورة:

إن استعراض العديد من القصص ذات المضمون الديني يظهر أن ذلك المضمون منبثق من الوجدان الشعبي، وبتأثير معتقدات دينية تعكس معتقدات شعبية تفسر تلك المعتقدات. هناك حكاية تعكس ذلك المعتقد الديني القائل أن الحجر والشجر يشهدان لابن آدم. تقول الحكاية: يقال أن رجلاً وقف ذات يوم في عرفات، وأخذ سبع قطع حصى، وقال: أيها الحصى، اشهد أنني أشهد أن لا اله إلا الله وان محمداً رسول الله. وبعد ذلك نام، فرأى في المنام أنه يبعث يوم الحساب، وأن سيئاته توزن مقابل حسناته، فتفوقت السيئات على الحسنات. ويأمر الله أن يساق هذا الرجل إلى جهنم. وعندما يصل الرجل إلى أول باب من أبواب جهنم، يجد أن الحجارة التي رماها في عرفات وقفت حائلاً بينه وبين النار. أخذوه إلى أحد أبواب جهنم، فاعترضهم حجر، ولم يستطع أحد إبعاد ذلك الحجر، فأخذ الرجل إلى باب آخر من أبواب جهنم ليجد الحجر الثاني وقد وقف حائلاً بينه وبين النار. وهكذا كلما أخذ الرجل إلى باب من أبواب جهنم السبعة وجد أحد الحجارة السبعة التي ألقاها في عرفات، وأشهدها على إيمانه واقفاً يحول بينه وبين النار، ونتيجة ذلك أرسل الرجل إلى الجنة، ونجا من النار.

ويمكن تلمس معالم عبقرية المكان في القدس من خلال الشخصيات الأسطورية المعروزة في الوجدان الشعبي الفلسطيني، وذلك بالاطلاع على أربعة منها:

الشخصية العبقرية الأسطورية الأولى: الخضر الأخضر

يحظى الخضر بالعديد من المرويات والأساطير. وهو واحد من أشهر الأولياء الذين يستغاث بهم في فلسطين. ويقال انه نجح في الوصول إلى نبع الشباب الواقع بين البحرين (الأبيض والأحمر). وهذا النبع كان موضع بحث الكثير من المغامرين، من بينهم ذو القرنين، والباحثون عن سر الخلود. وقد وجد الخضر النبع، وشرب من مائه، ولذلك فهو

خالد لا يموت، وهو يظهر من فترة لأخرى. وقد تجسد بشكل درويش يحمي المظلومين ويقيم العدل. المسيحيون يعرفونه في شخص مار جريس، ويعرفه المسلمون في شخص الخضر، وتقوم مزاراته المتعددة في جميع أنحاء فلسطين. ويزورها أتباع الديانات الثلاث. ويقال أن هذا القديس يعبد الله في مزارات مختلفة كل يوم جمعة بالتناوب، فمرة في مكة، وأخرى في المدينة، وثالثة في القدس، والطور وغيرها. ويتناول وجبتين في الأسبوع، ويشرب من ماء زمزم وبئر سليمان في القدس، ويستحم في نبع سلوان في القدس. ويقع أحد المزارات الخاصة بهذا الولي على بعد ميل إلى الشمال من برك سليمان، بالقرب من بيت لحم. ويؤخذ إلى هناك المخبولون من أتباع الديانات الثلاث، حيث كان الراهب الإغريقي هناك يقوم بتقييدهم، وقراءة آيات من الإنجيل من أجلهم، أو يوجه بجلدهم، حسب مقتضى الحال. [٩: ص ٩٣].

الشخصية العبقورية الأسطورية الثانية: النبي حانون

تقول حكايات الأولياء الصالحين أن هؤلاء الأولياء يحمون من أقام بجوارهم أو استجار بهم. فقد قتل الولي النبي حانون بالقرب من بير زيت شمالي رام الله طيور الشنار التي كانت تعتدي على البيدر الموجود بجواره. وحمى الولي النبي صابر الغزاوي، الذي وضع حمل جمل من القمح ببابه، من اللصوص الذين حاولوا الاعتداء عليه. وفي أول الأمر كان اللصوص يتصورون أن الغزاوي وجمله وحمل القمح تتحرك إلى داخل المقام كلما اقتربوا منها، وعندما يتعدون يرونها وقد عادت إلى مكانها. ولم يتعد اللصوص عن الغزاوي إلا بعد أن استحال حانون إلى أفعى، وطرد اللصوص بعيداً عن الغزاوي المستجير به.

الشخصية العبقورية الأسطورية الثالثة: لقمان الحكيم

تتحدث أسطورة أخرى عن شخصية وردت في الكتب المقدسة، وهي شخصية لقمان الحكيم، وهو أحد أقرباء نبي الله أيوب. عاش عدة مئات من السنين حتى عهد داوود. كان رجلاً قبيح الشكل، اسود البشرة، ذا شفتين غليظتين، وأقدام مفلطحة، ولكن الله عوضه عن قبح شكله بالحكمة. وتحتوي السور الثلاثون الأولى من القرآن الكريم على الكثير من حكمه. وقد تعرض شخصياً للنهب، فقد أخذه البدو في غزوتهم على حوران لنهب قطعان أيوب، وباعوه كعبد، وقد حصل على حريته عندما سر سيده بجواب، فقد أعطاه سيده ذات يوم حبة ليمون وأمره أن يأكلها، فأكلها دون تردد، ولما سأله سيده عن سبب طاعته المطلقة،

وابتلاعه تلك الحبة الحادة المذاق كاملة، أجاب لقمان بأنه لا عجب في أن يقبل شيئاً مكروهاً من شخص طالما أحسن إليه. وتقول إحدى هذه الأساطير أنه عرض على لقمان الحكيم مريضاً مصاباً بمرض عضال، وشق لقمان بطنه فوجد سرطاناً يقبض على القلب، وخشي إذا نزع السرطان أن يموت المريض بسبب ضغط السرطان على القلب، واستشار من حوالبه ولم يتلق جواباً، وبسرعة أخذ يكوى قوائم السرطان بالنار، ويضع القطن مكان كل قائمة، ونزع السرطان، وشفى المريض.

الشخصية العبقورية الأسطورية الرابعة: عليسة وأخيها بجماليون

تقول أسطورة أخرى ذات صبغة تاريخية أن عليسة ابنة ملك صور كانت أميرة فينيقية، أوصي لها بالعرش ولأخيها بجماليون. ولكن الشعب تنكّر لتلك الوصية بعد وفاة الملك. وقضى أن يستأثر بجماليون بالعرش، وتمّ ذلك فعلا. فلم يكن للأميرة إلا قبول الأمر الواقع، وزفوها لخالها زكربعل، وكان رئيس كهنة معبد إله صور وحامي حماها. ولما كان لزواج عليسة ثروة طائلة، وكان من ذوي المكانة الاجتماعية المرموقة في صور، قام الملك باغتial زوج أخته، مخترقا حدود الدين وصلة الرّحم للسطو على ثروته. فلما تزلزلت عليسة، لجأت إلى حيلة حمتها من جشع أخيها الملك وإجرامه. فباتت تقنعه أنها تبغي العيش في القصر الملكي، بعيدا عن أطياف الموت التي ما انفكت تحوم في بيت زوجها، وتقوِّض مضجعها. ودبرت خطة هروبها بمساعدة ثلة من كبار التجار الذين كانوا يخافون جبروت الملك. أبحرت حتّى أصبحت بعيدة لا تطالها يد الملك. وبادرت الأميرة المهاجرة بالقاء أكياس في البحر، قالت إنها تحتوي على كنوز زوجها الشهيد، وقد رمتها في البحر قربانا لروحه الطاهرة حتّى تطمئن وتشملها السكينة. أبحرت باتجاه شمال إفريقيا، إلى أن استقرت في بلاد البربر، قريبا من تونس الحالية. وهناك فاوضت زعيم البربر، الذي لم يكن يسمح للأغرب باستيطان أراضيه، على أن يمنحها أرضاً بحجم جلد ثور، فوافق. وبخديعة ذكية منها، وكانت معروفةً بالدهاء، استطاعت أن تجعل من جلد الثور رقعةً من الأرض بحجم وطن جديد تأسست عليه مدينة قرطاج في نهاية القرن التاسع قبل الميلاد. وذلك بقدر أو تمزيق جلد الثور إلى خيوط رفيعة، ربطتها لتشكّل جبلاً يكفي كسور لأرض بحجم مدينة. وأسطورة قد جلد الثور يتم تداولها عن نشأة مدينة الخليل في فلسطين، حيث يتم نسبة الحيلة إلى نبي الله إبراهيم الخليل.

القدس تستحق أيقونة عبقرية المكان

إذا كان الفصل الأول قد رسم معمارية العبقرية بشكل عام، فقد وضع الفصل الثاني معالم عبقرية المكان، مع تحديد أطرها كنتيجة لتفاعل روح المكان مع الانطباع الذي يتركه المكان في النفس. وقدم شواهد مقنعة باستحقاق القدس وسام العبقرية، ورسم بعضاً من عوامل البناء العربية، وعدد نماذج من عوامل الهدم التي تمارسها سلطات الاحتلال. ومن الطبيعي أن يتناول الفصل الثالث عبقرية الزمان، وتطبيقاته على مدينة القدس، كأيقونة للعبقرية. تقوم سلطات الاحتلال بمحاولات تغيير المكان، فتستبدل أسماء الشوارع والأحياء والأماكن بأخرى عبرية، وتزيل الكتابات المنقوشة على جدران القدس، وتكتب أشياء جديدة من أساطيرهم بالعبرية بدلاً منها. وما علموا أن كل ذلك لن يصنع لهم تاريخاً. فالقدس جزء من ضمير الفرد الفلسطيني، وركيزة أساسية من عقيدة المسلم. يقول الشاعر معروف رفيق محمود:

يا أخت مكة والإسراء معجزة	قد شاء ربك أن تحظى بمسراك
المسجدان رباط دائم أبداً	مهما تطاول في الإنكار أعداك
شد الرحال إلى الأقصى سيحفزنا	أن نرخص الروح لاسترداد مغناك

الجدول رقم (٢)
مقياس درجة العبقرية في شخصية المكان

الرقم	المجال	بند قياس إبداعية المكان	درجة التقييم				
			١	٢	٣	٤	٥
١	الاعتمادية	يحفز السكان على إبراز التعلم الذاتي.					
٢	الربط	يعطي السكان فرصاً لتبادل الأفكار					
٣	التحفيز	يركز على اكتساب السكان المهارات المعرفية الأساسية.					
٤	إصدار الأحكام	يشجع الأفراد على دراسة الأفكار بتعمق أكثر، قبل اتخاذ موقف بشأنها.					
٥	المرونة	يحاول سبر الأفكار لتشجيع استراتيجيات التفكير.					
٦	التقييم	يؤكد ضرورة مراجعة الأعمال قبل عرضها للتقييم، ومتابعة مقترحات الآخرين والاهتمام بدراساتها.					
٧	إعطاء الفرص	يحفز على تجربة الخبرات في مواقف متنوعة.					
٨	التعامل مع حالات الإحباط	يؤكد المكان أهمية تقديم المساعدة المعنوية لمن يعاني من الإحباط، ويدعو لإتاحة فرص العمل الجماعي بصورة منتظمة.					
٩	الجانب المعرفي الإدراكي	يؤكد على أهمية المعرفة الواسعة والمعمقة في المجالات التخصصية.					
١٠	الجانب الأدائي	يؤكد إتقان مهارات التواصل اللفظي والكتابي.					
١١	الجانب الانفعالي	يركز على القدرة على العمل التشاركي وفهم القضايا الاجتماعية والأخلاقية في مجال العمل.					
١٢	السلوك الإبداعي	يؤكد على أهمية عناصر الانفتاح على الخبرات، والطلاقة، والمرونة، والأصالة، والقدرة على التوسع.					

في القدس

الشاعر الفلسطيني تميم البرغوثي

مَرَرْنَا عَلَى دَارِ الْحَبِيبِ فَرَدَّنَا
عَنِ الدَّارِ قَانُونَُ الأَعَادِي وَسُورُهَا
فَقُلْتُ لِنَفْسِي رُبَمَا هِيَ نِعْمَةٌ
فَمَاذَا تَرَى فِي الْقُدْسِ حِينَ تَرُورُهَا تَرَى كُلَّ مَا لَا تَسْتَطِيعُ احْتِمَالَهُ
إِذَا مَا بَدَتْ مِنْ جَانِبِ الدَّرْبِ دُورُهَا
وَمَا كُلُّ نَفْسٍ حِينَ تَلْقَى حَبِيبَهَا تُسَرُّ
وَلَا كُلُّ الْغِيَابِ يُضِيرُهَا
فَإِنْ سَرَّهَا قَبْلَ الْفِرَاقِ لِقَاؤُهُ
فَلَيْسَ بِمَأْمُونٍ عَلَيْهَا سُرُورُهَا
مَتَى تُبْصِرِ الْقُدْسَ الْعَتِيقَةَ مَرَّةً
فَسَوْفَ تَرَاهَا الْعَيْنُ حَيْثُ تُدِيرُهَا

في القدس، بائع خضرة من جورجيا برمّ بزوجته
يفكر في قضاء إجازة أو في طلاء البيت
في القدس، توراة وكهّل جاء من منهنّاتن العلبيا يقفّه فتية
البولون في أحكامها في القدس شرطي من الأحباش يُغلق
شارعاً في السوق..
رئاس على مستوطن لم يبلغ العشرين،
قُبعة تحيي حائط المبكى
وسياح من الإفرنج سُفّر لا يرون القدس إطلاقاً
تراهم يأخذون لبعضهم صوراً مع امرأة تبيع الفجل في الساحات

طُولَ الْيَوْمِ

في القديس دَبَّ الْجَنْدُ مُنْتَعِلِينَ فَوْقَ الْعَيْمِ

في القديس صَلَّيْنَا عَلَى الْأَسْقَلْتِ

في القديس مَن فِي الْقَدِيسِ إِلَّا أَنْتُ!

وَتَلَفَّتِ التَّارِيخُ لِي مُتَبَسِّمًا

أَظَنَنْتِ حَقًّا أَنْ عَيْنِكَ سَوْفَ تَخْطِئُهُمْ! وَتَبْصُرُ غَيْرَهُمْ

هَا هُمْ أَمَامَكَ، مَتْنُ نَصِّ أَنْتِ حَاشِيَةٌ عَلَيْهِ وَهَامِشٌ

أَحْسَبْتِ أَنْ زِيَارَةً سَتُزِيحُ عَنْ وَجْهِ الْمَدِينَةِ، يَا بُنَيَّ، حِجَابَ وَاقِعِهَا

السَّمِيكَ

لكي ترى فيها هَوَاكَ

في القديس كُلِّ فِتْيِ سِوَاكَ

وهي الغزاةُ في المدى، حَكَمَ الزَّمَانُ بَيْنِهَا

مَا زِلْتِ تَرْكُضُ إِبْرَهْمَا مُذْ وَدَعْتِكِ بَعَيْنِهَا

رَفَقًا يَنْفَسُكَ سَاعَةً إِنْ أَرَاكَ وَهَنْتِ

في القديس من في القديس إِلَّا أَنْتُ

يا كاتب التاريخ مهلاً، فالمدينة دهرها دهران

دهر أجنبي مطمئن لا يغير خطوه وكأنه يمشي خلال النوم

وهناك دهر، كامن مثلث يمشي بلا صوت حذار القوم

والقدس تعرف نفسها..

إسأل هناك الخلق يذُلك الجميع

فكلُّ شيء في المدينة

ذو لسان، حين تسألُهُ، يُبين

في القدس يزدادُ الهلال تقوساً مثل الجنين

حَدَّبًا عَلَى أَشْبَاهِهِ فَوْقَ الْقَبَابِ
 تَطَوَّرَتْ مَا بَيْنَهُمْ عَبْرَ السِّنِينَ عِلَاقَةُ الْأَبِ بِالْبَنِينَ
 فِي الْقُدْسِ أُبْنِيَّةٌ حَجَارَتُهَا اقْتِبَاسَاتٌ مِنَ الْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ
 فِي الْقُدْسِ تَعْرِيفُ الْجَمَالِ مُتَمَّنُّ الْأَضْلَاجِ أَرْزُقُ،
 فَوْقَهُ، يَا دَامَ عِرْكَ، قُبَّةٌ ذَهَبِيَّةٌ،
 تَبْدُو بِرَأْيِي، مِثْلَ مِرَاةٍ مَحْدَبَةٍ تَرَى وَجْهَ السَّمَاءِ مُلَخَّصًا فِيهَا
 تُدَلِّلُهَا وَتُذَيِّبُهَا
 تُوزَعُّهَا كَأَكْيَاسِ الْمُعْوَنَةِ فِي الْحِصَارِ لِمَسْتَحِقِّيهَا
 إِذَا مَا أُمَّةٌ مِنْ بَعْدِ خُطْبَةِ جُمُعَةٍ مَدَّتْ بِأَيْدِيهَا

وَفِي الْقُدْسِ السَّمَاءُ تَقَرَّرَتْ فِي النَّاسِ تَحْمِينًا وَنَحْمِيهَا
 وَنَحْمَلُهَا عَلَى أَكْتِافِنَا حَمَلًا إِذَا جَارَتْ عَلَى أَقْمَارِهَا الْأَزْمَانُ
 فِي الْقُدْسِ أَعْمَدَةُ الرُّخَامِ الدَاكِنَاتُ
 كَأَنَّ تَعْرِيقَ الرُّخَامِ دَخَانُ
 وَنَوَافِذُ تَعْلُو الْمَسَاجِدَ وَالْكَنَائِسَ،
 أَمْسَكْتُ بِيَدِ الصُّبَاحِ تُرِيهِ كَيْفَ النَّقْشِ بِالْأَلْوَانِ،
 وَهُوَ يَقُولُ: "لَا بَلْ هَكَذَا"،
 فَتَقُولُ: "لَا بَلْ هَكَذَا"،
 حَتَّى إِذَا طَالَ الْخِلَافُ تَقَاسَمَا
 فَالصَّبْحُ حُرٌّ خَارِجَ الْقَتَبَاتِ لَكِنْ إِنْ أَرَادَ دَخُولَهَا
 فَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى بِحُكْمِ نَوَافِذِ الرَّحْمَنِ

فِي الْقُدْسِ مَدْرَسَةٌ لِمَمْلُوكٍ أَتَى مِمَّا وَرَاءَ النَّهْرِ،
 بَاعُوهُ بِسُوقِ نِخَاسِيَّةٍ فِي أَصْفَهَا ثَلَاثًا جَرٍ مِنْ أَهْلِ بَغْدَادِ
 أَتَى حَلْبًا فِخَافَ أَمِيرِهَا مِنْ زُرْقِيَّةٍ فِي عَيْنِهِ الْيُسْرَى،

فأعطاه لقافلة أتت مصرًا
 فأصبح بعد بضع سنين غلاب المغول وصاحب السلطان
 في القدس رائحة تُلخّص بابلًا والهند في دكان عطار بخان الزيت
 واللّه رائحة لها لغة ستفهمها إذا أصفيت
 وتقول لي إذ يطلقون قنابل الغاز المسيل للدموع عليّ: "لا تحفل
 بهم"

وتفوح من بعد انحسار الغاز، وهي تقول لي: "أرايت!"
 في القدس يرتاح التناقض، والعجائب ليس ينكرها العباد،
 كأنها قطع القماش يقبلون قديمها وجديدها،
 والمعجزات هناك تلمس باليدين
 في القدس لو صافحت شيخاً أو لمست بناية
 لوجدت منقوشاً على كفيك نص قصيدة
 يا بن الكرام أو انتبين
 في القدس، رغم تتابع النكبات، ريح براءة في الجو، ريح طفولة،
 قترى الحمام يطير يعلن دولة في الريح بين رصاصتين

في القدس تنتظم القبور، كأنهنّ سطور تاريخ المدينة والكتاب
 تراثها
 الكل مرّوا من هنا
 فالقدس تقبل من أتاها كافراً أو مؤمناً
 أمرر بها واقراً شواهدا بكل لغات أهل الأرض
 فيها الزنج والإفرنج والقفجاق والصقلاب والبشناق
 والتتار والأتراك، أهل الله والهلاك، والفقراء والملوك، والفجار
 والنسك،
 فيها كل من وطئ الترى

كانوا الهوامش في الكتاب فأصبحوا نص المدينة قبلنا
يا كاتب التاريخ ماذا جدّ فاستثيتنا
يا شيخ فلنعيد الكتابة والقراءة مرة أخرى، أراك لحنث
العين تُغمض، ثم تنظر، سائق السيارة الصفراء، مال بنا شمالاً نائياً
عن بابها
والقدس صارت خلفنا
والعين تبصرها بمرآة اليمين،
تغيّرت ألوانها في الشمس، من قبل الغياب
إذ فاجأتني بسمه لم أدر كيف تسلّلت للوجه
قالت لي وقد أمعنت ما أمعنت
يا أيها الباكي وراء السور، أحمق أنت؟
أجنت؟
لا تبك عينك أيها المنسي من متن الكتاب
لا تبك عينك أيها العربي واعلم أنه
في القدس من في القدس لكن
لا أرى في القدس إلا أنت.

الفصل الثالث

العبقرية وفضاء الزمان

- أثر الزمان والمكان في عبقرية الإنسان في القدس
- شخصيات عبقرية عربية عاشت في القدس
- محطات رئيسة في تاريخ القدس وأكنافها
- أرض فلسطين أقدم المناطق الحضارية في العالم
- التناقض الواضح في الموقف التركي من القدس
- التوراة والتلمود ومصطلحات متشابكة آخر
- المواطنة: استراتيجية إسرائيلية خبيثة لسلب السيادة العربية في القدس
- البعد الديموغرافي: قمة استراتيجيات المقاومة العربية الفلسطينية
- الفلسطيني المقهور: القدس أيقونة عبقرية الزمان
- مقياس ملامح البيئة المادية والبشرية المواتية للشخصية العبقرية
- فلسطين والأنبياء عبر الزمن
- تاريخ فلسطين عبر العصور
- كلمات للوطن: الشاعر الفلسطيني توفيق زياد



الفنان التشكيلي الفلسطيني سليمان منصور

الفصل الثالث العبقرية وفضاء الزمان

أثر الزمان والمكان في عبقرية الإنسان في القدس:

إن التميز الجغرافي وحده لا يمنح القدس شخصية متميزة، ولا يجعل منها مكاناً عبقرياً، كما لا تخلق الجينات الموروثة وحدها عباقرّة من دون تأثير عاملي الزمان والمكان. لكن القدس نبض فلسطين، ولا يمكن لأحد أن ينكر الموقع المركزي الواضح لها في قلب العالم القديم، أو المكانة الثقافية المستمدة من علاقتها العضوية بالديانات السماوية الثلاث. أسوار القدس وأسواقها أجزاء أساسية من شخصية المدينة، وعبقريتها، وصور معاناتها. فقد اكتسبت قبلة المسلمين الأولى كثيراً من عناصر هويتها العبقريّة من أسوارها وأسواقها التي تعود إلى مئات السنين. ولكن أسماء بوابات الأسوار بدأت تتغير، كما صار ينمحي ما عليها من كتابات منحوتة تختزن تاريخ المدينة، بفعل المحتل الغاصب الذي يظن واهماً أن ذلك سيخلق لكيانه المغتصب من حقوق الغير تاريخاً وأمجاداً تاريخية. وصارت الأسواق تتراجع بشكل مطرد، وبصورة تكاد تُفقد عاصمة الفلسطينيين شخصيتها التاريخية، وهويتها العربية.

تبلغ مساحة القدس (١٢٥) ألف دونم، وتقسّم حالياً إلى شقّين يتنازع عليهما كل من السلطة الوطنية الفلسطينية وسلطة الاحتلال، فتنازلت السلطة إلى أن يكون الشرقي منها، ما دام من المتعذر كلها، عاصمة لدولة فلسطين. وهناك عشرات المعالم فيها، ولكل منها حكاية. وهي اليوم تعيش حالة حصار غير مسبوق يهدّد استمرار وجود معالمها الشهيرة، وبصورة تنعكس على الحياة اليومية في حاراتها. كما بدأت المدينة تفقد توازنها الديموغرافي بالتدريج، حيث سارعت سلطة الاحتلال الإسرائيلي أنشطة الاستيطان فيها، حتى صارت نسبة اليهود فيها حوالي (٨٢٪).^[٢٤]

يعود تاريخ بعض أسواق القدس إلى عهد الأمويين، وأغلبها ملاصق لسور المسجد الأقصى، وقد شكّلت جزءاً أصيلاً من هويتها. وتم تجديد تلك الأسواق في العهد العباسي، ثم أضفى عليها المماليك شيئاً من طابعهم. كما وضع الصليبيون لمساتهم على عمارتها. وآخر اللمسات المعمارية فيها كانت إسلامية عثمانية.

ما زالت معظم أسواق القدس القديمة عربية، وأغلب أصحابها عرب، لكنها صارت

شبه مهجورة بسبب الحاجة للصيانة والترميم مع مرور الزمن، والمعاناة من الاستنزاف الاقتصادي. وهناك حاجة للعناية بتجارها، ليصمدوا أمام المحاولات الإسرائيلية الشرسة لتهجيرهم، والتضييق عليهم.

في القدس القديمة، داخل السور، أسواق سميت وفق البضائع التي تباع فيها، أو نسبت إلى أشخاص أو معالم معروفة. ومنها سوق باب خان الزيت، وسوق العطارين، وسوق اللحامين، وسوق الدباغة، وسوق الحصر، وسوق البازار، وسوق الباشورة، وسوق باب السلسلة، وسوقة علون، وسوق الخواجات، وسوق حارة الواد، وسوق حارة النصارى، وسوق القطانين، والسوق الكبير، وسوق افيتموس، وسوق باب العامود، وسوق النحاسين، وسوق باب حطة، والسوق الجديد، وسوق اليهود. [٣٧ ص:٣٣].

الهوية التي اكتسبتها القدس كمدينة مقدسة، ومركز تجاري وروحي، صارت تتلاشى مع الزمن. فإسرائيل تحاول محو شخصيتها عمداً. والعبث بأسوارها وأسواقها يعكس تلك الحقيقة المرة. ففي عام ١٩٦٧م، لدى احتلال إسرائيل للجزء الشرقي من المدينة، اقتحمت الحرم القدسي الشريف، وأول ما فعلته حينذاك هو إجراء تغييرات جوهرية على أسواقها، فبنت الحيّ اليهودي، وبدأت تنسج حكايات مصنعة في محاولة لتغيير الطابع الديني للمدينة الذي يشكل القاعدة الأساسية لروحها. فأغلق الإسرائيليون عدداً من أسواقها، وحوّلوها إلى أسواق يهودية. سوق البازار الذي اشتهر ببيع الفواكه والخضار مثلاً، والذي امتاز بأرضيته المرصوفة بشكل رائع، واحد من الأسواق التي تعرضت للتهويد المباشر. فبعد أن كان سوقاً عربياً تحوّل إلى مجموعة دكاكين لليهود، تباع فيها التحف اليهودية للسياح. وسوق الدباغة، الذي كان يعد أنشط أسواق القدس في مجال تجارة الجلود والأحذية، بات شبه خالٍ بعد التغييرات التي طرأت على المدينة، وصارت دكاكينه مغلقة في معظم الأحيان. لقد اتبعت سلطات الاحتلال الإسرائيلي ست استراتيجيات رئيسة من أجل تهويد المدينة، وهي التهجير، والسيطرة على الأراضي، وهدم المنازل، وسحب الهويات، وبناء جدار العزل العنصري، والحصار الاقتصادي، وفرض الضرائب المرتفعة.

ولعل أكبر مؤشر على سياسة الهدم التي تتبعها سلطات الاحتلال من جهة، والصلمود الفلسطيني من جهة أخرى، هدم قرية العراقيب في النقب، ضمن خطة تهويد النقب، (١٥٦) مرة حتى تاريخه، لكن الفلسطينيين يعاودون البناء، ويبقون صامدين في أرضهم. ومن المؤشرات الأخرى الغارات الجوية التي تشنها سلطات الاحتلال المدججة بالسلاح على

قطاع غزة، والصمود الباسل للغزيين العزل، بل والرد بالمثل، وإجبار الصهاينة على طلب وقف إطلاق النار في بعض الحالات.^[٣٣ ص ٧٨]

يجد غير المقدسي صعوبة في الدخول إلى مدينة القدس. فهي محاطة بجدار فصل عنصري بنته سلطات الاحتلال من ثلاث جهات، ووضعت فيه بوابات، يخضع من يمرّ عبرها لتفتيش دقيق ومذلّ. وأشهر البوابات تلك القائمة بجانب مخيم قلنديا شمال القدس، وهي بوابة أقيم عليها حاجز عسكري، يخنق المدينة، ويعرقل الحركة منها وإليها. وكثفت اسرائيل من عمليات الاستيطان، وزادت من وتيرة بناء الكنس اليهودية لتغيير الطابع الأصلي للمدينة. كما قامت بعزل الأحياء العربية للقدس، وكل ما هو إسلامي أو مسيحي، وبنّت بينها أحياء يهودية، واتبعت سياسة هدم المنازل، وسحب هويات المقدسين، وفرض الضرائب الباهظة عليهم. وهذا ما تسبب بكوارث اقتصادية طالت أسواق القدس. كما لجأت لإغراء المقدسين في البلدة القديمة للانتقال إلى بيوت حديثة وعمارات شاهقة في قرية كفر عقب على أطراف القدس. غير أن الفلسطينيين واعون لمكر الصهاينة وخطتهم الجهنمية، فيصرون على البقاء في الدور العتيقة، على الرغم من كافة الإغراءات المالية التي تقدر بالملايين.^[٣٣]

في الحقبة الصليبية، بنيت ثلاثة أسواق حققت نهضة تجارية للقدس، وهي أسواق العطارين، واللحامين، والخواجات. وكانت تلك الأسواق مكاناً جذاباً للسياحة حتى قيام الانتفاضة الفلسطينية الثانية. لكنها بعد أن بني جدار الفصل العنصري، تحولت إلى أماكن شبه مهجورة. إن (٤٠٪) من اقتصاد القدس القديمة مبني على السياحة. ولكن المدينة حوصرت وخنقت بعد الانتفاضة الفلسطينية الثانية، مما تسبب بإغلاق أربعمائة متجر. وجاء ذلك الإغلاق بموازاة حملة حكومية إسرائيلية تشجع توجّه السائحين إلى المناطق اليهودية، وفنادقها، ومحالها التجارية، حيث التنزيلات المذهلة في الأسعار تدفع السائحين إلى هجر الأسواق العربية.

وتتعرض أسواق القدس لحصار اقتصادي يتجلى في فرض ضرائب مرتفعة على أصحاب المحال التجارية في الأسواق. وقد دفعهم ذلك إلى اقتصار فتح المحال ثلاثة أيام أسبوعياً (الجمعة والسبت والاحد)، وإغلاقها بقية أيام الأسبوع، والعمل بالأجرة اليومية داخل فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م للحصول على لقمة العيش. والنتيجة أن أسواق القدس فقدت عناصر كثيرة من هويتها العربية الفلسطينية، وصار مردودها الاقتصادي معدوماً، وباتت

هوية القدس مهددة، والأحياء المقدسية معزولة بعضها عن بعض، مما أفقدها أهميتها التجارية التي كانت تتمتع بها سابقاً.

صارت معالم المكان التي تشكلت عبر آلاف السنين، ومنها الأسواق والأسوار، تتلاشى شيئاً فشيئاً. فالعمارة الإسلامية التي شيّدت وفقها تلك الأسواق، صارت تنمحي بصورة تدريجية، بفعل إجراءات الاحتلال، وسياساته في تهويد المدينة، وعزلها عن محيطها الفلسطيني، ومنع الفلسطينيين من الدخول بشكل كامل تقريباً، وقد أثر ذلك كثيراً على هوية القدس، وعلى استحقاق بقائها مركزاً للنشاط التجاري والسياحي.

القدس واحدة من أبرز مدن العالم التي توالى عليها حضارات مختلفة على مر العصور. وبعد أن كانت المدينة المقدسة تستقبل السياح من كافة أصقاع العالم، ضعف قطاع السياحة تدريجياً منذ احتلالها عام ١٩٦٧م، وفقدت القدرة على تسخير السياحة من أجل التنمية المستدامة، وإرساء تفاهم أفضل بين الشعوب، وتعزيز الوعي بالتراث الثري لمختلف الحضارات. لقد جذبت السياحة الدينية للمسيحيين والمسلمين الزوار إلى المدينة بشكل كبير، ودفع ذلك للاستثمار الاقتصادي في مجال الفنادق، حتى بلغ عدد الفنادق في القدس الشرقية أربعين فندقاً في سنوات الثمانينات. لكنه مع منع سلطات الاحتلال دخول السياحة العربية للمدينة، وفصل القدس عن الجسم الفلسطيني بعد اتفاقية أوسلو، تدهور القطاع السياحي في القدس بشكل كبير، وتقلص عدد الفنادق إلى عشرين فندقاً، يبلغ مجموع غرفها الف وخمسمائة غرفة، مقابل عشرين ألف غرفة توفرها الفنادق الإسرائيلية لنزلاتها في شطري المدينة الشرقي والغربي.

لقد ساهمت اتفاقية أوسلو عام ١٩٩٣م، وزيارة أرييل شارون الاستفزازية للمسجد الأقصى عام ٢٠٠٠م، في ضرب القطاع السياحي في القدس. وساهم الأدلاء السياحيون الإسرائيليون في طمس التنوع الثقافي والحضاري في القدس بشكل كبير، وفي نشر الرواية الإسرائيلية المشوهة عن معالم المدينة، مما أثر على الوضع الإعلامي كثيراً.

إن السياحة الإسلامية القادمة من تركيا وماليزيا وإندونيسيا وبعض دول أوروبا بدأت تنتعش منذ عام ٢٠١٠م. وكان لها أثر إيجابي على إنعاش فنادق وأسواق القدس الشرقية، عدا عن السياحة الدينية المسيحية الموسمية. ووفقاً لجهاز الإحصاء المركزي الإسرائيلي، فإن عدد السياح الوافدين لفلسطين عام ٢٠١٦م بلغ (٢,٩) مليون سائح، (٦٤٪) منهم زاروا مدينة القدس، بينما أقام أكثر من (٩٠٪) منهم في الفنادق الإسرائيلية في القدس الغربية.

وتتصدر روسيا الدول التي يقبل السياح منها، فضلاً عن اليونان، وهولندا، والبرازيل. [٣٤].

شخصيات عبقرية عربية عاشت في القدس:

الشخصية الوطنية الجمعية للشعب العربي الفلسطيني متمسكة بأصالتها الثقافية، ومفتحة على العالم، وملتزمة بتنمية القدرات الإبداعية لشبابها إلى أقصى حد ممكن، لأنهم يشكلون الثروة الأساسية لوطنهم. ويعي الفلسطينيون أنهم يعيشون في عالم يعاني من التشتت، بين ميكانزم النهضة المتمثل بالدعوة إلى التفاعلية والتشاركية وقبول الآخر والتعايش معه، وميكانزم الدفاع عن الذات الذي يقوم على التقوقع والتمركز حول الذات، والاحتماء وراء ذكريات الماضي، وتاريخه المجيد. وهم يدركون تماماً أن ميكانزم النهضة أعلى شأنًا، وأوقع أثراً في مواجعتهم للمحاولات المحمومة للاستلاب الثقافي في شخصياتهم، والاحتلال الاستيطاني لأرضهم، والاعتداء السافر على هوياتهم الأصيلة. وفي المقابل، تتمسك دولة الاحتلال بميكانزم الدفاع عن الذات اليهودية، والتعصب الديني، والاحتماء وراء ذكريات الماضي المبني على الأساطير.

أكرر القول أن القدس خضعت خلال تاريخها الطويل لاثنتين وثلاثين سلطة حاكمة وثقافة سادت فيها فترة من الزمن، وأنها تعرضت للتدمير مرتين، وأنها حوصرت ثلاثة وعشرين مرة، وأنها هوجمت اثنتين وخمسين مرة. وقد شكل ذلك كله ثقافة جمعية فلسطينية ثرية، وظلت القدس عبر التاريخ عاصمة فلسطين، وقبلة العرب أتباع الديانات السماوية الثلاث. وتتجذر عبقرية الزمان من خلال تراكم الخبرات وتلاقحها، وتفاعل الثقافات للسلطات المتعاقبة على احتلالها، والمعاناة المستمرة للظروف الصعبة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً. ومن خلال التفاعل الحيوي بين عبقرية الزمان والمكان تولدت عبقرية الإنسان الفلسطيني المعاصر.

فلسطين أرض مقدسة، وهى أولى القبلتين بالنسبة للمسلمين، وهى ثالث الحرمين الشريفين، وبها المسجد الأقصى الذي لا تشد الرحال إلا إليه وإلى البيت الحرام وإلى مسجد خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في المدينه المنورة. إنها أرض مباركه، كما ورد في نص القرآن الكريم في أكثر من موضع، ومباركة بالسنة الشريفة، ومباركة بالصحابه الذين عاشوا فيها، ومباركة بالجهاد في سبيل الله عز وجل، وبالغزوات الكثيره وبالمعارك الجهادية التى تمت على أرض هذا البلد الطيب المبارك. وقد جعل الله البركة في

أهل فلسطين إلى يوم القيامة. فمن الحديث الشريف قول الرسول صلى الله عليه وسلم: لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من نأوهم حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك. فقال الصحابة وأين هم يا رسول الله؟ قال في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس.

وروى أحد الصحابة، قال: قلنا: يا رسول الله، إن ابتلينا بالبقاء بعدك، فأين تأمرنا..؟ قال: عليكم ببيت المقدس، فلعله ينشأ لكم بها ذرية، يغدون إلى ذلك المسجد ويروحون. عاش في القدس أو مر بها معظم الأنبياء والمرسلين، ومنهم إبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان ويحيى وعيسى ومحمد عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم. ويذكر من الصحابة الأبرار الذين سكنوا بيت المقدس الآتية أسماءهم. [٤: ص ٥٣-٥٤]:

- أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه: وكان القائد العام لجيوش الفتح في بلاد الشام.
- بلال بن رباح رضي الله عنه: شهد فتح بيت المقدس مع عمر بن الخطاب، وأذن في المسجد الأقصى.
- معاذ بن جبل رضي الله عنه: استخلفه أبو عبيدة على الناس بعد موته، فمات أيضاً بالطاعون.
- عياض بن غنم رضي الله عنه: دخل بيت المقدس وبنى فيها حماماً، وله رواية عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- خالد بن الوليد رضي الله عنه: سيف الله المسلول، وشهد فتح بيت المقدس.
- عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أول من ولي قضاء فلسطين، وسكن بيت المقدس، ودُفن فيها.
- تميم بن أوس الداري رضي الله عنه: وهو من أهل فلسطين في الجاهلية، أسلم وصحب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأقطعه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ديار الخليل، وكان أميراً على بيت المقدس.
- عبد الله بن سلام رضي الله عنه: قدم بيت المقدس، وشهد فتحها، وهو من المشهود لهم بالجنة.
- أبو هريرة رضي الله عنه: قدم بيت المقدس، وشهد فتحه، وهو راوي الحديث لشريف: لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد..».

- معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: قدم بيت المقدس وبويع هناك، وتلك بيعة أهل الشام له.
 - عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: قدم بيت المقدس. قال شيخ الإسلام بن تيمية: وكان ابن عمر رضي الله عنه يأتي إليه فيصلي فيه ولا يشرب فيه ماء لتصيبه دعوة سليمان عليه السلام. فقد سأل سليمان عليه السلام ربه ثلاثاً: ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وحكماً يوافق حكمه، وأن لا يؤم أحد بيت المقدس لا يريد إلا الصلاة فيها إلا غفر له. فإن هذا يقتضي إخلاص النية في السفر إليه، ولا يأتيه لغرض دنيوي.
 - شداد بن أوس رضي الله عنه: سكن بيت المقدس ومات بها في أيام معاوية وقبره في مقبرة باب الرحمة بالقرب من سور الأقصى.
 - عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه: شهد فتح بيت المقدس، ونزل بحمص، وهو صحابي جليل.
 - عمرو بن العاص رضي الله عنه: قدم بيت المقدس، وشهد الفتح، وتوفي في خلافة معاوية.
 - سلامة بن قيس رضي الله عنه: كان بعد الفتح والياً لمعاوية على بيت المقدس، ومات ودفن فيها.
 - أبو أي عبد الله بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه: هو ربيب عبادة بن الصامت، وممن صلى إلى القبلتين. سكن بيت المقدس، وهو آخر من مات من الصحابة في بيت المقدس.
 - أنيف بن ملة الجذامي: سكن الرملة، ومات ببيت جبرين في فلسطين.
 - بر بن عبد الله الداري: هو ابن عم تميم الداري. وقد سكن بيت جبرين من أرض فلسطين.
 - تميم بن أوس الداري: هو أول من أسرج السراج في المسجد؛ وأقطعه النبي صلى الله عليه وسلم بفلسطين قرية عينون، وكتب له كتاباً بذلك، وهي إلى الآن قرية مشهورة عند بيت المقدس.
 - شداد ابن أوس ابن ثابت الأنصاري: وهو صحابي جليل، وكان ممن أوتي العلم والحلم، تولى إمارة حمص، وسكن مدينة بيت المقدس، وتوفي فيها سنة ٥٨ هـ.
 - أبو ربحانة شمعون الأنصاري: وهو صحابي، سكن بيت المقدس ومات فيها.
 - ذو الأصابع التميمي: اليمني، الصحابي، سكن بيت المقدس، ومات فيها.
- ويذكر من التابعين الذين سكنوا بيت المقدس ثلاثة، وهم:

- يعلى ابن شداد ابن أوس: أدرك زمن النبوة، وأسلم زمن أبي بكر، وأتى إلى بيت المقدس للصلاة فيه.

- محارب ابن دثار السدوي: روى الحديث، وسكن بيت المقدس، ومات فيها.

- إبراهيم ابن أبي عبله: روى الحديث عن أنس وأبي أمامة، وسكن بيت المقدس، ومات فيها سنة ٥٢ هـ.

وذلك فضلاً عن بشر بن عقربة الجهني، وجندرة بن خيشنة، وأبو رويحة الفزعي، وزنباع بن سلامة الجذامي، وزيادة بن جهور اللخمي، وشمعون بن يزيد بن خنافة أو أبو ريحانة الأزدي، وعبد الله بن عمرو بن قيس بن زيد بن سواد، ومحمد بن عمرو بن العاص الذي صحب النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير.

وفي المقابل، لدى النظر إلى القدس من وجهة نظر يهودية، يقدر عدد اليهود في العالم كله (١٣,٥) مليون نسمة، منهم (٥,٧) مليوناً في دولة الاحتلال، (٥,٦) مليوناً في الولايات المتحدة الأمريكية، ونصف مليون في روسيا وفرنسا، (٢٨٠) ألفاً في بريطانيا، (٢٠٠) ألفاً في ألمانيا. وهم يعدون كل يهود العالم سكاناً في دولة الاحتلال. وللقارئ أن يتصور كيف يمكن اعتبار كل مسلمي العالم سكاناً في فلسطين. إن ذلك قمة العنصرية الدينية. وحين يحصون العباقره من اليهود، يقولون أن (١٦٢) من حملة جائزة نوبل البالغ عددهم (٨٠٢) هم من اليهود. وحين يحصون أكثر مئة شخصية مؤثرة على مستوى العالم، يقولون أن (٥١) منهم من اليهود. ويقولون أن عشرة من بين أغنى خمسين بليونيراً في العالم هم من اليهود. صحيح أن مارك زوكربيرج مؤسس فيسبوك يهودي، وأن مؤسس أوراكل لاري إيليسون يهودي، لكنهما يحسبان على أنهما أمريكيان. ولدى إحصاء العباقره في إسرائيل، يلاحظ أن من بين العباقره في مجال السياسة بنيامين نتياهو (Binyamin Netanyahu) رئيس الوزراء، وشمعون بيرس (Shimon Peres) رئيس الدولة، وإيهود باراك (Ehud Barak) وزير الدفاع، وأفيجدور ليبرمان (Avigdor Lieberman) وزير الخارجية. ونبغ منهم في المجال العلمي روث أرنون (Ruth Arnon) في مجال الكيمياء الحيوية، كما نبغ في المجال الاقتصادي شاري أريسون (Shari Arison) صاحب بنك هابوعاليم، وستانلي فيشر (Stanley Fischer) حاكم مصرف إسرائيل.

محطات رئيسة في تاريخ القدس وأكنافها:

لقد تعاقب على حكم فلسطين، وعاصمتها القدس، كل من الكنعانيين، ومملكة إسرائيل، والآشوريين، والبابليين، والفرس، واليونان، واليهود، والرومان، والبيزنطيين، والعرب (منذ الخلفاء الراشدين، والأمويين، والعباسيين، والفاطميين)، ثم الصليبيين، ومملكة القدس اللاتينية، والأيوبيين، والمماليك، والعثمانيين، والانتداب البريطاني، ثم العرب الفلسطينيين وإسرائيل. وكانت الحضارات التي تعاقبت عليها كما يأتي [٩: ٦٣ - ٧٢]:

عهد العموريين واليبوسيين:

في الألف الخامسة قبل الميلاد، قدم العموريون واليبوسيون من الجزيرة العربيّة، واستوطنوا تلك البلاد، وكانت لهم حضارتهم وثقافتهم، كما كان لهم الفضل في تأسيس مدن فلسطين الكبرى، ومنها: القدس، وأريحا، وحيفا.

عهد الكنعانيين العرب:

في الألف الثالثة قبل الميلاد جاءت قبائل من العرب يطلق عليها اسم الكنعانيين، وسكنوا تلك البلاد، واستوطنوا فيها، وفي عهدهم كانت فلسطين تسمّى أرض كنعان، ثمّ وفدت قبائل فلسطين التي كانت تسكن جزراً في بحر إيجه إلى هذه الأرض، وشاركت الكنعانيين فيها، وقد سمّيت فلسطين نسبة لهم.

عهد العبرانيين:

في الألف الثانية والأولى قبل الميلاد شهدت أرض فلسطين قدوم العبرانيين، وهم بنو إسرائيل الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم، وتمكّن بنو إسرائيل من دخول الأرض المقدّسة التي حلموا بها في زمن النبي يوشع بن نون. وعلى يد النبي داوود عليه السّلام تمكّن بنو إسرائيل من هزيمة قائد الفلسطينيين جالوت. وقد شهدت مملكة العبرانيين مراحل قوّة وضعف انتهت بانقسام المملكة إلى مملكتين، هما يهوذا، والسّامرة.

عهد الآشوريين:

في القرن السابع قبل الميلاد جاء الآشوريون من بلاد العراق ليحتلّوا أرض فلسطين، ودمروا معابد اليهود فيها.

عهد البابليين:

في القرن الخامس قبل الميلاد برزت قوّة أخرى، وهم البابليون، الذين استطاعوا من خلال قائدهم نبوخذ نصر من دخول فلسطين، والاستيلاء عليها، وسبوا اليهود إلى العراق في ذلك الوقت.

العهد الفارسي:

في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد، تمكن الإمبراطور الفارسي قورش من هزيمة البابليين، واستطاع السّيطرة على الأرض المقدّسة فلسطين، وسمح لليهود حينها بالعودة مرّة أخرى إلى فلسطين.

العهد اليوناني:

في القرن الثالث قبل الميلاد جاء الإسكندر المقدونيّ إلى تلك البلاد، وسيطر عليها ليُدوم حكمه فيها ما يقارب ثلاثمئة سنة اتّسمت بالعدل والتّسامح مع الجميع.

العهد الروماني:

في سنة ٦٣ قبل الميلاد دخل الرومان أرض فلسطين، واستولوا عليها، وظلّ حكمهم فيها حتّى الفتح الإسلامي لها.

الحكم الإسلامي لفلسطين:

في عام ٦٣٦ م فتحت جيوش المسلمين الأرض المقدّسة، وبقيت فلسطين قروناً عديدة تحت الحكم الإسلامي الذي لم تشهد له الأرض المقدّسة مثيلاً في العدالة والتّسامح، وتخلّ فترة الحكم الإسلامي الاحتلال الصّليبي للمدينة عام ١٠٩٩م، والذي دام حتّى تمكّن صلاح الدين الأيوبيّ سنة ١١٨٧م من إعادة فلسطين إلى الأمة الإسلاميّة من جديد.

الاحتلال الصّهيوني لفلسطين:

في عام ١٩٤٨م، أُعلن عن قيام دولة الاحتلال الصّهيونيّ على أرض فلسطين، وهي جائئة على صدر هذه الأرض الطّاهرة إلى يومنا هذا ببطشها وطغيانها.

ولعل من أهم المعالم في تاريخ القضية الفلسطينية قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي بشأنها. وهي على النحو الآتي [٣٣: ص ٨٥ - ٨٧]:

- قرار (١٨١) المتضمن مشروع قرار تقسيم فلسطين: بعد الضغوطات التي مارستها الدول الاستعمارية واليهود المتنفذين فيها على الدول المحايدة للتصويت لمصلحة اليهود في فلسطين، صدر قرار التقسيم من الجمعية العمومية للأمم المتحدة في عام ١٩٤٧م. وأوصى القرار بإنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، وتقسيم أراضيه إلى ثلاثة كيانات جديدة، وهي تأسيس دولة عربية فلسطينية على ٤٥% من فلسطين، وتأسيس دولة يهودية على ٥٥% من فلسطين، وأن تقع مدينتا القدس وبيت لحم في منطقة خاصة تحت الوصاية الدولية.

- قرار (١٩٤) المتضمن قرار حق العودة: قرار أصدرته الجمعية العمومية للأمم المتحدة بعد نكبة عام ١٩٤٨م. وكان أهم ما ينص عليه القرار إنشاء لجنة توفيق تابعة للأمم المتحدة، ووضع القدس تحت إشراف دولي دائم، وتقرير حق اللاجئين في العودة إلى ديارهم.

- قرار (٢٤٢) المتضمن قرار الانسحاب من الأراضي المحتلة: هو قرار أصدره مجلس الأمن الدولي التابع لمنظمة الأمم المتحدة في أعقاب نكسة ١٩٦٧م، والتي أسفرت عن هزيمة الجيوش العربية واحتلال العدو الصهيوني لكل فلسطين ومناطق عربية جديدة. وفحواه الأرض مقابل السلام .

- قرار (٣٣٨) الصادر عن مجلس الأمن عقب حرب ١٩٧٣م، والتي دارت بين سوريا ومصر من جهة وإسرائيل من جهة أخرى. ينص القرار على وقف إطلاق النار بصورة كاملة، ودعوة جميع الأطراف المعنية بتنفيذ قرار مجلس الأمن (٢٤٢) بجميع أجزائه، وفيه الانسحاب من سيناء والجولان وغزة والضفة، وإطلاق مفاوضات بين الأطراف المعنية بإشراف دولي لإقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط. وبسبب استمرار إطلاق النار، أصدر مجلس الأمن في اليوم التالي قرار رقم (٣٣٩)، وهو تأكيد للقرار (٣٣٨)، لكن لم يتوقف القتال فأصدر المجلس قراراً آخر رقمه (٣٤٠) مشابه للقرار (٣٣٨).

- اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨ م: عقدت اتفاقية سلام بين الرئيس المصري محمد أنور السادات ورئيس وزراء إسرائيل السابق مناحيم بيغن، بعد اثني عشر يوماً من المفاوضات في المنتجع الرئاسي كامب ديفيد في ولاية ميريلاند القريب من عاصمة الولايات المتحدة واشنطن. كانت المفاوضات والتوقيع على الاتفاقية تحت إشراف الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر. تتضمن محاور الاتفاقية انسحاب الاحتلال من الضفة الغربية وقطاع غزة

حسب قرار (٢٤٢)، وعقد معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية عام ١٩٧٩م. وكان من أهم بنود معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية عام ١٩٧٩م إنهاء حالة الحرب بين مصر ودولة الاحتلال، وعودة سيناء إلى السيادة المصرية مع بعض التحفظات العسكرية، وضمان عبور السفن الإسرائيلية من قناة السويس ومضيق تيران بأمن وسلام. ومن نتائج الاتفاقية أن حازت إسرائيل على أول اعتراف رسمي بها من قبل دولة عربية، وحصل الرئيسان على جائزة نوبل للسلام، وتمتع كلا البلدين بتحسين العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية مع الدول الأوروبية والولايات المتحدة، وحصول مصر ودولة الاحتلال على الكثير من المساعدات المالية والعسكرية من أمريكا حسب الاتفاقية، وعودة حقول النفط في غرب سيناء إلى السيادة المصرية. وفتح إنهاء حالة الحرب الباب أمام مشاريع لتطوير السياحة، خاصة في سيناء، وخسرت القضية الفلسطينية أقوى دولة عربية مساندة لها في ذلك الوقت وهي مصر. ورفضت الدول العربية هذه الاتفاقية، وطردت مصر من جامعة الدول العربية عام ١٩٧٩م، ثم أعيدت عام ١٩٨٩م، واغتيل أنور السادات على يد خالد الإسلامبولي عام ١٩٨١م. وكان من أهم الأحداث بعد ذلك ما يأتي:

١٩٨٧: اندلاع الانتفاضة الأولى (انتفاضة الحجارة) بتاريخ ١٢/٨ بسبب اصطدام شاحنة اسرائيلية بمجموعة من العمال الفلسطينيين بغزة مما أدى إلى استشهاد أربعة منهم.

١٩٩١: محادثات السلام في مدريد في ١٠/٣٠ حيث عقد مؤتمر السلام في اسبانيا بين الدول العربية واسرائيل برعاية دولية.

١٩٩٣: ابعاد الفلسطينيين الى مرج الزهور في ١٢/١٧ حيث ابعدت اسرائيل اكثر من ٤٠٠ قائد من حماس والجهاد الى جنوب لبنان والتوقيع على اتفاقية اوسلو بين منظمة التحرير الفلسطينية واسرائيل في ٩/١٣ وتطبيق الحكم الذاتي في غزة والضفة الغربية.

١٩٩٤: مجزرة الحرم الابراهيمي حيث قام مستوطن يهودي يدعى (باروخ جولدشتاين) بقتل ٦٠ مصليا في صلاة الفجر في المسجد الابراهيمي وذلك في ٢/٢٥ والانسحاب الاسرائيلي من غزة واريحا وتوقيع اتفاقية السلام الاردنية - الاسرائيلية في ١٠/٢٦.

٢٠٠٠: اندلاع انتفاضة الاقصى بسبب اقتحام رئيس الوزراء الإسرائيلي شارون ساحات المسجد الاقصى المبارك بحماية ثلاثة آلاف جندي اسرائيلي في ٩/٢٨ واعتبر المسلمون هذا اعظم اهانة للإسلام والمسلمين فثار الشعب العربية والاسلامية وقامت الانتفاضة المباركة.

٢٠٠٢: بناء جدار الفصل العنصري بدا في شهر حزيران حيث قامت اسرائيل فصل مدينة

القدس وفلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ بجدار اسمنتي عن اراضي الضفة الغربية ومذبحة جنين في ٤/٣ التي ارتكبتها الجيش الصهيوني في مخيم ومدينة جنين في الضفة الغربية المحتلة مما أدى إلى استشهاد ٥٣ فلسطينيا وقتل ٢٣ من الجيش الاسرائيلي.

٢٠٠٤: وفاة الرئيس ياسر عرفات في ١١ / ١١ بمدينة رام الله نتيجة تسمم بالطعام.

٢٠٠٨: الحرب الإسرائيلية على غزة - عملية الرصاص المصبوب في (معركة الفرقان)

٢٠١٢: الحرب الإسرائيلية على غزة - عملية عمود السحاب في (حجارة السجيل).

٢٠١٤: الحرب الإسرائيلية على غزة - عملية الجرف الصامد في (العصف الماكول).

٢٠١٥: اندلاع انتفاضة القدس في ١٠/٣.

٢٠١٨: الرئيس الأمريكي دونالد ترامب يعترف بالقدس عاصمة لإسرائيل، وي طرح صفقة القرن لصالح إسرائيل، وموجات الغضب تعم فلسطين.

أرض فلسطين أقدم المناطق الحضارية في العالم:

هناك من يشكك بحق الفلسطينيين في وطنهم، حتى بلغ الأمر التشكيك بوجود شعب فلسطيني أصلاً. ويمكن الرد على المشككين بما ورد في الكتب المقدسة، ويكفي التذكير بأن الإشارة إلى فلسطين وأرضها وشعبها قد وردت في التوراة (٢٩١) مرة: سفر التكوين (٧) مرات، وسفر الخروج (٣) مرات، وسفر يشوع مرة واحدة، وسفر القضاة (٣٤) مرة، وسفر صموئيل الأول (١٥٢) مرة، وسفر صموئيل الثاني (٣) مرات، وسفر الملوك الأول (٣) مرات، وسفر الملوك الثاني (٣) مرات، وسفر أخبار الأيام الأول (٢٨) مرة، وسفر أخبار الأيام الثاني (٦) مرات، وسفر الملوك الثاني (٣) مرات، وسفر أشعياء (٥) مرات، وسفر أرمياء (٤) مرات، وسفر حزقيال (٤) مرات، وسفر يوشع مرة واحدة، وسفر عاموس (٣) مرات، وسفر صفيان مرة واحدة، وسفر زكريا مرة واحدة.

أما اسم كنعان وأرض كنعان والكنعانيين، فقد وردت (٦١١) مرة في التوراة. كما ذكرت فيها أسماء مدن عربية فلسطينية على أنها مساكن للفلسطينيين (١٠٥٤) مرة. وأما أسماء إسرائيل وأرض إسرائيل فلم يردا في التوراة إطلاقاً. وقد ورد ذكر بني إسرائيل في مقام الذم والتقريع، مثل لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم. وذكرت كاسم علم وتعني يعقوب عليه السلام، مثل: يا بني إسرائيل أو من ذرية إبراهيم وإسرائيل.

وليس أدل على أن أرض فلسطين للفلسطينيين مما ورد في التوراة بشأن هجرة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام من العراق إلى فلسطين. فقد جاء في التوراة وتخرب إبراهيم في أرض الفلسطينيين أياماً كثيرة. أما القرآن الكريم، فقد ورد فيه ذكر المسجد الأقصى وأكناف المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله. وقد روي عن نبي الله سليمان بن داود أن من دخل القدس بقصد العبادة فقط غفر الله له ذنوبه. وبناء على ذلك، فقد دخل عمر بن الخطاب القدس وخرج منها ولم يشرب قطرة ماء ليغفر له.

ومن الحقائق التي يجب إبرازها عن فلسطين ما يأتي^(١٠١)

- أرض فلسطين من أقدم المناطق الحضارية في العالم، وحسب الاكتشافات الأثرية الحديثة، أول أرض شهدت تحول الإنسان إلى حياة الاستقرار والزراعة قبل حوالي أحد عشر ألف سنة، وفي ربوعها أنشئت أقدم مدينة في التاريخ، وهي مدينة أريحا، حوالي ٨ آلاف سنة ق.م، وما زالت معمورة زاخرة بالحضارات المختلفة حتى الآن.
- أرض فلسطين لها مكانة عظيمة في قلب كل مسلم. فهي أرض مقدسة ومباركة بنص القرآن الكريم، وفيها المسجد الأقصى أول قبلة للمسلمين، وثاني مسجد بُني لله في الأرض، وثالث المساجد مكانة في الإسلام، وهي أرض الإسراء، فإليها أسرى محمد صلى الله عليه وسلم. وهي أرض الأنبياء، فقد ولد في هذه الأرض وعاش عليها ودفن في ثراها الكثير من الأنبياء عليهم السلام الذين ذكروا في القرآن الكريم، وتعد في المنظور الإسلامي أرض المحشر والمنشر، وعقر دار الإسلام، والمقيم المحتسب فيها كالمجاهد في سبيل الله، ومركز الطائفة المنصورة والثابتة على الحق إلى يوم القيامة.
- أرض فلسطين مقدسة لدى المسلمين واليهود والنصارى: فيعُدُّها اليهود أرضهم الموعودة، ومحور تاريخهم، ومرقد أنبيائهم، ويعُدُّها النصارى مهد ديانتهم، حيث ولد عيسى عليه السلام وقام بدعوته، وبها مراكزهم الدينية العظيمة في القدس وبيت لحم والناصرة.
- يؤمن المسلمون أنهم الورثة الحقيقيون الجديرون بميراث داود وسليمان وأنبياء بني إسرائيل وصالحهم، ممن حكموا فلسطين رداً من الزمن تحت راية التوحيد، وأن شرعية حكمها تحولت إلى المسلمين لأنهم رافعوا راية التوحيد من بعد هؤلاء الرسل، والسائرون على درب الأنبياء. ويعتقد المسلمون أن اليهود تنكبوا عن طريق الحق، وحرّفوا كتبهم، وقتلوا أنبياءهم، وباؤوا بسخط الله سبحانه وغضبه.

● إن أقدم شعب معروف سكن فلسطين، وطبعها بطابعه هم الكنعانيون، الذين قدموا من جزيرة العرب منذ نحو ٤٥٠٠ عام، وعرفت أول الأمر باسم أرض كنعان. وشعب فلسطين الحالي هم أحفاد الكنعانيين، ومن اختلط بهم بعد ذلك من شعوب شرقي البحر المتوسط أو الفلستينيون، والقبائل العربية، وعلى الرغم من أن فلسطين حكمها أقوام شتى بين فترة وأخرى، إلا أن أهلها ظلوا يعمرونها دوماً انقطاع، وإن أهل فلسطين هؤلاء هم أنفسهم الذين أسلمت أغلبيتهم الساحقة وتعربت لغتهم مع قدوم الإسلام، وتأكدت الهوية الإسلامية لأرض فلسطين لأطول فترة تاريخية متواصلة منذ الفتح الإسلامي لها في ١٥ هـ - ٦٣٦ م وحتى الآن، ولا عبءة بإخراج جزء من أهلها قهراً بعد الاحتلال الصهيوني لها عام ١٩٤٨.

● إن مزاعم الحق التاريخي لليهود في فلسطين تنهاوى أمام حق العرب المسلمين في أرضهم، فأبناء فلسطين عمروا هذه الأرض قبل نحو ١٥٠٠ عام من إنشاء بني إسرائيل دولتهم (مملكة داود)، واستمروا في أثنائها، ثم بعد أن انقطعت صلة اليهود بها إلى الآن. لقد حكم اليهود أجزاء من فلسطين (وليس كلها) حوالي أربعة قرون (خصوصاً بين ١٠٠٠-٥٨٦ ق.م) وزال حكمهم، كما زال حكم غيرهم من الدول كالأشوريين والفرس والفراعنة والإغريق والرومان، وظل شعب فلسطين راسخاً في أرضه. وكان الحكم الإسلامي هو الأطول حيث استمر حوالي ١٢٠٠ سنة (٦٣٦-١٩١٧) باستثناء الفترة الصليبية (٩٠عاماً)، وانقطعت صلة اليهود عملياً بفلسطين نحو ١٨٠٠ عام (منذ ١٣٥٠ م - وحتى القرن العشرين) دون أن يكون لهم تواجد سياسي أو حضاري فيها، بل وحرمت تعاليمهم الدينية العودة إليها. وإن أكثر من (٨٠%) من اليهود المعاصرين، حسب دراسات عدد من اليهود أنفسهم مثل الكاتب الشهير آرثر كوستلر، لا يمتون تاريخياً بأي صلة لفلسطين، كما لا يمتون قومياً لبني إسرائيل، فالأغلبية الساحقة لليهود اليوم تعود إلى يهود الخزر الأشكناز، وهي قبائل تترية، تركية قديمة كانت تقيم في شمالي القوقاز، وتهودت في القرن الثامن الميلادي. فإن كان ثمة حق عودة لهؤلاء اليهود، فهو ليس إلى فلسطين، وإنما إلى جنوب روسيا. إن دعوى تعلق اليهود بفلسطين وارتباطهم بها لا تقف أمام حقيقة أن معظم بني إسرائيل رفض الانضمام إلى موسى عليه السلام في مسيرته إلى الأرض المقدسة، كما رفض معظمهم العودة إليها من بابل بعد أن عرض عليهم الإمبراطور الفارسي قورش ذلك. وطوال التاريخ وحتى أيامنا هذه، لم تزد أعداد اليهود في فلسطين في أفضل أحوالهم عن (٤٠%) من اليهود في العالم.

• تعود أسباب نشأة الحركة الصهيونية، التي سعت لإنشاء كيان يهودي في فلسطين، إلى ظهور النزعات الصهيونية المؤيدة لتجميع اليهود في فلسطين، وإلى ظهور الأيديولوجيات القومية والوطنية ونشوء الدولة القومية في أوروبا، خصوصاً في القرن التاسع عشر، وإلى نشأة المشكلة اليهودية خصوصاً في أوروبا الشرقية، وما تعرض له اليهود من اضطهاد على يد الروس، وإلى تمكّن اليهود من الوصول إلى عدد من دوائر النفوذ في أوروبا وأمريكا، بالإضافة إلى فشل حركة الاستنارة اليهودية التي سعت إلى دمج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها.

• إن فكرة إنشاء الكيان اليهودي ليقوم بدور «الدولة الحاضرة» والتي دعمها الاستعمار الغربي، وخصوصاً بريطانيا، تمثل ذروة الخطر الغربي - الصهيوني في قلب العالم الإسلامي، إذ تهدف إلى شطر جناحي العالم الإسلامي في آسيا وأفريقيا إلى شطرين منفصلين، وبذلك تسعى إلى إضعافه ومنع وحدته، وإبقائه مفككاً عاجزاً عن النهضة، قابلاً في دائرة التبعية، منتجاً للمواد الأولية وسوقاً استهلاكياً للمنتجات الغربية، إن معادلة بقاء الكيان اليهودي - الصهيوني واستقراره وتموه - في وسطٍ معادٍ - مرتبطة بضمان ضعف ما حوله من أقطار المسلمين وتفككها وتخلفها، وإن معادلة نهضة الأمة ووحدتها وقوتها مرتبطة بالقضاء على المشروع اليهودي - الصهيوني الجاثم على قلبها.

• نشأت المنظمة الصهيونية العالمية في بال بسويسرا في أغسطس ١٨٩٧ م بقيادة تيودور هرتزل، وربطت نفسها بالمشروع الاستعماري الغربي، وفشلت في الحصول على أي شيء ذي قيمة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، والحركة الصهيونية حركة عنصرية قائمة على ديباجات وخلفيات دينية وتراثية وقومية يهودية، وشرط نجاحها مرتبط بإلغاء حقوق أهل فلسطين العرب في أرضهم والحلول مكانهم. ولا فرق في جوهر الفكرة الصهيونية بين تيارات علمانية أو اشتراكية أو دينية أو ثقافية أو سياسية، فالصهاينة كلهم في النهاية صهاينة توفيقيون يسعون إلى الأهداف العليا نفسها.

• تبنّت بريطانيا المشروع الصهيوني، فأصدرت في ٢ نوفمبر ١٩١٧ وعد بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وتمكنت من إتمام احتلالها لفلسطين في سبتمبر ١٩١٨، وتكررت لعودها للعرب بزعامة الشريف حسين بالحرية والاستقلال، وقسمت دوائر النفوذ في بلاد الشام والعراق بينها وبين فرنسا وفق اتفاقيات «سايكس - بيكو» مايو ١٩١٦ التي خططت لجعل فلسطين منطقة دولية، ثم إن بريطانيا استأثرت بفلسطين وفق اتفاقيات سان ريمو

إبريل ١٩٢٠، وتمكنت من إدماج وعد بلفور في صك انتدابها على فلسطين الذي أقرته لها عصبة الأمم في يوليو ١٩٢٢.

• فتحت بريطانيا خلال احتلالها لفلسطين ١٩١٨-١٩٤٨ الأبواب للهجرة اليهودية فتضاعف عدد اليهود من ٥٥ ألفاً سنة ١٩١٨ إلى ٦٤٦ ألفاً سنة ١٩٤٨، كما دعمت تملك الأراضي فتزايدت ملكية اليهود للأرض من نحو نصف مليون دونم إلى نحو مليون و٨٠٠ ألف دونم (٦,٧٪ من أرض فلسطين)، تسربت إلى اليهود في الغالب من الحكم البريطاني أو من أيدٍ إقطاعية غير فلسطينية، وتمكّن شعب فلسطين رغم قسوة الظروف والمعاناة من الصمود في أرضه طيلة ثلاثين عاماً محتفظاً بأغلبية السكان ٣,٦٨٪ وبمعظم الأرض ٣,٩٣٪، وتمكن اليهود تحت حماية الحراب البريطانية من بناء مؤسساتهم الاقتصادية والسياسية والتعليمية والعسكرية والاجتماعية، وفي سنة ١٩٤٨ كانوا قد أسسوا ٢٩٢ مستعمرة، وكونوا قوات عسكرية من منظمات الهاغاناه و الأرجون وشتيرن يزيد عددها عن سبعين ألف مقاتل، واستعدوا لإعلان دولتهم.

• رغم أن المؤامرة على فلسطين كانت أكبر بكثير من إمكانات الشعب الفلسطيني، إلا أن شعب فلسطين رفض الاحتلال البريطاني والمشروع الصهيوني، وطالب بالاستقلال. وقامت التيارات الوطنية والإسلامية بزعامة موسى كاظم والحاج أمين الحسيني ورفاقهم بالتعبئة الشعبية والتحرك السياسية والثورات العارمة، فكانت ثورات القدس ١٩٢٠، ويافا ١٩٢١، والبراق ١٩٢٩، وأكتوبر ١٩٣٣، وحركة الجهادية بقيادة الشيخ عز الدين القسام ومنظمة الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسيني، وتحت ضغط الثورة الكبرى ١٩٣٦ - ١٩٣٩ اضطرت بريطانيا في كتابها الأبيض مايو ١٩٣٩ أن تتعهد بقيام الدولة الفلسطينية خلال عشر سنوات وبأن توقف بيع الأرض لليهود إلا في حدود ضيقة، وبأن توقف الهجرة اليهودية بعد خمس سنوات، ولكنها تنكرت لالتزاماتها في نوفمبر ١٩٤٥ تصريح بيفن، وعادت الحياة للمشروع الصهيوني من جديد برعاية أمريكية.

• في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها رقم ١٨١ بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية و يهودية (نحو ٥٤٪ للدولة اليهودية، و٤٥٪ للدولة العربية و١٪ منطقة دولية منطقة القدس، وقرارات الجمعية العامة ليست قرارات ملزمة حتى ضمن مواثيق الأمم المتحدة نفسها، والقرار نفسه مخالف للأساس الذي قامت عليه الأمم المتحدة، وهو حق الشعوب في الحرية وتقرير مصيرها بنفسها. ثم إن الشعب الفلسطيني

المعني أساساً بالأمر لم تتم استشارته ولا استفتاؤه، فضلاً عن الظلم الفادح في إعطاء الأقلية اليهودية الصهيونية الدخيلة المهاجرة الجزء الأكبر والأفضل من الأرض.

● أعلن الصهاينة دولتهم إسرائيل في مساء ١٤ مايو ١٩٤٨، وتمكنوا من هزيمة الجيوش العربية، واستولى الصهاينة على نحو ٧٧٪ من أرض فلسطين (٢٠٧٧٠ كم^٢)، وشردوا بالقوة ٨٠٠ ألف فلسطيني خارج المنطقة التي أقاموا عليها كيانهم، وذلك من أصل ٩٢٥ ألفاً كانوا يسكنون في هذه المنطقة (كان المجموع الكلي للفلسطينيين في نهاية ١٩٤٨ نحو مليون و٤٠٠ ألف نسمة). ودمّر الصهاينة ٤٧٨ قرية فلسطينية من أصل ٥٨٥ قرية كانت قائمة في المنطقة المحتلة، وارتكبوا ٣٤ مجزرة. أما بالنسبة لما تبقى من فلسطين فقامت الأردن بضم الضفة الغربية رسمياً إليها (٥٨٧٦ كم^٢) كما وضعت مصر قطاع غزة (٣٦٣ كم^٢) تحت إدارتها، ووافقت الأمم المتحدة على دخول الكيان الصهيوني إسرائيل في عضويتها، بشرط السماح بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى أرضهم، وهو ما لم يفعله الكيان الصهيوني مطلقاً.

● أنشئت منظمة التحرير الفلسطينية سنة ١٩٦٤ برئاسة أحمد الشقيري، وبدعم مباشر من جمال عبد الناصر الذي خشي أن يفلت زمام القضية من يديه، بعد أن بدأت الساحة الفلسطينية تلمح بالحركات السرية والتنظيمات، وخصوصاً فتح التي ترجع جذورها إلى سنة ١٩٥٧. وهدفت إلى تحرير الأرض المحتلة سنة ١٩٤٨، وشدّد ميثاقها على الكفاح المسلح طريقاً وحيداً للتحرير. وقد رحب عامة الفلسطينيين بإنشائها باعتبارها تجسيدا للهوية الوطنية والكيانية الفلسطينية بعد تغييب طويل. وفي عام ١٩٦٨ انضمت المنظمات الفدائية الفلسطينية وعلى رأسها فتح إلى «م.ت.ف» وتولى ياسر عرفات زعيم فتح قيادة «م.ت.ف» منذ فبراير ١٩٦٩. وفي سنة ١٩٧٤ أقرت الأنظمة العربية لـ«م.ت.ف» بأنها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، وتم تمثيلها في العام نفسه بصفة عضو مراقب في الأمم المتحدة.

● كانت حرب يونيو ١٩٦٧ هزيمة مُرةً للأنظمة العربية، ففي بضعة أيام احتل الكيان الصهيوني باقي فلسطين فسقطت الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية، وقطاع غزة، وتم تشريد ٣٣٠ ألف فلسطيني. كما سقطت الجولان السورية، وسيناء.

● واصل الكيان الصهيوني تهويد أرض فلسطين، وسعى لاجتثاث هويتها الإسلامية ومعالمها الحضارية، فقد صادر حوالي ٩٦٪ من الأرض التي احتلها سنة ١٩٤٨ بما في ذلك أراضي وأملاك الفلسطينيين الذين قام بتشريدهم، ومعظم الأوقاف الإسلامية، والكثير من أراضي من بقي من العرب هناك، وبنى الصهاينة (٧٥٦) مدينة وقرية استيطانية في الأرض المحتلة

عام ١٩٤٨م. ومنذ حرب ١٩٦٧ م صادر الصهاينة حوالي (٦٠٪) من مساحة الضفة الغربية وبنى فوقها (١٩٢) مستعمرة، كما صادر (٣٠٪) من مساحة قطاع غزة وبنى فوقها (١٤) مستوطنة. وبينما حرّم الكيان الصهيوني أبناء فلسطين من العودة إلى أرضهم، فتح أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين فهاجر إليها أكثر من مليونين و ٨٠٠ ألف يهودي خلال الفترة ١٩٤٩ - ٢٠٠٠م، ليلبغ العدد الكلي لليهود حوالي خمسة ملايين و ٢٠٠ ألف في سنة ٢٠٠٢.

- تمسك اللاجئون الفلسطينيون بحقهم في العودة إلى أرضهم، ورفضوا كل مشاريع توطينهم خارج أرضهم والتي وصلت إلى ٢٤٣ مشروعاً، ورغم أن الأمم المتحدة أصدرت أكثر من ١١٠ قرارات بحق اللاجئين في العودة، إلا أن أياً منها لم ينفذ بسبب إصرار الكيان الصهيوني على رفضها.

- تعاملت الأمم المتحدة مع قضية فلسطين على أنها قضية لاجئين منذ ١٩٤٩ وحتى بداية السبعينيات من القرن العشرين. ومنذ ١٩٧٤ أخذت تصدر قرارات كثيرة بأغلبية ساحقة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة بإعطاء الفلسطينيين حق تقرير المصير، وبشرعية الكفاح الفلسطيني (بما فيه الكفاح المسلح) لاسترداد الحقوق المغتصبة، وباعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال التفرقة العنصرية، وبحق اللاجئين غير القابل للتصرف في العودة إلى أرضهم.
- مثلت الفترة ١٩٦٧-١٩٧٠ الفترة الذهبية للعمل الفدائي والمقاومة الفلسطينية، غير أنها حرمت منذ ١٩٧١ من استخدام الساحة الأردنية، ورغم تركيزها بعد ذلك في الساحة اللبنانية إلا أنها عانت من محاولات الاستهداف والاجتثاث خلال الحرب الأهلية اللبنانية ١٩٧٥ - ١٩٩٠، وأسهم العدوان الصهيوني المستمر على لبنان، واجتياحه الجنوب اللبناني سنة ١٩٧٨ وتشكيله لحزام أممي عميل، ثم اجتياحه الجنوب سنة ١٩٨٢ في ضرب البنية التحتية للمقاومة، وبذلك أغلقت كل الحدود العربية مع الكيان الصهيوني في وجه المقاومة الفلسطينية.

التناقض الواضح في الموقف التركي من القدس

هناك تناقض واضح بين مواقف المماليك والعثمانيين نحو القدس من جهة وموقف الأتاتوركين نحوها من جهة أخرى. لكن الإنجازات الرائعة لكل من المماليك والعثمانيين تفوق أثراً مواقف الأتاتوركين الذين كانوا أول من اعترف بما يسمى دولة إسرائيل الغاصبة لأرض فلسطين.

المماليك سلالة من الجنود التي تعود أصولهم إلى آسيا الوسطى، حكموا مصر والشام والعراق وأجزاء من الجزيرة العربية أكثر من قرنين ونصف القرن (١٢٥٠-١٥١٧م). وقد تهيأت عوامل كثيرة أسهمت إسهاماً كبيراً في تأسيس دولة المماليك التي خرجت من رحم الدولة الأيوبية، وقامت على أنقاضها. شهد عصر المماليك إنجازات مهمة كثيرة وعظيمة، وخاصة على الصعيدين العسكري والفكري، فمن الناحية العسكرية استطاع المماليك صد خطرين يعدان من أشرس الأخطار وأكبرها عبر التاريخ، وتمثل ذلك في تطهير الأرض العربية الإسلامية من الاحتلال الصليبي،

وتصدى المماليك كذلك للخطر المغولي القادم من الشرق، والذي لا يقل قوة عن الخطر الصليبي. واستطاع المظفر قطز والظاهر بيبرس أن يضعوا خطة عسكرية محكمة، استطاعوا من خلالها صد المغول وهزيمتهم عند عين جالوت عام ١٢٦٠م.

وعلى الصعيد الفكري تحقّق في عصر دولتي المماليك البحرية والجرسية كثير من الإنجازات العلمية، فقد شهد ذلك العصر - وخاصة عصر المماليك البحرية - انتعاشاً فكرياً كبيراً يوازي في كثير من تفاصيله ما شهدته الأرض العربية الإسلامية من نهضة في عصورها المختلفة.

وشهد ذلك العصر إبداع طريقة كتابة المكفوفين المصطلح عليها اليوم بلغة برايل، وتم ذلك على يد العالم علي بن أحمد الأمدي، كما شهد إبداع علم التعمية والتشفير على يد علي بن محمد بن الدريهم في كتابه «مفتاح الكنوز في إيضاح الرموز، وإبداع أول ساعة ميكانيكية على يد علي بن إبراهيم بن الشاطر. كما شهد أول صناعة للعدادات (الطوربيدات) المزودة بمحركات صاروخية، وأنجز ذلك الحسن الرماح، وغير ذلك من الإنجازات العديدة، التي جعلت من العصر المملوكي عصرًا مكملًا لسلسلة الإنجازات العلمية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

وكان لسقوط دولة المماليك عوامل كثيرة داخلية وخارجية. وكان الصراع الأخير بين العثمانيين والمماليك في معركة مرج دابق والريدانية. وطويت آخر صفحة لدولة المماليك.

بدأ حكم العثمانيين للوطن العربي. ويذكر أنه خلال فترة حكم السلطان سليمان القانوني، أعيد بناء سور القدس الذي ظل متهدماً لثلاثمئة عام، وخصصت أموال طائلة لحل مشكلة المياه في المدينة، بتعمير برك سليمان، وقناة السبيل التي كانت تزود القدس بالماء من برك سليمان. كما أعاد السلطان سليمان تجديد قبة الصخرة المشرفة. وقامت زوجته

الروسية الأصل وروكسيلانة بإنشاء التكية المعروفة بتكية خاصكي سلطان التي آوت طلاب العلم، وقدمت وجبات الطعام للفقراء من أبناء مدينة القدس. وتم مد خط سكة حديد بين القدس وميناء يافا، كما ربطت القدس بخطوط التلغراف مع مصر وبيروت وأوروبا، وزُوِّدت المدينة بالكهرباء.

وقد أدركت الدولة العثمانية مبكراً خطورة الأوضاع والمؤامرات التي تحيق بفلسطين، خاصة بعد عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال السويسرية سنة ١٨٩٧م. فعارض العثمانيون الهجرات اليهودية إلى القدس، ولم يقبل السلطان عبد الحميد الثاني إجراءات مالية ضخمة قدمها زعيم الحركة الصهيونية تيودور هرتزل لبيع فلسطين. وأثر عنه أنه قال: لا أقدر أن أبيع ولو قدما واحداً من البلاد؛ لأنها ليست لي بل لشعبي. ولقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإرافة دمائهم، وقد غذوها فيما بعد بدمائهم، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا.

ولكن بعد انقلاب جمعية تركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقي على السلطان عبد الحميد، وصعود أتاتورك وحزبه إلى سدة الحكم، سمحتا لليهود بالهجرة والاستيطان وشراء الأراضي وتأسيس المستوطنات. وصارت تركيا تحت حكم حزب الشعب العلماني بقيادة عصمت إينونو مساعد أتاتورك، وخليفته على رئاسة الجمهورية، أول دولة ذات غالبية مسلمة تعترف بإسرائيل سنة ١٩٤٩م.

وفي فترة الستينيات والسبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، شهد الموقف التركي تجاه العرب والقضية الفلسطينية تحولاً إيجابياً. ففي سنة ١٩٧٩م، أقامت حكومة بولنت أجاويد علاقات مع منظمة التحرير الفلسطينية، وسمح لها بفتح مكتب في أنقرة، واحتجّت تركيا بشدّة على ضم إسرائيل للقدس المحتلة، وسحبت القائم بأعمالها من تل أبيب، وأبقت التمثيل الرسمي على مستوى السكرتير الثاني. ثم شهدت العلاقات التركية الإسرائيلية ازدهاراً في عهد رئاسة سليمان ديميريل، الذي وجّه دعوة رسمية إلى نظيره الإسرائيلي عيزرا وايزمان لزيارة تركيا. وتكرر الدعوة لشمعون بيريز وزير الخارجية آنذاك، وقامت رئاسة الوزراء التركية تشيلر، والرئيس التركي سليمان ديميريل بزيارة إسرائيل.

في عام ٢٠٠٢م، فاز حزب العدالة والتنمية المتصف بالاعتدال، وهو الحزب الذي انشق أعضاؤه عن حزب الفضيلة التركي المنبثق عن حزب الرفاه الذي أسسه نجم الدين أربكان رئيس وزراء تركيا الأسبق، والرجل الذي عُرفت ميوله الإسلامية بوضوح، وإن كانت دون

اصطدام بالعسكر الذي انقلب عليه في عام ١٩٩٧م.

على الرغم من أن طبيعة العلاقات الخارجية السياسية بين تركيا وإسرائيل لم تتغير خلال السنوات الأولى لحكم حزب العدالة والتنمية بزعامة أردوغان، فإن رئيس الحكومة رجب طيب أردوغان رفض استقبال رئيس الحكومة الإسرائيلية أرييل شارون، بعد وصف ممارساته من قبل أردوغان بـ إرهاب الدولة عقب استشهاد مؤسس حركة حماس الشيخ أحمد ياسين.

ظل الدور التركي في فلسطين يتنامى منذ مجيء حزب العدالة والتنمية، ففي العام ٢٠٠٥م قررت تركيا إنشاء مكتب لوكالة الإغاثة التركية تيكا في فلسطين، والتي ركزت اهتمامها في مجالي التعليم والصحة، ومنذ تاريخ الإنشاء وحتى اليوم أقامت المؤسسة أكثر من ٦٠٠ مشروع ما بين مستشفيات ومدارس ومشاريع صغيرة نالت غزّة ثم القدس ثم بقية المدن الفلسطينية النصيب الأكبر منها، بحسب دليل المؤسسة الصادر في عام ٢٠١٧م.

وقد شرعت وكالة الإغاثة التركية تيكا في تقديم مساعداتها المادية لأهل القدس من خلال المساهمة في إنشاء المشروعات الاقتصادية والتعليمية، وإفطار الصائمين في باحات المسجد الأقصى، وإقامة الأمسيات الثقافية، ومبادرات غرس الزيتون، وفي العام ٢٠١٥م قررت هيئة الشؤون الدينية التركية ديانات إدراج المسجد الأقصى ضمن برنامج المعتمرين الأتراك قبل توجهه إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة، الأمر الذي عززته شركات السياحة والطيران التركية بتخفيض أسعار تذاكر السفر إلى القدس في خطوة داعمة، ولتمكين أكبر عدد من الأتراك من زيارة القدس والمسجد الأقصى.

كما رمت جمعية حماية وإحياء الميراث العثماني في القدس وأكافها (ميراثنا التركي) في العام ٢٠١٦م، ٤٥ مسجداً تاريخياً، وأكثر من ٧٠ منزلاً قديماً في مدينة القدس وباقي الأراضي الفلسطينية. فهناك أربعة آلاف منزل قديم يحتاج إلى الصيانة في البلدة القديمة بالقدس، وقد رفض أصحاب تلك المنازل بيعها على الرغم من عرض أثمان باهظة عليهم لقاء ذلك، مما يشير إلى الدور التركي الرامي إلى صد المحاولات الإسرائيلية للاستيلاء بالقدس وأهلها. ومن المساهمات التركية، تنظيم الملتقى الدولي لأوقاف القدس في إسطنبول لإنشاء وقف استثماري لصالح المدينة، كما خرج الأتراك في تظاهرات حاشدة رفضاً للاعتداءات الإسرائيلية على المقدسات الإسلامية في القدس.

يتضح من ذلك أن الدور التركي تجاه القضية الفلسطينية والقدس قد سار على طريقتين

متناقضين: طريق المماليك والعثمانيين الأوائل، حيث الاهتمام بالمدينة المقدسة وآثارها ومعالمها وإعمارها ودعم أهلها وإنشاء الأوقاف فيها، وهو الطريق الذي يحييه اليوم حزب العدالة والتنمية وحكومته ورئيسه أردوغان، فضلا عن المؤسسات الخيرية والإغائية التركية الكبرى التي تتوسع يوما بعد آخر. والطريق الآخر طريق أتاتوركى تجلّى من خلال حزب الشعب الجمهوري وحكوماته المتعاقبة التي فضّلت الدخول في علاقات إستراتيجية عسكرية وسياسية واقتصادية مع الجانب الإسرائيلي الغاصب لأرض فلسطين.

التوراة والتلمود ومصطلحات متشابكة آخر:

التوراة كلمة عبرية تعني تعليمات . وتعرف بأنها كتب موسى الخمس. وهي مخطوطة دينية، تتضمن النص الكامل لقوانين اليهود وتقاليدهم. أما التلمود، فهو أكثر المخطوطات أهمية في الديانة اليهودية. والكلمة عبرية معناها بالعربية (تعاليم). ويتضمن التلمود تاريخ الديانة اليهودية، بالإضافة إلى قوانينهم ومعتقداتهم، وهو الأداة الرئيسة لتعليم أخلاق تلك الديانة. وحسب المعتقدات اليهودية، فإن موسى كان قد تلقى التوراة مكتوبة جنباً إلى جنب مع التعاليم التي ألقاها الرب إليه شفويّاً. وهذه النسخة الشفوية، التي دونها الحبر يهوداً، هي ما يسميها اليهود بالتلمود. وهي تفسر النصوص المكتوبة لتسهل على الناس اتباع هذه التعاليم في حياتهم اليومية. وهناك نسختان من التلمود، الأولى تسمى بالتلمود البابلي (الأكثر كمالاً وانتشاراً)، والثانية تلمود القدس.

يعرف القانون اليهودي الذي يطبقه يهود العصر الحديث باسم التوراة، ويقول اليهود أن التوراة أكثر مرجعية للمجتمع اليهودي، على الرغم من أنهم لا يزالون يقتبسون بعضاً من تقاليدهم من التلمود. فالتلمود أداة أساسية لتعلم تعاليم هذه الديانة. أما التوراة فتعرف بشكل كبير على أنها وصايا موسى الخمس، وهي السياق الكامل للقوانين والتقاليد اليهودية.

ولا بد من التوضيح المفاهيمي بأن الصهيونية والإسرائيلية سياستان متكئتان على اليهودية كدين سماوي، وأن العبرية قومية وشعبوية. [٤: ص. ٥٣-٥٦].

قبل إعلان ما سمي دولة إسرائيل، تم اقتراح بعض الأسماء للدولة الجديدة، من بينها: يهودا، عيبر، صهيون، إيرتس إسرائيل، أي أرض إسرائيل. وقد تم اختيار اسم إسرائيل أو دولة إسرائيل لأسباب متعددة، منها أن استخدام النعت يهودي يشير إلى أبناء الديانة

اليهودية أو إلى مجموعة عرقية. أما اسم يهودا، فهو الاسم العبري لجبال الخليل، التي كانت ضمن حدود الدولة العربية حسب خطة الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين. وأما اسم عيبر، فغير معروف لدى الجمهور، وكان يشير إلى كتلة سياسية يهودية معينة، وهي كتلة يهود علمانيون فضلوا تسميتهم عبريين بدلا من يهود. فضلاً عن أنه يجب التفريق بين إيرتس إسرائيل كمصطلح جغرافي واسم الدولة الجديدة.

إن مصطلح دولة إسرائيل سياسي محدد، بينما أرض إسرائيل مصطلح جغرافي. فدولة إسرائيل يمكن أن تمتد على كل أرض إسرائيل أو على جزء منها، أو حتى على أجزاء ليست تابعة لأرض إسرائيل، كشمم الشيخ والجولان على سبيل المثال. ودولة إسرائيل هي الإطار الحاسم بالنسبة للمبدأ الصهيوني. الكيان الصهيوني هي التسمية الرسمية التي تطلقها بعض الحكومات على إسرائيل، وتحمل هذه التسمية في طياتها خطاباً يرفض وجود ما يسمى (دولة يهودية) في منطقة الشرق الأوسط، وليس للوجود اليهودي كأتباع دين.

إذا كانت مطالبة إسرائيل بفلسطين مبنية على حقوق تاريخية لليهود، مع أن اليهودية شيء والصهيونية شيء آخر، فإنه لا بد من الإشارة إلى مخطوطات جماعة قمران. فقد تولت المجموعة جمع مخطوطات من الديانة اليهودية، ونسخها في كهوف قمران ذات الطبيعة الوعرة المعزولة. فقد قامت تلك الجماعة المتصوفة، والأقرب إلى تعاليم الديانة اليهودية الأصلية، بالهروب من وجه السلطة الرسمية اليهودية التي كانت قد زورت الكثير من النصوص التوراتية لخدمة السياسة والسلطة الحاكمة آنذاك، بحيث أصبحت هناك ديانة رسمية تتبع تلك السلطة، وتمثل أهدافها، في حين أن جماعة قمران ابتعدت عن هذه السلطة في كهوف قمران حفاظاً على تعاليم الديانة اليهودية الأصلية، التي تتناقض مع الديانة الرسمية اليهودية آنذاك، فضلاً عن العداء الذي كان مستحكماً بين هذه الطائفة وبين الرومان.

وبعد حرب ١٩٤٨م وتأسيس ما يسمى بدولة إسرائيل المغتصبة لأرض فلسطين، استطاعت الحكومة الأردنية شراء بعض مخطوطات قمران، ووضعها في متحف القدس، باستثناء مخطوطة نحاسية وضعت في متحف الآثار الأردني في عمان. وذلك بحكم مسؤولية الحكومة الأردنية عن أراضي الضفة الغربية في فلسطين بعد حرب ١٩٤٨م. وعندما استولت إسرائيل المغتصبة على الضفة الغربية بعد حرب عام ١٩٦٧م واستكمال احتلالها لفلسطين، وضعت يدها على جميع المخطوطات التي كانت موجودة في متحف القدس، ونقلتها إلى الجانب

الإسرائيلي بهدف إخفاء مضمونها، لأنها تبين زيف الادعاءات الاسرائيلية ومدى الاختلاف بين هذه المخطوطات ونسخ التوراة الموجودة لديهم، وما انطوت عليه من تناقض وتحريف. ويتبين من تلك المخطوطات أن الأسفار التوراتية انطوت على الكثير من التناقضات والإضافات المستمرة لخدمة اليهودية، مما يدل على زيف الادعاءات الصهيونية وبطلانها، كما يتبين محاولة الصهيونية تزيف بعض الحقائق الواردة في تلك المخطوطات. وقد شككت الصهيونية بتلك المخطوطات، لأنها تكشف أسراراً وحقائق دينية وتاريخية تنسف الادعاءات والاعتقادات الواردة في بعض التعاليم التوراتية التي تدخلت يد البشر في تحويلها وتحريفها. ولهذا تعد مخطوطات قمران شاهداً تاريخياً هاماً على مرحلة حساسة من تاريخ المنطقة.

المواطنة: استراتيجية إسرائيلية خبيثة لسلب السيادة العربية الفلسطينية في القدس
 تبنت إسرائيل فكراً عنصرياً يقوم على التمييز القومي، والتنكر لحقوق الفلسطينيين، وطردهم من قراهم، وملاحقتهم، ومنع اندماجهم بالمجتمع اليهودي قدر المستطاع، من باب الترفع والقومية، ومصادرة أكبر مساحة من أراضيهم. لقد بنت إسرائيل استراتيجيتها العدوانية على نص توراتي يقول: سقطت مملكة يهوذا بالحديد والنار، وسوف تقوم بالحديد والنار. لقد تم توارث الفكر العدواني التوراتي الصهيوني من جيل الى جيل، وأضيفت إليه سياسة الحصار والتجويع ضد الفلسطينيين. وكأنهم يقولون داوهم بالتي كانت هي الداء.

تستغل إسرائيل الظروف والمواقف العربية والدولية المتزاخية لإحكام قبضتها على مدينة القدس، وفرض سيادتها الأمنية والسياسية عبر قانون القوة، لجعلها مدينة إسرائيلية خالصة، ونزع صفة «المحتلة» عنها. القدس التي تتعرض منذ اليوم الأول من احتلالها لأخطر وأشد المخططات العنصرية والتهويدية والتهجيرية التي تستهدف مكانتها الإسلامية المرموقة، وضرب وحدة ومقومات صمود سكانها، تقف اليوم أمام المخطط الأخطر لسلخ الطابع الإسلامي عن المدينة المقدسة. فعلى عكس سياسة التهجير، يتمثل المخطط بتقصير مدة الحصول على المواطنة الإسرائيلية. وباتت تلك حيلة جديدة تعتمد عليها دولة الاحتلال، وتصب فيها كل اهتماماتها وإمكاناتها المادية واللوجستية لصبغ المدينة بالطابع اليهودي، وتسريع حركة التهويد والإمعان في فصلها عن الضفة الغربية المحتلة. وينص القانون على سحب الإقامة الدائمة الخاصة بالمواطنين الفلسطينيين المقيمين في

القدس أو الداخل الفلسطيني المحتل عام ١٩٤٨م، واستبدالها بما يسمى المواطنة الإسرائيلية خلال عام واحد فقط. ويأتي ذلك وفق المفهوم الإسرائيلي، من أجل حماية يهودية دولة إسرائيل، ورفض تهجير كل من هو ليس يهودي. فسلطات الاحتلال تخطط لتفعيل موقع على الإنترنت لاستيعاب طلبات الحصول على المواطنة الإسرائيلية، في ظل تقديرات تشير إلى أن تقليص مدة انتظار الاستجابة لطلبات المواطنة بشكل ملموس (من ستة أعوام إلى عام واحد فقط)، سيؤدي لارتفاع حاد في عدد الفلسطينيين المقدسين الذين يطلبونها، فيتحولون إلى مواطنين إسرائيليين من فئة متدنية يحق لها فرض أية قوانين تراها مناسبة عليهم، كنقلهم إلى مواقع خارج القدس.

إن قانون المواطنة الإسرائيلية بمثابة فخ خطير تنصبه دولة الاحتلال لأهل مدينة القدس للوقوع فيه، من خلال إغرائهم بالحصول على المواطنة خلال عام واحد فقط، بعد أن كانت خلال ست سنوات. ويأتي ذلك في سياق الحرب المفتوحة على القدس وسكانها. والهدف سلخ الطابع الإسلامي عن المدينة، وتغليفه بالطابع اليهودي العنصري.

وبالعودة لأصل القانون، فإنه جاء عقب إلغاء المحكمة العليا الإسرائيلية، في سبتمبر ٢٠١٧م، خمسة قرارات لوزير الداخلية الإسرائيلي؛ تقضي بسحب الإقامة الدائمة لخمسة مقدسين من القدس الشرقية، بينهم نواب في المجلس التشريعي الفلسطيني. كما منح المشروع صلاحيات لوزير الداخلية لسحب الإقامة من مواطنين سمح لهم بدخول البلاد، ومن مواطنين يعيشون في «القدس الشرقية» والجولان ولم يحصلوا على الجنسية الإسرائيلية. إن تحرك الاحتلال لفرض القانون، وتقليل مدة الانتظار للحصول على «المواطنة الإسرائيلية»، لعام واحد هو المخطط الأخطر لاستهداف القدس وسكانها، ومحاولة تهجيرهم من خلال تلك القوانين التي تكشف مدى عنصرية دولة الاحتلال، ومسابقتها للزمن، والظروف المحيطة، لفرض سيادتها وسيطرتها على مدينة القدس، وتهجير سكانها، وسحب المواطنة الفلسطينية منهم. يحاول الاحتلال إسقاط الهوية المقدسية، ويمارس كل العريضة والقوة من أجل التحكم والخنق بيد من حديد على المدينة وسكانها، كي يحول القدس من مدينة محتلة إلى إسرائيلية، وإقناع العالم بالاعتراف بسيادتها على القدس. ويهدف الاحتلال إلى جعل المقدسين من السكان الفلسطينيين الواقعيين تحت الاحتلال سكاناً يقبلون بالاحتلال، وبالرواية الإسرائيلية الاحتلالية حول القدس. ويزيد ذلك من التغول الإسرائيلي عليها، ويعطي إسرائيل شرعية أمام العالم للسيادة على القدس.^[٢٤]

ومن الجدير بالذكر أن نحو (٩٥٪) من سكان القدس ليسوا مواطنين في إسرائيل، وذلك لأنه بعد احتلال القدس وضمها لدولة الاحتلال عام ١٩٥٧م، قررت الحكومة الإسرائيلية منح المقدسيين مكانة مقيمين دائمين فقط. وفي هذا الإطار يحصلون على بعض الحقوق الاجتماعية، دون أن يشاركون في التصويت للكنيست، كما أن مكانة مقيم دائم تصعب عليهم السفر إلى خارج البلاد، كما يمكن سحبها من قبل سلطات الاحتلال الإسرائيلي.

الفلسطيني المقهور: القدس أيقونة عبقرية الزمان

ناقش الفصلان الثاني والثالث عبقرية المكان والزمان، وتبقى مناقشة عبقرية الإنسان في الفصول الثالث والرابع والخامس. والواقع أنه لا يمكن فصل القدس عن بقية أرض فلسطين، أو سكان القدس عن بقية أهل فلسطين. إنهم كل واحد لا يتجزأ. وينطبق ذلك على السكان الأصليين في كافة أنحاء فلسطين.

تقدم سلطات الاحتلال الإسرائيلي مساعدات مالية مجزية للمدارس ورياض الأطفال في القدس والمناطق المجاورة لها، شريطة اتباع مناهج وزارة التربية الإسرائيلية. وذلك لصياغة شخصيات أجيال الشباب والأطفال وفق هواهم، وبما يتماشى مع فكرهم وسياستهم. وعلى الرغم من مرور ما يربو على جيلين كفترة احتلال، فقد فشلت إسرائيل في مسعاها، وظل الفلسطيني متمسكاً بشخصيته الثابتة على مر العصور.

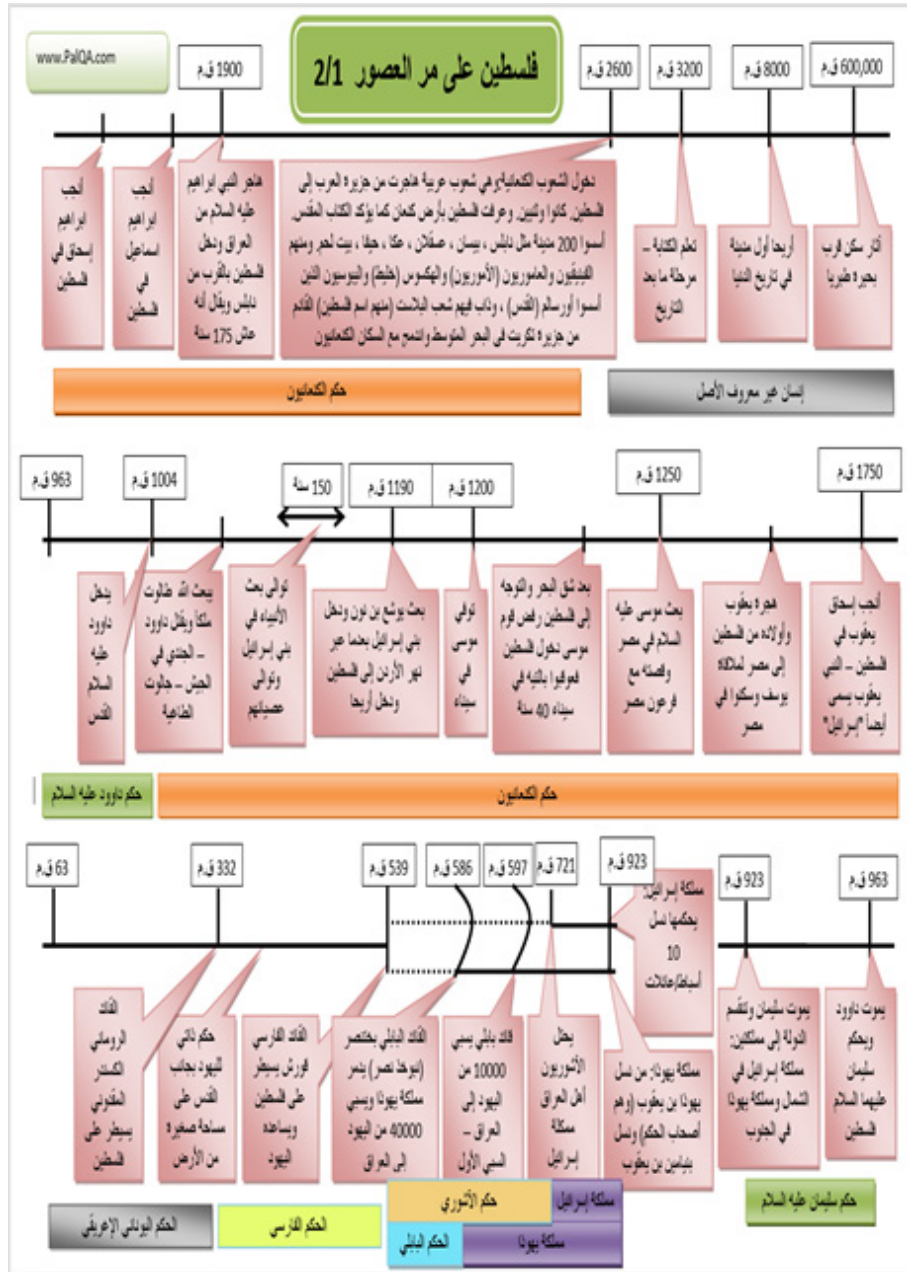
البعد الديموغرافي السائد في فلسطين يربع سلطات الاحتلال. فالغالبية العظمى ستبقى للفلسطينيين مهما اتبعت سلطات الاحتلال من استراتيجيات تشريد وإبعاد وتجويع. يقوم الفلسطينيون بالتناسل ديموغرافياً، حتى من خلال نطف المساجين، ليبقوا صامدين إلى يوم الدين، كما وعدهم الله. ونسبة الولادة في قطاع غزة هي الأعلى في العالم. وذلك سر محاولات الاحتلال قمع الناس هناك، أو حتى فصل قطاع غزة والتنازل عنه لمصر. وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

الجدول رقم (٣)
مقياس تحديد ملامح البيئة المادية والبشرية المواتية للعبقرية

الرقم	فئات تصنيف الأبعاد	الأبعاد الأساسية التي تساهم في رسم ملامح البيئة المواتية للإبداع	تقدير مدى توفر الأبعاد				
١	الموارد (Resources)	درجة التزام المواطنين بالأعمال الموكولة إليهم.					
		مستوى قدرة المواطنين على تحديد كيفية أداء أعمالهم.					
		مدى توفر وقت كاف لمناقشة الأفكار البديلة للقيام بمهام صعبة قبل البدء بأدائها.					
		مدى تقبل الأفكار الجديدة والاستعداد لدعمها.					
		مدى الاستعداد لتجربة الأفكار الجديدة.					
٢	الدافعية الذاتية (Personal) (Motivation)	مدى وجود توتر عاطفي وأزمات نفسية في مواقع العمل.					
		مدى الألفة بين أفراد المجتمع والعاملين في موقع العمل.					
		مدى الثقة بالذات والانفتاح على الآخر.					
		مدى الشعور بالراحة والمرح.					
		مدى غياب النزاعات بين المواطنين والعاملين في مواقع العمل.					
٣	الاستكشاف (Exploration)	مدى حرية المواطنين بالتصرف في مواقف حين يشكون في سوية النتائج.					
		مدى إمكانية الحوار بين المواطنين.					
		مدى ميل المواطنين إلى المخاطرة.					
		مدى ما يتمتع بها المواطنون من حرية داخلية.					
		مدى ما يتمتع بها المواطنون من حرية خارجية.					

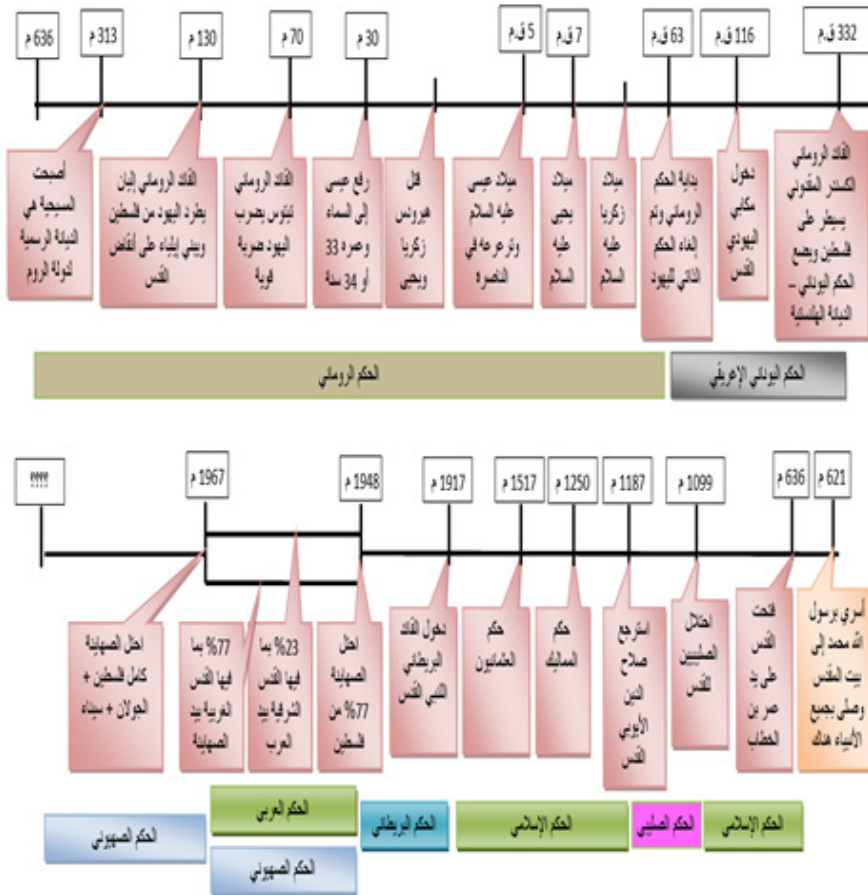


الشكل رقم (3): فلسطين والأنبياء عبر الزمن



www.FalQA.com

فلسطين على مر العصور 2/2



لشكل رقم (0): فلسطين على مر العصور [٤]

كلمات.. للوطن

الشاعر الفلسطيني توفيق زياد

مثلما كنت ستبقى يا وطن
حاضراً في ورق الدفلى
وعطر الياسمين
حاضراً في التين , والزيتون
في طور سنين
حاضراً في البرق , والرعد
وأقواس قزح
في ارتعاشات الفرخ
حاضراً في الشفق الدامي
وفي ضوء القمر
في تصاوير الأماصي
وفي النسمة ,, في عصف الرياح
في الندى والساقية
والجبال الشمّ والوديان , والأنهر
في تهليلة أمّ
وابتهالات ضحية
في دمي الأطفال , والأطفال ,,
في صحوة فجرٍ
فوق غاب السنديان
في الصبا والولدنة
وتثنى السوسنة

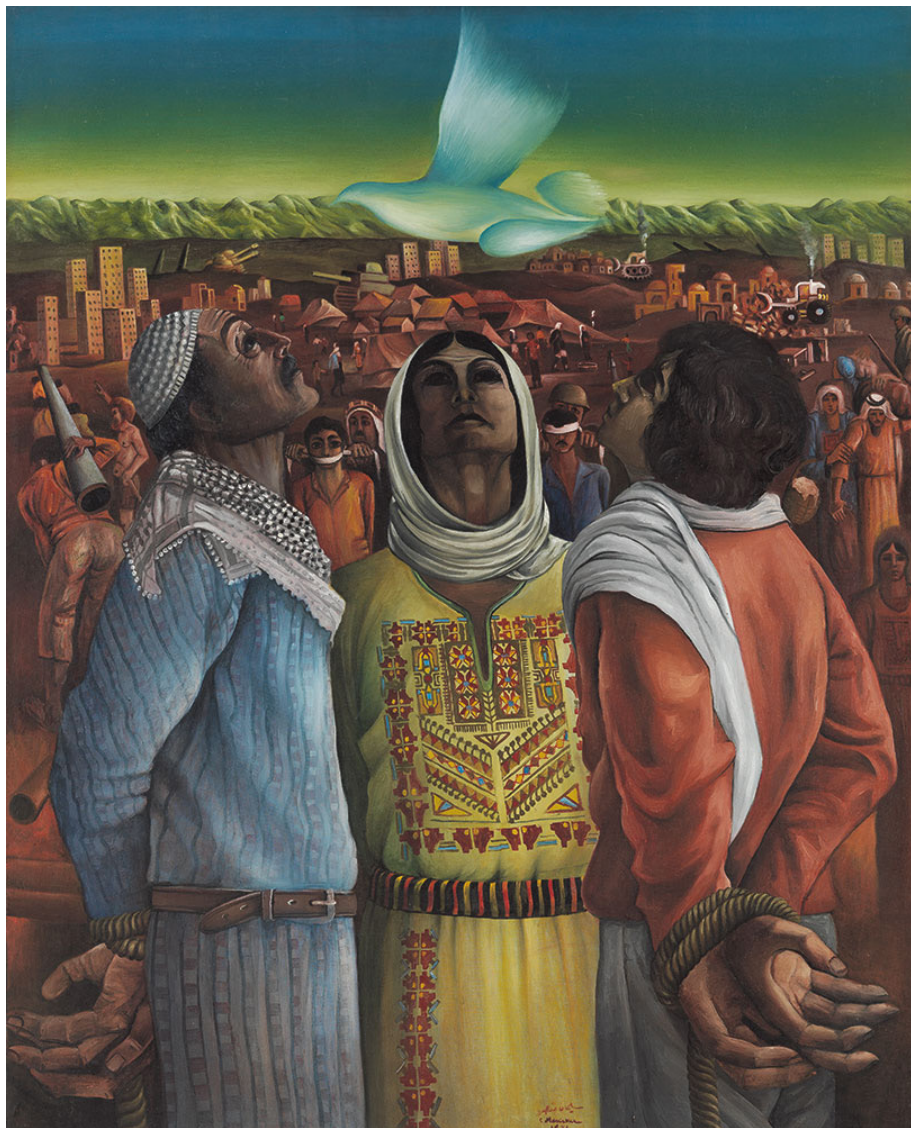
في لغات الناس والطير
وفي كل كتاب
في المواويل التي
تصل الأرض
بأطراف السحاب
في أغاني المخلصين
وشفاه الضارعين
ودموع الفقراء البائسين
في القلوب الخضر
والأضلع
في كل العيون
مثلما كنت - ستبقى
يا وطن
حاضراً
كل زمان ،،
كل حين ،
مثلما كنت ستبقى يا وطن
حاضراً في كل جرح
وشظية
في صدور الصامدين
حاضراً في صور القتلى
وعزم الشهداء
في تباشير الصباح
وأناشيد الكفاح
حاضراً في كل ميدان وساح

والغد الطالع ..
من,
نزف ..
الجراح
نحن أصحابك فأبشر يا وطن
نحن عشاقك فأبشر يا وطن
ننحت الصخر ونبني ونعمّر
ونلوك القيد حتى نتحرر
نجمع الأزهار والحلوى
ونمشي في اللهب
نبذل الغالي لبقى
رأسك المرفوع .. مرفوعاً
على مرّ الزمن
نحن أصحابك ..
عشاقك ..
فأبشر
يا وطن ..!!

الفصل الرابع

عبقرية القدس وعلاقتها بالخريطة الثقافية

- مفهوم الهوية الثقافية
- الخريطة الثقافية الفردية والجمعية
- مراحل التطور الثقافي الفردي والجمعي
- الصدمة الثقافية
- البيئة النفسية المواتية لتطور الشخصية العبقرية للقدس
- مراكز التنمية الثقافية في شرقي القدس
- المقاهي كمراكز ثقافية
- المتاحف في القدس الشرقية
- اختبار قياس المستوى الثقافي
- هدير الصمت الثقافي المنقوش على وجه التاريخ
- أنا ملك القدس: الشاعر الفلسطيني سميح القاسم



الفنان التشكيلي الفلسطيني اسماعيل شموط

الفصل الرابع عبقرية القدس وعلاقتها بالخريطة الثقافية

مفهوم الهوية الثقافية:

تعرف الثقافة بأنها ذلك الكل المركب الذي يضم الرصيد العلمي والأدبي والفني والقيمي المتوفر في المخزون المعرفي للفرد أو المجتمع، والمحكوم بقوانين التعلم. فضلاً عن المعتقدات والعادات والتقاليد والقانون وأية قدرات أخرى يكتسبها الإنسان بطرق شعورية ولاشعورية نتيجة اتصاله بالواقع الاجتماعي الذي يعيشه ضمن تنظيمات اجتماعية كالأسرة والمدرسة ودور العبادة والنادي وغيرها.

ومن السمات العامة للثقافة أن لها نسقاً تراكمياً، وأنها تتصف بالاستمرارية في تطورها، وأنها تمثل جبهة مقاومة متفاوتة الشدة في وجه تيار التغيير الذي يواجه المجتمع. والهوية الثقافية، أو الخريطة الثقافية الفردية والجمعية، تنشأ من تفاعل الذات، والآخر، وعناصر البيئة المادية، وأتماط السلوك. فمن تفاعل الذات بالآخر ينتج ما يسمى النماذج، ومن تفاعلها مع عناصر البيئة المادية ينتج ما يسمى المهمات. ومن تفاعلها بأتماط السلوك ينتج ما يطلق عليه عادة المعايير والأدوار ووجهات النظر. ومن تفاعل الآخر بأتماط السلوك تنتج المثل والآمال. ومن تفاعل عناصر البيئة المادية بأتماط السلوك ينتج القيم. وتصنف صفات الشخص المثقف ضمن أربعة أبواب كبرى، وهي تحقيق الذات، والعلاقات الإنسانية، والكفاية الاقتصادية، والمسؤولية المدنية. وهي سلوك مكتسب يضم كل أساليب الأداء والأفكار والقيم التي يحرض الناس عليها، ويفضلونها على غيرها. [٣١ ص ٧٣].

وتضم الثقافة الأفكار والاتجاهات التي يتعلمها المرء نتيجة اتصاله بالواقع الاجتماعي الذي يعيشه. وهي نتاج حضاري لا ينجز بطريقة آلية، بل يكتسب بطرق شعورية ولاشعورية من خلال تنظيمات اجتماعية كالأسر والمدارس والنوادي ودور العبادة وغيرها. ومن السمات العامة للثقافة أنها تتصف في تطورها وتاريخها بالاستمرارية، وتنشأ في المجتمع، وتؤثر بشكل واضح في سلوك أبنائه وأفعالهم، وتقوم بتوجيه التقاليد ومظاهر السلوك الأساسية المعترف بها، والمقبولة مجتمعياً، والتي يعد الخروج عليها خروجاً على التقاليد والأعراف، وتمثل جبهة مقاومة متفاوتة الشدة في وجه تيار التغيير الذي يواجه المجتمع. ويقول إدوارد سعيد في كتابه الثقافة والمقاومة الصادر عام ٢٠٠٦م، أن الثقافة تعتبر من أهم

وسائل مقاومة إلغاء الآخر وتذويب الأقليات. [٨: ص ٣٥].

وعلى الرغم من الخلط الكبير في تحديد مصطلحي الثقافة والحضارة، إلا أن الكتاب الألمان أطلقوا تعبير الثقافة على العناصر غير المادية للتراث في المجتمع، كالفن والدين والفلسفة، بينما استخدموا لفظة الحضارة للدلالة على العناصر الفنية والتقنية فيه، مثل العلم والتكنولوجيا والإمكانات المادية. لكن ذلك الاستخدام للفظتين لم يكتب له الانتشار العالمي، واستخدم كثير من الباحثين لفظة ثقافة بمفهومها الشامل لتعني المحصلة الكلية للتراث المادي وغير المادي للإنسان، بينما استخدمت لفظة الحضارة للدلالة على نسق خاص ومنظم وشامل ومستمر للثقافة. ويتضح معنى الثقافة لدى المقارنة بين البيئة الطبيعية للإنسان، والتي يتعامل معها بصفته حيوان ناطق، وبين البيئة الثقافية التي يطورها بنفسه عندما يعرف طريقة التكيف، واستراتيجيات تحقيق التوازن بين نفسه وبين العالم الطبيعي حوله. ويقول أوزولد شبنجلر (Oswald Spengler) أن الحضارة، تشكل فترة فجر الثقافة ولحظة غروبها. فهي من ناحية تتبعها كما يتبع الموت الحياة، ومثل ما تتحتم النهاية منذ لحظة البداية. والشاهد على ذلك حال الحضارات العربية والهندية والصينية والأوروبية. [٨: ص ٣٧]. ومن ناحية أخرى، يمكن أن يقال العكس، أي أن الثقافة تتبع الحضارة. فالولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر مثلاً، كانت تنعم بحضارة برجوازية ديمقراطية قوية، ولكن الثقافة الجمعية فيها كانت فقيرة، ومستوردة من أوروبا. ولم تظهر الثقافة الأمريكية الأصلية والمؤثرة على الساحة الدولية إلا في القرن العشرين بعد الحرب العالمية الأولى. ولا بد من الإشارة إلى أن المدنية مرتبة من مراتب الحضارة، وجانباً من جوانبها، لأن المدنية تقوم على الصناعة والتقنية. فالثقافة تكوين مفاهيمي مركب يدل على ما اكتسبه الإنسان العاقل تراكمياً من أساليب سلوك مادية ومعنوية متطورة باستمرار، ويستخدمها في اتصاله بالواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه. وتضم أساليب السلوك هذه سمات نفسية وعناصر أدائية متعددة يمكن تصنيفها على النحو الآتي [١: ص ٦٤ - ٦٥]:

- متعلقات الذات الإنسانية؛
- متعلقات الكفاية الاقتصادية؛
- متعلقات العلاقات الإنسانية؛
- متعلقات المسؤولية المدنية؛
- متعلقات التعامل مع المعلومات.

ويعد الفرد مثقفاً حين يتوفر لديه قسط من الأفكار والمعارف اللغوية والعلمية والفنية

والقانونية والأخلاقية، والمهارات الأدائية الأساسية، والعادات والتقاليد المرغوبة مجتمعياً، والاتجاهات العامة المقبولة والمبنثقة من القيم الدينية والفكرية التي يؤمن بها، وأية قدرات أخرى يكتسبها الفرد باعتباره عضواً فاعلاً في المجتمع. كل ذلك بالقدر الذي يمكنه من التفكير بنفسه ولنفسه وللغير، ومن احترام ذاته والغير، ومن مواجهة متطلبات حياته اليومية ومسائل العالم المتغير بكفاءة واقتدار. فضلاً عن سعيه الدؤوب لدعم الشخصية الوطنية المتمسكة بتراثها والمنتجة على العالم بشكل يسمح بالتلاؤم المتوازن مع الحضارة الإنسانية والتفاعل معها والفعل فيها، وكذلك العمل على تنمية القدرات الإبداعية لديه ولدى جميع الآخرين في مجتمعه، كل حسب قدراته ومجالاته، مع العمل المتواصل للحد من عوائق الرتبة والاعتبارات الفئوية على أنواعها ومنها الفروق الاقتصادية والاجتماعية والعرقية. ولا بد من الإشارة إلى أن الثقافة بطبيعتها تشكل مجموعة بدائل للمدركات الفردية والجمعية: ففي القرن الخامس عشر كانت الثقافة مرادفاً للدين، وفي القرن العشرين كانت مرادفاً للسياسة، وتشكل في بداية القرن الحادي والعشرين مرادفاً للعلم.

الخريطة الثقافية الفردية والجمعية:

لقد حدد كامبل (Campbell) عدداً من المفاهيم التي تشكل عناصر هامة للخريطة الثقافية الفردية والجمعية، أو ما يطلق عليه الهوية الثقافية. وتنطلق كافة هذه المفاهيم من تفاعل أربعة عناصر هي: الذات، والآخر، والبيئة المادية، وأنماط السلوك. فمن تفاعل الذات بالآخر ينتج ما يسمى النماذج (Stereotypes)، ومن تفاعلها بعناصر البيئة المادية ينتج ما يسمى بالمهام (Tasks)، ومن تفاعلها بأنماط السلوك ينتج ما يطلق عليه عادة المعايير (Norms) والأدوار (Roles) والاتجاهات (Attitudes). ومن تفاعل الآخر بأنماط السلوك تنتج المثل (Ideals) والآمال (Hopes). ومن تفاعل عناصر البيئة المادية بأنماط السلوك تنتج القيم (Values). وتصنف منظومة القيم، وبالتالي عناصر الثقافة الفردية والجمعية، ضمن خمس فئات أساسية. [١٧ - ٧٨ ص].

- الطبيعة الإنسانية الفطرية والمكتسبة، التي تضم العقيدة، ومفهوم الأسرة، والطموحات والآمال، والممارسات الصحية وكيفية مواجهة الأمراض، واللباس والمظهر.

- علاقة الإنسان بالظواهر الطبيعية، وتشمل طريقة التعامل مع الظواهر الطبيعية، ومفهومي العمل واللهو، والمستوى التعليمي.

- العلاقات الإنسانية، وتعني العلاقة المتواترة مع الآخرين من أبناء المجتمع، وطريقة مواجهة الخبرات الجديدة.

- العلاقة مع الوقت، ومن مظاهر الثقافة الفردية والجمعية الدقة في المواعيد والتوزيع المتوازن للزمان والمكان.

- نمط النشاطات الإنسانية، بما في ذلك التقاليد والعادات المتبعة، والأعياد والعطل الرسمية، والكفاءة اللغوية، ودرجة الحنو في التعامل مع الحيوانات الأليفة، ومدى تذوق الفن والموسيقى.

ويمكن تصنيف عناصر الهوية الثقافية إلى عناصر ظاهرة تشير إلى الدين واللغة ومنظومة القيم والمعايير الشعبية، وأخرى مضمرة تشير إلى مظاهر السلوك غير المقصود الناتج عن التعلم الاجتماعي في الحياة اليومية للفرد، وتضم طريقة الكلام، وطريقة السير، وحركة الأطراف، وتعبيرات الوجه، وأسلوب التفكير، وطريقة إظهار المشاعر للآخرين، فضلاً عن مفهوم الوقت وتقديره، وطريقة التواصل مع الآخرين بما في ذلك مختلف مظاهر التعبير غير اللفظي. ويمكن القول أن لمجموعة معينة من الناس هوية ثقافية محددة، أو ما يمكن تسميته ثقافة جمعية مشتركة، حين يتكلم أفرادها نفس اللغة، ويؤمنون بنفس الدين والمعتقدات والأيديولوجيات، ويتقاسمون نفس القيم ومآذج الأنشطة الاجتماعية.

لقد اقترح روبرت لادو (Robert Lado) ثلاثة أنواع من الفروق الثقافية بين الناس، مما يؤثر على أساليب سلوكهم واستراتيجيات تفكيرهم، وذلك وفق مدى تشابه الصيغ اللغوية المستخدمة والمعاني المتضمنة أو اختلافها. ومن شأن ذلك أن يخلق فروقاً ثقافية. ولعل ذلك هو السبب الرئيس لرفض تعليم لغات أخرى غير الإنجليزية ضمن نظام التعليم الأساسي الرسمي في الولايات المتحدة الأمريكية، بدعوى أن ذلك يعصف بالوحدة الوطنية بين مواطنيها المنحدرين من مختلف الأصول والمناطق. وذلك ما أدركه اليابانيون والألمان والفرنسيون والإسبان أيضاً. فكان إصرارهم على التعليم باللغة الأم، دون الاكتراث بالإنجليزية على أهميتها، خشية التأثير على قيمهم وعاداتهم والتقاليد الموروثة لديهم.

والغريب أن بعض الجامعات العربية تتباهى باعتماد اللغة الإنجليزية كلغة أولى للتدريس فيها، مغفلة اللغة الأم في كثير من الأحيان. فعلى الرغم من أهمية اللغة الإنجليزية كوسيلة تتألف في العالم المعاصر، فإن اللغة العربية ركن أساس من أركان الثقافة العربية، يقتضي حمايتها من عمليات الاستلاب الثقافي، والعولمة الثقافية بالمفهوم الغربي، في مرحلة ما بعد

الحدث. وسبيل ذلك اختيار واضعي السياسة التربوية من المثقفين الذين استوت ثقافتهم على نماذج أصيلة متفردة، تتلاقح وتنضج بانتظامهم في الفكر العالمي المعاصر. ثلاثة متغيرات يتناولها علم الاجتماع، وهي المجتمع (Society) والثقافة (Culture) والشخصية (Personality). ويتضمن مفهوم المجتمع تلك التفاعلات التي تربط الأشخاص والجماعات، والإطار الفكري والسلوكي لأفراد الجماعة. وتشير الثقافة إلى الأساليب التي يستخدمها الإنسان، وعاداته، وتقاليده، وقيمه، والطرق التي يفسر بها العالم الطبيعي والإنساني. وتدرس الشخصية وصف الانفعالات، والعادات، والاتجاهات، وتحليلها، فضلاً عن أفكار الفرد عن نفسه وعن الغير. وفي الوقت الذي اصطلح فيه على أن يتناول علم الاجتماع موضوع المجتمع، فإن الأنثروبولوجيا الثقافية تختص بالثقافة، وعلم النفس يختص بالشخصية. وتستعمل في الغرب مصطلحات بديلة للأنثروبولوجيا الثقافية: ففي الغرب بشكل عام، والولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص، يطلق على العلم الذي يتناول الثقافة دراسات ثقافية أو علم الثقافة.

ومهما يكن من أمر، فإن علم الثقافة يتناول كافة الجوانب كوحدة واحدة، فيدرس الثقافات الفرعية الوطنية والمهنية والعرقية والجنسية وغيرها. وتبرز أهمية علم الثقافة والدراسات الثقافية من ضرورة دمج كافة القدرات والمعارف والمهارات الإنسانية في كل واحد. ويشكل هذا الكل الذي يتخذ هيئة مستقلة موضوع الثقافة. فالثقافة ترفض المبدأ القائل فرّق تسد، وتؤمن مبدأ حرّر ووحد. فهي تسعى لتحرير كل جوانب المعرفة، بما في ذلك الفلسفة والفن والعلوم والدين، وتوحيدها ضمن إطار إنساني واحد.

مراحل التطور الثقافي الفردي والجمعي:

إن من الضرورة بمكان التأكيد على أن التطور الثقافي الفردي والجمعي يمر بخمس مراحل نفسية حتمية متسلسلة بشكل تصاعدي وفق درجة التقدم الحضاري. [١: ص ٨٤ - ٨٥]:

الأولى مرحلة التمركز حول الذات (Egocentric Stage). وهي أولى المراحل وأدناها على سلم المستويات الثقافية. وفي هذه المرحلة، يتم فهم العالم من خلال الحاجات والرغبات والدوافع الفردية والجمعية، إذ تقاس فائدة أي شيء بمدى ما ينعكس إيجاباً على الفرد أو الجماعة. ولعل الثقافة السائدة في المجتمع الأردني هي من هذا النمط، نظراً لاهتمام الأفراد بأسماء عائلاتهم الممتدة، والتعصب لها، وإنشاء الروابط والجمعيات، وعمل كل ما من شأنه أن يرفع شأنها.

والثانية مرحلة التمرکز حول العرق أو القومية (Ethnocentric Stage). ويتم فيها الاهتمام بالأُمور الوطنية والقومية، وتتضاءل المصالح الفردية فيها إزاء المصالح القومية. ولعل الثقافة السائدة في المجتمع العراقي هي من هذا النمط، نظراً لما حدث حين هددت الولايات المتحدة الأمريكية بقصف القصور الرئاسية العراقية إن لم يسمح لبعثة الأمم المتحدة المكلفة بالتفتيش عن أسلحة الدمار الشامل بدخولها وتفتيشها. إذ هرع الناس إلى تلك القصور ليحموها بأجسادهم، باعتبار أن تفتيشها إهانة للشعب العراقي كله.

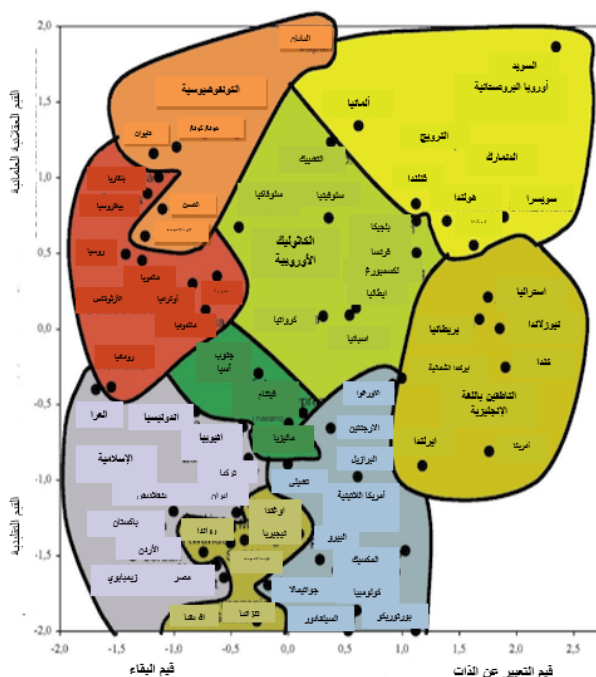
والثالثة مرحلة قبول الآخر وتحمله (Tolerance Stage). ويتم في هذه المرحلة إكراه الذات على قبول الآخر وبذل الجهد للتوافق معه، وتحمله، على الرغم مما يبديه من مخالفة للقيم الثقافية الذاتية. ولعل الشعب العربي الفلسطيني، الذي يعيش تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة، يمر في هذه المرحلة، إذ يضطر لقبول وجهات نظر سلطات الاحتلال، والرضوخ للشروط التي يُمليها في كثير من الأحيان، من أجل الحصول على بعض التنازلات التدريجية التي تحقق له بعضاً من طموحاته الوطنية.

والرابعة مرحلة التعالي على الآخر والنظر إليه نظرة دونية (Minimizing Stage). ويتم في هذه المرحلة اعتبار الذات أكثر قدرة وأعلى شأنًا من الآخر. ولعل الشعبين الأمريكي والإسرائيلي يمران في هذه المرحلة. ويذكر أن المباحثات التي جرت في جنيف بين مسؤولين أمريكيين وآخرين عراقيين كانت تمثل حواراً بين مرحلتين ثقافيتين: أولاهما أمريكية وهي مرحلة التعالي على الآخر، وثانيهما عراقية وهي مرحلة التمرکز حول البعدين الوطني والقومي. وقد فطن المفاوضون العراقيون إلى ذلك، فسببوا إرباكاً شديداً للجانب الأمريكي. ولكي ينال المفاوضون الفلسطينيون ما يبتغونه من المفاوضات الإسرائيلية، لا بد لهم أن يرتقوا إلى نفس المرحلة الثقافية التي ينطلق الإسرائيليون منها، وأن يتعاملوا معهم وفق مقتضيات ذلك، أو أن يتنازل الإسرائيليون إلى مستوى قبول الآخر والتوافق معه.

والخامسة مرحلة فهم الآخر واستيعابه (Understanding Stage). وهي تتضمن تقدير حاجات الآخر وظروفه ورغباته. ولعلها المرحلة الثقافية التي اشترط الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم بلوغها كمتطلب للإيمان حين قال: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. وهذه المرحلة هي ما تصبو إليه الثقافة العالمية التي تنظر للعالم كقرية عالمية واحدة تسكنها شعوب متحابّة تعمل وفق نظام اقتصادي وأمني متكامل. فهل يمكن جسر الهوة الكبيرة بين الشعب العربي الفلسطيني الذي يمر بالمرحلة الثقافية

المتمثلة بقبول الآخر وتحمله (Tolerance Stage) والشعب الإسرائيلي المحتل ذو المستوى الثقافي المتشردم بين مرحلة التمركز حول القومية ومرحلة التعالي على الآخر والنظر إليه نظرة دونية (Minimizing Stage)..؟ الشعب العربي الفلسطيني، وفق مستواه الثقافي، يحاول إكراه الذات على قبول الآخر، وبذل الجهد للتوافق معه، وتحمله، على الرغم مما يديه الآخر من مخالفة للقيم الثقافية الإنسانية. والشعب الإسرائيلي، من ناحية أخرى، يعد ذاته أكثر قدرة، وأعلى شأنًا من الآخر، وهو من وجهة نظره الذاتية شعب الله المختار. وبقاء الحوار بين مرحلتين ثقافيتين: أولهما إسرائيلية تتمسك بمرحلة التعالي على الآخر، وثانيهما فلسطينية تتمثل بقبول الآخر، وتحمله، ومحاولة التوافق معه، أمر مستحيل ويمثل حوار طرشان، ولا يمكن أن يؤدي إلى أية نتائج إيجابية.

على الأمة العربية أن ترتقي بثقافتها العامة من مستوى التمركز حول الذات كما في الأردن نموذجاً، أو التمركز حول القومية كما في العراق ومصر مثلاً، ومستوى قبول الآخر كما في فلسطين، إلى مستوى فهم الآخر واستيعابه والتكامل معه. والحقيقة أن الإسلام يدعو للوصول إلى مستوى فهم الآخر واستيعابه، وهو الصراط المستقيم الذي يطلب المسلم الهداية إليه وهو يتلو سورة الفاتحة في القرآن الكريم، وهو مستوى مثالي لم يصل إليه أي واحد من الشعوب حتى الآن. فأعلى مستوى ثقافي حققه البشر حتى الآن هو مستوى التعالي على الآخر، كما في أمريكا وإسرائيل. وهو مستوى يقصر عن بلوغ حد الكمال. بينما يتمسك الناس في الغرب بالأعراف والممارسات التعبيرية الفردية للتعبير عن الذات، فإن ثقافات أخرى تتمسك بالقيم الجمعية، ولا تعطي قيمه للنزعات الفردية. فعلى سبيل المثال، لا يابيه العالم العربي بالآراء الفردية، ويعلي قيمه التقاليد والدين والسلطة (Inglehart et al., ٢٠١٤). ويلاحظ اختلاف الثقافات بين بلدان الشرق الأوسط والبلدان الغربية من ناحية القيم التي تتبناها على محورين: القيم التقليدية في مقابل العلمانية العقلانية، وقيم البقاء على قيد الحياة مقابل قيم التعبير عن الذات. فتقع أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية على الحد الأعلى لمحور العلمانية العقلانية. ويدل ذلك على أن الدول الغربية تميل إلى وضع أهمية أقل على القيم الاسريه التقليدية والدين والطاعة، بينما تعلي قيمة الأمن الاقتصادي والمادي. والشكل (٦) يوضح ذلك.



الشكل رقم (0)

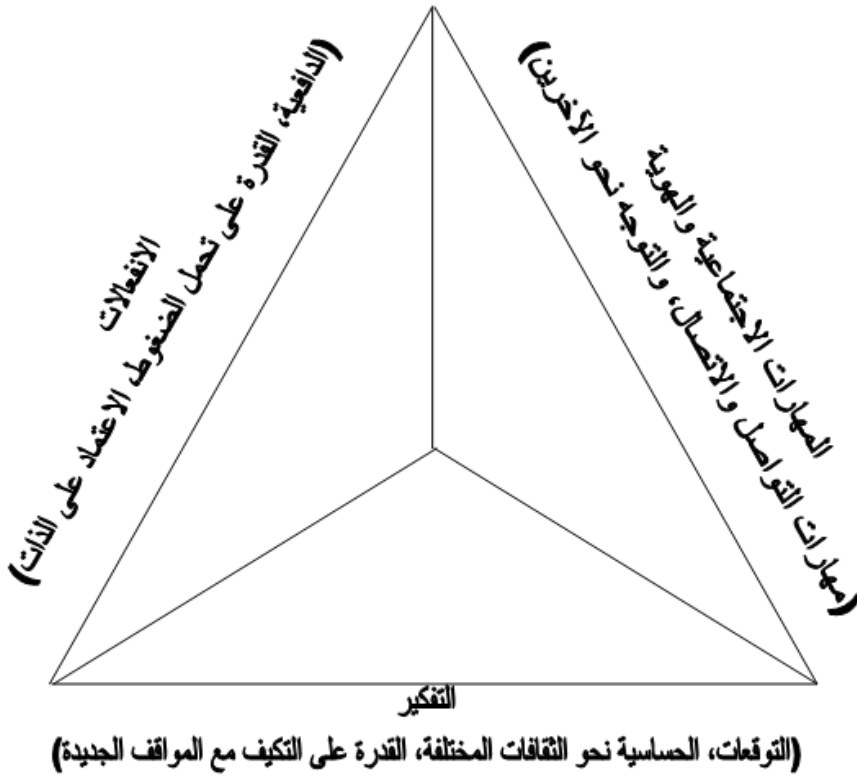
الخريطة الثقافية وفق بعدي القيم التقليدية في مقابل العلامية العقلانية، وقيم العيش مقابل قيم التعبير عن الذات [١١ : ص ٨٢]

الصدمة الثقافية:

عندما ينتقل الفرد من بيئة اجتماعية ألف قيمها وعاداتها إلى بيئة أخرى مختلفة، فإنه يصاب بأعراض تتفاوت حدة من شخص لآخر، وتأخذ صور العزلة والإحباط والقلق والاكنتاب والسلوك الاجتماعي غير المناسب. ولا تقتصر صور الانتقال على قيام الفرد بتغيير موطنه ومكان سكنه، بل يمكن أن يأخذ ذلك صورة الانتقال ضمن نفس المجتمع، كانتقال الفتاة إلى بيت الزوجية، أو الانتقال إلى مسكن جديد، أو مركز عمل جديد، وهكذا. وقد صاغ أوبرج (Oberg) تعبير الصدمة الثقافية للدلالة على مثل تلك الأعراض، فحدد ستة أعراض أساسية للدلالة عليها، وهي:

- الإنهاك والتعب الناجم عن المحاولات الحثيثة للتكيف مع الثقافة الجديدة،
- والإحساس بالضياع ومشاعر الحرمان بالنسبة للأصدقاء والوضع الاجتماعي والمهني،
- ومحاولة إظهار مشاعر غير مقبولة من أبناء الثقافة الجديدة، أو رفض الفرد لمظاهر الثقافة الجديدة التي يتعرض لها،

- والارتباك في الأدوار والقيم ومفهوم الذات،
 - والشعور بالغضب والقلق والاشمئزاز الذي يصل حد القرف من ممارسات أبناء الثقافة الجديدة،
 - والشعور بعدم القدرة على التكيف مع البيئة الجديدة.
- وتأخذ الصدمة الثقافية أبعاداً ثلاثة تسمى مثلث الصدمة الثقافية، وهي: البعد الانفعالي (ويتضمن جانب القدرة على التأقلم مع التقلبات المزاجية للفرد)، والبعد التفكيري (ويتضمن مدى فهم الفرد لزملائه م أبناء الثقافة الجديدة)، وبعد الهوية والمهارات الاجتماعية (ويتضمن القدرة على تطور مهارات اجتماعية فاعلة، وشبكة من المعارف على المستويين الاجتماعي والمهني). والشكل رقم (٧) يوضح ذلك (١: ص ٣٠).



الشكل رقم (٦): مثلث الصدمة الثقافية

وهناك من يعتقد خطأً أن الصدمة الثقافية تقتصر على البعد الانفعالي. كما يعتقد آخرون أن الصدمة الثقافية ظاهرة نفسية تدوم أياماً قليلة. والحقيقة أن الدراسات أثبتت أنها تدوم فترة تتراوح ما بين خمسة إلى عشرة أسابيع، ويشعر الفرد فيها بالعزلة، والقلق، والاضطراب، وضعف مستوى الأداء، والطاقة الزائدة، والإنهاك والتعب.

يجري الحديث عن الثقافة في هذا السياق ضمن أجواء تفيض تعصباً وعنصرية، إذ صادق الكنيست الإسرائيلي مؤخراً على قانون القومية اليهودية. ويعلن القانون صراحة أن إسرائيل هي الوطن التاريخي للشعب اليهودي، وأن اليهودية هو الدين الرسمي للدولة. كما يقرر القانون أن ممارسة حق تقرير المصير في الدولة محصورة في الشعب اليهودي، دون الفلسطينيين. ووفق القانون، فإن القدس الكاملة والموحدة هي العاصمة، وأن الاستيطان اليهودي قيمة قومية، تعمل الدولة على تشجيعه وتثبيته. ويدحض ذلك فكرة انفتاح الهوية اليهودية، ويدعو إلى التفكير بمقولة فرويد من أن مؤسس اليهودية سيدنا موسى عليه السلام كان مصرياً، وأنه كان متأثراً بفكرة التوحيد عند الفراعنة [٥]. اليهودية ديانة سماوية نؤمن بها كباقي الديانات السماوية، لكن للدين مفهوماً مستقلاً عن الدولة. فأى ثقافة إنسانية هذه التي يتحدثون عنها في القرن الحادي والعشرين..!؟

لقد أعاد القانون إلى الذاكرة ما ورد في كتاب إدوارد سعيد خارج المكان عام ٢٠٠٠م، وكتابه فرويد وغير الأوروبيين عام ٢٠٠٤م، من تصنيف فرويد لإسرائيل بأنها دولة لليهود، ومن أجل اليهود، في حين يعد غير اليهود أجنب من الناحية الحقوقية، مهما بلغ عددهم، وعلى الرغم من وجود حقوق ثابتة لهم سابقاً. [٧: ص ٣٧]. وكاد أجزم أن يهوديتهم المحرفة، والله بريء منهم ورسوله والمؤمنون، تحث على الكراهية والحقد والعدوان والتعالي على الآخر. [٧: ص ٣٩].

إن للقدس رباً يحميها، وشعباً سيظل مرابطاً أبد الدهر محافظاً على عروبتها الإسلامية، والمسيحية، واليهودية الحققة، على حد سواء. كان الغضب والثورة واضحين في وجوه الناس إزاء أبناء اعتماد قانون القومية، ولكن القانون كان يشكل بالنسبة للبعض بارقة أمل، يرونها من خلال التفكير الإيجابي بالأمر. إنها من وجهة النظر المتفائلة لحظة السقوط الإسرائيلي في هاوية التردّي الثقافي. فبعد أن كانت إسرائيل تصنف واحدة من رافعي لواء المستوى الثقافي الرابع، والمتمثل بالتعالي على الآخر، تنهاوى إلى المستوى الثاني، المتمثل بالتمركز حول القومية، والاحتماء وراء ذكريات الماضي، وتاريخه المجيد. وبعد أن كان من المفروض أن

يسعوا للوصول إلى المستوى الأسمى الخامس المتمثل بفهم الآخر والتعايش معه واحتوائه،
انهيار الكيان الإسرائيلي إلى المستوى الثاني المتعصب.

إن العبقرية الفلسطينية كفيلة بملاحقة محاولات إسرائيل اليائسة لابتلاع الأرض وما عليها،
مرة بفرض القوانين والأنظمة، ومرة أخرى بالاستيطان، ومرة ثالثة بتحريف التاريخ، أو
صيغة الذاكرة عن طريق تسويق المعلومات التي تهدف تشكيل القبول بالواقع، ونشر
السلبية الجمعية.

ويعيد ذلك إلى الأذهان النموذج الذي طوره أوبرج (Oberg)، والمتضمن أربع مراحل
لعملية التأقلم مع الثقافة الطارئة أو الناشئة أو الدخيلة، وهي على النحو الآتي^{[١٠٤ ص ١٧٧ - ١٨٦]:}

- مرحلة الانبهار الثقافي والاستمتاع بالتغيير (Honeymoon Phase)، وفيها مشاعر إثارة
وانبهار بما هو جديد، وتتسم بالتفاؤل، ولذلك فإنها تدعى مرحلة شهر العسل بالنسبة
لهم. وما دروا أن ذلك يشعل نار النعمة لدى الآخر. واستمرار هذه المرحلة يؤدي إلى
إحباط ثقافي وإبداعي عند الآخر العربي، صاحب الحق والأرض.

- مرحلة الصدمة الثقافية (Culture Shock)، وهي مرحلة المواجهة مع المستجدات المجهولة،
وازدیاد المظاهر السلبية لما يعترض الفرد من أحداث كالقلق والارتباك والإحباط. وأحسب
أن الإسرائيليين سيواجهون مجموعة من دواعي القلق ومظاهر الإحباط. أما الفلسطينيون،
فهم يعانون من إحباط تراكمي، وسيؤدي ذلك بالتأكيد إلى الثورة على كل هذه الأوضاع
المحبطة بطرق إبداعية مبتكرة، لا يعلم حدودها إلا الله.

- مرحلة الانتعاش والشفاء (Recovery). وتفسر بالنسبة للجانبين العربي والإسرائيلي بطرق
متباينة. فإيمان الفلسطيني لا يتزعزع بالله، وبقدرته على الصمود والثبات في أرض الرباط.
وأخيراً رحلة التكيف والتأقلم (Adjustment)، وهي مرحلة رضا بنتيجة الإيمان القاطع أن
الله ينصر من نصره.

حددت إليزابيث ماركس (Elizabeth Marx) عشر خطوات يتبعها الفرد لتقليل
أثر الصدمة الثقافية التي يواجهها. وهذه الخطوات الإرشادية هي^{[١٠٤ ص ٢]:}

- تجنب عنصر المباغته، فلا تفاجئك الصدمة الثقافية، فتأخذك على حين غرة. فليستعد
المرء لمواجهة الصدمة الثقافية قبل الانتقال إلى البيئة الثقافية الجديدة، وليتدرب على طرق
التعرف على أعراضها وتلمس آثارها المتوقعة؛

- وتوقع التعرض للصدمة الثقافية في أي مكان ينتقل إليه؛
 - وتلمس كافة فرص بناء شبكة علاقات إيجابية سليمة مع أبناء الثقافة التي ينتقل إليها، والآخرين من الوافدين إليها من أبناء الثقافات الأخرى؛
 - وعدم الاستسلام للظروف غير المواتية، وعدم التهرب من مواجهة أعراض الصدمة الثقافية باتباع استراتيجية الشراهة في تناول الطعام والشراب؛
 - والاستعانة بخبرات الآخرين الوافدين إلى الثقافة المحلية التي ينتقل إليها؛
 - وإعطاء الذات فرصة كافية للتأقلم مع الوضع الجديد، وعدم الانغماس في العمل بصورة كبيرة تحجب مثل تلك الفرصة؛
 - وعدم التردد في طلب نصيحة المتخصصين إذا استمرت أعراض الصدمة الثقافية، رغم المحاولات الجادة التي يقوم بها لتحقيق درجة مقبولة من التكيف والتأقلم مع الثقافة الجديدة؛
 - وتوقع التعرض لأعراض صدمة ثقافية جديدة حينما يعود المرء إلى الموطن الأصلي أو المكان الذي تعود عليه سابقاً (وتسمى مثل تلك الصدمة بالصدمة الثقافية المعاكسة)؛
 - والتفكير بالجوانب الإيجابية للصدمة الثقافية، فمن شأن ذلك ان يساعد على التأقلم بصورة أسرع؛ ومحاولة التمتع بروح الدعابة دائماً.
 - وللتعامل مع كل ذلك في عصر العولمة، لا بد من اتباع أربع استراتيجيات تعتمد في مجملها على استخدام الحاسوب، وهي [١ : ص ٢٢٥]:
 - التحرر من الروتين (Deroutinizaion)،
 - والتحرر من التقاليد المتبعة (Demoralizaion)،
 - والتحرر من القيم السائدة ((Demoralization)،
 - والتحرر من المركزية (Decentralization).
- ونتيجة لاتباع الاستراتيجيات الأربعة الموصوفة، هيمنت الثقافة الأمريكية على الأجيال الشابة الواعدة في معظم شعوب الأرض، من خلال عولمة ثقافية طاغية. ويعود ذلك لأسباب عديدة أهمها أن الثقافة الأمريكية توفر فرص حرية التعبير عن الذات بشكل يفوق ما تتيحه الثقافات الأخرى، وهي بالتالي تتيح فرصة إثبات الذات، وفرصاً إبداعية أخرى متنوعة. ويمكن التأكيد مرة أخرى على أن ذلك كله ساهم في خلق ظاهرة الاغتصاب الثقافي، وأعطى عملية اكتساب الثقافة الأمريكية صفة العولمة الثقافية.

وإزاء ذلك كله، لا بد من التركيز على ضرورة تحديد استراتيجيات بناء الثقافة الذاتية للفرد العربي، وتنمية شعوره بالندية الحضارية، وتعميق خط الأصالة الحضارية في وجدانه، وتحسينه في وجه الثقافات الوافدة، وبلورة المشروع الثقافي الحضاري العربي، وتعميق العموميات الثقافية كالقيم الروحية، والعدل، والتسامح، والعمل، والتعاون، واحترام الوقت، واحترام الرأي الآخر، ومحاربة الظلم، وتنحية الخصوصيات الثقافية السلبية، كالطبقية والإقليمية، والعنصرية، والطائفية، ومط الحياة الاستهلاكية، وغيرها. كل ذلك بهدف دفع الإبداع والطموح للعطاء، والابتعاد عن التشبث بالماضي، وإبراز صورة الأمة العربية كأمة تقدم فكري وإنجاز علمي تقني، مثلما هي أمة شجاعة وكرم.

البيئة النفسية الموازية لتطور الشخصية العبقرية للقدس:

لقد خلص السويدي جوران إكفال (Goran Ekvall)، ومن بعده الدارسون في مركز دراسات الإبداع في جامعة SUNY/ Buffalo، إلى تحديد أبعاد أساسية تساهم في رسم ملامح البيئة الموازية للإبداع. وتصنف هذه الأبعاد ضمن ثلاث فئات على النحو الآتي [١٥: ص ٣٢]:

- الموارد (Resources): وتضم أبعاد مدى التحدي، ومدى توفر الوقت الكافي لمناقشة الأفكار ذات العلاقة بالعمل، ومدى تقبل الأفكار الجديدة والاستعداد لدعمها.
- الدافعية الذاتية (Personal Motivation): وتضم مدى الثقة والانفتاح، ومدى الشعور بالراحة والمرح، وغياب النزاعات بين الأفراد العاملين في موقع العمل.
- الاستكشاف (Exploration): ويضم مدى إمكانية الحوار، ومدى الميل إلى المخاطرة، ومدى الحرية.

ولقياس مدى ملاءمة البيئة للإبداع والعبقرية، يمكن اعتماد الاختبار الآتي، بحيث تعطى علامة (٥) لأعلى درجة أو مستوى، وعلامة (١) لأدنى تقدير للمستوى في كل بند. [١٦: ص ٤٦]:

- ما درجة التزام المواطنين في المكان بالأعمال الموكولة إليهم؟
- ما مستوى قدرة المواطنين في المكان على تحديد كيفية أداء أعمالهم؟
- ما مدى توفر وقت كاف لمناقشة الأفكار البديلة للقيام بمهام صعبة قبل البدء بأدائها؟
- ما مدى تقبل الأفكار الجديدة والاستعداد لتجربتها؟
- ما مدى وجود توتر عاطفي وأزمات نفسية في موقع العمل؟
- ما مدى السماح بسرد قصص فكاهية ونكات في موقع العمل؟

- ما مدى الألفة بين الأفراد العاملين في موقع العمل؟
 - ما مدى حرية المواطنين في المكان بالتصرف في مواقف حين يشك في أن تكون النتائج مرضية؟
 ويمكن الاطلاع على مقياس رسم ملامح البيئة الموازية للعبقرية، كأعلى درجات الإبداع، كما هو مثبت في نهاية الفصل الرابع.

أما عن المواقع التي تشكل حاضنات للعبقرية في أي بلد، ففي طبيعتها المقاهي التي هي في واقع الحال ملاذ العباقرة، لأنها أماكن تشجع الصمت البريء المحفز للتأمل. وهي أيضاً أماكن تشكيل آراء عامة حول مواضيع معينة من خلال ما يطلق عليه التفكير التواصلية والتشاركي. فإطلاق صفة العبقرية ليس قراراً فردياً، بل حكم جماعي يتفق عليه غالبية الناس. فإن قيل أن فلاناً شاعر عبقرى، فذلك لأن مجموعة من الناس اتفقت بصورة استدلالية مدروسة أو اعتبارية على أن في شعره ملامح عبقرية واضحة. إنهم لا يطبقون عليه أيّاً من اختبارات الإبداع والعبقرية، ولا يقيسون درجة الإبداع عنده ليحددوا مدى عبقريته. وإذا كان أينشتاين، وهو بالمناسبة من أتباع الديانة اليهودية، أول من يخطر بالبال لدى الحديث عن العبقرية، فإنه لم يتقدم لأي اختبار إبداع ظهر من نتيجته أنه عبقرى أو يتصف بالموهوبية. تصور شخصاً يجلس لوحده على مقهى، ويدخن الأرجيلة. أو بدوياً يقضي يومه يحتسي القهوة، ويحلم في البعيد على تخوم السماء. إنه بلا شك يفكر في أشياء كثيرة، بعضها شخصي، والبعض الآخر يتعلق بالبيئة والمجتمع وكنه الحياة. وربما ينتج ذلك التفكير المجانف عملاً إبداعياً يصل حد العبقرية. والمثابرة، على الرغم من الفشل، ينتج أعمالاً إبداعية أيضاً. ولذلك فإن العبقرية لا تقتصر على القدرة العقلية الموروثة التي تدعى الموهوبية، والتي يعبر عنها بدرجة ذكاء عالية، بل هي أيضاً نتاج صفات شخصية محددة كتحدى الوضع القائم، والجرأة على ارتياد المجهول، وروح المغامرة، والمثابرة، والتفرد، والصبر، والتفوق في المجالات العلمية والفنية المختلفة، والقدرة على التساؤل والتنافس والعمل التشاركي، وهي في مجملها عناصر تندرج ضمن ملامح عبقرية الزمان والمكان والإنسان.

مراكز التنمية الثقافية في شرقي القدس [٧٤]:

ترتبط الثقافة بمراكز وهيئات متعددة تلتقي في أهدافها عند مهمة الكشف عن التراث الثقافي، وتولي أهمية لحفظه وتوزيعه على أفراد المجتمع بعدالة، وتوريثه للأجيال اللاحقة.

ومن هذه المراكز المكتبات والمتاحف والنصب التذكارية والنوادي والجمعيات الثقافية، وغيرها. وتلتقي مهامها جميعاً عند حد إنتاج الأعمال الثقافية، وحماية الكنوز الثقافية الموروثة، وإطلاع الناس عليها، وحفظها للأجيال اللاحقة. وذكر ميخائيل إيشتاين (Mekhail Epstein) في كتابه الموسوم ما بعد المستقبل، والمنشور عام ١٩٩٥م، أنه يطلق على المجتمع الغربي الرأسمالي الذي ينظر إلى الثقافة من ذلك المنظور تعبير مجتمع الاستهلاك الثقافي (Consumer Society)، حيث يصبح المنتج الثقافي تعبيراً عما يمكن استهلاكه، وليس عما يقتضي أن يكون عليه الحال. [٦: ص ١١٨]. وبالتالي، فإن المنتج الثقافي يجب أن يكون مقبولاً لدى الناس، وقابلاً للاستهلاك منهم. وفي المقابل، فإن المجتمع الروسي الاشتراكي، حيث يكون النمط الثقافي السائد هو ما يمكن تسميته ثقافة مجتمع التوزيع والنشر (Society of Distribution). إذ لا يشكل الاستهلاك في المجتمع الروسي الاشتراكي قضية أساسية، لأن المنتج هو المنتج بغض النظر عما إذا كان سيتم استهلاكه أم لا. فالتوزيع والنشر يمثل تنظيمًا متوازنًا بين الإنتاج والاستهلاك. وبالتالي، فإن المثقف في روسيا هو الشخص القارئ، والمتعلم، والمؤدب، والمسؤول، والذي يمتلك مجموعة من المهارات، ويلتزم بالتقاليد. لكن الثقافة ليست مجرد مجموعة من الصفات المتفرقة أو المجتمعة وحسب، بل هي كل واحد يضم الحرية والإبداع أيضاً. والمؤسسات الثقافية ليست مدارس وجامعات ومكتبات ومتاحف وحسب، بل مختبرات يجري فيها فحص إمكانية اختراع وتطوير أشياء جديدة أيضاً. وقد نشأت ثقافة العصر الحديث في ورش العمل ومختبرات الكيميائيين واستوديوهات الفنانين. وإذا كانت الثقافة في القرن الخامس عشر تعتبر مرادفة للمعرفة الدينية، وكانت الثقافة في القرن العشرين مرادفة للمعرفة في الشؤون السياسية، فإنها في القرن الحادي والعشرين مرادفة حتماً للمعرفة العلمية المنظمة. وإذا كان العالم العربي، بشكل عام، أكثر ميلاً لتبني وجهة النظر الغربية، فإن المجتمعات المحلية فيه ما زالت تتبنى وجهة النظر السائدة في القرن الخامس عشر أو القرن العشرين في أحسن الأحوال في نظرتها للمثقف. وبغض النظر عن المدارس والجامعات ومراكز العبادة وغيرها من المؤسسات المجتمعية التي تشكل ثقافة الفرد، فإنه لا يمكن تجاهل دور المراكز المتخصصة بالتطوير الثقافي. ومن المراكز الثقافية الوطنية الفلسطينية في القدس الشرقية التي يمكن إبرازها ما يأتي. [٤٢]

المسرح الوطني الفلسطيني (الحكواتي):



افتتح المسرح الوطني الفلسطيني (الحكواتي) في مدينة القدس في أيار ١٩٨٤م، كأول مسرح فلسطيني متخصص. وفرقة الحكواتي المسرحية هي التي بادرت إلى تأسيس هذا الصرح الفني العريق، وقامت بإدارته والعمل به كفرقة مقيمة حتى عام ١٩٨٩م. وكمؤسسة فلسطينية تعمل في مجال الفن والثقافة، عانى المسرح الوطني كثيراً من سلطات الاحتلال، ومن هجمات المستوطنين في مدينة القدس. وقد تم اغلاق المسرح مرات عديدة تحت ذرائع مختلفة، وبحجة مخالفة القانون. إلا أن عزيمة القائمين على هذا الصرح الثقافي من فنانيين ومثقفين استطاعت الحفاظ على هذا المنبر الفلسطيني إلى أن أصبح واحداً من معالم مدينة القدس.

المعهد الوطني للموسيقى:



مؤسسة وطنية فلسطينية تتخذ من مدينة القدس مقراً لها تسعى لتعليم الموسيقى وتعميمها للفلسطينيين في جميع أماكن تواجدهم، ضمن إطار يعزز رؤيا ثقافية وطنية فلسطينية. رؤية المعهد أن كل بيت فلسطيني يتمتع بثقافة موسيقية واسعة ومبدعة وحيوية، تساهم في تعزيز الهوية الفلسطينية، وفي تربية الأجيال. وأهدافه رفد المجتمع الفلسطيني بكفاءات موسيقية قادرة على الإبداع الموسيقي، وتعليم الموسيقى، وزيادة الاهتمام الرسمي والشعبي بها، وتذوقها.

أيام المسرح:



مركز تدريب في مجال الدراما، وفي الوقت ذاته مسرح للتمثيل، والتعبير عن النفس. يقوم بتدريب الكبار للعمل في مجال مسرح الشباب. وهي شركة فلسطينية غير ربحية تعمل

منذ عام ١٩٩٥م في مجال التدريب وإنتاج المسرحيات. وانتشر عملها في الضفة الغربية وقطاع غزة. وأصبح فريق الخليل مسرح نعم ، وبدأ مسرح الجيب في فرع القدس.

مسرح سنابل للثقافة والفنون:



تأسس عام ١٩٨٤م كجمعية مسجلة وفق القانون، وأنتج عشرات الاعمال المسرحية والاذاعية والتلفزيونية، وقدم مئات العروض المسرحية للأطفال والشباب والكبار والمعاقين. ويشرف المسرح على ورشات فنية متخصصة مثل التمثيل وغيرها.

مؤسسة المعمل للفن المعاصر:



منظمة غير ربحية تأسست في عام ١٩٩٨م بهدف إلى نشر صناعة الفن. وتخدم كمدافع عن الفن المعاصر، ومحفز لتحقيق المشاريع الفنية، وكذلك تطوير الحياة الثقافية في فلسطين،

من خلال دعوة الفنانين إلى القدس لتطوير وإنتاج وعرض أعمالهم. وكذلك من خلال تنظيم ورش عمل فنية للشباب.

مركز سبافورد للأطفال:



تأسس في القدس القديمة سنة ١٩٢٥م، ويستقبل جميع الأطفال سواء كانوا من الضفة الغربية أو من القدس من عمر أربع سنوات حتى عمر ثماني عشرة سنة. ويضم المركز عدة برامج: البرامج النفسية، وبرنامج اللغة والنطق، وبرنامج تربوي، وبرنامج الأمهات، وبرنامج الخدمة الاجتماعية، ونشاطات ترفيهيه تعليمية ثقافية.

مؤسسة صابرين للتطوير الفني:



مؤسسة غير ربحية متخصصة بشكل أساسي في تعزيز الموسيقى من خلال تعابير وأشكال فنية مختلفة. تركز برامج مؤسسة صابرين على بناء القدرات، وتوفير الدعم التقني والإنتاج وذلك امتدادا لالتزامها بشعارها الموسيقي والتغيير.

مركز دراسات القدس:

تأسس مركز دراسات القدس برعاية جامعة القدس عام ١٩٩٨م. ويدير المركز برامج أكاديمية وثقافية كماجستير في الدراسات المقدسية، ومكتبة إلكترونية، وجولات ميدانية للتعرف على مدينة القدس وحضاراتها من جوانبها المختلفة.

المركز الثقافي ومتحف وجود:

يقع متحف الاسرة المقدسية وجود في عمارة قديمة عمرها ٦٥٠ عاما، تم بناؤها أيام المماليك. يطل المتحف على بركة جفت مياهها تدعى بركة البطاركة ، ويقدم المتحف عرضا للحياة العادية والادوات التي استعملت ما بين القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين.

جمعية مركز برج اللقلق:



تأسست جمعية مركز برج اللقلق عام ١٩٩١م كرد فعل لصد الهجمات الاستيطانية اليهودية المٌتمثلة بحركة الأجهزة والوزارات الإسرائيلية من جهة، والجمعيات الاستيطانية من جهة أُخرى. تعتبر جمعية مركز برج اللقلق للعمل المجتمعي مؤسسة وطنية غير ربحية، تقوم بخدمة سكان البلدة القديمة بشكل عام، وأهالي حي باب حُطة بشكل خاص، حيثُ يعيش داخل أسوار البلدة القديمة ما يزيد عن خمسين ألف فلسطيني (عشرة آلاف منهم في حي باب حُطة). وفي الجمعية، مجموعة من الغيورين على القدس من أفراد ومؤسسات

وطنية فلسطينية بالتواجد والتجمهر في الموقع كوسيلة لحماية الأرض. يسعى المركز لتفعيل واستثمار الموقع، وتوسيع البناء فيه، وتلبية الاحتياجات المختلفة لسكان المنطقة. فكان النادي الرياضي للشباب، ومن ثم جاءت روضة الأطفال، ومكتبة فيصل الحسيني، وخيمة البرج، لتلبي احتياجات اجتماعية وثقافية. يقوم المركز على مساحة واسعة من أراضي البلدة القديمة، حيث يصل إجمالي مساحته إلى أكثر من ثماني دونمات، مما يجعله المركز الأوسع من حيث الأراضي، سواءً داخل أسوار البلدة القديمة أو خارجها.

جمعية الشابات المسيحية:

تهدف جمعية الشابات المسيحية في القدس الى المساهمة في تطوير نساء قياديات، وخاصة الشابات والناشئات منهن، ومساعدة النساء على إدراك حقوقهن وقدراتهن، بالإضافة إلى تشجيعهن على المشاركة في اتخاذ القرارات بخط متساوي مع الرجل في جميع الأمور المتعلقة بحياتهن، وتعزيز مشاركتهن في بناء مجتمع مدني ديمقراطي وحر. تستند برامج جمعية الشابات المسيحية في القدس على اربعة محاور عمل رئيسية: تمكين المرأة اقتصاديا، ودعم حقوق المرأة، والمساهمة في تطوير شباب قياديين ودمجهم بالمجتمع، وتعليم الاطفال.

دار اسعاف النشاشيبي للثقافة والفنون والآداب:

على بقعة مرتفعة في حي الشيخ جراح شمالي القدس يربض قصر عريق ابتناه محمد إسعاف بن عثمان النشاشيبي عام ١٩٢٢م، فغدا محجا لكثير من الأدباء والمفكرين العرب. يتكون قصر الأديب من طابقين تبلغ مساحة كل منهما (٢٩٦) مترا مربعا، وتسوية مساحتها (١١٠) مترا مربعا، ويقع على قطعة أرض مساحتها (١٢١٠) مترا مربعا. وقد أخذ القصر مقرا للقنصلية الفرنسية، ثم مقرا لمدرسة الآثار الألمانية عام ١٩٦٤م. ثم دخل في حوزة مؤسسة دار الطفل العربي عام ١٩٨٢م، حيث أسس فيه الدكتور إسحق موسى الحسيني مركز الأبحاث الإسلامية عام ١٩٨٦م، والذي أصدر عدة أبحاث تراثية وفكرية. وتم تأسيس مكتبة قيّمة في الطابق العلوي تشمل مكتباتهم الخاصة أمثال عارف العارف وفوزي يوسف وإسحق موسى الحسيني وغيرهم. وما يميز مكتبة دار اسعاف النشاشيبي وجود مخطوطات قيمة. ووجود قاعة كبيرة لعمل معارض فنية متنوعة وأمسيات شعرية وفنية متنوعة.

حوش الفن الفلسطيني:



مؤسسة فنية ثقافية غير ربحية، متخصصة في الفنون البصرية، لأنها عنصر مهم في الهوية الثقافية الفلسطينية. استضافت العديد من المعارض الفنية، وأقامت ورشات عمل ومسابقات فنية، إضافة لنشرها عدداً من المطبوعات. تأسس الحوش لاستضافة أعمال فنية شاملة لفنانين فلسطينيين، وملء فراغ عدم وجود مراكز فنية مجتمعية. ويلعب موقع الحوش الحالي في أحد المباني القديمة في قلب مدينة القدس، مع واجهته المقوسة والتي تعود لثلاثينيات القرن الماضي في شارع الزهراء، دوراً فاعلاً في خدمة أهداف المؤسسة؛ فهو محاط بعدد من المدارس، الفنادق، ومؤسسات الخدمات العامة. يوفر المركز مكاناً مستداماً للفلسطينيين للتعبير عن هويتهم وتقويتها من خلال الثقافة البصرية. ولذلك يوفر جاليري الحوش مساحة للفنانين ليعرضوا أعمالهم، كما يفتح الباب أمام الجمهور ليكتسبوا المعرفة، ويقدروا الإبداعات الفنية للفنانين الفلسطينيين الناشئين والرواد. ومن نشاطات المركز تنظيم معارض فنية داخلية وفي الساحات العامة، ومعرض دائم للفن الفلسطيني.

مركز يبوس:

شهد مركز يبوس منذ نشأته نجاحات متواصلة في معظم مشاريعه وبرامجه، كما ساهم في إنعاش الحياة الثقافية في القدس، وفي إعطاء المدينة لمسة تعكس أهميتها العربية، تاريخياً، ودينيًا، وسياسيًا، وثقافيًا. يعتبر مركز يبوس أكبر مركز ثقافي في القدس، ويشكل مرفقاً هاماً يمكن الناس من اللقاء، ومشاركة بعضهم في المناسبات الثقافية المختلفة، والتفاعل مع

الفنانين، والمشاركة في نشاطات تغني الإبداع، والتنوع، كما تغني الأعمال الفنية في القدس، والتعبير الثقافية الفلسطينية.

يعمل مركز ييوس على انتاج وتنظيم الفعاليات الثقافية المختلفة: من موسيقى، وادب، وسينما، ورقص، ومعارض وبرامج خاصة للأطفال والشباب والمرأة. وتخطب احتياجات كافة قطاعات المجتمع المقدسي الفلسطيني، بما فيها الفئات المهمشة. كما يستضيف المركز العديد من الفعاليات الفلسطينية المقدسية.

مسرح الجوال المقدسي:

قدم مسرح الجوال المقدسي، منذ تأسيسه، مسرحيات للكبار وللصغار في جميع المدن والمخيمات الفلسطينية، بالإضافة إلى جولات مسرحية في عدة دول مثل الاردن والمانيا والنرويج. ويقوم مسرح الجوال بتكريم شخصيات مقدسية تعمل للقدس في جميع المجالات

المقاهي كمراكز ثقافية [٢٤]:

تعتبر المقاهي مراكز ثقافية، إذ يلتقي فيها المثقفون في جلسات تأمل وحوار أدبي وسياسي واجتماعي له مردود إيجابي. مقاهي القدس العتيقة لوحات زاخرة بالحركة والتأمل. وتشكل عالماً فريداً له سماته الخاصة، متشابك العناصر، يحوي بين جنباته أطرافاً مختلفة من الناس، فكان كل مقهى يمثل وحدة اجتماعية وإنسانية واقتصادية وسياسية، تصب فيها كل العناصر والأطراف التي يتشكل منها المجتمع الفلسطيني. وكانت المقاهي تواكب الأحداث عن قرب، وخلال الفترات التي تجري فيها الانتخابات النيابية أو البلدية، أو الغرف التجارية، يكون المقهى المكان الذي تنطلق منه الحملات الانتخابية، وتتركز فيه الدعايات. وكان للمقاهي المقدسية رواة يسردون على الحاضرين سير أبوزيد الهلاي وعنترة العبسي والظاهر بيبرس وألف ليلة وليلة.

وحول تلك المقاهي وتاريخها وصورة القدس قبل قرابة تسعين عاماً، يصف أحد الكتاب المقدسين صورة المقاهي في ذلك الزمن على النحو الآتي: كان يلتقي في المقهى ابن القرية وابن المدينة، الأمي والمتعلم، الفقير ومتوسط الحال، الموظف والتاجر. وكان البعض يخصص له زاوية معينة من زوايا المقهى، وهم من المعلمين والمثقفين، ترى الجميع يجلسون على مقاعد خشبية مصنوعة من القش متقابلين يتبادلون الأحاديث والطرائف، مشيراً إلى أن بعضهم يتخذ المقهى مقراً ثابتاً لأعمالهم التجارية، ويطوف الباعة الجائلون داخل المقهى

يحملون بضاعتهم من أقلام حبر ونظارات شمسية وسلاسل حديدية للمفاتيح ومحافظ جلدية.

كان المقهى جزءاً من الحياة العامة المقدسية، يعيش الواقع، ويحكي الحدث القديم والجديد بتفاصيل ورؤية تختلف من شخص إلى آخر. وفي رمضان، كانت مقاهي القدس تعج بروادها، لا سيما بعد صلاة التراويح، حيث كانت تستقدم رواة الملاحم الشعبية القديمة وسيلة للكسب المشروع وجذب الزبائن.

البعض يعزو انتشار فرق الملاحم الشعبية (ليس في فلسطين فحسب، وإنما في أقطار عربية أخرى، مثل مصر وسورية والعراق) إلى أنه ردة فعل على الهزائم التي لحقت بالشعوب العربية. فملحمة أبو زيد الهلالي انتشرت بعد الاحتلال البريطاني، والظاهر يبصر بعد إخماد ثورة أحمد عرابي، بغية شحذ الهمم، وتجديد العزائم، لأن الشدائد لا تفت من إرادة الشعوب.

إن مقهى علون باب حطة من أشهر المقاهي في القدس. وكان يستضيف رواة القصص أو الحكواتي، ومن أشهرهم الشيخ المرحوم صالح علي خميس الذي ولد في المدينة، وترعرع فيها، وأسس فرقة إنشادية خاصة في زاويته المئذنة الحمراء في حارة السعدية. فكان الشيخ خميس يجلس فوق مصطبة أعدت خصيصاً للرواة، يرنو إلى المحتشدين بجسمه النحيل، وملامحه الرقيقة، وبشرته القمحية. ويصغي الجميع: كنا قد تحدثنا يا سادة يا كرام عن فعل عنتره بأعدائه اللئام، واليوم نواصل معكم مسيرة الهمام، فصلوا على النبي العدنان.

لا يوجد مرجع ثابت يحدد تاريخ نشوء المقاهي، غير أنه من الأرجح أنه كان في الثلاثينات من القرن الماضي، حيث كانت المقاهي آنذاك مصاطب خشبية يجلس عليها المرتادون، ثم تطورت من المصطبة إلى استخدام الطاولات والمقاعد الخشبية المصنوعة من القش. ولعل سنوات الخمسينات من القرن الماضي كانت العصر الذهبي لمقاهي القدس، حيث كانت تجري فيها المناظرات والحوارات بين المتنافسين على انتخابات البلدية أو الغرف التجارية. فعند الانتخابات، كانت تتحول المقاهي إلى تجمع سياسي وطني، ومنها مقاهي زعتره وصيام في مدخل باب العمود، وعلون في باب حطة. والمقهى الوحيد الذي حافظ على عدم إدخال أي نوع من أنواع اللعب هو مقهى أبو أحمد صيام، عند مدخل سوق العطارين في البلدة القديمة، حيث كان له رواده الخاصون، يجتمع فيه أصحاب التبناك

العجمي، ويحتسون القهوة فقط، ولفترة زمنية قصيرة، بهدوء وتأمل. إثر احتلال القدس في حرب ١٩٦٧م، كانت بعض مقاهي القدس مكاناً لاجتماع بعض الشخصيات الوطنية والشباب المثقف بصورة سرية، لتدارس طرق مواجهة الاحتلال، أو لجمع التبرعات للمنكوبين. ولم يغيب عن بال الاحتلال هذا الأمر، فزرعت العيون لرصد الاجتماعات والتحركات، ومعرفة ما يدور في خلد أصحابها، وكثيراً ما كانت تدهم تلك المقاهي، وتعتدي على الرواد، لا سيما الشباب بحثاً عن النشطاء السياسيين منهم. القدس قبلة الديانات السماوية الثلاث: اليهودية، والمسيحية، والإسلام. وكانت عبر العصور مركزاً للتسامح الديني. إلا أن المدينة شهدت حركات تعصب ديني. والتعصب الديني هو تمييز شخص أو جماعه لدرجة تصل حد الهوس لدين معين، أو لمذهب ديني معين، أو لأفكار دينيه متطرفة تسيطر عليهم. ويعتقد المتعصب الديني عادة ان دينه أو مذهبه هو الأصح، بينما الأديان والمذاهب الأخرى خطأ. وقد يصل الحد بالمتعصب أن يكره اتباع الأديان او المذاهب الأخرى، وتسيطر عليه مشاعر عدوانيه قد تدفعه إلى الاعتداء عليهم باللفظ او الفعل. التعصب والهوس الديني قد يصل حد القيام بأعمال إجرامية، حيث ان المتعصب قد يتخيل أن من حقه محاربة اتباع الديانات أو المذاهب الأخرى، ليس بالاعتداء اللفظي عليهم وحسب، بل بالاعتداء البدني، أو على تخريب أماكن عبادتهم.

المتاحف في القدس الشرقية:

المتاحف المتوفرة في الجزء الشرقي من القدس كأوعية لحفظ الموروث الثقافي، على النحو الآتي [٢٤]:

مبنى المتحف الفلسطيني (روكفلر):



يقع في نهاية شارع السلطان سليمان القانوني (رقم ٢٧) إلى الشرق من المدرسة الرشيدية، وهو يقابل الزاوية الشمالية الشرقية لسور القدس، حيث برج اللقلق. يعد مبنى المتحف من معالم مدينة القدس البارزة، فبرج المتحف الحجري السداسي يلفت النظر من مسافات بعيدة ومن علو، خاصة وان المتحف انشئ على تلة، وعلى بقعة أرض تعرف بكرم الشيخ محمد الخليلي، حيث لا تزال معالم قصره المكون من طابقين ماثلة وقائمة. وطرز ذلك القصر يمثل أصدق تمثيل طرز العمارة العثمانية المحلية التقليدية التي سادت في القدس وفلسطين منذ نصف اوائل القرن السابع عشر، واستمرت حتى دخول الأعماط البنائية الحديثة.

يعرف المتحف باسم متحف اثار فلسطين أيضاً أو متحف روكفلر، على اسم الثري الامريكي جون روكفلر، الذي تبرع بمبلغ مليوني دولار لإنشاء المتحف، وذلك في اواخر العقد الثاني من القرن العشرين. وأسس المتحف ليضم ما اكتشف من آثار فلسطين.

متحف الكتاب أو مزار الكتاب:

وهو جناح من متحف إسرائيل الواقع على تلة الشيخ بدر. ويضم مخطوطات البحر الميت أو (لفائف خربة قمران)، نسبة للخربة التي وجدت فيها. وتم اكتشافها خلال الفترة ١٩٤٧-١٩٥٦م، في أحد عشر كهف في وادي قمران قرب البحر الميت. بني المتحف على شكل قبة بيضاء تغطي ثلثي الصرح القابع تحت الأرض. وعلى السطح توجد بركة مياه. يقطع القبة البيضاء حائط أسود بازلتي. الألوان والاشكال مستوحاة من الصورة الأدبية الفنية للفاائف حرب أبناء النور ضد أبناء الظلام. ترمز القبة البيضاء إلى أبناء النور والحائط الأسود إلى أبناء الظلام. يضم المتحف مخطوطات قديمة أخرى مثل مخطوطة حلب. ونظراً للشكل المعماري المميز الملتوي الغريب للقبة البيضاء، تم ادراج مشاهد لها في أفلام الخيال العلمي.

متحف تيراسانكتا:

انشئ متحف تيراسانكتا (متحف الأرض المقدسة) من أجل نشر تاريخ القدس، وجذور الوجود التاريخي المسيحي في الارض المقدسة، عن طريق عرض المكتشفات الأثرية، والمقتنيات الفنية للآباء الفرنسييسكان في الأرض المقدسة. يقع دير الجلد في منطقة قلعة أنطونيا، وهي

عبارة عن مبنى روماني تم إنشاؤه بجوار الجدار الغربي للهيكل الثاني، ووفقا للتقاليد، هو مكان إدانة يسوع. ويمكن زيارة بقايا الجدران والبلاط والصهاريج، وسيتم إدراجها في المعرض الأثري للمتحف.

متحف التراث الفلسطيني / مؤسسة دار الطفل العربي:



أقيم متحف للتراث الشعبي الفلسطيني مع ظهور الحاجة الماسة إلى تعريف العالم الخارجي والجمهور المحلي بالتراث الشعبي الفلسطيني العريق. وقد تم تجميع المقتنيات التراثية في البداية من خلال تبرعات السكان المحليين، إضافة إلى تبرع سخي من سيدة بريطانية تدعى فيوليت باربر، كانت تقيم في فلسطين في تلك الفترة، وأهدت المؤسسة مجموعة قيمة من الألبسة والقطع التراثية العربية الاصيلة.

المتحف الإسلامي:



أنشئ المتحف الإسلامي في سنة ١٩٢٢م بقرار من المجلس الإسلامي الأعلى، وهو بذلك يعد أول المتاحف التي أنشئت في القدس. ويتميز بأنه يحوي مجموعة من الكنوز الفنية التي قدمت كهدية للمتحف، أو تلك التي نقلت من المسجد الأقصى بعد إجراء الترميمات، رغبة في حفظ التحف في مكان مناسب لتعرض على جمهور أوسع من الزوار والسائحين. لذا فإن أغلب تحف المتحف لها علاقة مباشرة بتراث المسجد الأقصى والقدس وفلسطين. وعليه فقطح المتحف نادرة، فالمصاحف القيمة مثلا كانت الى فترة قريبة موضوعة بتصرف القراء والمعتكفين بالمسجد للقراءة فيها، والحشوات الخشبية كانت تزين سقف الجامع الأقصى، والبلاطات الخزفية كانت تغطي جدران قبة الصخرة المشرفة.

يضم المتحف الاسلامي نماذج نادرة من التحف الفنية الاسلامية، تغطي فترة زمنية تقرب من عشرة قرون. فيوجد فيه تحف من اجزاء مختلفة من العالم الاسلامي، تشمل شمال افريقية، ومصر، والشام، وتركيا، وايران، وشرق اسيا.

يحوي المتحف مجموعة نادرة من المصاحف الاسلامية المخطوطة، والمجلدة تجليدا فاخراً، والمذهبة، والتي تعود إلى فترات إسلامية مختلفة. وقد كتبت بخطوط متنوعة منها الخط الكوفي والمغربي والنسخي والثلث والخط الفارسي. وأغلبها ربعات أهديت إلى المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وأوقفت على قراءة القرآن الكريم من قبل القراء المختصين، أشهرها ربعة ملك المغرب، وربعة السلطان سليمان القانوني، وربعة السلطان العثماني بايزيد، ومصحف السلطان المملوكي برسباي ضخم الحجم، والمصحف الكوفي المنسوب إلى الحسن بن الحسين ابن علي بن ابي طالب، والمؤرخ للقرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي.

هدير الصمت الثقافي المنقوش على وجه التاريخ:

إن كل ما في القدس، وتاريخها الطويل والحافل، عناصر تؤكد أنها أيقونة العبقرية. لقد تمت تغطية عبقرية المكان والزمان والإنسان بالنسبة للقدس. وكان من الضروري سبر علاقة العبقرية بأنواعها الثلاثة بكل من عوامل الثقافة والحرية والديمقراطية. ويؤكد ذلك حقيقة أن غياب الحرية والديمقراطية بسبب ظروف الاحتلال يحد من تفتح القدرات الإبداعية عند الفلسطينيين. كما يشير إلى أنه كان لمن تمتع من الفلسطينيين بأجواء الحرية والديمقراطية في بيئات عالمية أثر واضح في الحضارة الإنسانية. والشواهد على ذلك كثيرة. هدير الصمت يشهد على لسان الشاعر الفلسطيني سميح القاسم أن الفلسطيني ملك القدس، نجل ييوس، وريث سلالة كنعان، خليفة روح النبي القديم الجديد محمّد صلى الله عليه وسلم.

الجدول رقم (٤) اختبار قياس المستوى الثقافي

أ- بيّن مدى موافقتك على كل من العبارات الآتية:-
(أكتب رقماً واحداً يدل على مدى موافقتك على كل عبارة، وذلك في الخانة الموجودة أمامها)

الرقم	العبارات	أوافق تماماً	أوافق	أوافق إلى حد ما	غير متأكد	لا أوافق	رمز درجة الموافقة
١	التعلم عملية تعديل إيجابي مستمر للسلوك						
٢	يتذكر المثقف الحقائق الأساسية المتعلقة بالصحة والمرض						
٣	الشهوات الغريزية المصدر الرئيسي لتصرفات الشخص المثقف						
٤	يعدد المثقف الكثير من الفضائل التي تحث عليها الأديان						
٥	يمارس المثقف الفضائل الإنسانية في كل مجالات حياته						
٦	تبنى العلاقات الإنسانية على أسس موضوعية غير متحيزة						
٧	العائلة مؤسسة اجتماعية جديرة بالاحترام						
٨	التشبه الأعمى بالأنماط المستوردة للحياة يضر بالفرد والمجتمع						
٩	جميع صور الدعاية إرشادية تفيد كل من يشاهدها						
١٠	يفترض بالفرد أن يكون عادلاً في كل ما يصدر عنه من أحكام						
١١	يتصف المثقف بالإننتاجية في الأعمال التي يؤديها						

					يعدّ المثقف الصعوبات الفردية التي تحد من النمو المتكامل للشخصية	١٢
					الوعي بالعوائق الجماعية التي تعترض عملية الإنتاج إحدى السمات الأساسية للمثقف.	١٣
					يبدى المثقف اهتماماً بالكشف عن قدرات الخلق والإبداع عند الآخرين من أجل تنميتها	١٤
					يهتم المثقف بتحقيق تنمية اقتصادية وطنية شاملة ومستمرة	١٥
					من الضرورات المجتمعية تنمية روابط وثيقة بين أبناء الوطن أفراداً وجماعات	١٦
					يكتسب المثقف عادات سلوكية تسير القيم والتقاليد السائدة في المجتمع	١٧
					يجب مراعاة الأنظمة والقوانين المعمول بها	١٨
					الاعتزاز بالوطن - بنكباته وعثراته ونهضته وطموحاته - صفة أساسية للشخص المثقف	١٩
					تتوافق أعمال المثقف وتصرفاته مع القيم السامية السائدة في المجتمع الذي يعيش فيه	٢٠
					المحافظة على حقوق الملكية الفردية ركن أساسي من أركان النظام العالمي الجديد	٢١
					تهتم النظم التربوية المتقدمة بأساليب التفكير أكثر من اهتمامها بطرائق الحفظ والتذكر	٢٢
					يعد الحصول على الشهادات الهدف الرئيسي للالتحاق بمؤسسات التعليم	٢٣
					يتمكن المثقف من استغلال أوقات الفراغ بكفاءة	٢٤
					يرتكز احترام الآخرين في غالبيته على أساس المستوى الثقافي	٢٥

ب - أعط تقييماً لنفسك إزاء كل من الممارسات المبينة في البنود الآتية:
(أكتب رقماً واحداً يدل على مدى تقييمك لكل ممارسة، وذلك في الخانة الموجودة أمامها)

الرقم	الممارسات	ضعيف	متوسط	جيد	جيد جداً	ممتاز	رمز التقييم
١	استخدام اللغة القومية (قراءة وكتابة ومحادثة)						
٢	استخدام لغة ثانية غير اللغة القومية (قراءة وكتابة ومحادثة)						
٣	حل المسائل التي تعتمد على العمليات الحسابية البسيطة (الجمع والطرح والضرب والقسمة)						
٤	تمييز فحوى الكلام المنطوق باللغة القومية						
٥	تمييز التفاصيل الدقيقة للمناظر والأشكال						
٦	استخدام الحاسوب في أعمال الحياة اليومية						
٧	القدرة على مراعاة تناسق الألوان في اللباس						
٨	تجسيد القيم الدينية (التي يقتنع بها الفرد) في كل مجالات الحياة						
٩	يتذوق جمال الهيئة البشرية في البنى الجسمية للآخرين						

						الشعور بالرضى عما يتم تحقيقه في الحياة العملية	١٠
						العمل مع الآخرين ضمن مجموعات عمل تشاركية	١١
						مراعاة آداب السلوك الاجتماعي	١٢
						ممارسة نشاطات اجتماعية متنوعة	١٣
						كفاءة معالجة القضايا الأسرية	١٤
						بناء العلاقات العائلية على أسس ديمقراطية	١٥
						التعامل مع الآخرين ضمن حوار دائم متكافئ هادئ	١٦
						تقبل النقد البناء الموجه من الآخرين	١٧
						توظيف الخبرات السابقة في مواجهة القضايا المستجدة	١٨
						القدرة على تقييم الآخرين بموضوعية	١٩
						المحافظة على المثل والقيم العائلية	٢٠

أنا ملك القدس..

الشاعر الفلسطيني سميح القاسم

على مَلَأَ اللهُ أَعْلَى رُوحِي وَضَوْئِي، وَأَشْهَدُ، فَاشْهَدُ
أنا ملك القدس، نجلُ ييوس، وريثُ سلالَةِ كنعان، وحدي
خليفةُ رُوحِ النَّبِيِّ الْقَدِيمِ الْجَدِيدِ مُحَمَّدٍ
أنا ملك القدس، لا أنت، ريتشارد!
أنا ملك القدس، فاسحبْ فلولَكَ
مِرَاسِي صَعْبٌ، وَلَحْمِي مُرٌّ
فَأطعمْ قَطِيعَ جِيوشِكَ لَحْمَ الْكِلَابِ،
وَأطعمْ قَطِيعَ الْكِلَابِ.. خِيولَكَ
ضَلَلتَ السَّبِيلَ، ضَلَلتَ سَبِيلَكَ أَنْتَ.. وَأَخْطَأتَ أَنْتَ
تَجَاوَزتَ كُلَّ الْحُدُودِ
بِلَاطِي مِنَ النَّارِ وَالْجَمْرِ،
أَيْنَ تَجْرُ ذِيولَكَ؟
وَعَرْشِي قَصِيٌّ، وَمُلْكِي عَصِيٌّ عَلَيْكَ
فَكَيْفَ تَتِيهْ؟ وَكَيْفَ تُصْعَرُ خَدًّا وَجِيعًا؟
وَأَنْشِوْطَتِي أَقْسَمْتُ أَنْ تَطُولَ وَتَقْصُرَ،
حَتَّى تُحَاصِرَ طُولَكَ
جَهَلتَ كِتَابِي،
وَتَارِيخَ وَجْهِي وَكَفِّي وَبَابِي
وَعَلَّمَكَ الْحَرْفَ سِيفِي
لِتَقْرَأَ تَحْتَ الرَّمَادِ طُولَكَ

لعلَّكَ تُدرِكُ أن القديمَ حلولي
وأنَّ الجديدَ عذابي
يُسفِّهُ فيكَ فضولُكَ
ويرفضُ في إرثِ أهلي حلولُكَ
وأن بزوغَ دمي الحرِّ والحيِّ يكفي أفولُكَ
فلملمِ سيوفك. واحزمِ دروعك. ريتشارد
وباشِرْ رحيلك
ستنزُلُ أنتِ.. لأصدُ
بلادي بلادي. ومملكتي القدس. ريتشارد
وأنتِ اقترفتِ خروجي من البيت، بيتي،
وأنتِ اقترفتِ دخولك
وآن الأوانُ لترحل. ريتشارد
ضبابك يطلب نوراً جديداً. وأنتِ تحاربُ نوري القديم
تجرِّعُ حلاوةَ بأسِي. تجرِّعُ مرارةَ يأسك،
واجمعُ شظايا جنونك من تحتِ حُقيي،
كدِّسِ حفاءَ هزائمك السود. لُدْ
بشراعِ القراصنة الطارئين. وغرِّبْ
إلى حالِ غربك. ريتشارد.
تزوُلْ جرائمك الداميات. وأنتِ تذُلُّ. وأنتِ تزوُلُ
وكم آن لي أن أُدَلِّكَ. كم آن لي أن أُزيك
أنا ملكُ القدس. فاخترْ سبيك
وهاجرْ
إلى الموتِ. إن شئت. ريتشارد.
وإن شئتِ دربِ الحياةَ فخذها وسافرْ
على صهواتِ الدماءِ وفي مركباتِ المجازرِ

إلى حيث أَلْقَتْ..
بلادي بلادي، وأنت تُكَايِرُ
وفي ألفٍ ليليٍ وليلٍ تُفَايِمُ
فغَادِرٌ.. وغَادِرٌ..
إلى حيث أَلْقَتْ..
ولا تنسِ، ريتشارد،
أنا ملكُ القدسِ، من أوّلِ النقبِ حتى أعالي الجليلِ،
فأينَ سُنْشفي غليلك؟
ويا أسدًا من دخانٍ وقشٍّ
ونارٍ وبطيٍّ
وحدقٍ وجهلٍ وطبيٍّ
تزولُ، إذًا، أيها التيسُ، ريتشارد
وقد آنَ لي، آنَ لي، أن أزيلَكَ
أتفهمُ، ريتشارد؟
ستفهمُ، ريتشارد.
أقولُ لك الآنَ باسمِ الفصولِ
وباسمِ النبوءاتِ، باسمِ الولاداتِ، باسمِ الأناشيدِ، باسمِ البداياتِ
باسمِ المسيحِ وباسمِ الرسولِ
وباسمِ السنايلِ والوردِ، باسمِ اللغاتِ وباسمِ الحقولِ
وباسمِ الشواطئِ، باسمِ الجبالِ ووديانها والسهولِ
وباسمِ الحروبِ أقولُ، وباسمِ السلامِ أقولُ:
هي القدسُ، روحٌ، وهاجسٌ سرٌّ وشعيرٌ ومعنى
وجغرافيا تحتفي بالمجرة حلماً
ويسري إليها نبيٌّ
ووحىٌ يُعَرِّجُ في زرقيةِ الله والمنتهى

فلا تتوعّد
بسيفِ الجنونِ المجرّدِ
هي القدسُ ريتشاردُ
لها ما لنا. ولها ما لها
هي القدسُ ريتشاردُ
وأنتِ تُداهمُها بالصليبِ، وتخلعُ أبوابها بالمطامعِ
وتجهلُ سرَّ الصليبِ. وحلمَ يسوع المسيح. وأحزانَ مريمَ
وذلكَ يرسمُ سوقَ أوروبا وتجارها والبضائعِ
وأوهامَ شار. وأحلامَ بائعِ
ويرسمُ ذلكَ نجمةَ داوود. ريتشارد
وأعلمُ ما لستَ تعلمُ
هي القدسُ. ريتشارد
فلا تتغطرسُ. ولا تتوهّمُ
لي القدسُ. ريتشارد
أنا القدسُ. ريتشارد
لنا القدسُ. ريتشارد
صليباً. هلالاً. ونجمةَ داوود. ريتشارد
وجسمكَ يلبسُ درعَ الحديدِ
ليخدعَ معنى الوجودِ وربَّ الجنودِ
وروحكَ تخلعُ أسماها
وتذهبُ ربحك. تذهبُ ربحك
وتذهبُ أنتِ هلاماً
وتبقى كلاماً
يضيقُ عليه ضربكُ
وللقدسِ أبوابها الواسعةُ

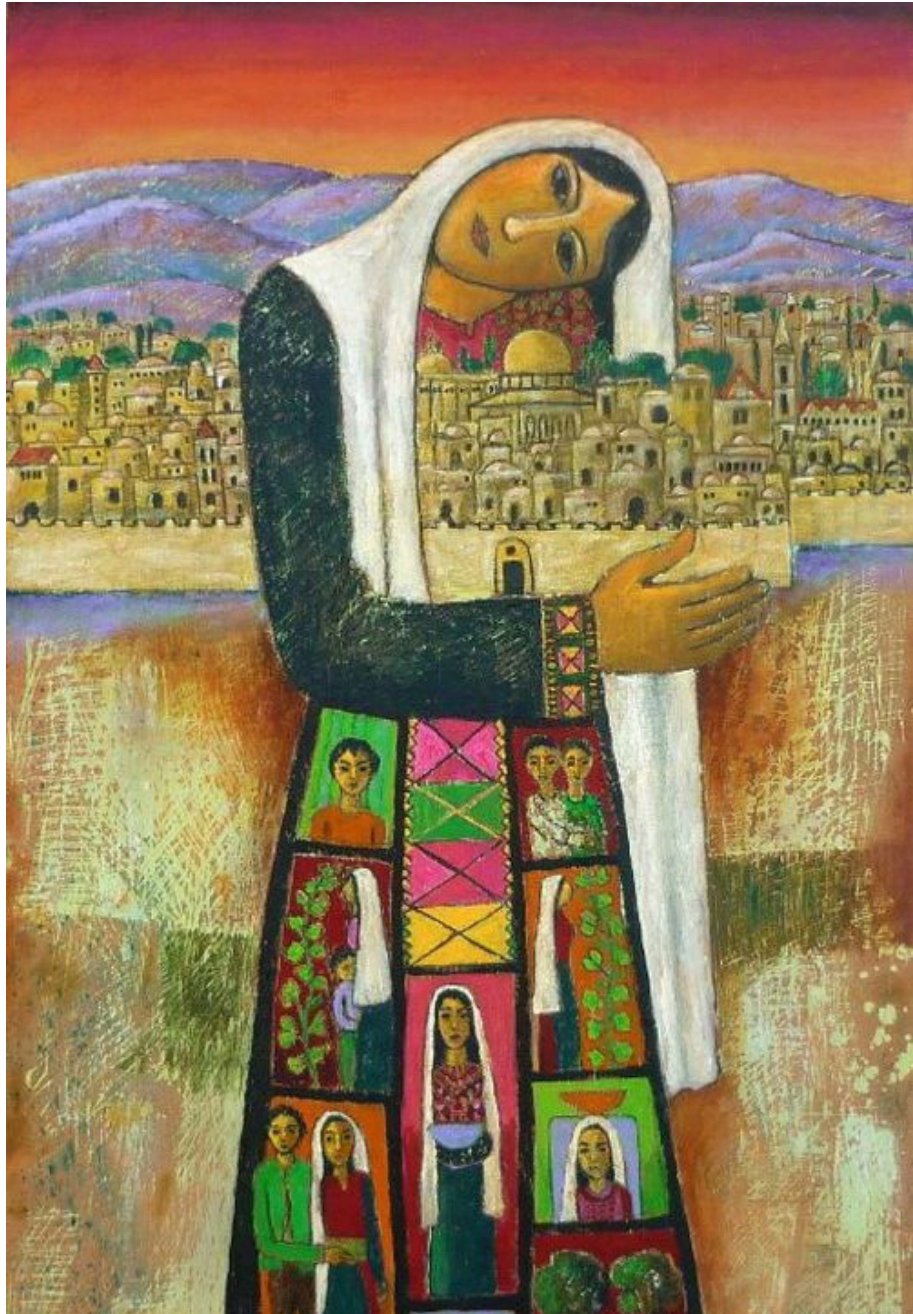
وأسمائها الرائعة
وأسمائها الحلوة المرّة اللاذعة
وللقدس نجمتها الطالعة
وللقدس أقداسها. فلتحجّ إليها الشعوب
جميع الشعوب،
قلوباً بإيمانها خاشعة
وطُهرَ أكفّ إلى ربها ضارعة
وأقسم. أقسم. ريتشارد
على صخرة القدس أقسم أن يتكسرَ حقدُ السيوفِ
وأن يتحطّمَ طيشُ الرماحِ
ووعداً. ووعداً. سنخلقُ منها المناجِلَ،
نصنعُ منها المحاريثَ. كيف نشاء. ونبدعُ منها المطارقُ
وفي سِرِّ أنهارها نحنُ نطفئُ وهمَ الحرائقُ
ونُفرقُ حقدَ الخنادقِ
وُبدعُ دفءَ البيوتِ. ودفءَ القلوبِ. وسحرَ الحدائقِ
وأقسمُ ريتشارد
يميني مشيئةً خلقٍ وخالقٍ
ويا أسدَ القشِّ والطيشِ والغشِّ. ريتشارد،
تفضّلُ
فتحتُ الطريقَ أمامك. فارحلُ
تفضّلُ
سأعطيكَ بعضَ زهورِ الجليلِ
وبعضَ نبيذِ الخليلِ. وخلّ الخليلِ
وأعطيكَ زيتونةً لتضيءَ بلادكَ
أعطيكَ ذاكرةً من نخيلي

ومن نبع موعظتي السلسبيل
ولكن.. تفضُّ
تسهِّل
ولا تتمهِّل
أنا ملكُ القدسِ. دُعُ لي الصليبَ
ودعُ لي الهلالَ. ونجمةَ داوودَ. وارحلُ
ولا تتملِّمُ
ولا تتطفِّلُ
إذا شئتُ. حيًّا. سترحلُ
وإن شئتُ. مَيِّتًا. سترحلُ
تفضُّ.. لترحلُ..
سترحلُ
إلى حيثُ ألقْتُ..
لترحلُ
إلى حيثُ ألقْتُ..
سترحلُ
وترحلُ
وترحلُ
وترحلُ..

الفصل الخامس

العبقرية الفلسطينية وعلاقتها بالموروث الشعبي

- الشخصية العبقرية للإنسان في القدس
- التخلف الثقافي
- ظاهرة فصام الشخصية الثقافية
- إطلالة تاريخية على أرض الرسل والأنبياء
- علاقة الأسطورة بالثقافة الشعبية الفلسطينية
- الدين والأساطير أساس السياسة الوطنية الفلسطينية
- الاساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية
- الفولكلور الشعبي وعلاقته بالثقافة الوطنية الفلسطينية
- النشيد الوطني الفلسطيني: تجسيد لرؤية شعب
- اللباس الشعبي جزء من الثقافة العربية الفلسطينية
- الرقص الفولكلوري الفلسطيني
- أطباق الطعام الفلسطينية
- القدس أيقونة عبقرية للإنسان
- إلى القدس: الشاعر الفلسطيني هارون هاشم رشيد



الفنان التشكيلي الفلسطيني نبيل عناني

الفصل الخامس العبقرية الفلسطينية وعلاقتها بالموروث الشعبي

الشخصية العبقرية للإنسان في القدس:

استقبلت القدس، شأنها شأن كافة الأماكن العبقرية في العالم، موجات المهاجرين إليها من كافة أصقاع الدنيا، باعتبارها مركز الديانات السماوية الثلاث. ومن شعر تميم البرغوثي في هذا المجال قوله:

الكل مرّوا من هنا

فالقدس تقبل من أتاها كافراً أو مؤمناً

أمرر بها وقرأ شواهدا بكل لغات أهل الأرض

فيها الزنج والإفرنج والقفجاق والصقلاب والبشناق

والتاتار والأتراك، أهل الله والهالك، والفقراء والملوك، والفجار

والنساك،

فيها كل من وطئ الترى

كانوا الهوامش في الكتاب فأصبحوا نص المدينة قبلنا

أتراها ضاقت علينا وحدنا

يا كاتب التاريخ ماذا جدّ فاستثنتنا

يا شيخ فلتعد الكتابة والقراءة مرة أخرى، أراك كحنت.

ومن بين العائلات المهاجرة اللاجئة في القدس عائلات يهودية قدمت من شتى أنحاء العالم. ولم يكن لدى المقدسيين أي تمييز عرقي أو إثني ضدهم. وعاش الجميع بسلام ووثام، إلى أن حيكّت المؤامرات للاستتثار بالأرض من قبل الصهاينة. من الناحية السكانية الاجتماعية، يمكن تقسيم العائلات المقدسية تاريخياً إلى مجموعتين،

هما [٢٣، ص ٥٦ - ٥٨]:

العائلات المقدسية القديمة:

وهي عائلات دخلت القدس محررة زمن صلاح الدين الايوبي أو بعده. وتتبع في دخولها واستقرارها في بيت المقدس حتى عام ١١٠٠ هجري. وهي عائلات الخالدي، والبديري، والشهائي، والعفيفي، والخطيب، والدجاني، والغواصة، وجار الله، والسروري، والامام، والنقيب، والمفتي، وابو السعود، والفتياني، والعلمي، وبو مدين، ونسيبة، والنشاشيبي، والعسلي، والحسيني، والجاعوني، ودرويش، والأنصاري، وجودة، والنمري، وقطينة، والداودي، والعارف، ورمصاص، والبخاري، وكمال، والترجمان،، الصالح،، وغنيم، والمؤقت، وشتية، وشرف، ونور الدين، والشعباني، والأيوبي.

العائلات المقدسية الجديدة:

وهي عائلات استقرت ونزلت في القدس الشريف إبان الحكم العثماني، وبالتحديد في الفترة (١١٠٠ - ١٢٨٠) هجرية. ومن بينها الجبشة، وهندية، والبشيتي، والوعري، والموسوس، والمظفر، والترهي، والبغدادي، والهدمي، وبامية، والكلغاصي، واليوزباشي، والمتولي، واسطمبولي، والألجوي، ومعتوق، وحب رمان، والقرجولي، ونجم، وطه، وعبد، وسموم، ونجيب، وغوشة، واهرام، وقرش، والكالوتي، وحجازي، وزحكة، وجعفر، وازحيمان، والحواش، والقضماني، وطوطح، والشاويش، وبدرية، وابو الحاج، والبيطار، وصيام، وقلبيو، وارناؤوط، والشرفاء، والحلاق، والمملوك، والسمان، وطقش، ووهبة، وعبد اللطيف، وطريز، والسيفي، وعويضة، والقطب، والطحان، والنجار، والقباني، وعكاوي، والديسي، والزماميري، والتوتنجي، والحلواني، والقزاز، والماني، والدقاق، والشامي، وسوميرة، وابو عيد، والخلفاوي، والدسوقي، والمغربي، وأفغاني، ومراد، وزلاطيمو، وسرندهج، ومشعشع، والمصادر.

ويمكن التعريف ببعض العائلات العربية لمقدسية الشهيرة، وذلك على النحو المختصر الآتي

[٤: ص ص ١١٤ - ١١٧] .

- عائلة الحسيني: عرفوا بهذا الاسم نسبة لجدهم الحسين السبط حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فالحسيني اسم يطلق على كل من هم من نسل الحسين بن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه، وهم منتشرون في العالم العربي والاسلامي.

- آل النشاشيبي: عرفوا بهذا الاسم نسبة لمهنة جدهم الذي كان يعمل بصناعة القوس والنشاب. وبرزت عائلة النشاشيبي إبان الثورة الفلسطينية في بداية القرن العشرين الميلادي كاحدى العائلات السياسية في فلسطين.

- آل الخالدي (بني خالد): عرفوا بهذا الاسم نسبة لجدهم خالد المخزومي القرشي. وهي عائلة قريشية عريقة كان لها أثر كمكتبة آل الخالدي في بيت المقدس، وفيها شيوخ كثير عرفوا في بيت المقدس على مدار سنين طويلة.

- آل الغواصة (بني غانم): عرف آل الغواصة بهذا الاسم نسبة لجدهم الشريف الشيخ غانم بن علي. وأل الغواصة هم من السادة الاشراف، دخل جدهم الشيخ غانم بن علي القدس بعد التحرير الايوبي، وأقام في بيت المقدس عند باب الوليد الذي عرف فيما بعد بباب الغواصة. ومن اثارهم تربة الغواصة، وحرارة الغواصة، وتربة الأمير عبد الدايم الغواصة.

- آل العلمي (بني العلم): عرف آل العلمي بهذا الاسم نسبة لجبل العلم في المغرب، الذي قدموا منه في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي. وأل العلمي هم من السادة الأشراف. ومن اثارهم في القدس تربة الأمير شرف الدين موسى العلمي، ومقام محمد عمر العلمي. - آل الخطيب (بنو جماعة): عرفوا بهذا الاسم لأنهم تولوا منصب الخطابة بالمسجد الاقصى سنين طويلة. وعرفوا قبل ذلك ببني جماعة الكناني، نسبة إلى جدهم بدر الدين محمد بن ابراهيم بن جماعة الكناني. وأل الخطيب عائلة قريشية من بني هاشم، تسكن بيت المقدس منذ العهد الأيوبي.

- آل الإمام: عرف آل الإمام بهذا الاسم نسبة للإمامة في المسجد الاقصى المبارك. فقد تولوا إمامة المسجد سنين طويلة. وهي من العائلات المعروفة بالورع والتقوى في بيت المقدس.

- آل نسيبة: عرفوا بهذا الاسم نسبة إلى نسيبة المازنية، وهي عائلة خزرجية عريقة، يحمل بناؤها مفاتيح كنيسة القيامة منذ أيام العهدة العمرية.

يذكر من العلماء والفقهاء القدامى المشهود لهم بالعبقرية من سكان القدس حجة الإسلام، وصاحب كتاب الإحياء، أبو حامد الغزالي. وقد أقام بدمشق فترة، ثم انتقل إلى بيت المقدس. ومن الشخصيات العربية الفلسطينية المقدسية المولدة في العصر الحديث، يذكر على سبيل المثال لا الحصر، نخلة زريق (١٨٦١-١٩٢١م) وهو رائد تعليم اللغة

العربية في فلسطين، وروحي الخالدي (١٨٦٤-١٩١٢م) رائد البحث التاريخي والأدب المقارن،
 وبندلي الجوزي (١٨٧١-١٩٢٤م) رائد البحث العلمي الاجتماعي، وخليل السكاكيني (١٨٧٨-
 ١٩٥٣م) رائد التجديد الفكري والأدبي في فلسطين، وأحمد حلمي عبد الباقي (١٨٨٢-١٩٥٨م)
 شاعر الرباعيات في فلسطين، ومحمد اسعاف النشاشيبي (١٨٨٢-١٩٤٨م) علامة فلسطين
 وأديب العربية، وعارف العارف (١٨٩٢-١٩٧٣م) عميد المؤرخين الفلسطينيين، وأحمد سامح
 الخالدي (١٨٩٦-١٩٥١م) رائد الفكر السياسي التربوي، وواصف جوهريّة (١٨٩٧-١٩٧٣م)
 رائد الموسيقى والغناء في فلسطين، واسحق موسى الحسيني (١٩٠٤-١٩٩٠م) عميد الأدب
 العربي في فلسطين، ونجاتي صدقي (١٩٠٥-١٩٧٩م) رائد المدرسة الواقعية الاشتراكية، ونصري
 الجوزي (١٩٠٧-١٩٩٦م) من أعلام المسرح في فلسطين، وقسطنطين ثيودوري (١٩١٢-١٩٩٩م)
 رائد البحث في المعاجم اللغوية، وخليل الخالدي (١٨٦٣-١٩٤١م) من رواد النهضة الأدبية
 والفكرية في فلسطين، ويوسف ضياء الدين الخالدي (١٨٤٢-١٩٠٦م) رائد النهضة العربية
 الحديثة في فلسطين، وروحي ياسين الخالدي (١٨٦٤-١٩١٣م) رائد البحث التاريخي الحديث
 في فلسطين، وسلامة بن جماعة (أبو الخير المقدسي) أحد أعمدة أتباع المذهب السني
 الشافعي في القدس خاصة، وفي فلسطين عامة. [٩: ص ١٣٧]

لكن إبداع هؤلاء يتركز في واقع الحال على النمط الأدبي التواصلية غير الإنتاجية، والصادر
 في معظم الأحيان عن شعور طاع بالحرية الداخلية الذاتية، وغياب تام للحرية الخارجية
 المجتمعية المتمثلة بشيوع الاستبداد والاستعباد، وإحساس محدود بالحاجة. وهو نمط مغاير
 للنمط الانبثاقي الابتكاري، الناتج عن طغيان الشعور بالحاجة، والدعوة للتغيير والإحساس
 العام بالحرية الداخلية والخارجية. وفي ذلك إشارة إلى أن أزمة الوطن العربي أزمة ثقافة
 وتربية وإبداع.

والواقع أنه لا بد من استشعار خطر التخلف الحضاري الداهم، والإصرار على الاستدامة
 الحضارية النابعة من الذاتية الثقافية العربية. ويقتضي تطوير فلسفة جديدة تقدم
 إجابات شافية وافية لقضايا عديدة تتعلق بنوع التفكير الذي يفترض اتباعه من المواطن
 الصالح المنتج المبدع، ومدى ما يمتلكه الفرد من القدرة على التحليل والتكريب والمحكمة
 اللازمة للوصول إلى حلول مناسبة للمشكلات التي يواجهها، وإمكانية قيامه بالتفكير بنفسه

ولنفسه وللغير، ومقدار الإبداع الذي يفترض أن يتحلى به المواطن الذي يرغب المجتمع العربي في إعداده ليوكب متطلبات العيش ضمن محددات الزمان والمكان. لقد روي عن الملك عبد العزيز بن سعود قوله: فلسطين لا تحتاج إلى رجال، فرجالها أهل ثبات. وقال صدام حسين: كل فلسطيني يولد مجاهداً. كما قال كيسنجر: لا يوجد، ولم ولن يوجد أشجع وأجد وأعد من رجال فلسطين. ومن المأثور عن الحجاج بن يوسف الثقفي قوله عن أهل فلسطين: لا يغرنك صبرهم، ولا تستضعف قوتهم، فهم إن قاموا لنصرة رجل ما تركوه إلا والتاج على رأسه، وإن قاموا على رجل ما تركوه إلا وقد قطعوا رأسه. فانتصروا بهم فهم من خير أجناد الارض. واتقوا فيهم ثلاثاً: نساءهم فلا تقربوهم بسوء وإلا أكلوكم كما تأكل الأسود فرائسها، وأرضهم وإلا حاربتكم صخور جبالها، ودينهم وإلا أحرقوا عليكم دنياكم.

التخلف الثقافي:

على الرغم من عدم توفر قوائم ثابتة للدلالة على الصفات الثقافية الإيجابية والسلبية على المستوى العالمي، وبشكل تتفق عليه مختلف الثقافات، إلا أن لورنس لافين (Lawrence Lavine) ذكر في كتاب يتناول الأسس الثقافية للتربية أن التخلف الثقافي تعبير يطلق على من يتصف بمجموعة من الصفات التي يمكن إيجازها بعدم القيام بالواجبات الدينية أو ارتياد دور العبادة، وعدم الاهتمام بالنظافة على أساس أن الماء مكلف، وعدم قبول فكرة الادخار أو فهم أسسه، وعدم القيام بإجراء توازن بين أحكام العقل والعاطفة، وعدم تقدير مردود القيام بالواجب وإنجاز توقعات الآخرين، وعدم الميل للتنافس سواء في مجال العمل أو الدراسة في بعض المجتمعات، وعدم تقدير الذات والشعور بالدونية، ويظهر ذلك من خلال بعض الظواهر كنسيان الفرد تاريخ ميلاده مثلاً، وإظهار درجة كبيرة من الحرية في مجال التعبير الجنسي، والاهتمام بالعيش دون اكتراث بالمستقبل واعتباره غير موجود، والنظر للتعليم على أنه عقبة يجب تخطيها إلى حين الوصول إلى سن يصبح فيه المرء قادراً على العمل، والشعور بالعجز عن السيطرة على البيئة والمصادر الطبيعية المتوفرة فيها. تصنف صفات الشخص المثقف ضمن أربعة أبواب كبرى، وهي الصفات الخاصة بتحقيق

الذات، والصفات الخاصة بالعلاقات الإنسانية، والصفات الخاصة بالكفاية الاقتصادية، والصفات الخاصة بالمسؤولية المدنية. فيتصف الفرد بالديموقراطية في بيته، حيث يقيم علاقات عائلية على أسس ديمقراطية. ويمكن تفصيل الصفات المتعلقة بالكفاية الاقتصادية والمسؤولية المدنية ضمن الصفات الأساسية التي تسعى كافة المؤسسات التربوية في كافة النظم التربوية العربية إلى تحقيقها في الفرد العربي كي يصبح الفرد مثقفاً، وهي بناء إنسان حر ومسؤول، حيث يكون مدى حياته حراً ومسؤولاً، يفيد من جميع الظروف والعوامل والمواقف في سبيل نموه الحر، من دون الوقوع تحت ضغطها وحتميتها، ما أمكنه الأمر، حتى يقوم بدوره، تجاه ذاته والغير، على أكمل وجه، وبكل جدية وإخلاص ووعي. كما يعطي الأولوية القسوى، مفهوماً وممارسة، للحريات المثبتة في نصوص حقوق الإنسان والطفل، الصادرة عن الأمم المتحدة، والنصوص الأخرى المكتملة لها، فيجعلها غاية له ولمن حوله، ومنها حرية الحياة والقرار والرأي والإيمان والعقيدة. ويساهم في بناء مناخ اجتماعي سليم، وفي مستوى كافٍ من النواحي التنظيمية والاقتصادية والثقافية. وهو إنسان ديمقراطي، يبنى مواقف تتميز باحترام الإنسان، قيمة سامية، من دون اعتبار الجنس أو اللون أن العنصر أو الدين أو العقيدة أو أي انتماء آخر، أو أي وضع شخصي، من أي نوع كان كالإعاقة على أنواعها، والدور في المجتمع، ومستوى الذكاء، والانحراف الشخصي على أنواعه، والفئات الاجتماعية الاقتصادية، وعلى درجاتها، وبصورة أساسية، التعامل مع الإنسان، والقبول به كما هو، وتدعيم الاحترام المتبادل بين الناس، واحترام تقاليدهم وعاداتهم وإيمانهم. كما أنه يعي بشكل تام أخطار التوتاليتارية التي تترتب به في المجالات السياسية والأحزاب والعائلة والحياة الشخصية والاجتماعية والروحية. وكذلك أخطار التعصب الديني خصوصاً، أو التمسك بالأنماط الحياتية الجامدة أو المستوردة، والتشبه الأعمى بها، وأخطار المجتمعات ذات السمة الاستهلاكية التي تلجأ إلى التمويه والدعاية الخبيثة المبتذلة، فتقضي على الوعي الشخصي والتفكير النقدي، وتجتر الإنسان إلى ما لم يكن بالحسبان، وأخطار التركيبات الطبقية والفئوية من أي نوع كانت، والفروق الشاسعة بين فئات الشعوب العربية، وبخاصة من النواحي الاجتماعية-الاقتصادية. كما أنه يغذي، لدى الجميع، الاحترام المتبادل وروح الكرامة والعدالة والأخوة والمحبة، وفي الوقت نفسه، روح النضال في

سبيل ذلك. وهو إلى ذلك إنسان واع، يتمكن من تقييم قدراته، وآرائه، ومواقفه، وقيمه، وشعوره، ونزواته، واتجاهاته، وذلك بصورة موضوعية، ودقيقة، ومستمرة. كما يتمكن من تقييم الأشخاص الآخرين وخصائصهم، وذلك بصورة موضوعية ودقيقة ومستمرة، وبروح المحبة، وتقييم مختلف شؤون الحياة. ويجتهد لتتوافق أعماله وتصرفاته وتفكيره وشعوره تجاه نفسه وتجاه الآخرين مع القيم السامية، ومع الحقيقة قدر المستطاع. كما يجتهد لأن تكون تصرفاته متطابقة، إلى أقرب حد ممكن، بالنظر إلى تلك القيم. وينمي حياة داخلية تساعد على الحياة للتغلب على صعوباتها، والإفادة من عطايها فينمو بتفاعل مستمر، متعافياً متكاملًا. وهو فوق ذلك إنسان منتج وخالق، ينمي شخصيته الفلسفية والعلمية والثقافية والمهنية، إلى أبعد حد ممكن، حتى يكون منتجاً، يبادل الوطن والإنسانية العطاء من النواحي المادية والمعنوية والروحية، في مختلف البيئات التي يعيش فيها، فيتحقق النمو السليم المضطرد للفرد والجماعة على السواء، كل وفق قدراته المتنوعة، وكل قدرة حتى أقصى مداها. وهو يتمكن من اكتشاف العوائق الفردية والصعوبات الجماعية التي تعترض عمليتي النمو والإنتاج، ومعالجتها بمختلف الوسائل. كما يتمكن من اكتشاف قدرات الخلق والإبداع والمواهب الفريدة ليعمل على تنميتها، ودفع قدرة النمو المتكامل إلى أقصى حد ممكن. وهو إنسان متفاعل، يعمل على توثيق الروابط السليمة والمتينة بين نفسه ومحيطه في كل مراحل حياته، ومع مختلف الجماعات داخل الوطن وفي الأوطان القريبة والبعيدة. ويقيم قواعد سليمة للحوار الدائم والاحترام المتبادل والتفاعل المثمر والعلاقات الثقافية والعملية، وفي انتفاء مظاهر السيطرة والاستغلال. فيصبح بالإمكان الوصول إلى أهداف إنسانية مشتركة، مع الحفاظ على خصائص الأفراد والجماعات والأوطان وشخصية كل واحد منها. كما أنه إنسان مدني، وطني، يعمل على تنمية روابط وثيقة ومصيرية بين نفسه وبين أبناء وطنه، أفراداً وجماعات. ويعمل على اكتساب الميول والقيم والعادات السلوكية العربية، وعلى احترام القوانين والأنظمة والعمل بها. كما يعمل على تقوية الانتماء العربي حتى يرتبط بوطنه وتراثه المشترك وثقافته ولغته وأرضه وبني قومه. وذلك عن طريق الاعتزاز بالوطن العربي، وبتراثه المشترك، فينهل منه ويكتفه، ويعمل على هدي الماضي، بتعثره، وصموده، بأخطائه، وطموحاته، بنكباته، ونهضته، في

سبيل بناء المستقبل، وعيش الحاضر، بعزة وكرامة. ويتعرف إلى تاريخه وتراثه وطبيعته، فيتمكن من فهم الأحداث التي تعاقبت على أرضه، والعلاقات التي نشأت بين الشعوب العربية وسائر الشعوب الشرقية والغربية، كما يتمكن من تقييم العوامل التي تفاعلت وأسهمت في تكوينه. وكذلك عن طريق الإقبال على الثقافات والتيارات الفكرية والعلمية، المعاصرة خصوصاً، من مختلف مصادرها، فيتفاعل معها، انطلاقاً من تكوينه وطموحه، في سبيل بناء شخصية عربية أصيلة. كما يتعلق بأرضه، فيتعامل معها بصدق، ويتعاضد معها بقدرته الجسدية والعقلية، يغذيها بحبه، ويدافع عنها بروح الجندية الشريفة، فتحضنه. ويحافظ على طبيعة أرضه الجميلة، فينظمها على أفضل وجه. كما يساعد على تنمية فضائل المحبة، والتضحية، وتدعيم الحياة العائلية الآمنة، والإيمان بالله، عن طريق الديانة التي يقتنع بها شخصياً، وعلى احترام المؤمنين الآخرين، وفق قناعاته، وغير ذلك من الفضائل التي ترفع قيمة الإنسان فيه، وفي غيره، وفي الإنسانية جمعاء. إنه إنسان ذو خلق حميد، يتحلى بالفضائل الأخلاقية التي تميز بها أجداده، ويسعى إلى تجسيدها في حياته، في كل مجالاتها. ويساعد على نبذ كل أنواع الاستغلال والتحيز الفئوي، من أي نوع كان، كاستغلال الوظيفة والمركز، لخدمة المصالح الشخصية والفئوية. وكذلك نبذ السرقة على أنواعها، والربح غير المشروع، والإرهاب، والترهيب، والتعذيب، والتهريب، والفساد الجنسي على أنواعه، والمتاجرة بالمواد المؤذية للإنسان، والمواد المحرمة، والرشوة، والسعي للحياة المرفهة بأي ثمن. كما يساعد على العمل المنظم المشروع، وعلى المحافظة على أملاك الوطن وأمواله، وكذلك المحافظة على أملاك الآخرين ومقتنياتهم، وعلى احترام الحق العام، في كل مجالات الحياة، وعلى استثمار الثروات الإنسانية والطبيعية في الوطن العربي وتوزيعها، وفق تنظيم شامل وعادل، بين الأفراد والمناطق والفئات السكانية. ويكون مهذباً، صاحب ذوق رفيع، ويحترم الآخر، أياً كان، مهما كان وضعه، ومهما كانت حالته. فيتعامل معه، كما هو، ويحبه على حاله، ويسعى إلى خدمته، ما أمكنه الأمر، وفق احتياجات ذلك الآخر.^{[١: ص ٦٣].}

ظاهرة فصام الشخصية الثقافية:

من أجل الحفاظ على مقومات خصوصية الفكر العربي، وأصالته، والإبقاء على هوية

محددة خاصة بالشعب الفلسطيني خاصة والأمة العربية عامة، وللتخلص من ظاهرة فصام الشخصية الثقافية، يجب اعتماد استراتيجية شاملة للتعامل مع الماضي والحاضر لبناء المستقبل. إن التعامل مع المستقبل يقتضي الاستقلال عن خصوصيات الفكر العربي، ومرجعياته الفكرية المنبثقة عن التشبث بالماضي. ويتطلب ذلك توفر حد أدنى من الشجاعة، والتضحية، والحرية الفكرية، والتسامح الديني والمذهبي. إن استشراف المستقبل يتطلب الوقوف على حاجات النهوض والتقدم، ومتطلبات الصراع من أجل البقاء. ولا يقوم بهذه المهام إلا النخبة من المثقفين العرب، من خلال انغماسهم العضوي في منظومة التراث العربي لتجديده من الداخل من جهة، وانتظامهم في الفكر المعاصر لتوظيف أدواته المنهجية من أجل إعادة بناء الماضي، وتطوير الحاضر، وبناء المستقبل من جهة أخرى. إن معالم العالم الحالي، والثقافة العالمية السائدة فيه، يتغيران باستمرار. والثقافة التي تورث للأجيال القادمة مختلفة تماماً عما هي عليه حالياً. وتشير الأبحاث إلى أن الثقافة تحتاج من أجل تحقيق الاستدامة إلى فترة جيل، أي لمدة خمسة وعشرين عاماً، بحيث يكون معدل الإنجاب في الأسرة (٢,١١) كحد أدنى. وبدون ذلك تندثر الثقافة. أما وصولها إلى حد (١,٣)، كما هو الحال في اليونان وألمانيا، فيعني استحالة عودتها إلى وضع سليم، لأن تصحيح مسارها يحتاج (٨٠-١٠٠) سنة. ولا يمكن لأي نظام اقتصادي أن يصمد كل تلك الفترة [٨]. ويفسر ذلك بأنه إذا أنجب زوجان طفلاً واحداً، فإن عدد الأطفال يساوي نصف عدد الآباء. وإن أنجب الأبناء طفلاً واحداً أيضاً، فإن عدد الأطفال يصبح ربع عدد الأجداد. وهكذا يتضح أنه لو كان عدد المواليد في عام ٢٠٠٦ مليوناً مثلاً، فإن من الصعب أن تجد في المجتمع مليونين من القوى العاملة عام ٢٠٢٦م. وكلما تقلص عدد السكان، تقلص مستوى الثقافة معها.

كان معدل الإنجاب في فرنسا عام ٢٠٠٧م حوالي (١,٨) في الأسرة، وفي بريطانيا (١,٦)، وفي اليونان (١,٣)، وفي ألمانيا (١,٣)، وفي إيطاليا (١,٢)، وفي إسبانيا (١,١)، وفي مجمل دول الاتحاد الأوروبي البالغ عددها (٣١) دولة يبلغ المعدل (١,٣٨)، والمعدل في تناقص تدريجي. وفي الولايات المتحدة الأمريكية، تبلغ نسبة الإنجاب (١,٦) في الأسرة الواحدة. وباحتساب مواليد المهاجرين من أمريكا اللاتينية، ترتفع النسبة إلى حوالي (٢,١١)، وهو الحد الأدنى اللازم للحفاظ على

الثقافة. ويعني ذلك أن الثقافة الغربية التي نعرفها ستتغير خلال فترة وجيزة، لولا الهجرة إليها، وبخاصة من الدول الإسلامية. وفي فرنسا، التي يبلغ معدل الزيادة السكانية فيها (١,٨)، ومعدل الزيادة بين المسلمين فيها (٨,١)، صار عدد المساجد في منطقة جنوب فرنسا وحدها يفوق عدد الكنائس، رغم أنها تعتبر أكثر الأماكن اكتظاظاً بالكنائس في العالم. وصار أكثر من ثلث الشباب من الفئة العمرية تحت سن العشرين من المسلمين. وترتفع النسبة في المدن الكبرى مثل باريس ونيس ومرسيليا إلى حوالي (٤٥٪). ويعني ذلك أن واحداً من كل خمس فرنسيين هو الآن مسلم. وستصبح فرنسا خلال تسعة وثلاثين عاماً جمهورية إسلامية. وفي بريطانيا تضاعف عدد المسلمين خلال الثلاثين سنة الماضية من (٨٢) ألفاً إلى أكثر من مليونين ونصف، أي بزيادة ثلاثين ضعفاً. وفي هولندا، يقدر أن يكون نصف المواليد الجدد فيها من المسلمين. وسيصبح نصف سكان هولندا مسلمين خلال خمسة عشر عاماً. وفي روسيا، يوجد ثلاثة وعشرين مليون مسلم، وسيكون (٤٠٪) من الجيش الروسي من المسلمين. وفي بلجيكا، تبلغ نسبة المسلمين (٢٥٪) من السكان، وستصل نسبتهم (٥٠٪) خلال خمسة عشر عاماً. وتصرح بلجيكا أن نصف الأطفال في أوروبا سيكونون مسلمين. وتستشعر ألمانيا أنها ستصبح دولة إسلامية بحلول عام ٢٠٥٠م. فهل تمت دراسة مقارنة لأعداد المسلمين واليهود في أوروبا..؟ وهل تم الأخذ بالاعتبار كل ذلك لدى تحديث المناهج الدراسية في المدارس في تلك الدول..؟ وهل قامت وزارات الأوقاف في الدول الإسلامية بالتدبر في انعكاسات ذلك ثقافياً واجتماعياً وسياسياً..؟! [٩ : ص ٤٣]

ولأغراض المقارنة، يذكر أن عدد الفلسطينيين المقدر في العالم لعام ٢٠١١م، حسب مركز الإحصاء الفلسطيني، بلغ حوالي (١١,٢٢) مليون فلسطيني، منهم (٤,٢٣) مليون في الأراضي الفلسطينية، وحوالي (١,٣٧) مليون فلسطيني في دولة الكيان الإسرائيلي، وما يقارب (٤,٩٩) مليون في الدول العربية، ونحو (٦٣٦) ألفاً في الدول الأجنبية. كما يقدر عددهم حوالي (٢,٦) مليوناً في الضفة الغربية، بينما يقيم (١,٦) مليوناً في قطاع غزة. وبلغ معدل الخصوبة الكلي في الأراضي الفلسطينية عام ٢٠١٠م حوالي (٤,٢) مولوداً، موزعين على النحو الآتي: حوالي (٣,٨) مولوداً في الضفة الغربية، وحوالي (٤,٩) مولوداً في قطاع غزة. وهي من أعلى المعدلات الموجودة في العالم. ويعود ذلك إلى عوامل اجتماعية، واقتصادية، وسياسية،

ودينية مختلفة. وعلى الجانب الآخر، تحولت المرأة اليهودية منذ منتصف التسعينيات من نظرية التحديث وفكرة التمدن إلى نظرية الخطر الديموغرافي. ويذكر الباحثون الإسرائيليون بالخطر الديموغرافي باستمرار، وبأن نسبة العرب في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م تبلغ (٤٠%) عام ٢٠٢٠م، وستتجاوز ذلك بكثير عام (٢٠٧٠). وهذا يشكل سبباً وجيهاً لدى الصهاينة الغاصبين للعمل على مواجهة الخطر الديموغرافي الداهم من أصحاب الأرض الأصليين.

[٩ ص ٤٥]

إن التحدي المستقبلي المتمثل في إمكانية خلق جيل قادر على التفكير بنفسه ولنفسه وللغير، وقادر على حماية الكيان الحضاري العربي، يفرض الاهتمام بتنمية الموارد البشرية، من خلال البناء الثقافي النوعي للأطفال الذين يشكلون نصف سكان الوطن العربي حالياً. وإذا كانت الدول العربية تهتم بالشباب لأسباب مختلفة، فجعلت وزارات ترعى شؤونهم، فإن من الأجدى أن يكون هناك وزارات لرعاية الطفولة، وتعمل بالتنسيق مع وزارات التربية والتعليم والتنمية والثقافة والإعلام والعمل.

وفي ظل فشل الدعوة إلى التكامل الاقتصادي العربي والأمني القومي كأساس للتوازن الاستراتيجي في منطقة الشرق الأوسط، فإن الحاجة ماسة لبلورة سياسات وطنية واستراتيجية قومية تشكل أساساً سليماً للعيش في عالم سريع التغير، متشابك العلاقات، تحول من اعتماده نظاماً اقتصادياً مركزاً على المعلومات إلى نظام معلوماتي مركّز على الاقتصاد. فالنظر إلى مسائل الوطن العربي من منظور معلوماتي فكري إبداعي يضع هذه المشكلات في دائرة الضوء، مما ييسر ظهور منطلقات جديدة لتوصيفها، ووضع الحلول المناسبة لها. يصنف الناس عادة وفق أبعاد متباينة: منها البعد العرقي الذي يبنى عادة على لون البشرة وبعض الصفات الجسمانية الأخرى، ومنها البعد الطبقي الذي يعتمد الثروة المالية ومكان السكن ونوع العمل أساساً للتوزيع الاجتماعي، ومنها البعد القومي والانتماء إلى جماعة لها تاريخ مشترك تفخر به. ولأبناء كل صنف ثقافة خاصة مميزة. لكن البعض لا يقبل بوضعه، فيتمرد عليه، ويسعى لتغييره بوسائل شتى كالسعي للحصول على الدرجات العلمية، والزواج من أبناء الأوساط الثقافية الأعلى على سلم المستويات الثقافية، والهجرة للعيش في مجتمعات جديدة، وربما ضمن الوطن الواحد، حيث تسود ثقافات أكثر ملاءمة.

وغالباً ما يوسم المنتقل إلى مجتمعات جديدة بصفات التنكر للثقافة الأصلية، وخيانة التراث الثقافي. ولكل ذلك انعكاساته السلبية على المؤسسات التعليمية التي تأخذ على عاتقها مهمة إجراء التوافق الثقافي بين أفراد المجتمع الواحد، والمجتمع العالمي ككل.

إطّلاّة تاريخية على أرض الرسل والأنبياء:

فلسطين في العصور القديمة:

سكن الإنسان أرض فلسطين منذ العصر الحجري القديم (٥٠٠ ألف - ١٤ ألف ق.م)، وكذلك العصر الحجري الوسيط (١٤ ألف - ٨ آلاف ق.م)، والعصر الحجري الحديث (٨٠٠٠ - ٤٥٠٠ ق.م). وقد ظهرت أقدم مدن العالم في أريحا التي أنشئت نحو ٨٠٠٠ ق.م. يأتي بعد ذلك العصر الحجري النحاسي من (٤٥٠٠ - ٣٣٠٠ ق.م)، وقد كشف عن مواقع حضارية أثرية تعود إلى تلك الفترة في منطقة بئر السبع. بعد ذلك عرفت الكتابة وتدوين التاريخ وبتدأ العصر البرونزي القديم من (٣٣٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م).

هجرة الكنعانيين:

بدأت أولى الهجرات البشرية المهمة إلى فلسطين في بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، وهي هجرة الكنعانيين الذين عرفوا باسم الأماكن التي نزلوا فيها، وبعد فترة أصبحت هناك ثلاث لغات: الكنعانية، والآرامية (لغة المسيح عليه السلام)، والعربية، واسم أرض كنعان هو أقدم اسم عرفت به أرض فلسطين، وقد أنشأ الكنعانيون معظم مدن فلسطين، وكان عددها حسب حدود فلسطين الحالية أكثر من مائتي مدينة خلال الألف الثاني قبل الميلاد، وقبل قدوم العبرانيين اليهود بمئات السنين. ومن المدن القديمة، فضلاً عن أريحا والقدس، مدن شكيم (بلاطة، نابلس) وبيسان وعسقلان وعكا وحيفا والخليل وأسدود وبئر السبع وبيت لحم. وظلت فلسطين تسمى أرض كنعان حتى عام ١٢٠٠ ق.م.

هجرة إبراهيم عليه السلام:

ثم جاء العصر البرونزي الوسيط (٢٠٠٠ - ١٥٥٠ ق.م). فحوالي ١٩٠٠ ق.م، قدم إبراهيم عليه

السلام ومعه ابن أخيه لوط عليه السلام إلى فلسطين. وهناك ولد إسحاق ويعقوب عليهما السلام.

الامبراطورية المصرية:

وبدأ العصر البرونزي المتأخر (١٥٥٠ - ١٢٠٠) بدخول فلسطين تحت سيطرة الحكم المصري المطلق؛ وهو ما دلت عليه رسائل تل العمارنة التي اكتشفت في صعيد مصر. أما في العصر الحديدي (١٢٠٠ - ٣٢٠ ق.م)، فقد استقبلت فلسطين مجموعات مهاجرة من مناطق مختلفة أبرزها هجرات شعوب البحر التي يظهر أنها جاءت من غرب آسيا، ومن جزر بحر إيجه (كريت وغيرها).

موسى عليه السلام:

ومع نهاية العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي، كانت بداية الدخول اليهودي إلى فلسطين. ولكن بسبب المجاعة التي اجتاحت فلسطين، هاجر أبناء يعقوب عليه السلام إلى مصر طلبًا للتجارة مع ابنه النبي يوسف عليه السلام. وهي قصة فصلها القرآن الكريم في سورة يوسف. واستقر الإسرائيليون في مصر، وتناسلوا، ولكنهم تعرضوا للاضطهاد على يد رمسيس الثاني، فقرر موسى عليه السلام الخروج بهم إلى أرض كنعان، هذه القصة وردت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، ومكث بنو إسرائيل في الصحراء أربعين سنة قبل أن يتمكنوا من دخول فلسطين بعد موت موسى عليه السلام في عهد النبي يوشع. وتمكن داود عليه السلام من إقامة مملكة بني إسرائيل في القدس، بعدما انتصر قوم موسى ويعقوب وداود على جالوت.

داود وسليمان:

تولى داود عليه السلام الملك، ونجح في توحيد الإسرائيليين مرة أخرى. وحل الخلافات التي كانت بينهم، واستطاع هزيمة اليبوسيين وتأسيس مملكة إسرائيل، واتخذ أورشليم (القدس) عاصمة لمملكته. وبعد موت سليمان بن داود عليهما السلام عام ٩٣٥ ق.م، انقسمت

المملكة على نفسها. فقامت يهوذا في القدس، ومملكة إسرائيل في السامرة، ونشبت الخلافات والحروب بين المملكتين، واستعانت كل منهما بملوك مصر أو آشور ضد الأخرى، مما أضعفهما معًا، وأضعف سلطتهما على السكان. فعادت الاضطرابات مرة أخرى.

زوال مملكتي يهوذا والسامرة:

هاجم ملك مصر مملكة يهوذا عام ٩٢٠ ق.م، واحتلها لتصبح منذ ذلك الحين تابعة للدولة المصرية. وفي عام ٧٢١ ق.م، هاجم الآشوريون مملكتي إسرائيل ويهوذا، واحتلوهما. وحاولت مملكة إسرائيل التمرد، لكن الآشوريين قمعوا تمردها بقوة، وأخذوا معظم سكانها إلى العراق.

نبوخذ نصر:

شن نبوخذ نصر الكلداني هجومًا على فلسطين عام ٥٩٧ ق.م، واستولى على القدس عاصمة يهوذا، وأخذ ملكها وعائلته ومعظم قادتها أسرى إلى العراق، وأقام في القدس ملكًا جديدًا. وفي عام ٥٨٦ ق.م، حاول بقايا اليهود التمرد على سلطان بابل في فلسطين. فعاد نبوخذ نصر وغزاهها من جديد. وفي هذه المرة دمر القدس، وعادت فلسطين كنعانية عربية تابعة للعراق، واستقبل هجرات العرب من سوريا والجزيرة العربية. وبسبب غزوات الآشوريين والكلدانيين المتكررة، اختفت دولة اليهود في فلسطين بعد أن استمرت فيها فترة أربعة قرون (١٠٠٠-٥٨٦ ق.م). وكانت تلك الفترة حافلة بالخلافات والحروب والاضطرابات. وتعتبر تلك الفترة من أهم فترات التاريخ الفلسطيني، حيث استند إليها اليهود في ادعائهم بأحقيتهم في العودة إلى فلسطين التي سموها أرض الميعاد.

فلسطين تحت الاحتلال الفارسي:

احتل الفرس فلسطين عام ٥٣٩ ق.م، وظلت فلسطين تابعة للدولة الفارسية طوال قرنين من الزمان، وفي عهدهم عادت بقايا قبيلة يهوذا إلى القدس.

فلسطين تحت الاحتلال اليوناني

يعتبر انتصار الإسكندر الأكبر على الفرس من أهم أحداث القرن الرابع قبل الميلاد، حيث استولى على سوريا وغازة والقدس وضمها إلى الامبراطورية اليونانية عام ٣٣٢ ق.م. وبعد وفاته انقسمت إمبراطوريته بين قاداته، فكانت فلسطين تحت سيطرة القائد أنتيخوس الذي هزمه البطالمة في غزة عام ٣٢١ ق.م، وأصبحت منذ ذلك الحين خاضعة لحكم أنتيخوس الثالث في سوريا عام ١٩٨ ق.م. وظلت فلسطين تعيش حالة من الحروب والقتال في ظل العديد من الدول مثل المكابيين والعرب الأنباط عام ٩٠ ق.م، وظلت تابعة لعاصمتهم البتراء حتى احتلها الرومان.

فلسطين تحت الاحتلال الروماني:

احتل الرومان فلسطين، وجعلوها ولاية رومانية تابعة لروما أولاً، ثم بيزنطة بعد انقسام الدولة الرومانية. وظلت تحت حكمها إلى منتصف القرن السابع الميلادي. وخلال فترة الحكم الروماني، شهدت فلسطين ميلاد السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، إلا أن اليهود وشوا به للحاكم الروماني، واتهموه بالكفر، فصلبوه أو شبه لهم ذلك وفق العقيدتين الإسلامية والمسيحية.

تمرد يهودي:

حاول اليهود استغلال الحرية الدينية التي مُنحت لهم في القدس منذ عودتهم من الأسر البابلي لإقامة دولة خاصة بهم. إلا أن الحاكم الروماني بمساعدة سكان البلاد العرب شن هجوماً عليهم، واحتل القدس، وقتل عدداً كبيراً من اليهود، قبل فرارهم إلى سوريا ومصر والبلدان العربية الأخرى.

هادريان واليهود:

كانت آخر محاولة لإقامة دولة يهودية في فلسطين عام ١٣٥م، عندما تزعم أحد الحاخامات اليهود عصياناً، فهاجمهم الحاكم الروماني هادريان، واحتل المنطقة اليهودية في القدس،

ودمرها، وبنى في ذلك المكان مدينة جديدة حرم على اليهود دخولها.

الفتح الإسلامي لفلسطين:

أرسل الخليفة أبو بكر الصديق عدة جيوش لفتح بلاد الشام بقيادة عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيط بن حسنة وأبي عبيدة بن الجراح، فهزم يزيد الروم جنوب البحر الميت، وتعقبهم حتى غزة في عام ٦٣٤م.

معركة أجنادين:

وأحرز عمرو بن العاص انتصارات كبيرة على الروم في معركة أجنادين عام ٦٣٤م، وفتح فحل وبيسان واللد ويافا

معركة اليرموك:

أمر عمر بن الخطاب الجيوش الإسلامية الموجودة في فلسطين بمواصلة القتال لاستكمال الفتح، وأمر خالد بن الوليد بتوحيد الجيوش الإسلامية في جيش واحد، واشتبك خالد مع الروم في معركة اليرموك التي شكل نصر المسلمين فيها لحظة حاسمة في تاريخ فلسطين، إذ تم طرد الرومان منها. واشترط البطريك صفرونيوس أن يتسلم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بنفسه مدينة القدس التي كانت تسمى آنذاك (إيلياء)، فحضر عمر إلى فلسطين وكتب للمسيحيين عهداً أمّنهم فيه على كنائسهم وصلبانهم، واشترط فيه ألا يسكن أحد من اليهود تلك المدينة المقدسة. ومنذ ذلك الحين، تدفقت القبائل العربية من سوريا والحجاز ونجد واليمن وسكنت الأراضي الفلسطينية التي أصبح معظم أهلها مسلمين، وأصبحت اللغة العربية هي اللغة السائدة.

الدولة الأموية ٦٦١ - ٧٥٠م:

كانت فلسطين في العهد الأموي تابعة لدمشق، ومن أعظم آثار تلك الفترة قبة الصخرة التي بناها عبد الملك بن مروان في الموضع الذي عرج منه النبي صلى الله عليه وسلم إلى

السماء ليلة الإسراء والمعراج، والمسجد الأقصى الذي أتم بناءه الوليد بن عبد الملك وهو البناء الذي ما يزال قائماً حتى اليوم، ومدينة الرملة التي بنى فيها سليمان بن عبد الملك قصره الشهير والمسجد الأبيض.

الدولة العباسية ٧٥٠ - ١٢٥٨م:

بعد انتهاء حكم الدولة الأموية أصبحت فلسطين تابعة للدولة العباسية وزارها الخليفة المأمون وولده المهدي، وفي ظل الدولة العباسية ازدادت عملية التعريب ونشأت أجيال جديدة نتيجة التزاوج بين الفاتحين العرب وأهل البلاد، وفي القرن الثالث الهجري استولي الطولونيون علي فلسطين، أما في القرن الرابع الهجري فقد أغار القرامطة علي فلسطين وأحدثوا فيها من السلب و النهب.

الاحتلال الصليبي ١٠٩٥ - ١٢٩١:

عاد الاحتلال الأجنبي لفلسطين مرة أخرى مع نهايات القرن الحادي عشر الميلادي، فقد شهدت أوروبا الكثير من المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية بين فقر في المواد الخام وازدياد في أعداد السكان وخلافات بين الملوك والفرسان، وبين البابا والملوك فكانت الإغارة على الشرق حلاً مريحاً لجميع الأطراف. وقد بدأت عمليات الشحن المعنوي بخطبة للبابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٥م طالب فيها العامة بتخليص قبر المسيح المقدس من أيدي المسلمين وتطهير القدس منهم. فقاد بطرس الناسك أولى الحملات العسكرية التي استمرت قرنين والتي عرفت باسم الحملات الصليبية لأنها اتخذت الصليب شعاراً لها واحتل بطرس الرملة ودمر يافا وحاصر القدس بجنود يقدر عددهم أربعين ألفاً، وبعد شهر من الحصار استسلمت الحامية المصرية الصغيرة التي كانت موجودة هناك، فدخلوا القدس عام ١٠٩٩م وقتلوا فور دخولهم أعداداً كبيرة من سكانها العرب قدرتهم الكثير من المراجع التاريخية بسبعين ألفاً. وأعلن الصليبيون إقامة مملكة لاتينية في القدس ومدوا نفوذهم إلى عسقلان وبيسان ونابلس وعكا واستقروا في طبريا.

معركة حطين:

نجح نور الدين زنكي بعد قتال عنيف مع الحاميات الصليبية في استعادة بعض المدن والإمارات، واستكمل صلاح الدين الأيوبي تلك الانتصارات فكانت معركة حطين الشهيرة التي استرد بعدها بيت المقدس عام ١١٨٧م.

معركة عين جالوت:

في عهد الدولة المملوكية استطاع سيف الدين قطز والظاهر بيبرس صد الغزو المغولي الذي اجتاح أجزاء واسعة من العالم الإسلامي في معركة عين جالوت في عام ١٢٥٩م فكانت واحدة من أهم المعارك الإسلامية.

التطهير النهائي:

وواصل خليل بن قلاوون تحرير بقية المدن الفلسطينية التي ظلت بحوزة الصليبيين حتى طهرت البلاد منهم تمامًا عام ١٢٩١م. ومن آثار المماليك التي لم تزل قائمة في فلسطين -حتى الآن- بعض الأبنية والمدارس وبناء جسر بجوار اللد، وكان من أعمالهم ترميم قبة الصخرة والحرم الإبراهيمي.

العهد العثماني:

انتصر العثمانيون على المماليك في معركة مرج دابق بالقرب من حلب عام ١٥١٦م ودخلوا فلسطين التي أصبحت تابعة للحكم العثماني منذ ذلك الحين ولمدة أربعة قرون.

حملة نابليون ١٧٩٩م:

حاولت فرنسا بقيادة نابليون غزو فلسطين بعد احتلال مصر، ولكن الحملة ارتدت مهزومة بعد وصولها إلى عكا، حيث فشلت في اقتحام المدينة بفضل تحصيناتها وبسالة قائدها أحمد باشا.

حكم محمد علي:

قرر محمد علي والي مصر عام ١٨٣٨م توسيع ملكه بضم بلاد الشام، فنجح ابنه إبراهيم باشا في فتح العريش وغزة ويافا ثم نابلس والقدس. وقامت في نابلس والخليل ثورات شعبية احتجاجًا على شدة إبراهيم باشا في تعامله مع الأهالي، وفرضه ضرائب باهظة. ولم يدم حكم محمد علي للشام أكثر من عشر سنوات لتعود مرة أخرى إلى الحكم العثماني.

الاحتلال البريطاني:

بعد انتصار القوات البريطانية على تركيا في الحرب العالمية الأولى بقيادة الجنرال اللنبي، دخلت فلسطين عام ١٩١٧م تحت الانتداب البريطاني حتى عام ١٩٤٨م.

الاحتلال الصهيوني:

انسحبت بريطانيا بعد إفساح المجال أمام الصهاينة لإقامة دولتهم في فلسطين التي سميت إسرائيل، ونجحت العصابات الصهيونية بمساعدة كل من بريطانيا والولايات المتحدة في إلحاق هزيمة بالعرب في حرب ١٩٤٨م، وأعلنوا قيام دولة إسرائيل.

علاقة الأسطورة بالثقافة الشعبية العربية الفلسطينية:

الأسطورة واحدة من أركان الثقافة الوطنية الفلسطينية الرئيسية. فالعادات والتقاليد والأعراف المتبعة لها جذور أسطورية. والأسطورة في الفولكلور الفلسطيني قصة تفسر مآثرات الناس، وتتناول ما وراء الطبيعة، كما تتناول المعتقدات الدينية. ولا بد من وجود الأساس الديني وراء الأسطورة بالنسبة للشخصية الرئيسية فيها. وبالنسبة لتراث الشعب العربي الفلسطيني، فهو أخبار تدور حول الأنبياء الذين اصطفاهم الله. وقد تدور تلك الأساطير حول أولياء الله الصالحين الذين أعزهم الله بالكرامات، وحقق على أيديهم المعجزات على حد المعتقد الشعبي. ويمتزج الإرث الأسطوري امتزاجاً كبيراً بالحكايات الدينية. ومن الصعب التمييز بين الحكاية الدينية المثبتة في الكتب المقدسة وبين الأسطورة. ذلك لأن بعض الحكايات الواردة في القرآن أو التوراة أو الإنجيل اتخذت شكلاً معيناً في عالم الأساطير الشعبية. والمعروف

أن الوسط الشعبي يروي بعض الحكايات الدينية، وقد أكسبها هالة أسطورية، لتأكيد مقولة دينية، أو للتغيب فيها. وقد ساهم رواة الحكايات ذات المضمون الديني في تكوين ذلك الإرث الديني الأسطوري، الذي تراكم على مر العصور، فصار أساساً للفكر السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني.

الدين والأساطير أساس السياسة الوطنية الفلسطينية:

إن الغالبية العظمى من سكان فلسطين هم من العرب المسلمين. وقد حاولوا أن يصبغوا أساطير ما قبل الإسلام بصبغة إسلامية، فاعتبروا القصص القرآنية التي تدور حول سيدنا موسى مثلاً قصصاً إسلامية، باعتبار أن موسى نزل بدين قويم، لكن أتباعه حرفوا تلك الديانة. ولذلك كان سيدنا موسى بريء من أتباعه المحرفين. فاتخذت الحكايات المنقولة من التوراة طريقها إلى التراث الشعبي عند المسلمين. ولا شك في أن الدين الإسلامي شجع ذلك عندما حض على احترام الأنبياء والرسل السابقين. ولذلك يروي الفلاح المسلم حكايات عن كرامات للنبي موسى والقديس مارجريس المسمى الخضر، جنباً إلى جنب مع الحكايات عن كرامات أولياء الله الصالحين، والنبي محمد عليه الصلاة والسلام، وأصحابه. وتضم المرويات الأسطورية أخبار أول الأنبياء آدم عليه السلام. ثم تنتقل إلى الحديث عن أخبار الأنبياء والحكماء في صراعهم السرمدي الطويل مع الشر. ويقف الله وملائكته مع الإنسان الخير، ليقاوموا إغراءات إبليس الذي يحقق بعض الانتصارات.

لقد كان الخلود واحداً من الآمال الكبيرة للبشر. وقد حاول الإنسان أن يعرف كنه الموت وفناء النفس البشرية. وحاول أن يمنح نفسه الحياة الدائمة، ولكن كل جهوده ذهبت سدى. ويكمن دور الأساطير في تفسير فشل الإنسان في الحصول على سر الخلود. وتقول الأسطورة أنه عندما كان آدم على فراش الموت، أرسل ابنه سيث إلى الجنة ليحضر له فرعاً من شجرة الحياة، ففعل، ولكنه عندما عاد، وجد إباه آدم قد مات. فزرع الفرع عند قبره.

وهناك أسطورة تتحدث عن عذاب الإنسان وشقائه في الدنيا بسبب الخطيئة. فتقول أن رجلاً عمل خطياً سنوات طويلة. وعانى من ذلك الشقاء الشيء الكثير. وبلغ به السخط على واقعه حداً جعله يقرر الانتقام من آدم الذي أنجبه، وتركه يعاني من متاعب الحياة.

فأخذ يجمع الحطب ليحرق عظام آدم. أرسل الله ملكاً نقله من حياته الشقية إلى بستان يشبه الجنة، واشترط عليه ألا يعترض على شيء، ولكنه خرق ذلك التابو، واعترض، فعاد إلى الشقاء. ثم ألح في الرجاء ليعود إلى البستان، وتكرر ذلك ثلاث مرات، وفي كل مرة كان يخرق الإنسان التابو. وعندما رجا العودة إلى البستان للمرة الرابعة رفض الملك.

ويمكن تلخيص ثمان من الأساطير التي تعتبر أساساً للفكر العربي الفلسطيني فيما يأتي:

- المروية الأسطورية الأولى تقول أن نوحاً كان واحداً من الأنبياء الذين لم يخلفوا أشياء مكتوبة، بخلاف جده إدريس الذي كان أول شخص يستعمل الكتابة، وفق الأسطورة. فقد كتب إدريس ثلاثين كتاباً من الوحي الإلهي المقدس. وقد أرسل الله نوحاً ليحذر العام من الكفر، مهدداً بالطوفان. وبنى سفينة لإنقاذ المؤمنين. وتقول المرويات أن نوحاً لم يكن يملك سوى سكيناً كبيراً، بدأ يقطع به فرع شجرة ضخمة ليستعمله في بناء السفينة، ولسوء حظ النبي نوح اصطدمت السكين بصخرة، والتصقت بها لدرجة انه لم يعد يقدر على استخراجها، وترك نوح السكين يائساً، وعاد للبيت. ثم جاء إبليس، فرأى السكين، واستلها، وعمل أثلاماً في شفرتها لجعلها غير صالحة للاستعمال، ويعمل على إفشال مهمة نوح. وعندما عاد نوح للعمل في اليوم التالي، وجد منشاراً جاهزاً للعمل، ولقي نوح الكثير من الهزء والسخرية من الناس، حتى من زوجته، وكانت غير مؤمنة، وكذلك من ابنه الشرير كنعان، وحفيده عوج بن عناق. وعناق هذه هي أول مومس وساحرة في التاريخ، وعوج ملك الجبارين. وبذل هؤلاء الأربعة جهوداً كبيرة في إقناع الجميع بأن نوحاً به مس من جنون، وانفجر الفيضان في جيزر (ويقال في دمشق)، وحملت المياه سفينة نوح ومعه الذين آمنوا به من أهله، عدا زوجته وعناق وعوج. ونجا معه عدد من المؤمنين برسالته. وكان نصف هؤلاء من الرجال والنصف الآخر من النساء، من بينهم جرهام الذي حافظ على اللغة العربية. ونجا في السفينة عدد من الحيوانات. وقد اختبأ إبليس تحت ذيل الحمار في شكل ذبابة، ولكن الحمار كره أن يكون واسطة لنقل ذلك الشرير. كما قام نوح بطرده بضربات قاسية، وحصل الحمار على وعد بأن يدخل الجنة أحد أحفاده، وتحقق ذلك عندما دخل جحش العزيز الجنة. ودمر الفيضان كل الجنس البشري الذي ظل خارج السفينة. وتقول الأسطورة أن السفينة ظلت تتأرجح فوق الماء حتى جاءت إلى مكان مكة،

وبقيت هناك بلا حركة مدة أسبوع، ثم سارت إلى المكان الذي أقيم فيما بعد عليه بيت المقدس. وانتهى المد، ونزل الرجال والنساء من السفينة ليسكنوا في الأرض، ويتكاثروا فيها. وظل نوح وحيداً مع ابنته، حتى جاء ذات يوم رجل يخطبها، وقال له نوح حبا وكرامة، ولكن عليك أن تهين لها مسكناً مناسباً. وقبل الخاطب الشرط، ووعد بالعودة في وقت معلوم، ومضى الوقت ولم يعد الخاطب. وجاء خاطب آخر، فاشتراط عليه نوح ما اشترط على الخاطب الأول، وقبل هذا وضرِب موعداً يعود فيه، ولكنه هو أيضاً لم يأت في موعده. وجاء خاطب ثالث لديه مسكن جاهز، فزوجه نوح ابنته، ورحل الزوجان. ولم يمض وقت طويل على رحيل ابنة نوح وزوجها حتى جاء الخاطب الأول. واحتار نوح ماذا يفعل، وأخيراً دعا الله أن يحول حمارته إلى بنت تشبه ابنته، واستجاب الله لدعوة نوح، وزوج نوح هذه البنت للخاطب الذي سرعان ما رحل معها. ثم جاء الخاطب الثاني بعد مضي وقت قصير، ولم يجد نوح بداً من أن يدعو الله ليحول كلبته إلى صبية تشبه ابنته، واستجاب الله لدعائه وزوج البنت لخاطبها، ورحل الزوجان، وهكذا أصبح في العالم ثلاثة أصناف من النساء: المرأة التي تخاف الله وتعين زوجها على متاعب الحياة، وتلك الغيبة التي يسيرها الرجل بالعصا كما يسير الحمارة، وتلك السليطة التي تسخر من النظام وتطوف هنا وهناك تبحث عن الأخبار وتنقل الكلام من بيت لبيت. وبعد ذلك بنى نوح المساكن، وزرع العنب، وبدون علم النبي ذبح ابليس القروود والخنازير، وخلط دمها بنبات العنب، ولذلك صار كل من يشرب الخمر المصنوع من العنب يمثل رداءة القروود والخنازير. - المروية الأسطورية الثانية أسطورة شخصية عوج بن عناق التي ترتبط بقصة الطوفان، وخروج بني إسرائيل إلى أرض كنعان.^[٢٥] وليس هناك ما ينفي وجود عوج بن عناق كشخصية تاريخية، ولكن هذه الشخصية ألفت حولها إضافات أسطورية تندرج في عالم الفولكلور. إن عوج بن عناق هو ملك ربة عمون، طوله تسعة أذرع وعرضه أربعة أذرع بذراع رجل. لقد أدرك عوج زمان نوح وواقعة الطوفان. وقد سأل عوج نوحاً أن يحمله معه في السفينة، فطرده نوح، وقال له: يا عدو الله من يحملك، وكان ماء الطوفان يصل إلى وسطه، لأن عوج كان طويلاً مفراطاً في الطول. ويقال أن عوج حاول أن يمسك بسفينة نوح، ويغرقها عندما بدأ الطوفان، ولكنه لم يستطع بسبب القار الذي طليت به. وقيل

أن عوج بن عناق كان يجذب السحاب بمحجنه ويشرب منه، ويتناول الحوت من قاع البحر فيشويه بعين الشمس. لقد حضر طوفان نوح ولم يجاوز ركبته، وكان عمره ثلاثة آلاف وستمئة سنة. وعاش عوج بن عناق حتى بلغ عهد النبي موسى، ويقول القرطبي أنه لما خرج بنو إسرائيل لقتال أهل أريحا، أرسلوا النقباء ليتجسسوا الأخبار، فرأوا سكان أريحا الجبارين من العمالقة، وهم ذوو أجسام هائلة. وقيل أن بعضهم رأى هؤلاء النقباء، فأخذهم في كمة مع فاكهة كان قد حملها من بستانه. وجاء بهم إلى الملك. فنثرهم بين يديه، وقال أن هؤلاء يريدون قتالنا. فقال لهم الملك ارجعوا إلى صاحبكم فأخبروه خبرنا. وقيل أنهم لما رجعوا أخذوا من عنب الأرض عنقوداً، حمله رجل واحد، وقيل حمله النقباء الإثنا عشر.

وحسب تلك الحادثة، صممت وزارة السياحة الإسرائيلية شعارها الحالي. ولما كانت الأساطير أساس السلوك السياسي للصهاينة الغاصبين، فقد كانت تلك الأسطورة أساس ما طرح من شعار أريحا أولاً.

- المروية الأسطورية الثالثة أسطورة النبي أيوب، الذي حظي بقسط كبير من الأخبار والحكايات المأثورة التي تتناول بلواه وصبره الذي أصبح مضرب الأمثال، وصار يقال كمثال للدلالة على صبر الفرد فلان صبر صبر أيوب، وكذلك القول أيوب ما صبر صبري .

ابتلى أيوب بمرض جعل الدود يدخل ويخرج من جسده، وكانت ابنة عمه تعتني به وتطعمه، وذات يوم تركته عند العين المسماة باسم عين أيوب، وهى الواقعة بين بلدي الراس وخربثا في قضاء رام الله. وذهبت لتطلب رغيماً من امرأة، وطلبت المرأة من ابنه عم أيوب أن تقص جديدتها ثم الرغيغف، وبقدرة الله استحتم أيوب في العين فنهض شاباً، وعندما عادت ابنة العم لم تجد أيوب، بل وجدت شاباً يافعاً نضر البشرة، وخجلت من سؤاله، فقال لها: عم تبحثين، فقالت له: تركت رجلاً مريضاً أخشى ان تكون قد أكلته الأعشاب. ولم تصدق ابنة العم إلا بعد أن ذكرها أيوب بعلامة فارقة في جسده، وتعارفا، ثم طلب منها ان ترد الرغيغف إلى صاحبه وتستعيد الجديدة، ففعلت. وبقدرة الله يعود الشعر إلى مكانه. ويعود أيوب لابناء عمه بعد ان أزاح الله البلاء عنه. ورفض ان يكرموه بالحفلات، بل اكتفى بأن أخذ عنزة وابنة عمه ناعسة، وترك قومه.

- المروية الأسطورية الرابعة هي الإرث الأسطوري المتضمن أخباراً مستفيضة عن إبراهيم خليل الرحمن. [٢٦]. كان والد إبراهيم الخليل ابن عازار نحاساً، ووزيراً للنمرود ملك كوتا. وأجبر أهل كوتا النمرود على أن يعبدوه كإله. وذات ليلة حلم أن نبياً سيولد، ويقضي على عباده الأصنام، ويقضي على النمرود. ولذلك أقام النمرود مذبحاً قتل فيها كل الأطفال الذين يولدون، واتخذ إجراءات احتياطية لقتل كل طفل ذكر يولد، وعندما جاءت ساعة المخاض لزوجة عازار، قادتها الملائكة إلى كهف خفي ومؤثث، وهناك ولدت بكل سهولة ويسر وبعناية الله، وتركت طفلها للرعاية الإلهية، وعادت للبيت. وظلت الأم تتردد على الطفل في المغارة، وذات يوم وجدته يرضع أصابعه التي كان ينبثق منها حليب وزبدة وماء. وهكذا نجا إبراهيم الخليل. وقد تكررت هذه الأسطورة في حالة المسيح، ومن يدري فرمها كانت تكراراً لأسطورة سامية أقدم.

- المروية الأسطورية الخامسة تتمثل بكرامات أولياء الله الصالحين والقديسين من اتباع الديانات السماوية. فلهم معجزات أعانهم الله على تحقيقها في ساعات المحن والشدة. وبها يظهر الله الحق، ويزهق الباطل. وتفسر إحدى الأساطير المتعلقة بإبراهيم الخليل سبب كون لكل نعجة إلية، ولماذا لم يكن للمعزى إلية، ولماذا لا تلد البغال. كل تلك الأسئلة تجيب عليها أسطورة إبراهيم الخليل الذي هرب من النمرود. وتقول الأسطورة أن إبراهيم الخليل كان يعبر الحقول في طريق هربه، والتقى بقطيع من المعزى، وطلب من الغنم أن تحميه من خيالة النمرود الذين يتعقبونه، ورفضت الغنم السوداء تلبية رجاء إبراهيم، وتركها في طريق هربه إلى أن التقى بقطيع من النعاج، وطلب من الغنم البيضاء أن تحميه. فطلبت منه أن يستلقي على الأرض، وتجمعت حوله بشكل متراس حتى اختفى عن الأنظار، وعندما مرت خيالة النمرود لم يكتشفوا مكانه، وبذلك نجا، ودعا إبراهيم الله أن يمنح النعاج تلك الإلية العريضة، وأن لا يمنح مثل ذلك للغنم السوداء، وعوقبت البغال بعقوبة عدم التناسل لأنها تطوعت بجلب الوقود للنار التي ألقى النمرود فيها إبراهيم الخليل، وحملت الجنود الذين تعقبوه.

- المروية الأسطورية السادسة هي أسطورة هرب النبي إبراهيم الخليل من النمرود، وذهابه لبني الكعبة في مكة. فقد أراد إبليس أن يخلق خلافاً بين إبراهيم وهاجر زوجته، فأغراها

لتقنع زوجها بعدم بناء الكعبة، فتناولت حجراً ورجمته به، ومن هذا الحادث حصل إبليس على لقب الشيطان الرجيم. وبعد ان انتهى من بناء الكعبة، أمر الله إبراهيم ببناء حرم في القدس، ثم أمره ببناء حرم ثالث في الخليل. وقد اهتدى إبراهيم على مكان الحرم في الخليل بواسطة ضوء سماوي سلط على المكان ليلاً. وهناك أسطورة أخرى تقول انه اهتدى للمكان على النحو التالي [٣٦]:

جاء ثلاثة من الملائكة على شكل بشر إلى إبراهيم، فظنهم ضيوفاً، فذهب ليذبح لهم ذبيحة، وهرب العجل الذي يود ابراهيم ذبحه، وتبعه حتى دخل إلى كهف، وهناك سمع صوتاً يقول له إنك في ضريح آدم، وعليه يجب ان تبنى مزاراً. ويستدل من تلك الأساطير أن آدم ولد ومات في فلسطين. وتقول أسطورة أخرى ان جملاً دل ابراهيم على مكان المزار. ولكن إبليس ضلله، وبعد ان بنى جزءاً من البناء، هداه الله إلى المكان الصحيح.

- المروية الأسطورية السابعة مجموعة أساطير حول النبي موسى، والكرامات التي وهبها الله له. وتقول إحدى هذه الأساطير أن صياداً تمنى على موسى أن يسأل الله عندما يكلمه على الجبل بان يمنح الصياد تحقيق ثلاث رغبات، وفعل موسى واستجاب الله، وعندما أخبر الصياد زوجته بالمنحة الإلهية طلبت منه أن يدعو الله بأن تبقى جميلة على مدى الدهر. وتمنى الصياد واستجاب الله، وقد أغرى جمالها مغامراً فاخطفها من زوجها، وتمنى الزوج أن يحيلها إلى خنزير في صورتها الأولى. وظلت الأمنية الثالثة لدى الصياد والتي بها استعاد زوجته في صورتها الأولى.

- المروية الأسطورية الثامنة أسطورة هرب العذراء مريم بابنها من وجه بنى إسرائيل. ومن أجل التمويه على المزارعين، فلا يذكرون وجهة هربها للذين يقتفون أثرها، نبت الحمص الذي يزرعونه، واستحصد في يوم واحد، وأما النعاج التي سترت مرور العذراء، فنبت لها صوف كثيف. وبعكس ذلك، فإن الغنم السوداء ظلت جرداء، وارتفع ذنبها لأعلى كي يفضح الله عورتها، لأنها فضحت مرور العذراء بسبب الثغاء.

الاساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية:

تستند الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية على أسس دينية من اللاهوت اليهودي،

كأسطورة الأرض الموعودة، وأسطورة شعب الله المختار، وأسطورة يهودا حول التصفية العرقية. كما تستند إلى أساطير مختلفة كأسطورة معاداة السامية، وأسطورة عدالة نورنبرغ، وأسطورة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، وأسطورة الهولوكوست، وأسطورة المعجزة الاقتصادية الإسرائيلية. وتستند أيضاً إلى شهادات متناقضة للعاملين في المعتقلات الألمانية أثناء محاكمات النازيين، مثل محكمة نورنبرغ. وتلك حالة مشابهة تماماً لما جرى في سوريا في حربها على الإرهاب، واتهامها افتراء باستخدام الأسلحة الكيماوية ضد الشعب. ويقول المفكر الفرنسي جارودي أن تلك الأساطير دحضها بحث علمي لمهندس كيميائي أمريكي اسمه لويشتر، الذي أرسل لفحص غرف الغاز في المعتقلات النازية، ليخلص إلى نتيجة أن تلك الغرف لا يمكن أن تكون قد استعملت غرفاً للإعدام بالغاز، لعدم توفر التقنية المناسبة لذلك فيها، بل إنه لم يجد أي أثر لحمض سيانوريك مشتق من غاز زايكلون بي، الذي يقال أنه كان يُستعمل كوسيلة للإعدام في غرف السجون والمعتقلات النازية.

الفولكلور الشعبي وعلاقته بالثقافة الوطنية الفلسطينية^[٤]:

إن الفولكلور الشعبي واحد من دعائم الثقافة الوطنية. والفلسطينيون معنيون بالحفاظ عليه، وتدوينه، ودراسته، وتحليله، ونشره. وذلك لأن للعولمة والتغريب دوراً نشطاً في طمس الشخصية الوطنية ومحوها، وبشكل لا يقل أثراً عن الاستيطان الصهيوني الذي يعمل بكل جد ومثابرة لطمس الشخصية الفلسطينية، ومحوها من الوجود.

تتعدد ألوان التعبير الفنية التي يعبر بها المجتمع عن ذاته، وأفكاره، وآماله، ومعتقداته، بتعدد الوظائف التي يؤديها كل نوع منها. والأغنية الشعبية إحدى الفروع الرئيسة في عائلة المأثورات الشعبية، مثلها في ذلك مثل الحكاية الشعبية والمثل الشعبي.

لقد أصبحت الأغنية الشعبية واحداً من أشكال المقاومة للاحتلال، إذ لا يمكن للاحتلال منع انتشارها أو مراقبتها والحد من تأثيرها، مهما بذل من جهد. وما تعرض له الفلسطينيون من تنكيل وتشريد وسجن وهدم بيوت ينعكس على كلمات الأغنية ولحنها، حيث ترفض الأغنية هذا الظلم وتفاومه، كما تستجيب لتطورات الواقع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي. فالموال، وهو أشهر أممات الأغنية الفلسطينية، يمزج بين الأرض والحب والمرأة بصورة يقترن

فيها الوجد بالأمل. وتعتبر الأغنية من نمط (ظريف الطول) من أهم الأغاني الشعبية التي تتناول العشق والجمال ووصف المحبوب. والمقطع الآتي نموذج له [٢٤]:

يا زريف الطول وقف تقلك
رايح عالغربة وبلادك احسنلك
خايف يا زريف تروح وتتملك
وتعاشر الغير وتنساني انا
يا زريف الطول يا سن الضحوك
يلي رايب في دلال أمك وأبوك
يا زريف الطول يوم الي غربوك
شعر راسي شاب والظهر انحنا
يا زريف الطول متغرب على القوم
لا تبعد عنا وتحط علينا اللوم
انشالله بترجع بترجع عالكروم
نحصد القمحات ونجمع شملنا

بينما اختصت أغاني (مشعل) بالتعبير عن الحنين واللوعة. والمقطع الآتي نموذج لها:

عالأوف مشعل.. أوف مشعلاني
ماني اتبليته.. هو الي اتبلاني
انا شفت واحد واقف جنب البركة
حكيتة عربي، جاوبني بالتركي
نسوان تحكي، والأطفال تبكي
مع مين نحكي.. تري أو ألماني
عالأوف مشعل.. أوف مشعلاني
ماني اتبليته.. هو الي اتبلاني

أما الميجنا، فتعبّر عن آلام الشعب الفلسطيني وآماله. وفيما يأتي نموذج منه:

يا ميجانا ويا ميجانا ويا ميجانا

انتِ الطرب والحب وعنوان الهنا

عشقتك يا بنت طولك عطولي

وانتي شغلتي بحبك عطولي

وان كان أهلك ما عطولي

وعد لأخطفك من بين الحباب

* * *

أنا سهران بالأحلام ليلاي

وبغني على فراق حب ليلاي

أنا ما بحب الأعيون ليلاي

دبحني لحظها والقلب داب

وأما الدلعونا، فهي من أشهر الأغاني الشعبية الفلسطينية، وذات موضوعات نضالية، بالإضافة إلى تعبيرها عن الشوق والحنين والوصف.

على دلعونا على دلعونا راحوا الحبايب ما ودعونا

حبك يا قلبي من السفر لاني حيد عالدرب وقل له عوافي

نوقف نتحاكي تحت الصفصافة ونسم يا هوا ع الي يحبونا

يا طير الطائر قل له مشتاقه وبدي من زهوري ودي له باقة

يا طير وقل له بكرنا متلاقى ومش رح نساكم يا الي نسيونا

يا غزير يا ابو الهيبة يا هاوي يا معذبها

شربة مية من ايدها يا عيوني ما اطيبيها

يا غزير يا ابو الهيبة يا هاوي يا معذبها

يا بنية هاتي الفرس والبارودة والعبا

يا غزير قل له بارحل يا اما بضل له

لو طال الزمان كله غيرك ما اني مصاحبة

والجفرا، وهي من الأغاني البدوية الفلسطينية، تغني اللحن الوطني المقاوم، وتعبر عن الارتباط بالأرض، كما أنها تتسع لتشمل الأمل المنشود من الصمود. ولقد تعامل الوجدان

الشعبي مع لحن جفرا، فقام العديد من الألحان والأهازيج عليه، ونسج على منواله، مما يدل على مدى أهميته في الوجدان الفلسطيني. والمقطع الآتي نموذج لذلك الإطار:

جفرا ويا هالربع بتصيح يا اعمامي
ما باخذ بنيتكم لو تصحنوا عظامي
وان كان الجيزه غصب بالشرع الإسلامي
لرمي حالي في البحر للسّمك في الميه
تمنيت حالي أكون ضابط بالوظيفة
لاعمل عليها حرس مع وقف الدوريه
وقعد لها خدام حتى تظل نظيفه
يظلوا يخدموا فيها في الصبح وعشيه

لقد شاركت الأغنية الشعبية الفلسطينية في تجسيد صور المعاناة الشعبية، كما ساهمت في توثيق الأحداث التاريخية. وعلى الرغم من أن أهداف أماط الشعر الشعبي الفلسطيني متداخلة، إلا أنه يمكن تلخيص أغراض الأغاني الشعبية، والتعريف بألوان الغناء الشعبي المناسبة في المواقف المختلفة، والاستدلال على مجال تركيز الشاعر الشعبي ومستمعيه. ويمكن إبراز خمسة من الأغراض للشعر الشعبي الفلسطيني، وذلك على النحو الآتي:

- إطار أغنية طريف الطول: موضوعه تناول العشق والجمال ووصف المحبوب.
- إطار أغاني مشعل: موضوعه الحنين واللوعة.
- إطار أغنية الميجنا: موضوعه التعبير عن آلام الشعب وآماله.
- إطار أغنية الدلعونا: يتناول الموضوعات النضالية والوصفية، بالإضافة إلى التعبير عن الشوق والحنين.
- إطار أغنية الجفرا: يتناول اللحن الوطني المقاوم، والتعبير عن الارتباط بالأرض والسمود فيها.

ويدرك الفنان الشعبي الفلسطيني الممارس أن إطار الجفرا والدلعونا يصلحان للاستعمال في المناسبات الوطنية، وطريف الطول والموال في الأعراس، وأغاني مشعل والميجنا في حالات الحنين إلى الوطن فلسطين. لكن الفنان الشعبي الفلسطيني بطبيعته يرفض النمطية، ويتمرد

على الالتزام بالأغراض الشعرية للفولكلور الشعبي، ويخلط الأهداف ببعضها، ولا يلتزم بأهدافها المحددة في كثير من الحالات. وفي ذلك مساس بتأطير أهداف الأغنية الشعبية، وإضرار بالشخصية الثقافية الفلسطينية. ويرافق ذلك خلط في استخدام الآلات الموسيقية، على الرغم من التركيز على استخدام الآلات الإيقاعية والآت النفخ الهوائية.

النشيد الوطني الفلسطيني: تجسيد لرؤية شعب

يلخص النشيد الوطني الفلسطيني رؤية الشعب الفلسطيني، كغيره من الشعوب. وكذلك شأن الأغاني الشعبية من نمط الجفرا المعبر عن اللحن المقاوم، والتعبير عن الارتباط بالأرض، والصمود فيها. وكذلك نمط ظريف الطول المتمركز حول وصف المحبوب. لقد كان النشيد الوطني الفلسطيني في صورته الأولى بعنوان (موطني) للشاعر النابلسي إبراهيم طوقان، وفيه مقاومة سلبية تتمثل بالتغني بالوطن، ودعوة الشباب للمقاومة، ورفض الظلم بكل أشكاله. وهو يتمثل نمط الأغنية الشعبية من نمط (ظريف الطول).

مَوطِنِي مَوطِنِي

الجلال والجمال.. والسَّناء والبهاءُ في رَبِّكَ.. في رَبِّكَ
والْحَيَاةُ والنَّجاةُ والهُنَاءُ والرَّجاءُ في هِوَاكَ.. في هِوَاكَ
هَلْ أراك.. هَلْ أراك .. سَالِمًا مُنَعَمًا.. وَعَافِيًا مُكْرَمًا
هَلْ أراك.. في عَلاكُ تَبْلُغُ السَّمَاكَ.. تَبْلُغُ السَّمَاكَ

مَوطِنِي مَوطِنِي

الشبابُ لَنْ يَكَلَّ.. هَمُّهُ أَنْ تَسْتَقِلَّ.. أو يَبِيدَ
نَسْتَقِي مِنَ الرَّدى.. ولَنْ نَكُونَ لِلْعَدَى كَالعَبِيدُ كَالعَبِيدُ
لَا نُرِيدُ.. لَا نُرِيدُ دُلْنَا المُؤَبِّدا وَعَيْشَنَا المُنْكَدَا
لَا نُرِيدُ بَلْ نُعيدُ مَجَدَنَا التَّليدُ.. مَجَدَنَا التَّليدُ

مَوطِنِي مَوطِنِي

الحُسامُ واليَراعُ لا الكلامُ والنزاعُ رَمَزُنَا رَمَزُنَا
مَجَدُنَا وعَهْدُنَا وواجِبُ مِنَ الوفا يَهُزُّنَا.. يَهُزُّنَا

عِزُّنَا.. عِزُّنَا غَايَةٌ تُشَرِّفُ.. وَرَايَةٌ تَرَفِّرُ
يَا هَنَّاكَ فِي عُلَاكَ قَاهِرًا عِدَاكَ.. قَاهِرًا عِدَاكَ
مَوْطِنِي مَوْطِنِي

ثم تغير النشيد الوطني مع ظروف الثورة الفلسطينية على الاحتلال، فصارت كلمات نشيد (فدائي) للشاعر سعيد المزين هي النشيد الوطني. وفيها تعبير عن المقاومة المسلحة التي تمجد العمل الفدائي، والجهاد لاستعادة الحق السليب. وهو يتمثل نمط الأغنية الشعبية من نمط (جفرا)، كلحن وطني مقاوم، ويعبر عن الارتباط بالأرض، والسمود فيها.

فدائي.. فدائي.. فدائي

فدائي يا أرضي يا أرض الجدود.. فدائي يا شعبي يا شعب الخلود
وأشواق دمي لأرضي وداري بعزمي وناري وبركان ثأري
قهرت المحالا حطمت القيود صعدت الجبالا وخضت النضالا
فدائي يا أرضي يا أرض الجدود.. فدائي يا شعبي يا شعب الخلود
وإصرار شعبي لخوض الكفاح بعزم الرياح ونار السلاح
فلسطين ثاري وأرض الصمود
فلسطين داري ودرب انتصاري
فدائي يا أرضي يا أرض الجدود.. فدائي يا شعبي يا شعب الخلود
بأرضي وشعبي ونار الأمل بحق القسم تحت ظل العلم
وأقضي فدائي إلى أن تعود
سأحيا فدائي.. وأمضي فدائي
فدائي يا أرضي يا أرض الجدود.. فدائي يا شعبي يا شعب الخلود
فدائي.. فدائي

وفي مقابل المقاومة السلبية والمسلحة للاستعمار الاستيطاني، كما يتضح من رؤية الشعب الفلسطيني المتمثلة في صورتي النشيد الوطني الفلسطيني، يقتضي التمعن في النشيد الوطني الإسرائيلي (هتكفاه) بمعنى الأمل، الذي يرسم أملاً، ويدعو الصهاينة إلى احتلال فلسطين، باعتبارها (أرض الميعاد). لقد كتبه الشاعر اليهودي نفتالي هيرتس إيمبر من أوروبا الشرقية. إنه يتمثل نمط الأغنية الشعبية الفلسطينية من نمط الموال والميجنا، وهما يعبران عن

الوجد والأمل وآمال الشعب وآماله. والنشيد في بيته الأولين يقول [٢٤]:

طالما في القلب تكمن،

نفس يهودية تتوق،

وللأمام نحو الشرق،

عين تنظر إلى صهيون.

أملنا لم يضع بعد،

أمل عمره ألفا سنة،

أن نكون أمة حرة في بلادنا،

بلاد صهيون وأورشليم القدس.

أملنا لم يضع بعد،

الأمل الأزلي.

أن نعود إلى بلاد آبائنا،

إلى المدينة التي نزل عليها داود.

وتكفي الإشارة هنا إلى أن التمعن في صياغة رؤية الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي في النشيدين الوطنيين لهما كاف لتوضيح التباين الثقافي بينهما.

اللباس الشعبي جزء من الثقافة العربية الفلسطينية:

اللباس التقليدي الفلسطيني جزء من ثقافة الشعب الفلسطيني، وتراثه الشعبي، على امتداد تواجده في فلسطين التاريخية. ويمثل كل ثوب مدني أو فلاحي أو بدوي جزءاً من تلك الثقافة. كما تمثل الأزياء النسائية في بعض الأحيان مدناً فلسطينية محددة، لتمييزها عن سواها من المدن الأخرى. ويرتبط تراث فلسطين بالتنوع الجغرافي، فالتراث في المناطق الجبلية مختلف عما هو عليه في المناطق الساحلية أو الصحراوية. ولكل منطقة تراث خاص بها، وعادات تميزها عن غيرها. ومن صور الاحتلال الثقافي، أن إسرائيل قامت بتسجيل أثواب فلسطينية باسمها في الموسوعات العالمية، مثل ثوب عروس بيت لحم المعروف باسم (ثوب الملك)، الذي سجلته إسرائيل باسمها في المجلد الرابع من (الموسوعة العالمية). ويعد ثوب

عروس بيت لحم من أجمل الأثواب الفلسطينية، ويتميز بغطاء الرأس المسمى الشطوة، وعليه القطع الفضية والذهبية ومرصع بالمرجان. كما لم تسلم الكوفية الفلسطينية من تلك السرقة. وقامت شركة الطيران الإسرائيلية (العال) بسرقة الثوب الفلاحي الفلسطيني، واعتمدته لباساً لموظفات الشركة على متن طائراتها، كثوب يعبر عن التراث الإسرائيلي، من وجهة نظرهم. وفي ذلك سرقة ثقافية لا تقل أهمية عن السرقات العلمية.



الرقص الفولكلوري الفلسطيني [٢٤]:

الرقص والحركة الرتيبة سمة الشعوب التي تعاني من مستويات اقتصادية متدنية، أو التي يطغى فيها نمط الشخصية الحسي. وينطبق ذلك على فلسطين، حيث يعاني الشعب من الحياة القاسية في ظل ظروف الاحتلال. وترتبط الحركات الرتيبة (أو ما يسمى الدبكة) بالتصفيق، وأنغام أدوات الموسيقى الإيقاعية، والغناء الفولكلوري، في نسق واحد يجري التعبير من خلاله عما يدور في وجدان الفرد الفلسطيني. وهو على الأغلب التشبث بالأرض والوطن، والدفاع عنه، والحنين له عند الاغتراب.

والدبكة رقصة فولكلورية شعبية منتشرة في بلاد الشام، وهي تمثل التراث الفولكلوري لتلك البلدان. ولا تكتمل الأفراح الشعبية الفلسطينية، أو الأردنية، أو السورية، أو اللبنانية، إلا بوجود حلقات الدبكة. وتتكون فرقة الدبكة من مجموعة من الديكة، وعددهم عشر ديككة.



ومن أنواع الدبكة في فلسطين ما يأتي:

- دبكة الشعراوية: تدبك عادةً على أنغام اليرغول، وهي ذات إيقاع سريع، وهي الدبكة التقليدية المعروفة في بلاد الشام، وتدبك ودبكة الدرازي مع شبك الأيدي.
- دبكة الدرازي: هي نفس حركات دبكة الشعراوية، وبنفس التردد، ولكن بحركات بطيئة وهادئة. تدبك على أنغام المجوز. تدبك مع شبك الأيدي.

- دبكة الشمالية: سميت كذلك لأن الحركة تبدأ بالرجل اليسار (الشمال) وتنتهي أيضا باليسار. تدبك على أنغام المجوز واليرغول، وتتميز بحركاتها السريعة والإيقاع السريع، مع أنها تبقى بنفس تردد دبكة الدرازي والشعراوية. وهي بحاجة إلى لياقة بدنية عالية. تتميز بأنها تدبك مع رفع الأيدي على الأكتاف.
 - دبكة البدوية: وهي من نفس فصيلة الدبكة الشمالية، وتدبك هي ودبكة السبعوية مع رفع الأيدي على الأكتاف. تبقى بنفس تردد الدرازي والشعروية.
 - دبكة السبعوية: من فصيلة الشمالية، تدبك مع رفع الأيدي على الأكتاف، سميت سبعوية لأنها عبارة عن سبع قرعات، تنتهي السابعة بالرجل اليمين.
 - دبكة العسكر: تدبك مع رفع الأيدي على الأكتاف، وحركاتها تشبه حركات المشية العسكرية في بدايتها، إلى أن تتطور لتصبح بنصف شمالية أو بالكرجة. وتعتبر الطبلبة أداة مهمة في هذه الدبكة.
 - دبكة زريف الطول: ينتشر فيها المديح والتفتيش عن منافب البنت الحلوة أو الفتى، أو المناقب الموجودة في البشر. وهذه الدبكة تستخدم للغزل في الأفراح والمناسبات الأخرى.
 - دبكة الكرادية أو الطيارة: وتتميز بالإيقاع السريع، فلا بد أن يكون من يزاولها متمتعاً باللياقة وبحركة سريعة، ويكون لديه تجانس في الحركة مع أقرانه.
 - دبكة الدلعونا: وهي ذات إيقاع متوسط، وأصبحت الدلعونا تُغنى بأغاني جديدة الكلمات، لكن على نفس الإيقاع، مع اختلاف في الكلمات، كأن يقال مثلا: على دلعونا وتوضع أي كلمات بحسب المناسبة..
 - دبكه وحده ونص.
 - دبكه طوباسية.
- وهناك حركتان معروفتان أثناء الدبكة، أولهما الشيلة، وهي حركة في الدبكة تتميز بخروج الرويس أو اللويح بقفز سريع مع من خلفه. تستعمل غالبا عند نهاية مقطع الدلعونا، وخروج الدبكة من المشي إلى الدبك. وثانيهما الكرجة، وهي حركة في الدبكة تدبك عادة أثناء المشية وغناء المطرب بشكل استثنائي، أو أثناء دبكة العسكر.

أطباق الطعام الفلسطينية^[٢٤]:

يعد المطبخ الفلسطيني من المطابخ العربية الشرقية التي تمثل أحد أعرق مطابخ بلاد الشام. ويتميز بأطباقه التقليدية اللذيذة. وقد تأثر بثلاث ثقافات أساسية عبر التاريخ، وهي ثقافة العرب والفرس والأتراك. فهو مطبخ غني متنوع. ومن الأطباق الفلسطينية الشهيرة: الكباب الفلسطيني، المسخن، مسخن رول (مسخن بخبز شراك، مقلوبة، ربيعية، ورق الدوالي(ورق العنب)، كفتة، كفتة بورق العنب، كفتة داوود باشا، لخنه نابلسية، العكوب، مجدرة، شيشبرك، مفتول، فريكة، فاصوليا خضراء، فاصوليا بيضاء (ناشفة)، ملوخية مفرومة وملوخية ورق (بوراني)، سمك مشوي مع صوص الطرطور، القدرة الخليلية، قدرة غزاوية، خيار محشي، صينية بامية بالفرن، فقاعية، طحال محشي جوز، صينية دجاج بالفرن، مسقعة باذنجان باللحمة، مَطْفِيَّة (زهرة باللبن)، لبنية فول (فول باللبن)، اللخنه الخضراء، الملفوف، والحمص، والفول، والفلافل، محشي الكوسا والباذنجان واللفت والبطاطا.

أما الكبة فأنواعها كما يأتي: الحلبية، الكبة النيئة بالصينية، والكبة المشوية، والكبة السفرجلية، والكبة الصاجية، والكبة المقلية أو الكبة النابلسية أو كبة الدراويش، والكبة المبرومة، والكبة سوار الست، والكبة مع البطاطا، والكبة الكرزية، والكبة السماقية، والكبة المحشية، والكبة المشوية على السبخ، والكبة الكيمشون، والكبة العراقية، والكبة المصلاوية، وكبة التمن، والكبة اليخني، وكبة حامض، وكبة قيسي.

أما الحلويات فأهمها كنافه نابلسية، وبحته (أرز بحليب)، وكلاج نابلسي، وصينية حلبة، والتمرية، والحلاوة وزلاوية.

ولم يسلم المطبخ الفلسطيني من محاولات الاستلاب الثقافي، وتبني الأكلات الفلسطينية، وادعاء أنها أكلات إسرائيلية. ويفرض كل ذلك مقاومة ثقافية شرسة، على الفلسطينيين أن يعوا قواعدها.

القدس أيقونة عبقرية الإنسان:

لقد شكلت الحقبة الكنعانية العربية في معاملها الأثرية وقصصها الأسطورية شواهد أساسية تؤكد عروبة فلسطين، وأحقية الوجود للشعب العربي الفلسطيني ممثلة بأساطير الآلهة

كرموز تعبر عن معركة ذلك الوجود. وكذلك الأمر بالنسبة للحقبة العربية الإسلامية التي وضعت فلسطين عموماً، والمسجد الأقصى وقبة الصخرة خصوصاً، في الصدارة كأولى القبلتين وثالث الحرمين، وما تحتله تلك البقعة الجغرافية المقدسة من مكانة وأهمية لدى العالمين العربي والإسلامي.

تعرضت الثقافة الفلسطينية لكل أنواع الاستلاب. فالأسطورة والفولكلور واللباس الشعبي والأطعمة الشعبية الفلسطينية، حتى الحمص والفلفل، صيرها الاحتلال البغيض إعلامياً إرثاً شعبياً له، وحاول تسويق ذلك عالمياً على المستوى الإعلامي. والألبسة الشعبية صيرها الإسرائيليون جزءاً من تراثهم التاريخي، وجعل الزي الشعبي في بيت لحم لباساً رسمياً لمضيفات الطيران الإسرائيلي. وكذلك الحال بالنسبة للأغاني الفولكلورية والرقص الشعبي. هدير صمت التاريخ المنقوش على حجارة أسوار القدس يقول أن الاحتلال الصهيوني أغرب أنواع الاحتلال. إنه يحاول إلغاء هوية الأرض المحتلة، وثقافة الشعب المغلوب على أمره، والادعاء بأن الأرض أرضهم التي وعدهم الله بها، وبأنه لا وجود لما يسمى بالشعب الفلسطيني، رغم تاريخه الراسخ في جذور الأرض المباركة منذ أن وجد التاريخ.

إلى القدس

الشاعر الفلسطيني هارون هاشم رشيد

وفيها قد نما غرسني
في الصلّد، وفي الملس
ومن عدنان، من قيس
من يومي، ومن أمسي
مشدوداً إلى الشمس
وأمشي رافع الرأس
فدأ، أسكتتها حسّي
رفيع الوقع والجرس
ببحر الهمّ والبؤس
عليها راية البؤس
لها متدفّق البجس
أنا بالمال والنفس
لمحتلّ ومندسّ
من الرومان والفرس
من قولٍ ومن حدس
وهل أزهي من القدس

أجل إنّي من القدس
جذوري في عروق الصخر
ومن كنعان بي نبض
من الماضي، من الحاضر
عريق المجد والأنساب
بها أختال في الدنيا
أنا أعطيتها عمري
أنا غنيتها شعرا
أنا منها وإن غرقت
أنا منها وإن حطّت
دمي هذا الذي يجري
أنا منها وأفديها
ولا أرضى لها ذلاً
هي القدس وكم ردّت
وكم في خاطر التاريخ
عن القدس، وهل أسمى

الفصل السادس

العبقرية وعلاقتها بالحرية والديمقراطية

- العلاقة الارتباطية بين الحرية والإبداع
- الحاجة أم الاختراع والحرية بمنزلة أبيها
- شروط تحفيز الإبداع
- درجة الحرية المواتية للإبداع والعبقرية
- الإبداع وعلاقته بالقهر الاجتماعي
- معوقات الحرية واستراتيجيات التخلص منها
- استراتيجيات اكتساب الحرية
- علاقة الشخصية العبقرية بالكاريزما
- الفلسطينيون في الشتات: نماذج نبوغ وعبقرية
- الحرية المفيبة: القدس أيقونة العبقرية اليتيمة
- الشعب الباسل: الشاعر الفلسطيني عبدالرحيم محمود



الفنان التشكيلي الفلسطيني اسماعيل شموط

الفصل السادس العبقرية وعلاقتها بالحرية والديمقراطية

العلاقة الارتباطية بين الحرية والإبداع:

لقد أسهم مفكرون مرموقون بتقديم تعريفات تساهم في صياغة تعريف جامع مانع للحرية. ويذكر بعضها على سبيل المثال على نحو مرتب وفق التسلسل التاريخي لطحها، وذلك على النحو الآتي [١ ص ١٣٩]:

لا تسلب حرية الإنسان إلا من لدن إنسان آخر. فعلى الإنسان أن يتحرر من أخيه الإنسان كي يحافظ على حرته. تلك هي الحرية، ولا شيء غير ذلك.

آين راند (Ayn Rand, ١٩٣٨)

الحرية تعني الحكم الذاتي، لا أكثر ولا أقل.

وايلدر لين (Wilder Lane, ١٩٤٣)

الحرية الكاملة تعني غياب كافة الضغوط غير الطبيعية المؤثرة على أفعال الفرد ونشاطاته. تتناقص درجة حرية الفرد كلما زادت الضغوط المؤثرة عليه كماً ونوعاً، ما عدا الضغوط التي تفرضها الطبيعة

بول ليبانتو (Paul Lepanto, ١٩٧١)

الحرية تعني أن تعيش حياتك كما تريد.

هاري بروان (Harry Browen)

الحرية حالة لا يتم فيها التعدي على حق الفرد في تملكه لجسده وممتلكاته المادية.

موري ن. روثارد (Murray N. Rothard, ١٩٧٨)

الحرية عملية تحرير للذات، فيحصل الفرد على كامل حرته حين يضمن لذاته كنه ذاته.

ماكس شتيرنر (Max Sterner, ١٩٨٢)

وإزاء ذلك الطيف الواسع من التعريفات، وتطبيقها على الشعب العربي الفلسطيني، تجد أن الفلسطينيين مسلوبو الحرية، وأنهم يحاولون فك القيود التي تصادر حرياتهم، وتشل الحركة الإبداعية لديهم. وبالتأكيد على التعريف الذي قدمه آين راند (Ayn Rand)، يلاحظ أنه يركز على أن حرية الفرد ملك ذاتي فردي أو مجتمعي لا يسلبه إلا شخص أو مجتمع آخر. ووفق هذا التعريف، يتحتم على الفرد تمكين الذات، وبذل قصارى الجهد

لدرء أخطار الآخرين، واثقاء ظلمهم، ومنعهم من سلب حريته الفردية. ولا يتأتى ذلك إلا من خلال تعليم الناس وتدريبهم، وتعديل سلوكهم العدواني الذي يميل إلى انتهاك حريات الناس، والتعدي عليهم وعلى ممتلكاتهم. كما يجري ذلك من خلال محاولة تغيير الأنظمة السياسية التي تنتهك حريات المواطنين. فالحرية، وفق التعريف الرائد، نتيجة حتمية للمحاولات الجادة لتغيير الأنظمة السياسية، وتعديل السلوك العدواني عند من يميل إلى المساس بحريات الآخرين. ومن هنا يكون التمسك بقيم التضحية بالأموال والأنفس، ودعم التنظيمات التي تسعى جاهدة لتغيير الأنظمة السياسية. وأحسب أنه لو قدر لشاعر الرومانسية الانجليزي جون كيتس (John Keats) أن يعيش في عصر آين راند لكان من أنصار هذه النظرية الفلسفية. فقد دعا إلى ما أسماه فلسفة الريح (The Philosophy of the Wind)، حيث يعيش الإنسان وفق هواه، لا يمنعه من ذلك أحد، ولو كان في ذلك مخالفة لمعطيات العرف والتقاليد. ومن الشعراء العرب ممن تشير أقوالهم إلى أنهم من انصار هذا التعريف الشاعر أحمد شوقي، إذ يقول:

وللحرية الحمراء باب بكل يد مزرجة يدق.

وكذلك الشاعر الفلسطيني الشهيد عبدالرحيم محمود، إذ ينفذ بالافعال ما يقول بالكلمات، فيصبح الموت في سبيل الوطن غاية بيتغيها:

أرى مصرعي دون حقي السليب ودون بلادي هو المبتغى.

من منظور ثقافي، يعاني عالم اليوم من التشتت بين ميكانزم فهم الآخر واستيعابه والتعايش معه في جو من التسامح، وميكانزم التمركز حول الذات والتنافس الذي يقوم على مبدأ التقوقع، والاحتماء وراء ذكريات الماضي، وتاريخه المجيد. والانتقال من التعامل على أساس تنافسي بين الناس إلى آفاق التفاعلية والتعاونية والاعتماد على الذكاء التواصلي أمر حتمي، لأن مبدأ التنافس يدعو إلى كبت روح الإبداع، بينما تنادي التفاعلية والتعاونية بمكافأة الفكر الإبداعي، الذي يمثل نوعاً من الصراع الدائم بين الثقافتين الذاتية والجمعية، اللتان تفسران على النحو الآتي^[١: ص ١٥٣]:

- الثقافة الذاتية = درجة الحرية الداخلية (Liberty) + شدة الحاجة والتوتر (وهي أم الاختراع)

- الثقافة الجمعية = هامش الحرية الخارجية (Freedom) + مدى الديمقراطية (الأب الروحي للإبداع)

وانطلاقاً من هذا المفهوم للحرية، يقدم آين راند (Ayn Rand) سبعاً من الاستراتيجيات التي يؤدي اتباعها إلى رفع مستوى الحرية الفردية والجمعية. وتتلخص تلك الاستراتيجيات فيما يأتي [٣: ص ٦٣]:

- تحديد هدف الحصول على أعلى مستوى ممكن من الحرية؛
- التزود بالمعارف والمهارات التي تشكل تقنيات الحرية؛
- بناء القوى الشخصية من خلال المعرفة ومهارات التفكير؛
- تكوين شبكة من مصادر الدعم الذاتي في كافة المجالات اللازمة؛
- تخير مكان العيش والعمل؛
- استخدام أكبر قدر ممكن من تقنيات الحرية؛
- دفع الآخرين وتحريضهم على اتباع هذه الاستراتيجيات.

وتعني الحرية، وفق تعريف شترنر (Sterner)، زيادة هامش الخيارات الإيجابية المتاحة للفرد والجماعة. ففي السجن، يكون للسجين هامشاً محدوداً من الخيارات الإيجابية المتاحة. كما تعني القدرة على القيام بأفعال أكثر عدداً، وأرقى نوعية. فكلما كان باستطاعة الفرد القيام بنشاطات أكثر، كانت قدرته أكبر. وكلما زادت قدرته، كثرت الخيارات الإيجابية المتاحة له. وهو يؤكد أن من يسلب حرية الفرد هو الفرد نفسه. لذا يتحتم عليه أن يحرر ذاته من دافع السيطرة على الآخرين. وبتابع هذا التعريف، يتم الوصول إلى مستوى متقدم من الحرية عن طريق تطوير الذات، وتحسين طريقة إدارة الشؤون الخاصة. فمن القواعد الأساسية للحصول على الحرية، أن يقوم الفرد بتعليم الآخرين كيفية تحرير الذات من دافع السيطرة المتأصل في الوجدان الإنساني كدافع فطري، بدلاً من الانخراط في تنظيمات سياسية مناوئة للحكومات، أو العمل على قلب نظام حكم السلطات القائمة، بدعوى أنها تمس حرية المواطنين. ومن هنا ينشأ السلوك الأناني، الذي يركز على تحرير الذات فقط، ولا يتعرض للأنظمة السياسية التي تقوم في نهاية الأمر بسلب حريات الأفراد، بعد أن يكونوا قد ركزوا كل جهودهم على الحفاظ عليها.

إن مراجعة كافة تعريفات الحرية تبين أن الحرية تكوين مفاهيمي يدل على نظم تشغيل عقلية تشير إلى نظرة الفرد إلى العالم، وطريقة التعامل معه. كما يدل على درجة انفلات الدوافع الوجدانية (التملك، وتقدير الذات، والشهوة، وحب التعرف) عند الفرد من ضغط الضوابط المتضمنة في الضمير (الثقافة والدين والمعارف والعادات والتقاليد والأعراف)، أي

درجة تجاوز القيود الموضوعية على جهاز العاطفة كمصدر فطري للسلوك، وعلى جهاز الفكر كمصدر ناشئ له. فضلاً عن أنه يشير إلى درجة تخطي الفرد أو الجماعة للضغوط التي تفرضها الضوابط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا يعاني محبو الحرية من العبودية، ما داموا يستشعرون الحرية الذاتية؟ والجواب أن لذلك ثلاثة أسباب رئيسية. [٣١ ص ١٧٢]:

- أولها قلة الألفة بتقنيات الحرية، فعلى الإنسان أن يعلم ذاته ويدرب نفسه، من منطلق أن الحرية لا تقدم لأحد على طبق من فضة؛

- وثانيها الاضطرابات النفسية والعاطفية، ومن الأمثلة عليها الخوف والاكنتاب، مما يستوجب أن يدرب الفرد نفسه على استراتيجيات التوافق النفسي والعاطفي؛

- وثالثها القصور في مجال مهارات التفكير، وذلك أمر يعاني منه معظم الناس. وقد نادى بعضهم باتباع نمط تفكير جديد أطلق عليه تعبير التفكير المتسارع.

الحاجة أم الاختراع والحرية بمنزلة أبيها:

يرتكز العديد من مداخل دراسة الإبداع والعبقرية على حقيقة أن الإبداع ملكه وهبها الله لكل انسان بمقدار، لكنها عند البعض مقيدة. لذلك يقال أن الحرية أب الإبداع، مثلما أن الحاجة أمه. ولا يمكن للإبداع أن يظهر إلى الوجود بدون تلك الأبوة. فتنحصر الناس، وتخليصهم من أية قيود وروادع، طريق سليم لتنمية قدراتهم الإبداعية. لكن الحرية ليست كافية في حد ذاتها. إذ تصور أن يطلب من إنسان عادي مقيد بحبل أن يعزف على العود. إنه دون شك لن يكون قادراً على أداء ذلك. ولكن فك قيده لا يعني بالضرورة أنه سيتمكن من العزف، إذ ربما لا تتوفر لديه مهارة العزف. إذن فك القيد ضرورة، ولكنها خطوة على طريق الإبداع، إذ يجب ان يكتسب مهارات الإبداع أيضاً. ومن ناحية اخرى ، فإن الإبداع مختلف عن عبث الاطفال الذي يطلق عليه احيانا إبداع البراءة، لأنه لا يستند إلى أنظمة تفكير. فالإبداع يحتاج إلى أنظمة تفكير محددة، وخاصة التفكير المجانف، ومن هنا كان اهتمام ادوارد دي بونو (Edward de Bono) بالتفكير الحدسي. ذلك هو مبرر الربط بين الإبداع والحرية. فالإبداع نوع من الصراع الدائم بين الأيديولوجية الذاتية التي تضم درجة الحاجة والحرية الداخلية للإنسان، أو ما يطلق عليه تعبير إرادة الاختيار، والأيديولوجيا الجماعية التي تضم الحرية الخارجية للإنسان. وكلما زاد الصراع بين هذين

القطبين ارتفع مستوى الإبداع. فالحرية بشقيها الداخلي والخارجي متضمنة في كلا القطبين، وبالتالي يمكن القول أن الحرية أساسية للإبداع.

المثل القائل أن الحاجة أو الأزمة ام الاختراع يقدم حقيقة مبتورة، إذ يجب أن يضاف إلى ذلك أن الحرية أب الاختراع. والاختراع يعني الابتكار والإبداع بالمعنى الواسع. الأمومة للأبداع موجودة في عالمنا العربي، إذ أن هناك أزمة مزمنة وحاجة ماسة لتوفير الغذاء والكساء والدواء والمسكن الملائم لشعوب الأمة العربية، على الرغم من توفر الموارد البشرية والكم التعليمي والمعلوماتي والمادي الكبير. أما الأبوة للإبداع فهي غير موجودة ، حيث أنها تتمثل في حرية التفكير ضمن الثالوث المؤسسي في المجتمعات العربية، أي الأسرة والمدرسة والدولة. ولتوفير تلك الأبوة، لا بد من ثورة مجتمعية تتناول الأسرة والمدرسة والدولة، وهي أضلاع المثلث التي تشكل عقبات كأداء في طريق الإبداع.

شروط تحفيز الإبداع:

يقدم كارل روجرز (Carl Rogers) فثتين من الشروط المحفزة للإبداع^[١٧: ص ١١٥]:

الفئة الأولى تتعلق بالأمن النفسي: وتندرج تحت هذه الفئة ثلاثة شروط هي تقبل الفرد لنفسه كقيمة في حد ذاتها، وضمان مناخ يخلو من أي تقييم خارجي، والتفهم الوجداني للذات.

والفئة الثانية تتعلق بالحرية الشخصية: وتتمثل في إمكانية التعبير عن النفس بوضوح وفق البناء النفسي الذاتي الذي يشكل اطاراً مرجعياً داخلياً دون الالتزام بمحكمات ومعايير تقييم خارجي. وبذلك، فإن كل فرد يفكر ويعبر بطرق متفردة تختلف عما يتبعه الآخرون.

ويمكن فهم العلاقة الارتباطية بين الحرية والإبداع بالنظر إلى الأدوار الثلاثة المنوطة بالإنسان في حياته، من خلال علاقته بالعالم حوله: فهو ممثل، ومشاهد، وناقد. تبدو الحياة له كممثل، كأنها خشبة مسرح يلعب عليها دوراً يتكامل مع أدوار الآخرين. ويتسم سلوك الفرد وفق هذا الدور بالتلقائية، والإبداع، والابتعاد عن التأمل، وخلق القيم دون الاكتفاء بعرضها. ويتحتم عليه وفق دوره كمشاهد أن يتقبل العالم حوله، دون أن يغير فيه شيئاً. ويدفعه دوره كناقذ إلى تحديد مدى ملاءمة السلوك لواقع الحال. وتبعاً لذلك، فإن الفرد يفقد القدرة على الإبداع إذا سلبت حريته، وحرمت تلقائيته. من هنا كان من الضروري التركيز على دراسة الحرية، وتقنياتها، واستراتيجياتها، لما لها من علاقات ارتباطية وثيقة بالإبداع.

وتتضمن الحرية جوانب متعددة، منها: المعرفة، والتملك، وإدارة الاختيار، وموفور الصحة وتمام العافية، والذكاء، والثقة بالنفس، والانزان العاطفي، والتحكم بمعطيات الزمان والمكان. أما جانب المعرفة. فكلما زادت حصيلة الفرد المعرفية والادائية، كانت إمكانات قيامه بالأنشطة المختلفة أكبر. وكلما زاد نشاطه، ازداد هامش الحرية لديه. وتتضمن الحرية أيضاً العلاقات المتواترة مع الآخرين، والقدرة على إيجاد شبكة من نقاط التفاهم المشترك معهم. وينعكس ذلك على عدد الخيارات الإيجابية المتاحة.

وإذا كان بمقدور المال أن ييسر القيام بأمور كثيرة، وأن يزيد من هامش الخيارات الإيجابية المتاحة، فإن للحرية القدرة على فعل ذلك أيضاً. وما ينطبق على الفرد ينسحب على المجتمع.

كما تتضمن الحرية إرادة الاختيار. ولكي يكون الفرد حراً، عليه أن يقوم بالنشاط الذي يحبه ويستمتع به. وتتضمن الحرية التقنية، وباستعمال التقنيات تزداد الخيارات المتاحة. فاستعمال الهاتف مثلاً ييسر إمكانية التحدث مع أي شخص في أي مكان وزمان، واستعمال الطائرة ييسر الوصول إلى أي مكان في أقصر وقت ممكن، وهكذا. وكذا الحرية تعني زيادة هامش الفرص والخيارات المتاحة.

وتتضمن الحرية أيضاً جانب الصحة الموفورة والعافية التامة. فالصحة تزيد هامش الخيارات المتاحة والمرض يقللها. ولدى المريض طريح الفراش خيارات أقل من الأنشطة المتاحة. كما تتضمن الحرية الذكاء، والثقة بالنفس، والسيطرة العاطفية، والتحكم بمعطيات الزمان والمكان، لأنها جميعاً تزيد الخيارات الإيجابية المتاحة للفرد، شأنها في ذلك شأن الحرية. لقد خلق الانسان على نمط المولد الكهربائي، فيولد الطاقة الحية اللازمة له، من دون أن يعينه في إجراء ذلك أحد. وقد وصف هذا النوع من الطاقة بأنه طاقة حية تميزاً لها عن الطاقة غير الحية. فالطاقة نوعان [١٢: ص ٤٦]:

- الاول يدعى طاقة غير حية، كتلك الصادرة عن الشمس أو المتولدة من الأعاصير والكهرباء أو الإلكترونيات، وتعمل بشكل منتظم وبنفس الصورة تحت نفس الظروف.

- والنوع الثاني يدعى طاقة حية، وهي متغيرة لا تبقى على حال، ويصعب التنبؤ بها، وتتحكم بها الحاجات والغرائز والرغبات النفسية الكامنة في الوجدان الإنساني. والطاقة الحية معدلة للظروف التي تعمل ضمن محدداتها. ولكن الظروف لا تعدل الطاقة إلا إذا شاء الإنسان ذلك. فيولد الإنسان الطاقة من خلال وجدانه، وما يتضمنه من دوافع

فطرية، ويتحكم بها من خلال ضميره بما فيه من ثقافة، ومن خلال روحه أو قدراته العقلية وما تكتسبه من دوافع اجتماعية ناشئة مكتسبة. وبذلك فإن الإنسان مسؤول عن أفعاله لأنه مستقل بطبيعته، وله نفس وروح تشكلان المصادر الفطرية والناشئة للسلوك الإنساني.

والوعي الكامل لهذه الحقيقة يضيف على الإنسان نعمة الحرية، والسيادة على الذات، والمسؤولية عن النفس، لأنه يتمكن بذلك من اختيار القيم التي تشكل أساس سلوكه، كما يتمكن من أن يعيش حياته على هواه، وأن يبني علاقات اجتماعية بإرادته الحرة، وأن يبذل جهداً معقولاً بهدف استمتاع الآخرين بنفس درجة الحرية التي يتمناها لنفسه.

في الجسم البشري مراكز طاقة تبعث فيه الحياة. وتستمد هذه المراكز الطاقة اللازمة لها من الأفكار التي تراود الفرد، وتتولد من الانفعالات التي تهز كيانه، وتكتسب من الظروف البيئة المحيطة به. فانفعال الخوف مثلاً يحفز كل الأنظمة البيولوجية والنفسية والعقلية والروحية عند الفرد، فتجعله يشعر بمغص معوي، أو بتشنج في المعدة، أو بزيادة في نبضات القلب، أو باصفرار في الوجه، أو بتصبب العرق. ومن ناحية أخرى، فإن الشعور بالاكنتاب يبدد الطاقة، فيصبح الفرد خائر القوى، خاوي العزيمة، ضعيف الصحة، عديم المناعة ضد الأمراض التي يتعرض لها. وهذا هو الأساس الذي يعتمد في ما يعرف بطب الطاقة البشرية. وتولد الطاقة المختزنة في الجسم الإنساني دوائر كهرومغناطيسية يبلغ مداها مقدار امتداد ذراعي الانسان على جانبيه. وبالتقاء هذه الدوائر وتقاطعها، يفقد الفرد من مخزون الطاقة لديه لحساب شخص آخر، أو يكتسب من الآخر إن قلت الطاقة لديه. وكلما ازداد تقاطع الدوائر الكهربائية بالتقارب الجسدي، كما يحدث بين الزوجين، يزداد انتقال الطاقة من شخص لآخر. من هنا ضرورة اعتياد العطاء في الطاقة بين الزوجين، وعدم الركون إلى التلقي. وكثيراً ما يسمع أن زرجة فلان ماتت بعد زوجها بأشهر قليلة. ويفسر ذلك بالإخلاص والحزن على المتوفى، والحقيقة أن ذلك نتيجة اعتياد الزوجة على تلقي الطاقة من الزوج، وعندما فقد المصدر نفذ مخزون الطاقة لديها ولم تجد ما يعوض ذلك.

ومن ناحية أخرى، فإن الطاقة الإنسانية نوعان: الأولى طاقة فاعلة تنبثق من داخل الفرد، وتجعله ذاتي الحافز. ويتصف صاحب هذا النوع من الطاقة بأن الحفاظ على الذات أهم الأولويات لديه، وتكون الطاقة لديه مرتبطة بوعيه وقوته ونبض انفعالاته، فيوازن

بين ثلثية الجسد والنفس والروح لديه. أما الثانية فطاقة انعكاسية، يكتسبها الفرد ممن حوله، ومن الظروف البيئية المحيطة به. ويدعى من يعتمد على مثل هذه الطاقة مكتسب طاقة. والشخص المدمن أوضح مثال على مكتسبي الطاقة، سواء كان الإدمان على المخدرات، أو على المشروبات الروحية، أو الإدمان على التسلط. فإذا انقطع عنه مصدر الطاقة، بات مكتئباً، خائر القوى، عرضة للأمراض. وذلك ما يصيب بعض ضباط الجيش عادة بعد إحالتهم على التقاعد بعد أن يكونوا قد اعتادوا ممارسة السلطة والتسلط على الغير. ويصبح تقدير المدمن لذاته مرتبطاً بموضوع الإدمان، إلى درجة تجعله يرفض بصورة اوتوماتيكية كافة المعلومات والبيانات التي يملها عليه عقله. وتشكل المرأة الشرقية المتزوجة نموذجاً يدل على مكتسبي الطاقة، أو المتكلمين على الغير. فهي تعتمد بشكل كامل على الزوج في مفهومها لذاتها، فضلاً عن اعتمادها عليه في النواحي الاقتصادية والاجتماعية. والمصاب بالاكتئاب مثلاً يحاول أن يقنع نفسه بضعفه، وعدم القدرة على إنجاز أي عمل دون مساعدة الآخرين له. وهو يعاني في العادة من الآم مزمنة في الظهر والعنق. إن مصادر الطاقة لديه خارجية، تتمثل بالمال أو المركز الوظيفي أو الاجتماعي، أو العلاقة مع ذوي السلطة، فيقترب منهم بشتى الوسائل.

يعتبر تقدير الذات أحد الدوافع الأساسية التي تشكل في مجموعها الوجدان الإنساني، كمصدر للسلوك الفطري الإنساني. والواقع أن فشل الفرد في ضبط هذا الدافع يولد عنده علاقات قهر وتسلط، تظهر على هيئة إحدى صورتين: أولاهما الرغبة في الخضوع، وتكون مصحوبة بمشاعر الدونية، والقلق، والإحباط، والعجز، واللاجدوى الذاتية. ويعبر عنها بالميل المازوكية. وثانيهما الرغبة في الهيمنة، ويعبر عنها بالميل السادية، وتظهر على ثلاثة أشكال مختلفة [١٤: ص ٥٧]:

- الأول يتمثل في السيطرة على الآخرين، وجعلهم معتمدين بشكل كامل على الفرد ذي الميول السادية، بحيث تكون له قوة مطلقة عليهم، يسيرهم، ويوجه خطاهم على هواه.
- والثاني يتمثل في الهيمنة على الآخرين، سعياً لاستغلالهم، واستنزاف قواهم لمصلحته الخاصة.

- والثالث يتمثل بالرغبة بمشاهدة معاناة الآخرين، ووضعهم في مواقف مهينة ومربكة.
والواقع أن الرغبات المازوكية والسادية تمثل باب هرب من شعور الفرد بالوحدة والعجز، في مواجهة إشكاليات الحياة اليومية. فتجعله يشعر بأنه حر بالمعنى السلبي للحرية. وتشكل

المرأة العربية مثلاً وضحاً لسيكولوجية القهر، وبذور التربية القهرية. فالمرأة العربية كانت حتى وقت قريب تعاني من اضطهادين: أحدهما ضمن إطار المجتمع، والآخر ضمن إطار الأسرة. وكانت الأسرة العربية بنظامها وأساليب تنشئتها تقوم بإعداد الفتيات لتقبل حياة العبودية البيتية التي يفرضها عليها المجتمع، وتنمي فيهن النشاطات التي تفصلهن عن الصبيان، وتشجع مواقفهن التي تجعلهن مرغوبات في نظر الذكور.

درجة الحرية المواتية للإبداع والعبقرية:

إن عوامل الموقع والتضاريس والاقتصاد والواقع الاجتماعي وحدها لا يجعل البلد أو المكان عبقرياً. فالواقع أن هناك عناصر محددة يقتضي توافرها في شخصية أي بلد ليكتسب صفة العبقرية، وهي [١٧: ص ٣٦]:

- الانفتاح على كافة الخبرات،
 - والاستعداد لاستقبال موجات اللجوء البشري،
 - والوضع الاقتصادي ودرجة الغنى،
 - والمستوى التنافسي في كافة المجالات الاقتصادية والثقافية والعسكرية،
 - والاتجاهات، كالنظر إلى الفشل على أنه أساس النجاح والأساس المحفز له،
 - وفقدان البلد لعدد من أبنائه المتميزين أو الذين يشكلون مصادر فخر واعتزاز.
- وبتطبيق هذه المعايير على مدينة القدس، يظهر أنها مكان ذو شخصية عبقرية بامتياز. إلا أن كافة العناصر سالفة الذكر تعتمد على درجة الحرية التي يتمتع بها المكان العبقرية. وتتأثر تلك الحرية بنمطين من العوامل، وهما:
- الأول ذاتي يمكن للفرد والجماعة التحكم به، كالجسد والعقل والصحة واللياقة الجسدية والسعادة الشخصية، وهو ما يدعو إلى التركيز على الإنسان.
 - والثاني خارجي بيئي لا سيطرة للفرد أو الجماعة عليه، ويشمل القوانين الفيزيائية، والأحوال الجوية، والنظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي، والمؤسسات التعليمية للمدارس والجامعات، والصحية كالمستشفيات، والعسكرية كالجيش والشرطة، والاجتماعية كالمطاعم والمقاهي والفنادق ودور السببما والمسارح.
- ويتمثل ذلك ببعدي الزمان والمكان. فدراسة العوامل الذاتية والبيئية المؤثرة على درجة حرية المكان خير سبيل للوقوف على عبقريته. ومن الطبيعي أن يكون للفرد سلطة على

العوامل الشخصية أكثر منها على العوامل الخارجية. فيتمكن من تطوير قدراته للحصول على حريته الشخصية. ويتعلم الفرد طرق تقليل الآثار السلبية للعوامل الخارجية، وبخاصة النظام السياسي وأدواته. وبالمشاركة مع الآخرين الذين يطورون مثل هذه القدرات، يتمكن الفرد من تطوير الخيارات الإيجابية المتاحة، ومن تقليل الخيارات السلبية. ويمكن تنظيم خطوات تحقيق مستوى مقبول من التحرر اللازم للإبداع والعبقرية ضمن إطارين (١: ص ٩٤):

- الأول هو الحرية السلبية، حين ينفك الفرد والمجتمع من كل صور القهر والإكراه الخارجية، وهي المرحلة الأولى على طريق قيام الفرد أو المجتمع بتطوير الذات. وتضم القدرة على حماية الذات من أدوات السلب والنهب، واكتساب القدرة على إضعاف السلطة السياسية وصولاً إلى السلامة والازدهار، وضمان التفوق على أعداء الحرية، والنظرة الإيجابية للحياة، والقدرة على مواجهة الانسحاب القسري، والقدرة على قلب النظام وإقامة مؤسسات بديلة.

- والثاني هو الحرية الإيجابية، حين يمتلك الفرد والمجتمع القوة اللازمة للقيام بما يريد. ويمثل هذا الإطار مرحلة السيطرة على الذات التي هي في واقع الأمر مرحلة متقدمة على طريق تطوير الذات. إن الحرية تنطوي على امتلاك القوة، وأول الأطوار الرئيسة لخطواتها طور الحرية السلبية الذي يتضمن تطوير القدرات الذاتية والاقتصادية؛ وثانيها بالطبع طور الحرية الإيجابية، ويتضمن حماية الذات من الآخر بإضعافه وكشف حيله. ومن أنواع الحرية الإيجابية الحرية الشخصية، والحرية المدنية، والحرية السياسية.

وهناك مدخلان لتعديل مستوى الحرية الشخصية أو المجتمعية، أولهما اكتساب التقنيات اللازمة للعيش بحرية في عالم يعج بأشكال العبودية، ويخلو من صور الحرية. ويعتمد على اكتساب المعرفة العلمية والمهارات التي تشكل أساس تقنيات الحرية. وثانيهما إقناع رجال السياسة بتغيير الأنظمة السياسية كي يمنحوا المواطنين حرياتهم. ويرتكز هذا المدخل على تعليم الآخرين أهمية فضائل الحرية ومظاهر الأخلاق.

والواقع أن من الضروري التعرف على معوقات الحرية من أجل رسم الاستراتيجية اللازمة للتخلص منها، وتيسير تحقيق مستوى أعلى من الحرية. ومن أهم معوقات الحرية الداخلية اللهاث وراء الملذات، والجهل والتقصير المعرفي. ويشكل التعليم أفضل استراتيجية للتخلص من المعيق الأول، بينما تعتبر إرادة الاختيار والتصميم أفضل استراتيجية للتخلص من المعيق الثاني. أما الحرية الخارجية، فمن أهم معوقات كبح العواطف والانفعالات،

وأفضل استراتيجية للتخلص من هذا المعيق هو غياب التحفظات والانفلات من كل الروادع والنواهي. وكذلك الكبح والإكراه، وأفضل استراتيجية للتخلص من هذا المعيق هو السيطرة على الذات. [١٩:ص ٣٨]. وإذا كان أهل القدس، شأن كل الفلسطينيين، قد حققوا قسطاً مناسباً من التعليم والإرادة ليتمتعوا بالحرية الداخلية السلبية المحفزة للإبداع والعبقرية، فإنهم غير قادرين على تحقيق الحرية الخارجية الإيجابية بفعل الاحتلال وسلطته القمعية. وبذلك يمكن النظر إلى معوقات الحرية الفردية على أنها كبت الدوافع الفطرية للإنسان أو كبحها بضوابط شخصية داخلية ثقافية نابعة من الضمير، ومحددات خارجية بيئية. ومن المعلوم أن الدوافع الإنسانية الأربعة الأساسية التي تحرك الإنسان، وتشكل المصدر الفطري لسلوكه هي دافع التملك (وكبح هذا الدافع يعني الفقر)، ودافع السيطرة وتقدير الذات (وكبحه تتولد العبودية والاستعمار والاستعباد)، ودافع الشهوة (وكبحه تصبح حياة الإنسان كثيية بعيدة عن كل مظاهر الفرح والابتهاج)، والدافع إلى التعرف (وكبحه يتولد الجهل والإدراك الخاطئ للأشياء). والديانات السماوية تهدي الإنسان للوصول إلى الحرية الحقيقية، بتحرير النفس من أي انفلات غير منضبط للدوافع الفطرية للسلوك الإنساني. فالإسلام مثلاً فرض أركاناً يشكل اتباعها أساساً لضبط هذه الدوافع: دافع التملك تضبطه فريضة الزكاة، ودافع السيطرة تضبطه فريضتنا الصلاة والنطق بالشهادتين، ودافع الشهوة يضبطه الصيام، ودافع التعرف تضبطه فريضة الحج كرحلة استكشاف ومؤتمر علمي يجمع الناس من مختلف الثقافات.

ومن الآليات التي يلجأ إليها المستبدون لصياغة الشخصية المقهورة المهزومة الغزو والاستلاب، وكذلك اعتماد مبدأ فرق تسد كمبدأ أساسي في العمل القهري، والاستغلال، والغزو الثقافي. وقد اهتم المفكر العربي عبد الرحمن الكواكبي بقضية القهر، فوضع كتابه الموسوم « طبايع الاستبداد » ليضمنه فكره العميق في هذا المجال. فالمستبد عنده شبيه بالوصي غير الأمين على أموال اليتامى، يتصرف بها على هواه ودون رادع ما داموا قاصرين. وبالتالي، لا تروق له فكرة بلوغ اليتامى سن الرشد. وكذلك المستبد، يجهد كي لا يتنور الناس بالعلم. والمستبد لا يخشى علوم اللغة طالما لم يكن هدفها سحر البيان الذي يثير الجيوش ويحركها. ولا يخشى العلوم الدينية المتعلقة بالآخرة، لأن ذلك لا يرفع الغشاوة عن عيون الناس، بل يظل مادة يتلهى بها المتهوسون للعلم. لكنه يخاف العلوم التي توسع المدارك، وتهدي الإنسان وتعرفه بحقوقه. المستبد عاشق للخيانة، والعلماء عواذله. المستبد

سارق والعلماء حراس منبهون محذرون. ومثلما استند المستبدون إلى وسائل وآليات خاصة لصياغة الإنسان المقهور، فإن التربية كعملية تحرير للإنسان تستند إلى وسائل وآليات مضادة. ومن ذلك التعاون والعمل الحواري في مقابل الغزو والعمل اللاحواري، والوحدة من أجل التحرير وتشكيل الشخصية الكاملة للفرد والجماعة في مقابل التفرقة، والتنظيم في مقابل النزعة إلى الاستغلال، والتآلف الثقافي واحتواء المتناقضات.

الإبداع وعلاقته بالقهر الاجتماعي:

إن الثقافة والتقاليد السائدة، وكذلك ممارسات المؤسسات الدينية والاجتماعية، تكبت الطاقات الإبداعية عند المرأة، وتبقيها معدة لتكون زوجة مطيعة، أمينة على شرف زوجها، وأماً صالحة. وهي أدوار تفرض عليها التبعية للرجل، كنتاج لعملية اجتماعية تحرم فيها المرأة من الكثير من الفرص التي تسمح بتفتح إمكاناتها، وتطوير طاقتها. وبلغ بها الأمر إلى حد القناعة بأنها غير مخلوقة إلا للمكانة التي أعطيت لها، وأنه ليس لها أي مجال للخروج إلى الحياة وإثبات الذات في أعمال بناءة تضمن لها الاستقلال والمساواة مع الرجل. وعلى الرغم من كل ذلك القهر الاجتماعي والجنسي، فقد ظهر عدد من النساء المبدعات مثل عائشة تيمور، وهدي شعراوي، ومي زيادة، وفدوى طوقان، وأم كلثوم، وفيروز، وغيرهن. تعيش المرأة بشكل عام عصراً جديداً حالياً، وهو عصر الأزمة الممتد في الفترة (٢٠٠٥-٢٠٢٤). وعلى المهتمين بالحركة النسوية أن يعوا مراحل تطور النسوية من المنظورين الاجتماعي والثقافي، فضلاً عن التحديات المستقبلية التي يتوقع أن تواجهها الحركات النسوية. ومن تحديات مرحلة الأزمة التي توشك أن تحتل موقعها التاريخي ما يلي: كيفية تواصل المرأة العاملة في الوسط الأكاديمي مع غيرها خارج هذا الوسط، ومدى النفوذ والسلطة العلمية للمرأة، خاصة فيما يتعلق بإعادة تشكيل المؤسسات التعليمية، ومدى التنسيق مع الحركات النسوية على المستوى الدولي.

وعودة إلى المرأة العربية، فإن البنية الهرمية للعائلة في العالم العربي تقوم على أساس الجنس، مثلما تقوم على أساس العمر. فالمرأة في الأعم الأغلب يعيها الرجل، والصغار عيال على الكبار بشكل تقليدي. فالتواصل بين الكبار والصغار، وبين الرجل والمرأة، يقوم على أسس تقليدية، عمودياً وليس أفقياً. ويتخذ التواصل من الكبار إلى الصغار صفة

الأوامر والنواهي، والتخويف، والتلقين، والتهديد، والاستهزاء، والشتم، والإذلال، والتخجيل، وتوليد الشعور بالذنب. كما يتخذ التواصل من الصغار إلى الكبار صفة الترجي، والاسترحام، والتذلل، والاستجابة، وأحناء الرأس، والبكاء. ويكون ذلك كله نتيجة لعلاقات الاستبداد التي تعتمد فلسفة تربوية تقوم على الإرهاب، وليس الإقناع.

معوقات الحرية واستراتيجيات التخلص منها:

إن العلاقات السلطوية في الأسرة العربية مصادر كافية لكبح نمو القدرات الإبداعية عند من يمتلكون مقوماتها الضرورية، لأن الإبداع ينطوي على نزعة إلى الخلاف والاختلاف، مما لا يمكن أن ينمو في الجو التسلطي. فضلاً عن ذلك، فإن صفات الكبار، كما يراها الصغار، تتشابه مع صفات الله عز وجل. فالأب هو الرؤوف الرحيم، وهو المنتقم الجبار، ومن ثم كانت العلاقة بين الأب والابن صورة مصغرة لعلاقة الفرد بربه، ومن هنا جاء المثل الشعبي القائل أن غضب الأب من غضب الرب .

لقد اتصفت البيئة الأسرية في القرن العشرين بصفات جعلت علماء الاجتماع يصفون على كل واحد من عقودها صفة محددة تتعلق بالأسرة. فهناك العائلة المنغلقة الكئيبة في عقد الثلاثينيات، والعائلة ذات الأب الغائب دائماً في عقد الأربعينيات، والعائلة ذات الأم المتسامحة في عقد الخمسينيات، والعائلة المتسمة بالحيوية والشباب والثورة في عقد الستينيات، والعائلة الأنانية في عقد السبعينيات، والعائلة المتمسكة بالقيم الجديدة في عقد الثمانينيات، وهكذا. إن دراسة الوضع الاجتماعي للمرأة، والقهر الاجتماعي الذي تتعرض له، وعلاقته بالإبداع النسائي، تكشف نوع النشاط الإبداعي الذي تقدمه المرأة في ظل خصائص الشريحة الاجتماعية التي تنتمي إليها.

ولدى الحديث عن تقنيات الحرية واستراتيجياتها، يخطر بالبال أن اتباع أي من مفهومي الحرية المتضمنين في تعريف آين راند (Ayn Rand) وماكس شتينر (Max Sterner) للحرية يقتضي استخدام تقنيات خاصة للحصول عليها. ويقصد بتقنيات الحرية كافة الجوانب المعرفية الإدراكية والأدائية المهاراتية، والأساليب اللازمة للعيش بحرية. وتضم المهارات والأساليب كافة سبل الدفاع عن النفس، اتقاء لاعتداءات الآخرين وتجاوزاتهم، سواءً كانوا أفراداً أو حكومات. وتتضمن تقنيات الحرية بصفتها البدائل الإيجابية المتاحة كافة الوسائل العملية الكفيلة بحماية الذات والممتلكات من انتهاكات الغاضبين، وفهم الحرية

كظاهرة انسانية، وفهم معنى القهر والاكراه، وامتلاك القدرة على تجاوزه والتخلص منه، ومقاومة كل أدوات فرضه، واكتساب الحرية والسيادة على الذات، وأساليب تطوير القدرات العقلية ومهارات التفكير، وأساليب الحفاظ على الصحة العامة، واللياقة البدنية، والوقاية من الأمراض الجسدية والاضطرابات النفسية. وتشير النظرة الفاحصة لمعوقات الحرية الداخلية والخارجية، واستراتيجيات التخلص منها، إلى ان للحرية بشقيها الداخلي (Freedom) والخارجي (Liberty) ثلاثة مداخل أساسية: أولها التخلص من محاولات التدخل الخارجي وفرض الأوامر، وغياب التحفظات، وعدم الاعتراف بالمحظور، وتخطي الروادع، وتجاهل النواهي. وثانيها الحكم الذاتي والقناعة الذاتية. وثالثها التعلم والتخلص من التقصير المعرفي. [١: ص ٧٨].

استراتيجيات اكتساب الحرية:

يمكن تنظيم خطوات الوصول إلى أرقى خطوات الحرية ضمن ثلاثة أبواب رئيسية، وهي القدرة على الاستمرارية والبقاء، وتحقيق صورة من صور الخلود، والتغلب على أسباب الفناء والاندثار كأكبر عدو للحرية. وتصنف خطوات الحرية ضمن إطارين: الإطار الأول هو الحرية السلبية حين ينفك الفرد من كل صور القهر والإكراه الخارجية، وهي المرحلة الأولى على طريق قيام الفرد بتطوير الذات.

والإطار الثاني هو الحرية الإيجابية حين يمتلك الفرد القوة اللازمة للقيام بما يريد. ويمثل هذا الإطار مرحلة السيطرة على الذات التي هي في واقع الأمر مرحلة متقدمة على طريق تطوير الذات.

تنطوي الحرية على امتلاك القوة. والأطوار الرئيسية لخطوات الحصول على الحرية نوعان هما طور الحرية السلبية، ويتضمن استراتيجيات تطوير القدرات الذاتية والاقتصادية، وطور الحرية الإيجابية ويتضمن حماية الذات من الآخر بإضعافه وكشف حيله. أما طور الحرية السلبية، كما يقول جرين (Green) في مقال نشره في مجلة النظرية السياسية (Political theory)، فيتضمن التخلص من كل معوقات تحقيق الذات، أو التحرر من كل عوامل الكبت والكبح والقهر والقسر والتهديد. كما يتضمن ضمان عدم تعرض الآخرين للفرد وضمان الدولة وعدم الاعتداء عليها أو التعرض لمصالحها من قبل الآخرين أيضاً. وخطوات الحرية الدالة على طور الحرية السلبية متضمنة في تطوير القدرات الذاتية النفسية والروحية،

وتطوير قدرات التفكير واستراتيجياته، والقدرة على تمييز الكلام المعسول والخدع السياسية، وتقوية إرادة الاختيار كقدرة عقلية، والتخلص من الشعور بالخوف من الآخر، ومعرضة النظام وقول لا في مواقعها، ورفض كل صور القهر والإكراه والتهديد بالعنف، وحرية التصرف بالنفس والممتلكات، والتضحية بهما في سبيل الواجب والقضايا السامية. وعلى مستوى تطوير القدرات الاقتصادية، فإن طور الحرية السلبية يتضمن القدرة على تقييم الذات، والعمل على زيادة مواطن القوة وتقليل مواطن الضعف، والاهتمام بالصحة الشخصية، وزيادة الإنتاجية باستخدام تقنيات الحرية، والانتفاع من الإنتاجية وتحقيق الكسب والنجاح، والتقييم الموضوعي للأمور، والتركيز على الأهداف وطرق تحقيقها. وأما طور الحرية الإيجابية، فيضمن امتلاك القدرات اللازمة للقيام بالأعمال التي يريدها الفرد، وهو ما يشار إليه بالقدرة على السيطرة على الذات، وغياب أو انتفاء كافة معوقات الأداء بغض النظر عما إذا كانت تلك المعوقات داخلية ذاتية أو خارجية بيئية، وهو ما يطلق عليه تعبير (Freedom to Self-Realization). والواقع أن ذلك كله متضمن في الاستراتيجية الثالثة من استراتيجيات الحرية، وهي حماية النفس من الآخر بإضعافه وكشف حيله وتزييفه. وأخذ ذلك صوراً منها القدرة على حماية الذات من أدوات السلب والنهب، واكتساب القدرة على إضعاف السلطة السياسية وصولاً إلى السلامة والازدهار، وضمان التفوق على أعداء الحرية، والنظرة الإيجابية للحياة، والقدرة على قلب النظام وإقامة مؤسسات بديلة. [١: ص ٧٩].

وقد عدد باترسون (Patterson) ثلاثة أنواع من الحرية الإيجابية: الأول هو الحرية الشخصية، وأطلق عليها تعبير الحرية البروميثية (Promethian Freedom) نسبة إلى الإله الإغريقي الأسطوري بروميثيوس (Prometheus)؛ والثاني هو الحرية المدنية، وأطلق عليها تعبير حرية الحكم الذاتي؛ والثالث هو الحرية السياسية، وأطلق عليها تعبير الحرية المجتمعية.

أما عن استراتيجيات اكتساب الحرية والتغلب على معوقاتها، فإن الحرية تتأثر بنمطين من العوامل [٢٠: ص ١٤١]: أحدهما شخصي ذاتي، والآخر خارجي بيئي. أما العوامل الشخصية الذاتية، فهي تلك التي يملك الفرد سلطة كاملة عليها، كالجسد والعقل والصحة واللياقة الجسدية والسعادة الشخصية. وأما العوامل الخارجية البيئية، فهي تلك التي لا سيطرة للفرد عليها، وتشمل القوانين الفيزيائية والأحوال الجوية والنظام السياسي ومؤسساته كالجيش والشرطة.

ومن الطبيعي أن يكون للفرد سلطة على العوامل الشخصية أكبر منها على العوامل الخارجية. فيتمكن من تطوير قدراته للحصول على حريته الشخصية. ويتعلم الفرد طرق تقليل الآثار السلبية للعوامل الخارجية، وبخاصة النظام السياسي وأدواته. وبالمشاركة مع الآخرين الذين يطورون مثل هذه القدرات، يتمكن الفرد من تطوير الخيارات الإيجابية المتاحة، ومن تقليل الخيارات السلبية. وهناك مدخلان لتعديل مستوى الحرية الشخصية [١: ص ٤٣].

- أولهما اكتساب التقنيات اللازمة للعيش بحرية في عالم يعج بأشكال العبودية ويخلو من صور الحرية. ويعتمد على اكتساب المعرفة العلمية والمهارات التي تشكل أساس تقنيات الحرية.

- وثانيهما إقناع رجال السياسة بتغيير الأنظمة السياسية كي يمنحوا المواطنين حرياتهم. ويرتكز هذا المدخل على تعليم الآخرين أهمية فضائل الحرية ومظاهر الأخلاق. والواقع أن من الضروري التعرف على معوقات الحرية لرسم الاستراتيجية اللازمة للتخلص منها، وتيسير تحقيق مستوى أعلى من الحرية. ومن أهم معوقات الحرية الداخلية للهاث وراء الملذات، والجهل والتقصير المعرفي. والتصميم أفضل استراتيجية للتخلص من هذين المعيقين.

أما الحرية الخارجية، فمن أهم معوقات كبح العواطف والانفعالات، وأفضل استراتيجية للتخلص من هذا المعيق غياب التحفظات والانفلات من كل الروادع والنواهي، والمعيق الثاني هو الكبح والإكراه، وتكمن أفضل استراتيجية للتخلص من هذا المعيق في السيطرة على الذات.

وبذلك يمكن النظر إلى معوقات الحرية الفردية على أنها كبت الدوافع الفطرية للإنسان أو كبحها بضوابط شخصية داخلية ثقافية، ومحددات خارجية بيئية. ومن المعلوم أن الدوافع الإنسانية الأربعة الأساسية التي تحرك الإنسان وتشكل المصدر الفطري لسلوكه هي: دافع التملك (وكبح هذا الدافع يعني الفقر)، ودافع السيطرة وتقدير الذات (وكبحه تتولد العبودية والاستعمار والاستعباد)، ودافع الشهوة (وكبحه تصبح حياة الإنسان كئيبة بعيدة عن كل مظاهر الفرح والابتهاج)، والدافع إلى التعرف (وكبحه يتولد الجهل والإدراك الخاطئ للأشياء). والديانات السماوية تهدي الإنسان للوصول إلى الحرية الحقيقية، بتحرير النفس من أي انفلات للدوافع الفطرية للسلوك الإنساني. فالإسلام مثلاً فرض أركاناً يشكل اتباعها

أساساً لضبط هذه الدوافع: فدافع التملك تضبطه فريضة الزكاة، ودافع السيطرة تضبطه فريضة الصلاة والنطق بالشهادتين، ودافع الشهوة يضبطه الصيام، ودافع التعرف تضبطه فريضة الحج كرحلة استكشاف ومؤتمر علمي يجمع الناس من مختلف الثقافات. ومن الآليات التي يلجأ إليها المستبدون لصياغة الشخصية المقهورة المهزومة ما يلي [ص: ٦٨ - ٧٠].

- الغزو والاستلاب: فهذه المستبد في علاقته مع الآخرين أن يهزمهم ويفرض أهدافه عليهم ويجعلهم جزءاً من ممتلكاته الخاصة مستخدماً كل الوسائل المتاحة، سواء كانت عنيفة قامعة أو مهذبة ابوية. والمستبد يسلبهم القدرة على فهم العالم حولهم، فيجرحون إلى عالم خرافي يزيد من سلبيتهم واغترابهم. وبهذه الوسيلة، تحاول الطبقة المتسلطة أن تجعل الجماهير المقهورة تتوافق مع أهدافها. وبقدر ما تكون هذه الجماهير غير مثقفة، يكون استغلالها سهلاً من قبل المتسلطين.

- اعتماد مبدأ فرق تسد كمبدأ أساسي في العمل القهري: ومن وسائل تحقيق ذلك القهر البيروقراطي، والتضليل الثقافي، والتغريب، والعزل الثقافي الذي يمارس تحت شعار تنمية المجتمع.

- الاستغلال: ومن أساليب ذلك توجيه الناس إلى أنماط تنظيم غير سليمة، ومحاولة صرفهم عن التفكير في الواقع لأن ذلك يدفعهم إلى القيام بأعمال جادة. وكذلك محاولة جر الأفراد إلى نزعة تحقيق النجاح الفردي.

- الغزو الثقافي: وهو ضرب من السيادة الثقافية والاقتصادية، تمارس طبقة على أخرى، أو مجتمع على آخر. ويجري ذلك باختراق الواقع الثقافي وتجاهل إمكانات هذا الواقع، وفرض تصور للعالم كما يراه المستبد. ونتيجة ذلك بالطبع تعطيل قدرة الخاضعين على التعبير والإبداع.

وقد اهتم المفكر العربي عبد الرحمن الكواكبي بقضية القهر، فوضع كتابه الموسوم طبائع الاستبداد ليضمنه فكرة العميق في هذا المجال. فالمستبد عنده شبيه بالوصي غير الأمين على أموال اليتامى، يتصرف بها على هواه ما داموا قاصرين. وبالتالي، لا تروق له فكرة بلوغ اليتامى سن الرشد. وكذلك المستبد، يجهد كي لا يتنور الناس بالعلم. والمستبد لا يخشى علوم اللغة طالما لم يكن هدفها سحر بيان يحرك الجيوش. ولا يخشى العلوم الدينية المتعلقة بالآخرة، لأن ذلك لا يرفع الغشاوة عن عيون الناس، بل يظل مادة يتلهى بها

المتهوسون للعلم. لكنه يخاف العلوم التي توسع المدارك، وتعرف الإنسان بحقوقه. المستبد عاشق للخيانة، والعلماء عواذله. المستبد سارق والعلماء حراس منبهون محذرون. لقد كان المستعمرون يبررون أفعالهم بضرورة نشر الحضارة الإنسانية. وصاروا في العصر الحديث يبررون ذلك بالحرب على الإرهاب، والنضال من أجل الديمقراطية، ونصرة الخير في مقابل الشر. ومثلما يستند المستبدون إلى وسائل وآليات خاصة لصياغة الإنسان المقهور، فإن التربية كعملية تحرير للإنسان تستند إلى وسائل وآليات مضادة. ومن ذلك التعاون والعمل الحواري في مقابل الغزو والعمل الاحواري، والوحدة من أجل التحرير، وتشكيل الشخصية الكاملة للفرد والجماعة في مقابل التفرقة، والتنظيم في مقابل النزعة إلى الاستغلال، والتآلف الثقافي واحتواء المتناقضات.

وتشير النظرة الفاحصة إلى معوقات الحرية الداخلية والخارجية وإلى استراتيجيات التخلص منها إلى أن الحرية بشقيها الداخلي (Liberty) والخارجي (Freedom) لها ثلاثة مداخل أساسية هي التخلص من محاولات التدخل الخارجي وفرض الأوامر، وغياب التحفظات، وعدم الاعتراف بالمحظور، وتخطي الروادع، وتجاهل النواهي؛ والحكم الذاتي والقناعة الذاتية؛ والتعلم والتخلص من التقصير المعرفي.

لقد حدد فريدريك مان (Frederick Mann) ستة عشر مدخلاً استراتيجياً متداخلاً لتحقيق الحرية الخارجية (Liberty)، اللازمة لإطلاق القدرات الإبداعية من عقالها. ويمكن إبراز عدد من تلك المداخل الاستراتيجية وفق ما يبرر الموقف العربي الفلسطيني تحت الاحتلال على النحو الآتي [٣: ص ٨١ - ٨٤]:

- استراتيجية التعليم: حيث يجري تعليم الناس فضائل الحرية إلى ان يصبح عدد المثقفين كافياً لقلب النظام المستبد والتخلص من هيمنته.
- الاستراتيجية السياسية: وذلك بتشكيل أحزاب سياسية جديدة أو اختراق الأحزاب القائمة لتعديل أنظمتها من الداخل.
- الاستراتيجية القانونية: وتتضمن ملاحقة السلطات المستبدة قانونياً.
- استراتيجية الاحتجاج: وتكون بالكتابة الناقدة للسلطات في الصحف، وتنظيم المسيرات والمظاهرات الاحتجاجية.
- استراتيجية العنف: وتتضمن مهاجمة رموز السلطة المستبدة بالسلاح، وتدمير مؤسساته.
- استراتيجية المقاومة السلبية: وتتضمن سبلاً متعددة مثل نشر ملايين الفيروسات لتعطيل

أجهزة السلطة المستبدة. كما تتضمن العصيان المدني ومقاطعة البضائع والاضراب عن الطعام مثلما فعل غاندي.

- استراتيجية القوة والمنعة: حيث ينمي الفرد قدراته الذاتية، فلا يجرؤ أحد على التعدي عليه.

- الاستراتيجية الاقتصادية: حيث يصبح الفرد مستقلاً اقتصادياً، ويسحب دعمه الاقتصادي للسلطة الاستبدادية، ويقنع الآخرين لاقتفاء خطواته، فيقيمون مؤسسات خاصة لا تخضع لسلطة أحد.

والهدف النهائي من دراسة هذه المداخل الاستراتيجية لتحقيق الحرية الخارجية اللازمة للإبداع تحديد معالم البيئة النفسية المواتية للإبداع، والتي يعتمد عليها نجاح أية مؤسسة. والواقع أنه يمكن الوقوف على ثلاث استراتيجيات لتحقيق الحرية، ورفع مستوى الحرية الشخصية والجماعية:

- أول هذه الاستراتيجيات اكتساب تقنيات الحرية، والقدرة على استخدامها؛

- وثانيها إضعاف سلطة المستبدين والمؤسسات المتحكمة في الحريات؛

- وثالثها انتقال أعداد غفيرة من الناس، وكثير من الأنشطة الاقتصادية، إلى السوق الحر. فيتعاونون على أساس احترام الملكية الفردية، والسيطرة على الذات، والتعامل الطوعي الاختياري مع الآخر.

ويستخدم الناس كأفراد وجماعات تقنيات الحرية لرفع سوية حرياتهم إلى القدر الذي يرونه مناسباً. وربما يشكلون في سبيل تحقيق هذه الغاية مؤسسات بديلة لحفظ ثروتهم والحصول على الخدمات المالية اللازمة لذلك.

إن الاستراتيجيات سابقة الذكر أساس بناء المجتمع المتحضر. ويسبب عدم اتباعها فقر المجتمع، وتدهور أوضاعه. فمن خصائص المجتمع المتحضر أن تركز القيادة فيه على المثال الصالح، والجهد المنظم المنتج، وليس على القوة والقهر والعنف. ويتمتع أفراد أي مجتمع متحضر بحق الملكية الفردية دون إكراه الآخرين، واحترام حقوق الآخرين في التملك كأساس للعلاقات الإنسانية التعاونية المثمرة، وحق السيادة على الحياة الشخصية والنشاط العقلي والجسدي الذاتي، وليس لأحد الحق في تهديد مثل هذه السيادة الفردية والجماعية. كل ذلك بغض النظر عن العمر والدين والجنس والعرق، ودون المساس بحق الاتصال والتعامل مع الآخرين أو عدمه. ومن أمثلة ذلك حق الكلام وحق الخصوصية الشخصية،

وحق إبرام المعاهدات والاتفاقيات مع الآخرين والتعاون معهم، وحق الاستثمار وتبادل الملكيات، وحق الدفاع عن النفس والممتلكات ضد أي تعدي أو انتهاك للحرمانات، وحق معارضة القوانين الجائرة والتنظيمات القسرية. وليس لأحد حق استخدام نتائج عمل الفرد أو أفكاره أو ممتلكاته دون إذن مسبق منه. ويعتبر إيذاء الآخر وانتهاك حرمانته وسلب ممتلكاته وتجريد حرياته جريمة نكراء.

حدد فريديريك مان سبع عشرة خطوة على طريق الحرية. وقد يتخذ الفرد إحدى هذه الخطوات مفهوماً للحرية يتبناه طيلة حياته. وقد يتحول من خطوة إلى أخرى دون الالتزام بالترتيب الوارد ضمن تعدادها. وهذه الخطوات هي [١: ص ٨١ - ٨٤]:

الخطوة الأولى: الشعور بالألم والمعاناة نتيجة بذل الجهد لاكتشاف كنه الحرية للمرة الأولى

ولا يفهم معظم الناس المعنى الحقيقي للحرية. ويخلط البعض بينها وبين الديمقراطية، ولا يقدر البعض ان مجرد اشتراط الحصول على رخصة سواقة لقيادة السيارة أو ضرورة تسديد الضرائب للدولة هي في حد ذاتها انتقاص لحرية الفرد، والوقوف على مثل هذه الحقيقة يسبب للفرد ألماً وحسرة، خاصة وأنه يقف ازاء قوى لا يقدر على مواجهتها كقوة الدولة. إن الحرية تعني الملكية الفردية وحرية التصرف بالنفس والممتلكات ونتاج العمل دون المساس بملكية الآخرين. وتتضمن هذه الخطوة مبدأ التضحية بالنفس والمال من أجل القضايا الرفيعة والأهداف النبيلة. ومن فضائل الوصول إلى هذه الخطوة ما يلي: التحول من حالة الجهل والتبعية المطلقة للنظام إلى معرفة ما يجري في البيئة المحيطة، والتفكير بالنفس وللنفس، واثراء الحصيلة المعرفية في المجالات السياسية والاقتصادية، والتعرف إلى محبي الحرية، وخلق فرص وامكانات جديدة.

الخطوة الثانية: معارضة النظام

ومن صور هذه المعارضة رفض تسديد الضرائب عن طريق استغلال كافة الإعفاءات المتاحة وتحاشي الخدمة العسكرية. ومن فضائل الوصول إلى هذه الخطوة الشعور بعد العجز أمام السلطات الكبيرة المتسلطة، وتدعيم احترام الذات، والتغلب على مشاعر الخوف من السلطة، والإحساس بتفوق القدرة الشخصية على قدرة الحكومة والسلطة، وانعكاس زيادة هامش الحرية على زيادة الدخل الفردي والفرص المتاحة.

الخطوة الثالثة: تطوير قدرات التفكير

تقول كلمات أغنية بعنوان (Song Redemption) للمغني بوب مارلي (Bob Marley):

حرر نفسك من العبودية العقلية، فلا يمكن لأحد أن يحرر عقله سوى نفسه .
ويعود ذلك في واقع الأمر إلى أن ما نسبته (٩٥٪) من الحرية التي يتمتع بها الفرد يعزى إلى القدرات العقلية، بينما يعزى ما نسبته (٥٪) الباقية إلى عوامل خارجية. ومن فضائل الوصول إلى هذه الخطوة من خطوات الحرية استخدام العقل للتأكد من صحة كل نشاط،،
والوعي الأكثر بالأنشطة وتنائجها، والارتقاء بدرجة المرونة والإبداع.

ولتطوير مهارات التفكير عند الناس، يقتضي تزويدهم باتجاهات شخصية أساسية، أولها العقلية المتحررة، وثانيها التفاني والاخلاص، وثالثها الإحساس بالمسؤولية.

الخطوة الرابعة: رفض القهر والإكراه والتهديد بالعنف.

يعود اصرار الناس على فرض إرادتهم على الآخرين بالقوة أو بالتهديد بالقوة إلى نقص مهارات التفكير لديهم، فيحلون القوة والتهديد محل التفكير، وهو أمر أساسي للتفكير الإبداعي. فرفض القهر والإكراه قاعدة أساسية للتفكير المجانق الإبداعي.

الخطوة الخامسة: الشعور بالسرور الناتج عن الإيمان بأن الانسان حر بالفطرة

تعني هذه الخطوة أن الانسان يسيطر على أفعاله، لكنه لا يضمن نتائجها. فقد يكون في وضع بائس مفروض عليه، ثم يشعر بحرية الاختيار فتمتلئ نفسه غبطة وفرحاً، ثم يقوم بالإجراءات اللازمة لخلق جو ايجابي. ومن فضائل الوصول إلى هذه الخطوة من خطوات الحرية تحرير الذات من دافع السيطرة ومحاولة فرض تعديل سلوك الآخرين بالقوة، وزيادة القوة الذاتية، وخلق الايجابيات بدلاً من محاربة السلبيات، والاستمتاع الفرد بمزايا الحرية في أي مكان يتواجد فيه.

الخطوة السادسة: زيادة القوة الذاتية

في هذه الخطوة يتحسس الفرد مواطن قوته بدلاً من التعرف على مواطن ضعفه وتقصره. ومن فضائل الوصول إلى هذه الخطوة الشعور بالاكتفاء الذاتي، والثقة بالنفس، وامكانية تحقيق الأهداف بسهولة أكثر، واجتذاب الآخرين لمساندة الفرد، كما تصبح الحياة أكثر متعة لما فيها من تحديات كبيرة،

الخطوة السابعة: الانتاجية باستخدام تقنيات الحرية

على كل امرئ أن يزيد انتاجيته لتوسيع هامش حريته. وفي هذه الخطوة يكتشف المرء ما ينفذ وما يضر، وما يرغبه الناس وما يبغضوه وينفروا منه. وتتضمن النقلة إلى هذه

المرحلة الانتقال من الحديث عن الحرية إلى معايشة الحرية والتوافق مع معطياتها. زمن مزايا الوصول إلى هذه الخطوة زيادة الدخل تؤدي إلى زيادة هامش الحرية، وزيادة الانتاجية تؤدي إلى توسيع دائرة الأنشطة، وتصبح الحياة أكثر إشراقاً وامتعة.

الخطوة الثامنة: الانتفاع من الانتاجية وتحقيق الكسب والنجاح

والانتاجية المتضمنة في هذه الخطوة ليست كافية، إذ يجب أن تدر ارباحاً، ويتبع ذلك استخدام تقنيات الحرية ومهارات التسويق. ولهذه الخطوة نفس فضائل الخطوة السابعة، ولكن بدرجة أعلى.

الخطوة التاسعة: القدرة على وقاية النفس من رموز السلب والنهب.

من فضائل الوصول إلى هذه الخطوة حماية الدخل والممتلكات، والقيام بالعمليات البنكية بسرية تامة، وتحول النشاط التجاري من الاعتماد على القطاعين العام والخاص إلى قطاع السوق الحر، وزيادة فرص الاستعاضة عن المؤسسات المتسلطة بأخرى متحضرة.

الخطوة العاشرة: القدرة على تمييز الكلام المعسول والخدع السياسية

ومن مزايا الوصول إلى هذه الخطوة التعرف على استراتيجيات وتكتيكات أكثر فعالية لحر المعتدين المستبدين، وإقناع الآخرين بسحب دعمهم للأنظمة المستبدة والثقة بها ومن ثم خلق أنظمة بديلة عوضاً عن العمل على تغيير هذه الأنظمة.

الخطوة الحادية عشرة: ضمان التفوق على أعداء الحرية.

قال الرئيس الأمريكي جورج و. بوش (George W. Bush) لدى قيامه بتدشين المدمرة النووية رونالد ريجان، أنه يجب التسلح لمجابهة أعداء الحرية، وهم كثر على حد رأيه، ومن مزايا الوصول إلى هذه الخطوة أنه لدى التحقق من أن ديناميات السوق الحر أكثر فعالية من الديناميات السياسية، يصبح الفرد أحد رواد حضارة السوق الحر ودعاة مبادئه.

الخطوة الثانية عشرة: القدرة على إضعاف القوى السياسية تحقيقاً للسلام والازدهار.

فالمستبد المتسلط يستمد قوته من ضحاياه، وكلما كانت الضحية أضعف، كان المستبد أقوى. والترياق الأول للتخلص منه هو قيام الضحية برفض التضحية بقواه الذاتية من أجل المستبد، وقول لا في وجهه. والترياق الثاني يتمثل في القوة الاقتصادية، والترياق الثالث هو التشهير بالخدع والتزييف الذي يمارسه المستبد أفراداً وحكومات. ومن فضائل الخطوة الثانية عشرة تحقيق السلام وضمان الازدهار، وبناء الحضارة على أساس احترام الفرد وضمان ممتلكاته.

الخطوة الثالثة عشرة: القدرة على قلب النظام وإقامة مؤسسات بديلة.

السلطات المستتدة تقيم مؤسساتها بهدف اجبار الافراد على ان يرهنوا قواهم لدعم السلطة وتثبيت مواقفها. فالمدارس والبنوك مؤسسات تقيمه السلطة لاجتذاب قوى الافراد وتسخيرها للسلطة وتدريب الافراد على إطاعة أوامرهما. ومن مزايا الوصول إلى هذه الخطوة أن التطبيق الكامل لتقنيات الحرية يضمن لكل فرد إمكانية قيامه بإنشاء مؤسسة حرة، وإمكانية توسيع مثل هذه المؤسسات لتصبح مشاريع دولية خلال فترة عشر سنوات، وتحقيق الاستقرار النقدي، وتوفير طاقة رخيصة، والمحافظة على البيئة من التلوث، وزيادة الفعالية الصناعية والتقنية، ورفع مستوى المعيشة، والقضاء على التضخم الاقتصادي، وإزالة شبخ الحروب وتقليل الضرائب

الخطوة الرابعة عشرة: الاهتمام بالصحة الشخصية.

يفقد المرء جزءاً من حرته حين يكون طريح الفراش. ومن العوامل المؤدية لموفور الصحة الشخصية القدرة على تحمل المسؤوليات الشخصية، والتغذية الجيدة، والرياضة والتدريب. ومن مزايا الوصول إلى هذه الخطوة التمتع بمستوى لائق من الصحة والعافية البدنية، والوقاية من أمراض القلب والسرطان وغيرها من الأمراض المستعصية، وإطالة العمر الافتراضي للإنسان، وجعل الحياة مليئة بالقوة والنشاط، وتقليل ما يمكن ان يصرف ككلفة للعلاج.

الخطوة الخامسة عشرة: المحافظة على البقاء والتغلب على اسباب الاندثار.

ويكمن ذلك في القدرة على تنمية علم الجينات والنانوتقنيات، وهي تقنيات صغيرة بحجم الذرة يجري تثبيتها في الجسم لإدامه عمل اجزاء معينة منه. والواقع أنه يمكن تصنيف تقنيات الإكراه والإجبار التي تستخدمها السلطات الحاكمة تحت مسمى تقنيات الموت والدمار، والتسليم بما يعني الاستسلام لفكرة الموت والانذار. وهذه الخطوة تدعو إلى التسليم بتقنيات علم الجينات والنانوتقنيات بصفتها تقنيات الحياة.

الخطوة السادسة عشرة: النظرة الإيجابية للحياة ونبذ كل مظاهر السوداوية ومواجهة مواقف الانسحاب القسري.

من فضائل الوصول إلى هذه الخطوة جعل النظرة للحياة أكثر إيجابية، وزيادة القوة الشخصية، والوعي بالانسحاب وآثاره السلبية، وتيسير تحقيق الأهداف، وتيسير الوصول إلى النجاح المبتغى والازدهار المنشود. ومن فضائل الوصول إلى هذه الخطوة خلق طيف أكثر تنوعاً من الحلول الممكنة، والتنفيس عن القضايا العاطفية قبل أن تؤثر على الفرد وتطيح

به، وتحرير العقل لتحقيق مستوى أعلى من الانتاجية والاستمتاع بالحياة، وفتح المجال للتعاون المستقبلي مع الآخر، والأخذ بمبدأ (إربح/إربح) وتقليل مجالات التعاون على أساس مبدأ (اربح/اخسر) أو مبدأ (اخسر/اخسر).

إن جدران الفصل العنصري الذي يبنيه الغاصبون مشروع سياسي شامل يهدف كسر مقاومة الضفة الغربية، لتحويلها الى معازل منفصلة، تمارس عليها «إسرائيل» رقابة تامة. وكان الجدار في صميم الفكر الصهيوني على الدوام. فرؤية تيودور هرتزل للدولة اليهودية كانت بوصفها حاجزاً دفاعياً ضد آسيا. و كان مشروع بن غوريون خلق جدار بشري على طول حدود «إسرائيل». و فكرة الجدار الحديدي الذي دعا إليه زئيف جابوتنسكي تهدف الوقوف في وجه العرب.

بدأت أعمال بناء الجدار الفاصل في أبريل/ نيسان ٢٠٠٠ م. ويتجاوز عرضه في الكثير من المواقع ٦٠ - ٧٠ متراً، مزوداً بالأسلاك الشائكة، تليها الخنادق، فيما الجدار بعلو ثمانية أمتار. وهو مزود بنظام إنذار الكتروني وطريق ترابية وأخرى مزفتة ووراءها أسلاك شائكة من جديد. وصنفت المناطق الواقعة بين الجدار والخط الأخضر «مناطق عسكرية مغلقة» وهناك مناطق أخرى من الجانب الفلسطيني لا يمكن الوصول إليها إلا عبر نقاط التفتيش. وبلغت كلفة الجدار باستثناء الجانب الشرقي واحد وعشرين مليار يورو، ويمتد جانبه الشمالي الذي انتهى العمل فيه عام ٢٠٠٣ م على طول ١٥٠ كيلومتراً، لكن طول الجدار الإجمالي يصل إلى ٦٥٠ كيلومتراً، ويجب التمييز بين أربعة نماذج من جدران الفصل في فلسطين المحتلة:

- الأول جدار الفصل الغربي، ويشتمل على المستوطنات الكبيرة (وخصوصاً أريئيل وعمانوئيل) قبل أن يخترق في العمق (حوالي ٣٠ كيلومتراً) داخل الضفة الغربية.

- والثاني في القدس ومحيطها، وتضم جزءاً من بيت لحم، وتطوق جميع الضواحي الفلسطينية، وهدفها قطع بعض الأحياء العربية منها القدي والضفة الغربية، كما تنقطع بعضها عن بعض.

- الثالث جدار شرق الضفة الغربية قبل وادي الأردن، وعرف المشروع مع بداية مصادرة الأراضي الضرورية له، ويعني في المدى المنظور ضم الجزء الشرقي من الضفة الغربية. - الرابع يهدف زيادة المناطق الفلسطينية المغلقة، وقد انتهى العمل في البعض منها، كالجدار حول قلقيلية، بينما يجري تشييد جدار حول طولكرم، والقسم الأخير وارد في

المخططات، ففي قلبية تحيط الأسلاك الشائكة بحوالي أربعين ألفاً من السكان الذين لا يستطيعون العبور إلى سائر أنحاء الضفة الغربية إلا من باب واحد.

علاقة الشخصية العبقرية بالكاريزما^[٣: ص ٦٢]:

تناول عباس محمود العقاد العبقريات، وفي ذهنه مفهوم عبقرية الإنسان كمحصلة لتفاعل المكان والزمان وشخصية الإنسان والكاريزما التي يتمتع بها. والحقيقة أن الكاريزما تركيب مفاهيمي يشير إلى الصفة المنسوبة إلى أشخاص يتمتعون بالجاذبية الكبيرة، والحضور الطاعني، والقدرة على التأثير في الآخرين إيجابياً وعلى الارتباط بهم عاطفياً وثقافياً. يقول البعض أن هناك ست سمات أو مهارات ضرورية للاتصاف بالكاريزمية، وهي القدرة على التعبير العاطفي، والحماس، والبلاغة، والثقة في النفس، والرؤية، وسرعة الاستجابة للآخرين. ومن المهم الموازنة بين هذه العناصر. فقد يؤدي فرط التعبير العاطفي مثلاً إلى الانتقاص من الكاريزما الشخصية. وعدد آخرون عشر صفات يتحلى بها الشخص الكاريزمي، وهي: الالتزام بالعمل، والظهور بمظهر الراجح دائماً والتصرف كذلك، والتمتع برؤية وأحلام تبلغ في حدها عنان السماء، والإعداد الكافي والعمل الدؤوب لكل ما ما يعهد إليه من أعمال، والتقدم بثبات نحو الأهداف المرجوة، ونشر جو من الغموض حول الشخصية، والاهتمام بالآخرين واللفظ في التعامل معهم، والتمتع بالدعابة وروح المرح، وقوة الشخصية، وشكر الله على نعمائه عند التعرض للشدائد.

ويعد مقياس كونجر وكانونجو (Conger & Kanungo) للقيادة الكاريزمية أحد المقاييس الأكثر شيوعاً، والمتصفة بالموضوعية والثبات. يتكون هذا المقياس من عشرين بنداً، ويهدف إلى تقييم نقاط القوة في خمسة جوانب، وهي: الرؤية، وسرعة الاستجابة للآخرين، وسرعة الاستجابة للفرص، والإقدام على مواجهة المخاطر، واتباع طرق غير تقليدية للمواجهة.

[٣: ص ٦٦].

تشير هذه الرؤية للكاريزما إلى إمكانية صقل بعض جوانبها. فالبلاغة والتعبير العاطفي والقدرة على الاستجابة للآخرين تتحسن بالممارسة. أما الحماس فيمكن تصنعه. وقد عرض دين كيث سيمونتون (Dean Keith Simonton) الأستاذ في جامعة كاليفورنيا، في كتابه المميز لماذا ينجح الرؤساء؟ الذي نشرته جامعة ييل عام ١٩٨٧م، أن أكثر الرؤساء الأمريكيين نجاحاً كانوا يستخدمون لغةً ثرية بالمفردات التي تعبر عن عواطف أساسية يتجاوب

الجمهور معها. فأى شخصية تأمل في أن تصبح كاريزمية يجب أن تستخدم تعابير مثل (أحس بآلامكم) بدلاً من تعبير (الآن فهمتكم) الذي استخدمه أحد الزعماء العرب. [٣: ص ٧١]. وهناك أربعة أنماط من الإشارات الاجتماعية غير الكلامية التي تشكل لبنات أساسية في بناء صفة الكاريزما، وهي: المحاكاة (التقليد اللاشعوري للغة الجسد كتبادل الابتسامات والإيماء بالرأس)، ومستويات مرتفعة من النشاط مما يوحي بالاهتمام والحماس، والاتساق والانسيابية في الحديث والحركات، والقدرة على جعل الآخرين يقلدون الأنماط الكلامية للكاريزمية لاشعورياً.

ويعد ماكس فيبر (Weber Max) أول من أعطى مصطلح الكاريزما صبغة سياسية، عندما استخدمه للإشارة إلى القدرة التي يتمتع بها المرء للتأثير في الآخرين إلى الحد الذي يجعله في مركز قوة بالنسبة لهم، وبحيث يمنحه الواقعون تحت تأثيره حقوقاً تسلطية عليهم كنتيجة لقدرة التأثيرية هذه. فهلا فكر المرء في اكتساب الكاريزمية بصورتها الإيجابية..! [٣: ص ٢٨]

إن التعرف على المهارات العقلية الأساسية لإنجاز الأعمال يعد نقطة البداية على طريق النجاح بإدارة الذات. وعلى كل امرئ أن يعي تلك المهارات تماماً، وأن يتأكد من تمتلها في كل الأوقات وكافة الظروف. فهل فكر الإنسان بالكاريزما كتركيب مفاهيمي يشير إلى القدرة على التأثير في الآخرين إيجابياً، وعلى الارتباط بهم عاطفياً وثقافياً؟

إن كل ما ذكر عن الكاريزما يهدف إلى إزالة اللبس عن كل ما يمكن أن يختلط معناه بالعبقرية. فيقترب المرء من صفة الكاريزمية، التي تعتبر هبة إلهية، كلما جمع نسباً أعلى من العناصر التسع الآتية، ومارسها بإتقان، وخبرها بجدية واهتمام: عدم تقليد الآخرين إلا في تعلم اللغة، والثقة المطلقة بالنفس، والاسترخاء، واستشعار العواطف، والتزامن والتوافق بين لغة الجسم ولغة الكلام، والتفكير والتدبر قبل الاندفاع والتكلم، والتحدث بثقة واقتناع، والتعامل مع الناس كما يحبون أن يعاملوا، والصبر.

وقال آخرون أن هناك سمات أو مهارات ضرورية للاتصاف بالكاريزمية، وهي القدرة على التعبير العاطفي، والحماس، والبلاغة، والثقة في النفس، والرؤية، وسرعة الاستجابة للآخرين. ومن المهم الموازنة بين هذه العناصر. فقد يؤدي فرط التعبير العاطفي مثلاً إلى الانتقاص من الكاريزما الشخصية. ويعد مقياس كونجر وكانونجو (Conger & Kanungo) للقيادة الكاريزمية أحد المقاييس الأكثر شيوعاً، والتي تتصف بال موضوعية والثبات. يتكون المقياس

من عشرين بنداً، ويهدف إلى تقييم نقاط القوة في خمسة جوانب، وهي: الرؤية، وسرعة الاستجابة للآخرين، وسرعة الاستجابة للفرص، والإقدام على مواجهة المخاطر، واتباع طرق غير تقليدية للمواجهة. [١٩: ص ٣٥].

وهناك أربعة أنماط من الإشارات الاجتماعية غير الكلامية التي تشكل لبنات أساسية في بناء صفة الكاريزما، وهي المحاكاة (التقليد اللاشعوري للغة الجسد كتبادل الابتسامات والإيماء بالرأس)، والمستويات المرتفعة من النشاط مما يوحي بالاهتمام والحماس، والاتساق والانسيابية في الحديث والحركات، والقدرة على جعل الآخرين يقلدون الأنماط الكلامية للكاريزمية لاشعورياً.

الفلسطينيون في الشتات: نماذج نبوغ وعبقرية

كانت نكبة فلسطين عاملاً أساسياً في تطور دول الجوار كالأردن وسوريا ولبنان ومصر والعراق. وكذلك الحال بالنسبة لكافة أقطار العالم، حيث ينعم الفرد الفلسطيني بقدر من الحرية الخارجية. فلا يوجد بلد في العالم إلا وبها فلسطيني بارز في المجتمع الذي يعيش فيه. فمنهم من صار رئيس جمهورية ورئيس وزراء. والشواهد لا تحفى على أحد. وفي المجال الفني، نبغ من الفلسطينيين المرتحلين في الشتات الآتية أسماؤهم:

من الفنانين المصريين: حسن عابدين، وعمر الشريف، وسليم سحاب، ونجوي فؤاد، وطارق العريان، وعبدالسلام النابلسي، وبدر الدين جمجوم، وهالة صدقي، وعمرو دياب، وغسان مطر، ونادية لطفي، وصفية العمري، وخالد سليم.

ومن الفنانين السوريين: نادين سلامة، ونسرين طافش، وزيناتي قدسية، وشكران مرتجي، ولينا حوارنة، وروعة السعدي، واناheid فياض، وباسل الخطيب، وعبد المنعم عمائري، وباسم ياخور، وجمال سليمان.

ومن الفنانين الاردنيين: ديانا كرزون، ورائيا الكردي، وميس حمدان، ونادرة عمران، وعبير عيسي، ولارا الصفدي، وجوليت عواد، وطوني قطان.

ومن الفنانين اللبنانيين: ماجدة الرمي، وفيروز، وفضل شاكر.

لكن أثر عامل العبقرية الفلسطينية كان بارزاً في اقتصاد دول الجوار، كلبان ومصر وسوريا والعراق والأردن ودول الخليج العربي. ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

لبنان:

في ١٦ أكتوبر عام ٢٠١١، نشرت جريدة السفير اللبنانية مقالاً بعنوان الفلسطينيون جوهرة الشرق الأوسط، وجاء فيه: لا يتخيل الكثير من الناس حجم الدور الذي لعبه الفلسطينيون في اقتصاد لبنان. إن فلسطينيي لبنان في الإمارات يحولون سنويا إلى لبنان، وهذا بحسب جريدة الخليج، ما مقداره (٣٦٨) مليون دولار، وخريجو الجامعة الأمريكية في بيروت من الفلسطينيين إما يساوون أو يزيدون عن اللبنانيين. وعندما تدخل الجامعة، تجد قاعة طلال أبو غزالة، وقاعة حسيب صباغ، وقاعة كمال الشاعر. وجميعهم فلسطينيون ساهموا في بناء وتطوير الجامعة بتبرعات خاصة منهم. ومن الأسماء التي تنحدر من أصل فلسطيني في لبنان، وكان لها دور في تطوره ما يأتي:

يوسف بيدس (مؤسس بنك انترا وكازينو لبنان وطيران الشرق الأوسط وأستوديو بعلبك).

حسيب الصباغ وسعيد خوري (مؤسس شركة اتحاد المقاولين).

رفعت النمر (البنك الاتحادي العربي ثم بنك بيروت للتجارة وفيرست بنك انترناشونال).

باسم فارس وبدر الفاهوم (الشركة العربية للتأمين).

زهير العلمي (شركة خطيب وعلمي).

كمال الشاعر (دار الهندسة).

وريمون عودة (بنك عودة).

توفيق غرغور (وكيل مرسيدس وشركة ليسيكو ومشاريع تجارية أخرى كبيرة).

أول شركة لتوزيع الصحف والمطبوعات في لبنان أسسها فلسطيني هي شركة (فرج الله).

وأول سلسلة محلات لتجارة الألبسة الجاهزة هي (محلات عطا الله فريج)، وهو فلسطيني.

وأول الذين أسسوا محلات السوبر ماركت في بيروت هو السيد اودين ابيللا الفلسطيني،

وهو ذاته صاحب سلسلة المطاعم الشهيرة في مطار بيروت الدولي وكازينو لبنان.

وأول من أسس شركة لتدقيق الحسابات في لبنان هو فؤاد سابا وشريكه كريم خوري

الفلسطينيان.

وأول من بادر إلى إنشاء مباني الشقق المفروشة في لبنان هما الفرد سبتي وتيوفيل بوتاحي

الفلسطينيان، علاوة على عبد المحسن القطان ومحمود فستق وغيرهم الكثير.

واشتهرت، في البدايات الأولى بعد النكبة، بعض العائلات الفلسطينية التي كان لها شأن بارز

في تطوير بساتين الجنوب، مثل آل عطايا.

كما كان لليد العاملة الفلسطينية حضور في معامل جبر وغندور وعسيلي واليميني. ومن بين أساتذة الجامعات الفلسطينيين نقولا زيادة وبرهان الدجاني ونبيه أمين فارس وصلاح الدباغ ونبيل الدجاني ويوسف الشبل وجين مقدسي وريتا عوض وفكتور سحاب ويسرى جوهرية عرنيطة ورجا طنوس وسمير صيقللي ومحمود زايد وعصام مياسي وعصام عاشور وطريف الخالدي.

وبرز من بين الفنانين التشكيليين جوليانا سيرافيم وبول غيراغوسيان وناجي العلي وإبراهيم غنام وتوفيق عبد العال ومليحة أفنان وإسماعيل شموط ومحمد الشاعر وكميل حوا. وفي الصحافة ظهرت كوكبة من الفلسطينيين في لبنان كان لها شأن وأثر أمثال: غسان كنفاني ونبيل خوري ونايف شلاق وتوفيق صايغ وكنعان أبوخضرا وجهاد الخازن ونجيب عزام والياس نعواس وسمير صنبر والياس صنبر والياس سحاب وخازن عبود ومحمد العدناني وزهدي جار الله. وأول من وصل إلى القطب الجنوبي في بعثة علمية ورفع العلم اللبناني هناك هو الفلسطيني اللاجئ إلى لبنان جورج دوماني.

ومن رواد العمل السياحي في لبنان سامي كركبي، الفلسطيني الذي كان أول من جعل مغارة جعيتا على مثل هذا البهاء.

وأول من قاد طائرة جمبو في شركة طيران الشرق الأوسط هو حنا حوا الفلسطيني. ومن أوائل مؤسسي مراكز البحث العلمي في بيروت الفلسطيني وليد الخالدي. وفي مجال النقد الأدبي اشتهر الدكتور محمد يوسف نجم والدكتور إحسان عباس. ومن رواد العمل الإذاعي كامل قسطندي وغانم الدجاني وصبحي أبو لغد وناهدة فضلي الدجاني وعبد المجيد أبو لبن وشريف العلمي ورشاد البيبي. ومن رواد الفرق المسرحية الأستاذ صبري الشريف الذي كان له الفضل الكبير على الأخوين رحباني وعلى مهرجانات بعلبك. ومن رواد علم الآثار الحديث في الجامعات اللبنانية الفلسطيني ديمتري برامكي مدير متحف الجامعة الأمريكية. ومن رواد تدريس الرياضيات في لبنان كل من جميل علي وسالم خميس وعبد الملك الناشف ووصفي حجاب. وكان أحمد شفيق الخطيب وقسطنطين تيودوري رائدي العمل القاموسي، وسعيد الصباغ أول من تخصص في رسم الخرائط.. وأول من أطلق فكرة تأسيس مدارس تعليم اللغة الانجليزية كان الفلسطيني اميل اغابي وادي جمل. وأول رئيس عربي مقيم للجامعة الأمريكية هو الفلسطيني الدكتور إبراهيم السلطي. ومن رواد الموسيقى في لبنان الفلسطينيون فريد وحنا وريشارد السلفيتي وحليم الرومي وابنته ماجدة الرومي ورياض

البندك وسلفادور عرنيطة والفاريس بولس ثم سليم سحاب وعبد الكريم قزموز وعبود عبد العال ومحمد غازي. واشتهر في التربية قيصر حداد وصادق عمر وجورج شهلا. وأول فرقة للرقص الشعبي أسسها الفلسطينيان مروان جرار ووديعه حداد جرار. وأول من أسس الفرق الكورالية الموسيقية الفلسطينيان الفاريس بولس وسلفادور عرنيطة.

الكويت:

ساهم الفلسطينيون في النهضة التعليمية في الكويت منذ العام ١٩٣٦م. وكانت أول بعثة تعليمية في الكويت من المدرسين الفلسطينيين تتكون من أربعة معلمين وهم (أحمد شهاب الدين، وخميس نجم، ومحمد المغربي، وجابر حسن حديد)، وكان الضابط الفلسطيني خليل شحير هو الذي نظم جهاز الشرطة الحديث في الكويت قبل الاستقلال وبعده، وشقيقه جبرا شحير وفوزي الخضرا من مؤسسي الجيش الكويتي. والاخوان شحير أصولهم من آل شحير المسيحيين في غزة، وكان لهم بعد ذلك ذرية في الكويت ما زالت موجودة حتى اليوم، منها هاني شحير أشهر طبيب متخصص في القلب في الكويت، ومنهم سهيل خليل شحير سفير الكويت في سويسرا وعميد السفراء العرب هناك، وغيرهم الكثير من ذريتهم في الكويت في مواقع ومناصب متقدمة.

وكان الفلسطيني طلعت الغصين أول سفير كويتي في واشنطن، وكان حسن الدباغ الفلسطيني ايضا أول سفير كويتي في لندن، وبعد ذلك سفير الكويت في سويسرا. وكان أول مندوب كويتي في الامم المتحدة فلسطينيا، وكان الطبيب الشخصي للأسرة الحاكمة فلسطينيا، وهو ناظم الغبرا، وابنه شفيق الغبرا كان سفير الكويت في أمريكا. وكان الفلسطيني الأصل عدنان شهاب الدين- ابن المدرس أحمد شهاب الدين- ممثل الكويت في اوبك، وكان مؤخرا مرشح الكويت لرئاسة منظمة اوبك. وكان مدير مكتب الشيخ عبد الله السالم الصباح أمير الكويت السابق هو الفلسطيني هاني القدومي.

الإمارات العربية المتحدة:

الجالية الفلسطينية في الامارات من الجاليات المتميزة، حيث أن غالبية ابناء الجالية من المتعلمين، ومن ذوي الخبرات والكفاءات التي يعتد بها. وقد لعب الفلسطينيون دوراً كبيراً في بناء الدولة الاماراتية، حيث أن من وضع دستور دولة الإمارات عام ١٩٧١ هو الفلسطيني

عدي البيطار، ومن أسس القضاء في إمارة دبي هو تيسير النابلسي، ومن أسس جريدة البيان بتكليف من آل مكتوم هو إبراهيم سكجها، ومن أسس تلفزيون دبي هو رياض الشعبي، ومعظم مستشاري حكام الإمارات هم فلسطينيون منهم علي سبيل المثال، كل من إبراهيم العابد، وعزت الدجاني، وجهاد قزمار، ومحمد الموسى، وسمير الأنصاري. ونسبة كبيرة من شركات التطوير العقاري والمقاولات في الإمارات مملوكة لفلسطينيين أو من أصل فلسطيني، إما بشكل كلي أو جزئي، منهم علي سبيل المثال شركة تعمير سابقا ونوبلز حاليا، وبنيان لعبد الله عطاطرة، وأرابتك لرياض كمال، وشركة اتحاد المقاولين العالمية لسعيد خوري، وانتركتنتال للعقارات لوليد الملاحي، وخطيب وعلمي لزهير العلمي، والسفارييني للاستشارات الهندسية لعندان السفارييني، ويونك لعبد الحليم موحد، ودي للمقاولات لعبد الله اليبرودي، وديريك آند سكل إنترناشيونال لخلدون الطبري، ومجموعة سعد الخياط، والحبثور للمشاريع الهندسية لرياض الصادق بالمشاركة مع رجل الأعمال الإماراتي خلف الحبثور، وشركة مصانع الأصباغ الوطنية المحدودة لسليم الصايغ. وغيرهم الكثير ممن تبوأوا مراكز حساسة.

قطر:

كان الفلسطيني سعيد المسحال واحداً من أهم مؤسسي قطاع النفط القطري. وكان مستشاراً لأمير قطر الأب. كما أن عائلة أبو عيسى الفلسطينية الأصل، والتي تحمل الجنسية القطرية، واحدة من أكبر العائلات التجارية في قطر. ومنها عيسى أبو عيسى أمين رابطة رجال الأعمال القطريين. كما كان الفلسطينيان عدنان الشريف وأحمد الشولي من أهم مؤسسي قناة الجزيرة بتكليف من أمير قطر.

المملكة العربية السعودية:

كان الفلسطينيون في مقدمة من عمل في قطاع النفط السعودي، وقد طالب أول وزير نفط سعودي، وهو عبد الله الطريقي، بمنحهم الجنسية السعودية في أول اجتماع وزاري حضره في الرياض. ومن هؤلاء الأشخاص السادة خضر حرز الله، وفاروق الحسيني وجواد السقا وحسن تيم وعاطف سليمان. كما كان كثير من الفلسطينيين من مستشاري وأصدقاء ملوك وأمراء السعودية، ومنهم رشدي ملحس وجمال الحسيني وفوزي أبو خضرا وصبيح المصري.

وهناك الكثير من رجال الأعمال السعوديين الكبار الذين يتحدثون من أصل فلسطيني، ومنهم على سبيل المثال مجموعة شركات العجو لعبد الغني العجو، ومطاعم البيك لرامي أبو غزالة، ومجموعة شركات العقاد لعمر العقاد، ومجموعة شركات أسترا الصناعية الزراعية لصبيح المصري، وكثيرون غيرهم.

مملكة البحرين:

يقدر عدد البحرينيين من أصول فلسطينية اليوم بحوالي الألفين، وغالبيتهم قدموا إلى البحرين في منتصف القرن الماضي من أمثال عائلات حبيشي ودعيبس وعمر والصوير، وأخرى في أواخر الستينات ومطلع السبعينات، كعائلة عريقات والوعري وشناعة والبيتم وعدوان وحجازي وعجاوي واللبايدي. كما أن هناك الكثير من رجال الأعمال الفلسطينيين البارزين في البحرين، منهم أحمد العريان الذي يحمل الجنسية الأمريكية، وله كثير من المشاريع في البحرين كمطعم تياترو، ومجمع الدانة التجاري الذي يضم عدداً من دور العرض السينمائي.

الحرية المغيبة: القدس أيقونة العبقرية اليتيمة

لقد حقق الأدباء والمثقفون العرب عامة، والفلسطينيون خاصة، الخطوات العشر الأولى على طريق الحرية، وهي لازمة للإبداع والعبقرية. وتتمثل تلك الخطوات بالشعور بالألم والمعاناة نتيجة بذل الجهد لاكتشاف كنه الحرية للمرة الأولى، ومعارضة النظام، وتطوير قدرات التفكير، ورفض القهر والإكراه والتهديد بالعنف، والشعور بالسرور الناتج عن الإيمان بأن الإنسان حر بالفطرة، وزيادة القوة الذاتية، والإنتاجية باستخدام تقنيات الحرية، والانتفاع من الإنتاجية وتحقيق الكسب والنجاح، والقدرة على وقاية النفس من رموز السلب والنهب، والقدرة على تمييز الكلام المعسول والخدع السياسية. لكنهم لم يتمكنوا من اجتياز الخطوات السبع الأخرى، والمتمثلة بضمان التفوق على أعداء الحرية، والقدرة على إضعاف القوى السياسية تحقيقاً للسلام والازدهار، والقدرة على قلب النظام وإقامة مؤسسات بديلة، والاهتمام بالصحة الشخصية، والمحافظة على البقاء والتغلب على أسباب الاندثار، والنظرة الإيجابية للحياة، ونبذ كل مظاهر السوداوية، ومواجهة مواقف الانسحاب القسري، والنظرة المتجردة للأمور، والتركيز على الأهداف وطرق تحقيقها أي الإدارة بالأهداف. ويكمن

في ذلك اقتصارهم على المحلية دون العالمية. ومن فاز منهم بالتقدير العالمي قلة قليلة. ويشكك البعض في أهليتهم الحقيقية لذلك التقدير. وهناك لمز في دوافع إضفاء صفة العالمية عليهم.

وإذا كانت الحرية الخارجية مناطق تابو للفلسطينيين، فإنهم ينطلقون بما لديهم من حرية داخلية في سماء العبقرية الأدبية. ولن تتمكن سلطات الاحتلال من انتزاع تلك الحرية منهم، مهما اتبعت من استراتيجيات تعيق إبراز تجليات الإبداع لديهم.

الشعب الباسل

الشاعر الفلسطيني الشهيد عبدالرحيم محمود

شعب تَمَرَّس في الصُّعَاب ولم تَنْلُ منه الصُّعَاب
لو هَمَّه انتاب الهضاب لُدُكِدَتْ منه الهضاب
مُتَمَرِّدٌ لم يَرِضْ يَوْمًا أن يُقِرَّ على عذاب
وعُداته رَغْم الأنوف تَذُلُّلاً حَانُو الرِقَاب
مثلُ حِدا حادي الزمان به وناقلت الركاب
إِنْ تَجَهَّلَ العَجَبَ العُجَاب فإِنَّا العَجَبُ العُجَاب
نحن الألى هاب الوجود وليس فينا من يَهَاب
وَسَلِيَ الذي خَضَعَ الهِوَاءَ له وَذَلَّ له العُقَاب
هل لَانَ عُوْدُ قِنَاتِنَا؟ أم هل تَبَّتْ عند الصُّرَاب؟
أو شام عيبًا غير أنا ليس نرضى أن نُعَاب
حِيَّيْتِ من شعب تَخَلَّدَ ليس يعرفوه ذهاب
لَفَتَ الوري منكَ الرِّبِّيُّرُ مُرَجِرًا من حول غاب
وأرى العِدا ما أذهل الدنيا وشاب له العُرَابُ
عرف الطريق لِحَقِّهِ ومشى له الجَدَدُ الصواب
الحقُّ ليس براجع لذويه إلا بالجراب
والصرخة النكراء تجدي لا التلطف والعتاب
والنار تضمن والحديد لمن تساءل أن يُجَاب
حَكْمُهُمَا فيما تريد ففيهما قَصلُ الخطاب

الفصل السابع

تجليات العبقرية الفلسطينية في الأدب والفن

- معايير معمارية النص الأدبي الإبداعي
- طوبوغرافية الشعر العربي
- جدول تشريحي للعناصر الإبداعية في القصيدة العربية
- التفاعلات الشعرية تثوير جذري للفكر والعلاقة مع الآخر
- معمارية القصة والرواية والمسرحية
- الأسس النفسية لدراسة الإبداع الفني
- ميزان الإبداع الشعري
- أنماط شخصيات المقدسين ومدى تذوقهم للأدب والفن
- الفن التشكيلي الفلسطيني بين الأيديولوجية والتراث
- القدس أيقونة عبقرية الأدب والفن العربي الفلسطيني
- كلمات بالإزميل على سور القدس:
- الشاعر الفلسطيني أديب رفيق محمود



الفنان التشكيلي الفلسطيني زكي شقفة

الفصل السابع

تجليات العبقرية الفلسطينية في الأدب والفن

معمارية النص الأدبي الإبداعي:

يتصف الأدب الفلسطيني المعاصر بأنه مقاوم بامتياز، وبأنه يعبر عن روح الأمة، وقضاياها. وتحكم معمارية النص الإبداعي فيه خمسة معايير أساسية تبين مستويات الإبداع والعبقرية فيه [٢: ص ١٨٩ - ١٩٠].

أولها أن له رسالة تتجاوز حدودها إطار المستحيل، وفلسفة ينعكس استيعابها على هيئة جملة من الممارسات التي تتجذر في شخصية المتلقي، ورؤية شمولية تتمثل بجعل النفس الإنسانية أكثر هدوءاً وأمناً، والحياة أشد جاذبية وأكثر يسراً، وقواعد أخلاقية تمجد الصدق والجرأة والحرية وقبول الآخر، وأهدافاً إنسانية وروحية راسخة لا تتغير وفق بعدي الزمان والمكان.

وثانيها أن مواضيع النص الأدبي فيه تتخطى حدود التابو، إلى حد يجعل من تاريخ الأدب الفلسطيني سرداً لوقائع العصيان، ولقطات تصويرية للحظات غير المرئية لأفعال الثورة والتمرد، بحيث تخرج هيكليتها عن إطار محاكاة الطبيعة، وتصوير الأحداث المرئية.

وثالثها الحرص على التوافق بين النغم الخارجي المتوقّف في البيئة المحيطة من جهة، والنغم الداخلي للمتلقى من جهة أخرى. فانعدام ذلك التوافق يجعل المتلقي في حالة من الانفصال عن المجتمع، وحتى الانفصام في الشخصية. وذاك هو حال المتعصبين دينياً أو سياسياً. فهم لا يفهمون الوسط الذي يعيشون فيه، كما لا يفهم المجتمع سلوكهم الذي يعده نوعاً من الشذوذ. ويعود ذلك لانعدام التوافق بين البيئة الخارجية المحيطة بهم والوسط الداخلي الذي يعمّر فكرهم ودوافعهم واتجاهاتهم الانفعالية. فالعمل على إحداث التوافق ركنٌ أساسيٌّ للشخصية المتزنة، والمجتمع المتكافل متراض البنيان وغير المتشردم. وتعتبر الصحة النفسية والعافية الجسدية نتيجة حتمية للتوافق بين الأنغام الخارجية الموجودة في البيئة المحيطة والأنغام الداخلية عند المرء المتلقي. وذلك واحد من أبرز أهداف النص الأدبي.

ورابعها الابتعاد عن عبثية النص، على الرغم من أهمية الاستمتاع بالموسيقى الداخلية فيه، وما له من أثر في بث حالة من الاسترخاء، ونشر التخيل المشتت للأفكار السلبية، في مواجهة الحالة المرضية أو النفسية التي يحتمل أن يعاني المتلقي منها. فلا حاجة له في

أن يلوك قصيدة مدح أو هجاء، أو أن يردد قصيدة نزار قباني لوليتا مثلاً على النحو الغرائزي الذي يتلقاها به من هم في سن الشباب. ويخبو ذلك التأثير لدى بلوغ مراحل النضج الفكري، الذي يتسم بمعايير ثقافية أكثر صفاء، نتيجة التلاحح مع الثقافات العالمية الأخرى.

وخامسها محاولة إظهار المخفي، والحديث عن المحظور السياسي والاجتماعي والثقافي، على الرغم من صعوبة ذلك، أو استحالاته في بعض الظروف. فتلك سمة النصوص الأدبية التي تتجاوز حدود المحلية، وتخلق في آفاق العالمية، وتقرن الصمت بالموت والصخب بالحياة. لقد كان الالتزام بتلك المعايير سبيلاً لبلوغ أرنست همنغواي عالمية الأهداف في راعته الشيخ والبحر، حيث قدم رسالة فحواها أن الإنسان قد يقهر لكنه لا يدمر. كما شكل ذلك خارطة الطريق للوصول إلى مستوى العالمية عند كل من برنارد شو في مسرحية كانديدا ، وإبسن في بيت الدمية ، وغيرهم كثير. وفي الأدب العربي، كان ذلك شأن الأعمال الخالدة التي تناولت إشكاليات المجتمع العربي، وأخلاقيات أنظمة الحكم في الوطن العربي. ويذكر منها على سبيل المثال رواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ، حيث استعمل الرمز حاملاً لأفكاره. وأثرت أعمال الشاعر محمود درويش في الوعي العربي بشكل واضح، محدثة حراكاً اجتماعياً، وبخاصة ديوانه أحد عشر كوكباً، حيث قدم الفلسطيني برمزية، مشيراً إليه بأنه كالهندي الأحمر مرة أو كيوسف المضيع بين أخوانه مرة أخرى.

طوبوغرافية الشعر العربي:

لقد تزامن التحول من الحداثة إلى ما بعد الحداثة مع تحول آخر، وهو التحول من الحتمية القدرية الخطية لطبيعة الأمور (Linear/determinism) إلى حتمية فوضوية غير خطية أو لولبية (Non-Linear View) بالغة التعقيد. وتعني الحتمية القدرية أن الأحداث والممارسات التي وقعت في الماضي، وكذلك الخصائص الفيزيائية للبيئة والظروف المحيطة، تيسر استشراف ما يمكن أن يحدث بصورة رقمية تقريبية، يشوبها إحساس بعدم اليقين، بسبب ديناميكية عدم الاستقرار المقترن بالفوضى.

والواقع أن نظم طبيعة الأشياء تتوزع ضمن ثلاثة أمطاط تنعكس على النصوص الأدبية شكلاً ومضموناً، وذلك على النحو الآتي [٢: ص ١٨٠ - ١٨٣]:

- أولها نمط النظم البسيطة، التي يتبع فيها وصفات ومعادلات محددة. كأن تتم إنارة

مئات اللمبات في وقت واحد، وبكبسة واحدة مثلاً.
- وثانيها نظم مركبة يتبع فيها معادلات متعددة. فأسراب السمك مثلاً تسير وفق نظام محدد، تتبعه كل سمكة كمنهجية للحاق بالأسماك التي تتقدمها، ونظام آخر للحفاظ على بعد آمن من الأسماك حوالها.
- وثالثها نظم معقدة تتصف بعدم القدرة على توقع النتائج، نظراً للتأثر بمتغيرات متعددة ومتشابكة.

وحسب نظرية الفوضى، فإن النظم البسيطة قد تكون ذات نتائج معقدة، أو ما يطلق عليه أثر الفراشة (Butterfly Effect). ورفرفة جناح فراشة في البرازيل مثلاً وفق ذلك قد يحدث إعصاراً في تكساس، كما قال إدوارد لورنز (Edward Lorenz). وكلمة في مصر قد تحدث ثورة في تونس واليمن. وفي المقابل، قد يكون للعناصر المركبة تأثير بسيط. توصف نظرية الفوضى بأنها تتناول نظاماً يسمح للتغيرات البسيطة في الظروف العادية إحداث تأثيرات كبيرة. وتوصف نظرية التعقيد بأنها تتناول نظاماً فوضوياً غير خطي، ينتج من خلال عمليات التغذية الراجعة. تقول نظرية الفوضى أن النظام يكمن في رحم الفوضى. ومن المستحيل أن تساهم قوانين الفيزياء في استشراف أثر أي عمل أدبي بدقة متناهية، بل بصورة تقريبية غير دقيقة. فإذا كان متغيري الكاتب والمتلقي يتضمنان أربعة أمط للشخصية لكل منهما، حسب توزع نظرية ديفيد كيرسي وكيث جولاي، وكانت أمط الشعر موزعة ضمن ستة عشر بحراً، وكان للقصة والرواية والمسرحية ثلاث خصال وثمانية قوانين حاكمة تؤخذ كمتغيرات، فإن النتيجة تقضي بأن يؤخذ مائتين وستة وخمسين متغير لتحديد مدى أثر النص الشعري، وأكثر من ثلاثمائة وأربعة وخمسين متغير لقياس مدى أثر النص الروائي أو القصصي أو المسرحي. وذلك ليس بالأمر اليسير، إذ يستدعي شيئاً من التداخل المعرفي، واعتماد تطبيق رياضي خاص كنظريات الفوضى والتعقيد.

إن النظرة الطوبوغرافية للشعر العربي تبين أن الشعر عمل أدبي راقٍ، يشكّل تناغماً لغوياً بين الشكل والمضمون. أما الشكل أو الهيئة، فيعني الكلمات بما تتضمنه من وزن وقافية ومحسنات بديعية؛ وأما المضمون فهو الهدف من تنظيم الكلمات التي تتم صياغتها على ذلك النحو، ويتضمن على الأعم الأغلب نصحاً اجتماعياً، أو تشكيل فهم أعمق لقضايا الحياة، أو دعاء، أو طلب عون، أو تعبيراً عن الذات، أو وسيلة للعلاج النفسي. ويظنُّ ناظمو الشعر أن العمل الشعري يكتمل بمجرد ترتيب الكلمات، ومراعاة إيقاع الوزن والقافية.

وذلك فهمٌ خاطئٌ يجعل الشعر قاصراً عن بلوغ حد الأصالة والإبداع.^[٣: ١٠٧]

والواقع أن الشاعر يجهد عادة من أجل خلق تناغمٍ بين الصوت والمعنى، وصولاً لجرسٍ شعريٍّ، أو لونٍ صوتيٍّ مواتٍ للهدف من القصيدة. وإذا كان أثر الإيقاع (Rhythm) محصوراً في البعدين الجسدي والبيولوجي للإنسان، وكان أثر اللحن (Melody) تراكمياً يضيف البعدين العاطفي والنفسي إلى جانب البعدين الجسدي والبيولوجي، فإن للنغم (Harmony) أثراً على البعد الروحي، إلى جانب الأبعاد الجسدية والعاطفية والنفسية. فالتأثير إذن تراكميٌّ، ويوضّح العلاقة بين الإيقاع واللحن والنغم. ومن هنا الفرق بين ناظم الشعر ومبدعه. فالنغم أشمل أثراً من اللحن، واللحن أشمل من الإيقاع. فناظم الشعر يقصر اهتمامه بالإيقاع، أو التأثير في البعدين الجسدي والبيولوجي للإنسان. والمبدع يتجاوز ذلك إلى اللحن فيضم البعدين العاطفي والنفسي، وربما يتخطى ذلك إلى النغم المؤثر على البعد الروحي للمتلقي.

ولكل تفعيلة شعرية أهداف محددة يجب مراعاتها والاسترشاد بها، ليكون الشعر أكثر تأثيراً كأداة تغيير. فترتبط كل تفعيلة بطاقات إنسانية محددة دون غيرها، ويكون لها آثار ودروس معروفة سلفاً. وتُصنّف بحور الشعر في العربية وفق عدد تفعيلاتها ضمن ثلاث فئات، وذلك وفق الآتي [٣: ص ١٨٩]:

- الفئة الأولى بحور شعر مؤلفة من أربع تفعيلات، (وعدها أربعة بحور)، وهي: الهزج، والمضارع، والمجتث، والمقتضب. ومن أهدافها تقريب الفرد من الشخصيات المتسمة بالخلود، وتعزيز قوى التناغم والتوازن في الذات الإنسانية، وزيادة القدرة على البناء بصبر ومثابرة، والتعبير عن ضيق الأفق، والتضامن مع الآخر، ومحاولة تكثيف الطاقات، والإشارة إلى محاولة التعلم من شتى المواقف.

- الفئة الثانية بحور شعر مؤلفة من ست تفعيلات (وعدها ثمانية بحور)، وهي: الرمل، والرجز، والمديد، والخفيف، والسريع، والمنسرح، والوافر، والكامل. ويهدف هذا النمط من بحور الشعر إلى تقريب الفرد من الطاقات الأنثوية الأمومية والإبداعية في الطبيعة، وتحفيز الطاقات على كافة المستويات، وهو بحر معالج للذات. ويستخدم للتعبير عن تحمل المسؤولية، والتعبير عن الدروس المقلقة والساخرة.

- الفئة الثالثة بحور شعر مؤلفة من ثماني تفعيلات (وعدها أربعة بحور)، وهي: الطويل، والبسيط، والمتدارك، والمتقارب. ومن أهداف هذا النمط من بحور الشعر تقريب الفرد

من الطاقات الإلهية التي شكلت الخليقة، وتوحيد الطاقات الجسدية للفرد مع الطاقات الروحية لديه، وتقديم دروس عن السلطة واللامبالاة، وإيقاظ القدرة على الحكم السليم للشخصية والسلوك.

جدول تشرحي للعناصر الإبداعية في القصيدة العربية:

لعل مما يدعو للتأمل والدراسة ما ورد من دراسة إحصائية للأشعار الواردة في كتاب (معجم البلدان) للوقوف على أكثر بحور الشعر استعمالاً في صناعة الشعر أو نظمه. فقد تبين منها أن نسبة أتباع الشعراء القدامى لكل واحد من بحور الشعر كانت كما يأتي:

[٢: ص ١٩٥]

البحر الطويل	٤٤,٨١٪ (وهو الأكثر استخداماً)
البحر الوافر	١٣,٢١٪
البحر البسيط	١١,٩٥٪
البحر الكامل	١١,٦٩٪
البحر الخفيف	٤,٩٨٪
بحر الرجز	٤,٣٩٪

ولم يرد في تلك الدراسة أي ذكر للبحر المضارع و البحر المقتضب. أما بحر المتدارك، فقد أنكره الخليل بن أحمد، بينما أثبتته الأخصش لوجود بعض الشواهد عليه. وأما أصناف بحور الشعر الأخرى (ذوات التفعيلة الواحدة والتفعلتان والثلاث تفعيلات والخمس تفعيلات والسبع تفعيلات والتسع تفعيلات)، فهي غير موجودة في الشعر العربي العمودي. وقد تكون موجودة في الشعر الحديث.

ويشير ذلك إلى أن أكثر من نصف الشعر العربي القديم من البحر الطويل والبسيط، ونسبتهما (٥٦,٨٪) من الشعر العربي القديم. وفي ذلك دلالة على أن استخدام البحور ذات الثماني تفعيلات تعبير عن ثقل الزمن في حياة الإنسان البدوي البعيد عن كل أشكال الرخاء والمدنية.

أما البحر الكامل والرجز والخفيف، وهم من ست تفعيلات ويشكلون ما نسبته (٢١,١٪) من الشعر العربي القديم، فتدل البحور على تقريب الفرد من الطاقات الأنتوية الأمومية والإبداعية في الطبيعة، وتحفيز الطاقات على كافة المستويات. وتقوم بحور الشعر المكونة

من ست تفعيلات معالجة الذات، وتعبير عن تحمل المسؤولية، وعن الدروس المقلقة والساخرة. ولعل لذلك كله انعكاسات إيجابية على النقد الأدبي الحديث. وأما بحور الفئة الأولى المؤلفة من أربع تفعيلات، وهي الهزج والمضارع والمجتث والمقتضب، فليس لها نصيب في الشعر العربي القديم. ويعني ذلك أن أهداف تقريب الفرد من الشخصيات المثسمة بالخلود، وتعزيز قوى التناغم والتوازن في الذات الإنسانية، وزيادة القدرة على البناء بصبر ومثابرة، والتعبير عن ضيق الأفق، والتضامن مع الآخر، ومحاولة تكثيف الطاقات، والإشارة إلى محاولة التعلم من شتى المواقف، لم تكن مطروقة في ذلك الشعر. [ص: ٢، ١٩٥].

واستناداً إلى تركيز فرويد على أهمية مضمون العمل الفني، وتأكيد إيرنزفانج على أهمية الشكل الفني، وإصرار يونج على أهمية الجوانب الاجتماعية والثقافية والحضارية في العمل الفني، قام الدكتور مصري عبد الحميد حنورة بإجراء دراسة بعنوان الدراسة النفسية للإبداع الفني: منهج وتطبيق، وحاول فيها تطبيق المنهج النفسي على قصيدة صلاح عبدالصبور شفق زهران، وذلك بإحصاء عدد الأبعاد النفسية التي ظهرت في هذا العمل الإبداعي، وهي:

- الطلاقة: وذلك من خلال احصاء الصور التي تضمنتها القصيدة.
- المرونة: وذلك بإحصاء النقلات والتنوعات التي ميزت النشاط الإبداعي.
- الأصالة: وذلك من خلال دراسة الصور الشعرية التي وردت في القصيدة.
- القدرة على التوسع: وذلك بمتابعة المبدع وهو يتنقل من حركة إلى أخرى في وحدات القصيدة المختلفة، وكذلك بمتابعة فكرة القصيدة وقيام المبدع باجتياز ما يعترضه من عقبات.
- التشكيل والزخرفة: وذلك بالكشف عن الجوانب الجمالية في القصيدة خاصة البعد التشكيلي والتراكيب المفضلة لدى المبدع، وكذلك الكشف عن الدوافع والقيم الشخصية والاجتماعية التي تبناها الشاعر.

وبدفع ذلك إلى التفكير باعتماد المنهج الموضوعي النفسي في قياس الإبداع في العمل الفني، وتطوير المقياس الموضوعي الذي طوره الدكتور مصري حنورة، وهو في جملته مشتق من المقاييس الأساسية التي طورها تورانس وجيلفورد وغيرهما. وبتطبيق الإحصاء الذي أجراه الدكتور مصري حنورة للصور الشعرية والتراكيب التشكيلية في قصيدة صلاح عبد الصبور

- (سبق زهران)، فقد أجري إحصاء لهذه الصور والتراكيب في مقاطع مختارة من قصيدة محمود درويش (خطبة الهندي الأحمر الأخيرة) كنموذج للشعر الفلسطيني الحديث، فكانت على النحو المبين في الجدول رقم (٧)، والمثبت في نهاية الفصل السابع.
- الكناية: جرس الليل، طيش غزلاننا، طين فخارنا، سيد البيض، وطن الطري، زهرة القبر، الفراشات الميتين ورق الحور، تركهم بنادقهم، المضيقين.
 - الاستعارة التصريحية: تبزغ الشمبانيا، يربون وحش الحضارات.
 - الاستعارة المكنية: عن شجر ترتديه، جناح الأغاني، يحموا الأرض، ايدولوجيا الجنون، سرب من البشر، ثقب الغيوم، كلام النجوم، تقول الأرض الحقيقة، يضيئون ليل الفراشات.
 - الصوت واللون والحركة: يضيئون، سندافع، قطعة الفحم، هاوية، يرون فوق الجسور، جرس الليل، يموت مدمج بالطائرات، سنهرب، سرب من البشر، الحصار، تهدمون، يقرأوا شروط السلام.
 - الرمز: قطعة الفحم، الشمبانيا، فاتركا ضيوف المكان.
- إن اعتماد مثل هذا الجدول التثريحي للعناصر الإبداعية في أية قصيدة يبسر إمكانية تلمس نواحي الإبداع فيها، ويوفر مقياساً مقنناً لسبر درجات الإبداع في الأعمال الفنية الأدبية. ويحدّ بذلك من الانفلات الواضح في إضفاء صفة الإبداع على كثير من الأعمال لمجرد احتوائها على زخم من صور البيان المتداولة، دون الأخذ بالاعتبار معايير النشاط الإبداعي، ومواصفات الشخصية المبدعة، والأساسيات الأيدولوجية للفن بشكل عام، والأدب بشكل خاص. وقد اعتمد الجدول التثريحي أبعاد التقييم الآتية [١: ص ١٣٦]:
- الطلاقة (طلاقة الأشكال، الرموز، والمعاني والأفكار، والطلاقة التعبيرية، وطلاقة التداعي).
 - الأصالة (عدد الصور الأصلية التي لم يسبق استخدامها أو التي لم يطرّفها أكثر من ٥% من الأدباء السابقين). ويقتضي ذلك بالطبع ان يكون الناقد مستنداً إلى معرفة واسعة سابقة.
 - المرونة (عدد مرات التنوع في الصور الحياتية والميكانيكية والزخرافية).
 - القدرة على التوسع ومواصلة الاتجاه (من النواحي التاريخية، والإدراكية، والخيالية، والمنطقية والايقاعية، والجسمية).
 - الأبعاد الجمالية (بما في ذلك التشكيل والزخرافية).
 - القدرة على الإحساس بالمسائل والقضايا (بما في ذلك البطانات الاجتماعية).
- فإذا أعطيت هذه الأبعاد أوزان التقييم في العمل الأدبي ذاتها، وبخاصة الشعري منها، وذلك

بإيجاد درجة كثافة كل بند بالنسبة للعدد الكلي للسطور في القصيدة مثلاً، فإنه يصبح بالإمكان الوقوف على النسبة المئوية لمستوى الإبداع في القصيدة، وبالتالي يمكن تصنيف العمل الأدبي إبداعياً.

وتجدر الإشارة إلى أن عدداً كبيراً من الشعراء تأملوا في تجاربهم الشعرية، وحاولوا وضع تصورات على شكل نظريات متكاملة في الشعر، لكنهم بعد ذلك أنكروا أن لديهم نظرية في الشعر. فنزار قباني يقول أن الشاعر الذي يدعي أنه يعرف كيف تتحرك المياه في عوامه النفسية يجهل حقيقة العمل الإبداعي الشعري. ويضيف أن الشعر ضرب من فن العمارة في مجال اللغة، لكنه في الوقت نفسه ضرب من الرقص بالكلمات، وهو رقص يحرك كل جوانب النفس وخلجاتها الإرادية واللاإرادية. والشعر عنده، فضلاً عن ذلك خطاب موجه إلى جهة ما، والمرسل إليه عنصر هام في كل قصيدة، وإلا تحول الشعر إلى أجراس تقرع في فراغ. ويستخلص من ذلك كله أنه يجب أن لا يتم النظر إلى العمل الإبداعي كمسألة رياضية. فالجدول التشرحي الذي تم شرحه يتعامل مع العمل الإبداعي الشعري كبناء معماري مادته الكلمات، ولا يأخذ بعين الاعتبار دوافع المتلقي وقدراته ضمن ظروفه الزمانية والمكانية. وتبقى فائدة الجدول التشرحي وصفية، مقتصرة على تحديد الملامح الأساسية للنتاج الإبداعي، وتحديد مدى كثافتها في أي عمل إبداعي.

وهناك أسئلة محورية تفرض نفسها في النقد الأدبي المعاصر، منها كيفية توظيف الصيغ الأدبية العربية كافة مظاهر التغيير البسيطة التي تعرض عناصرها لإحداث تأثيرات إيجابية كبيرة، وكيفية ظهور الاتساق في أجواء الفوضى العارمة ظاهرياً في الأعمال الأدبية، والطوبوغرافية الفضلى التي تنمي ملامح الاتساق في النص الأدبي، وتمنع حدوث الفوضى فيه.

التفاعلات الشعرية تثويرٌ جذريٌّ للفكر والعلاقة مع الآخر:

يَجهد الشاعر عادة من أجل خلق تناغمٍ بين الصوت والمعنى، وصولاً لجرسٍ شعريٍّ، أو لَوْنٍ صوتيٍّ مواتٍ للهدف من القصيدة. وإذا كان أثر الإيقاع (Rhythm) محصوراً في البعدين الجسدي والبيولوجي للإنسان، وكان أثر اللحن (Melody) تراكمياً يضيف البعدين العاطفي والنفسي إلى جانب البعد الجسدي، فإن للنغم (Harmony) أثراً على البعد الروحي، إلى جانب الأبعاد الجسدية والعاطفية والنفسية. فالتأثير تراكميٌّ، ويوضِّح العلاقة بين الإيقاع

واللحن والنغم. ومن هنا الفرق بين ناظم الشعر ومبدعه. ويجري ذلك من خلال اللعب بالكلمات بتقنيات شتى، ومحسنات بديعية مختلفة، يُذكر منها ما يأتي^[٢]:

- الجناس أو تكرار الحروف، ويُستخدم لتفعيل المؤثرات الروحية؛
- الجناس الناقص أو تشكيل الكلمات بتغيير مواقع الحروف. وتستخدم لتضمين رسائل الحب ضمن كلمات تبدو بسيطة وغير موحية؛
- الإعادة والتكرار، إذ تزايد الطاقة مع كل تكرار، وتتجمع لتقوي الأعضاء على أداء المهام المرغوبة؛
- السجع في قوافي السطور الشعرية وأواسطها. ومن أبرز مهامها تعزيز مراكز الطاقة المحددة كما هو متضمن في القصيدة؛
- تغيير مواقع الكلمات في الجملة الشعرية الواحدة، وذلك بهدف التأثير على الجوانب العاطفية والروحية للمتلقي وتحقيق الأهداف المتوخاة من القصيدة.

وبالمناسبة، فإن من الخطأ الاعتقاد بأن القافية تقتصر على التناغم بين الكلمات الواقعة في أواخر الأسطر الشعرية. فالحقيقة أن القافية قد تأتي في صدر السطر الشعري، أو في وسطه أيضاً. والقافية الواقعة في بداية الأسطر الشعرية وأواسطها أصعب تشكيلاً، وأكثر وقعاً وتأثيراً سحرياً في المتلقي: فالأولى (القافية في بداية السطر الشعري) تحفز الطاقات المواتية لأهداف القصيدة، والثانية (القافية في وسط السطر الشعري) أقدر على النفاذ إلى ذات كل واحد من المتلقين.

إن لكل واحدة من تفعيلات الشعر العربي أهدافاً محددة يجب مراعاتها والاسترشاد بها، ليكون أكثر تأثيراً كأداة تغيير. فترتبط كل واحدة من التفعيلات بطاقات إنسانية محددة، ولها أثار معروفة سلفاً. وإجمال ذلك على النحو المبين في الجدول رقم (٥) [ص ١٤٤].

الجدول رقم (٥) الهدف من استخدام الأسطر الشعرية في القصيدة

عدد تفعيلات السطر الشعري	الهدف من استخدام السطر الشعري
١	تحفيز الطاقات الذكورية، والقدرة على المبادرة، والإبداع، والأصالة، والاستقلالية، والبحث عن إجابات شافية لقضايا الحياة، وتقوية الإرادة والثقة بالنفس، وزيادة التمرکز حول الذات.
٢	تحفيز الطاقات الأنثوية المبدعة، وجوانب التعاون واللفظ والحساسية، والاهتمام بالجوانب العاطفية، والتركيز على التفاصيل. وهو دليل التردد.
٣	تقريب الفرد من القديسين، وتحفيز الطاقات الفنية والإبداع، وتقديم دروس في الكبت والضياع والتفاؤل، والتعبير عن الخير والشر، والعمل على إيقاظ الروحانية والطفولية المتجذرة في النفس.
٤	تقريب الفرد من الشخصيات المتسمة بالخلود، وتعزيز قوى التناغم والتوازن في الذات الإنسانية، وزيادة القدرة على البناء بصر ومثابرة، والتعبير عن ضيق الأفق، والتضامن مع الآخر، ومحاولة تكثيف الطاقات.
٥	تقريب الفرد من الطبيعة، والعمل على إيقاظ الجانب الروحي عند الإنسان، وتناول دروس التحرر والمغامرة، والتعبير عن وضع القوانين ومقاومة التغيير، والتحرر من المحددات أيّاً كانت، والتعبير عن القوى النفسية.
٦	تحفيز الطاقات الأنثوية والإبداعية في الطبيعة، والطاقات بكافة مستوياتها. وهو معالج للذات، ويفيد قي التعبير عن تحمل المسؤولية، وفي التعبير عن الدروس المقلقة والساخرة.
٧	تحفيز طاقات الناس جميعاً، وعلى مختلف المستويات والصعد، وتمثيل إيقاع الحدس القوي والشافي لكل النظم، والتعبير عن دروس المعرفة والحكمة والإحساس بالذات والنقد والحزن والشعور بالدونية.
٨	تقريب الفرد من الطاقات الإلهية، وتوحيد الطاقات المادية للفرد مع طاقاته الروحية، وتقديم دروس عن السلطة واللامبالاة، وإيقاظ القدرة على الحكم السليم للشخصية.
٩	تحفيز جميع الطاقات والخبرات، وهي تفعيلة التراحم والقوى الآنية العابرة في الكون، والتعبير عن دروس التشاؤم واللامبالاة والشعور بالإهانة والحساسية.

تعتبر النظرية البنيوية، التي تبناها الدكتور كمال أبو ديب في كتابه جدلية الخفاء والتجلي، منهجاً في النقد الثقافي ومعاينة الوجود. ولذا فإنها تنويرٌ جذريٌّ للفكر وعلاقته بالعالم. وبطبيعة الحال، لا تُغيّر البنيوية اللغة أو الشعر. لكن صرامتها وإصرارها على الإدراك متعدد الأبعاد، والغوص على المكونات الفعلية للشيء، والعلاقات التي تنشأ بين هذه المكونات، تغيّر طبيعة الفكر المعايين للغة والشعر، وتحوّله إلى فكر متسائل وقلق ومتوثب ومتقصّ وجدليّ وشموليّ في رهافته واكتمال الإبداع فيه. ويدعو ذلك كلّه إلى الاهتمام بوظيفية الصوت. فصوت حرف السين وتحويراته (أي الصاد والشين) مثلاً يدلّ على صدق العاطفة، كما قال كثير من علماء اللسانيات في الشرق والغرب. وقبل كل هؤلاء، أقرر أن تلك حقيقة عامة تجاوزت إطار النظرية، لأنها من صور إعجاز القرآن الكريم. فالحقيقة أن صوت حرف السين (Ssss) يفيد في معالجة حالات الاكتئاب، كما يفيد صوت حرف الشين (Shhh) في معالجة حالات الغضب. [٢٦ ص ٤٦].

إن عدد التفعيلات في السطر الشعري، ونوع البحر المعتمد في القصيدة يدلّ على هدفيّة الشعر، ومدى صدق عاطفة الشاعر، حتى ولو كان مطبوعاً يقول الشعر بالسليقة، ولا يعي مثل تلك الغيات المتضمنة في بحور الشعر. ولكن يقتضي التنويه إلى أنه لا يمكن للشاعر أن يحدّد هدفه مسبقاً، ومن ثم يختار بحر الشعر الذي يتبناه في نظمه للشعر، قبل أن يبدأ بنظم القصيدة. فتلك صناعة ناظمي الشعر، وليست من ممارسات الشعراء المبدعين. لكنه يمكن الاستنتاج أن البحر الطويل يمثّل (٤٤,٨٪) من الشعر العربي القديم. وبالتالي، فإنه يمكن الاستدلال على أن من أهم مقاصد الشعر العربي القديم تقريب الفرد من الطاقات الروحية، ودمج تلك الطاقات بما يكون لدى المرء من طاقات مادية، فضلاً عن تقديم دروس في القدرة على الحكم السليم في مجالات الشخصية والسلوك.

إن موضوع هدفيّة بحور الشعر مجال علمي جديد في الأدب العربي، ويجب الاهتمام به وتوطينه. ولا أظن أن أحداً من الشعراء القدامى الذين قالوا الشعر بالسليقة قد فطن لذلك، أو أدرك ذلك تماماً، وأرجو أن يستفيد الشعراء المحدثون من هذا الموضوع، وأن يوظفوه في أعمالهم، وأن يكون واحداً من أسس النقد الأدبي الحديث.

تشكل الأغنية الشعبية واحداً من أشكال المقاومة للاحتلال. وما تعرض له الفلسطينيون من تنكيل وتشريد وسجن وهدم بيوت ينعكس على كلمات الأغنية ولحنها، حيث ترفض الأغنية هذا الظلم وتقاومه، كما تستجيب لتطورات الواقع الاقتصادي والسياسي

والاجتماعي. فالموال، وهو أشهر أنماط الأغنية الفلسطينية، يمزج بين الأرض والحب والمرأة بصورة يمتزج فيها الوجد مع الأمل.

وشاركت الأغنية الشعبية الفلسطينية في تجسيد صور المعاناة الشعبية، كما ساهمت في توثيق الأحداث التاريخية. ويمكن إبراز خمسة من الأغراض للشعر الشعبي الفلسطيني، وذلك على النحو الآتي:

- إطار أغنية ظريف الطول: تناول العشق والجمال ووصف المحبوب.
- إطار أغاني مشعل : موضوعها الحنين واللوعة.
- إطار أغنية الميحنة: التعبير عن آلام الشعب وآماله.
- إطار أغنية الدلعونا: تناول الموضوعات النضالية والوصفية، بالإضافة إلى التعبير عن الشوق والحنين.
- إطار أغنية الجفرا: اللحن الوطني المقاوم، والتعبير عن الارتباط بالأرض والصمود فيها.

معمارية القصة والرواية والمسرحية:

تتصف القصة والرواية والمسرحية بثلاث خصال أساسية، وهي:

- العالمية، أو العمومية (Universality)، بمعنى أن تكون القصة المتضمنة مهمة وذات مغزى بالنسبة لكافة الناس، أي أن يكون لها إحياءات لدى غالبية المتلقين، وأن يكون لها ارتباطات واضحة المعالم بخبراتهم الحياتية.

- والفردية (Individuality): ويعني ذلك تذويت القصة المتضمنة، وجعلها جزءاً من ذات المتلقي، ليتماهى مع إحدى الشخصيات الواردة في العمل الأدبي. وتبدو القصة ذاتها كما لو كانت أصيلة، وتُروى لأول مرة، وتُحدث الأثر المرغوب في كافة المتلقين سواء عن طريق الاستماع أو القراءة.

- والقدرة على الإحياء (Suggestion): ويعني ذلك أن تكون القصة المتضمنة محفزة للتغيير المرغوب والمنشود. فيجد كل متلق ذاته في إحدى الشخصيات الواردة في العمل الأدبي، ويطبّق ما يرد فيه على شؤون حياته الخاصة.

وقد صاغ ألكس أولريك (Alex Olrick) سبعة قوانين تُعتمد أساساً في صياغة القصة والرواية والمسرحية بشكل عام، لتكون أكثر دينامية وتأثيراً. وهي على النحو المبين في الجدول رقم (٦).

الجدول رقم (٦)

قوانين صياغة القصة والرواية والمسرحية

القانون	التفصيل
قانون المقدمة أو الافتتاحية (Law of Opening)	يبدأ السرد بما يجذب الانتباه كإشعال شمعة، أو قنديل، أو غليون، أو سيجارة. وتكون الحركة عادة من أجواء الهدوء إلى الإثارة والصخب. ولا تتم البداية بحدث مفاجئ أو غير متوقع.
قانون النهاية أو الخاتمة (Law of Closing)	الخاتمة لا تكون مفاجئة. ويجري التحول من حالات الإثارة والصخب إلى السكينة والهدوء، ويحدّد استخدام الملحّة والنكته والقول المأثور والخاتمة النمطية المتعارف عليها.
قانون التكرار (Law of Repetition)	الهدف من التكرار توكيد المعاني والمحتوى. ويكون التكرار في العادة ثلاث مرات، لما للرقم ثلاثة من أثر في إيقاظ الطفل الراكد في أعماق كل منا. وفي الصلاة يجري تكرار التسبيح بحمد الله ثلاثاً، مثلما يكرّر في الطلاق النطق بكلمة الطلاق ثلاثاً، وهكذا.
قانون الثلاثية (Law of Three)	يكون الإيقاع ثلاثياً في القصص السامية والإغريقية (أما في الهندية فرباعياً)، وذلك كما في أعمال السحر والخرافات والتماثم. وهناك ثلاثة من الشخصيات، وثلاثة من الأزمنة، وثلاثة من الأشياء.
قانون التضاد أو الإثنين Law of Contrast or (Two	يكون في المشهد الواحد اثنان من الشخصيات من غمطين متباينين: رجل وامرأة، أو شخص مسنّ وطفل، أو امرؤ كبير وآخر صغير، أو غني وفقير. أما الشخصيات الأخرى فهي ثانوية ومجرد مشاهدين متفرجين لا أكثر.
قانون المنطق (Law of Logic)	لكل قصة أو رواية أو مسرحية مغزى ينطبق على الحياة الواقعية، أو المتخيلة في عالم الأرواح. وعلى الكاتب أن يعمل على الربط بين العالمين المادي والروحي بشكل يقبله المتلقون.
قانون الجنوح الفردي Law of a Single (Strand	على الكاتب أن يتجنّب القيام بتعبئة الفراغ الزمني بين الأحداث بتقديم وصف للخلفيات والمواقع، بل يدعها تتدفق ضمن السرد، لترسم الصورة الكلية بصورة تلقائية.

ويمكن أن يُضاف إلى قوانين ألكس أولرك سابقة الذكر قانوناً ثامناً، هو تعمّد الإغراق في الخيال المنطلق، واستخدام الرمز المرتبط بأحداث القصة أو الرواية أو المسرحية، إلى حد تخيل الذات كواحد من شخصياتها. كما يمكن القول أنه كلما درس الكاتب عناصر العمل الأدبي وأحداثه، وفهم الرموز المرتبطة به، صار أقدر على التأثير السحري على جمهور المتلقين.

لقد ركز فرويد على أهمية مضمون العمل الفني. وأصر يونج على أهمية الجوانب الاجتماعية والثقافية فيه. وأكد إيرنزفاتج أهمية الشكل الفني. وبناء على كل ذلك، جرت محاولات لتطبيق المنهج النفسي في دراسة الإبداع الأدبي، وذلك بإحصاء عدد من الأبعاد النفسية التي تظهر في العمل الأدبي، كالطلاقة والمرونة والأصالة والقدرة على التوسع والتشكيل والزخرفة والقدرة على الإحساس بالقضايا والسياقات الاجتماعية. وقد تم استعراض ذلك في كتابي تجليات الإبداع: بين هامش الحرية وجدلية الثقافة، حيث جرت مقارنة إبداعية تشريحية بين قصيدتين لمحمود درويش وصلاح عبدالصبور، باعتبار أنهما بناءان معماريان مادته الكلمات، ولا يأخذ بعين الاعتبار دوافع المتلقي وقدراته ضمن ظروفه الزمانية والمكانية. ويجعلها ذلك وصفية مقتصرة على تحديد الملامح الأساسية للنتاج الإبداعي وتحديد مدى كثافتها في أي عمل إبداعي. والجدول رقم (٧) يوضح ميزاناً يقيس درجة الإبداع في القصيدة الشعرية ونتائج تطبيقها على واحدة من قصائد الشاعر الفلسطيني محمود درويش.

حاول العديد من الأدباء وضع تصورات حول قياس مستويات الإبداع في العمل الأدبي، وصياغة تلك التصورات على شكل نظريات متكاملة. ويقول نزار قباني أن الشاعر الذي يدعي أنه يعرف كيف تتحرك المياه في عوالمه النفسية يجهل حقيقة العمل الإبداعي الشعري. فالشعر ضرب من فن العمارة في مجال اللغة، لكنه في الوقت نفسه ضرب من الرقص بالكلمات، وهو رقص يحرك كل أجزاء النفس وخلجاتها الإرادية وغير الإرادية. والشعر خطاب موجه إلى جهة ما، والمرسل إليه عنصر هام في القصيدة، وإلا تحول الشعر إلى أجراس تقرر في فراغ.

الأسس النفسية لدراسة الإبداع الأدبي والفني:

تحدث أرسطو (Aristotle) عن الوظيفة التطهيرية للعمل الفني، فقال إن إبداع العمل

الفني، أو الانفعال به عن طريق المشاهدة أو القراءة، يشكل خطوة على طريق الخلاص مما يعترينا من مشاعر الخوف والكره والقلق والندم والاكنتاب وغيرها من الانفعالات الحبيسة داخل النفس. ويفسر ذلك رغبة الناس في مشاهدة أفلام العنف وألعاب المصارعة والمشاهد الرومنسية. لكن للعمل الفني الإبداعي وظيفة اساسية أخرى هي التواصل المتمثل في إعادة ارتباط الشخص المبدع، أو مستقبل العمل الإبداعي، بالعالم وبالآخرين، عن طريق اختراق حاجز العزلة البشرية، وتحريك طاقات الحب واكتشاف الذات بالآخر. وهكذا، فإن الإبداع عملية إعادة بناء للعالم، وتشكيل واقع بديل يقهر الاكنتاب، ويحمي المبدع والمتلقي من المرض النفسي، الذي ينجم عن محاولة الفرد بناء واقع زائف مزور من الوهم والأعراض الهذائية. في الكتاب الموسوم الأدب كاستكشاف، تقول الكاتبة لويز روزنبلات (Rosenblatte) [١: ص ٤٧]:

على الاديب كغيره من الفنانين أن يوجه دعوته إلى الحواس باستخدام الكلمات كوسيط، كي يصل إلى المنبع السري للعواطف المستجيبة. ولما كان من المتعذر عليه تمثيل ما يقدمه بشكل ملموس، فإن عليه أن يختار صوراً ذات دلالة لاستثارة القارئ الذي عليه هو نفسه أن يتولى بنفسه عملية الاستجابة الحسية والعقلية .

ولا يتأتى ذلك إلا من خلال صياغة العمل الإبداعي بشكل يخاطب الحواس والخيال الذي يقوم بإعادة صياغة الواقع. ويتطلب ذلك الاهتمام باللغة كوسيط إبداعي يحمل بصمات المبدع بشكل دائم أو موقفي خلال لحظات النشاط الإبداعي. كما يتطلب رعاية القدرة على التخيل، التي يرى (Barron) أنها تنقسم إلى أربعة مستويات تدرج تصاعدياً حسب درجة تطورها، وذلك على النحو الآتي [٢: ص ١١٩]:

- التخيل ذو البعد الواحد: ويمكن للفرد من خلاله تصور شيء دون أن يضيف إليه ما يحسه من مشاعر نحوه.

- التخيل ذو البعدين: ويمكن للفرد فيه أن يجمع بين عناصر متباعدة يدركها الفرد بحواسه.

- التخيل ذو الأبعاد الثلاثة: ويعتمد هذا النوع من التخيل على الرمز، فيرى الشاعر القمر مهيب الجناح مثلاً.

- التخيل ذو الأبعاد الأربعة: ويقوم المبدع بإعادة صياغة الواقع بصورة جديدة بالاعتماد على عناصره القديمة، مضافاً إليها الرمز والسمو فوق الواقع. ومثال ذلك تخيل جوته أنه شاهد الكورس الإلهي وهو يغني.

لقد حاول المشتغلون بعلم النفس توظيف التحليل النفسي، بوصفه نظرية تتعلق بالسلوك الإنساني، للكشف عن معان ودلالات وجوانب انسانية مختلفة في العمل الفني عامة، والأدب بخاصة. فرأى فرويد (Freud) أن الفنان إنسان طموح يريد الجاه والمال والشرف الرفيع، ولديه رغباته الشبقة التي تتطلب الإشباع، ولكن تنقصه الوسائل لتحقيق طموحاته ورغباته. فهو محبط بسبب عوامل خارجية أو داخلية أخلاقية. فيسعى للابتعاد عن الواقع المعيش إلى واقع تخيلي يبينه بمواهبه الخاصة، ويقيمه الآخرون على أنه انعكاس ثري للواقع. إنها عملية تسام بالرغبات المحبطة في الواقع، وذلك بصورة متخيلة موهومة، وتحقيقها خيالياً ضمن طرق بديلة، ومنها العمل الفني. فالفنان كالشخص العصابي يهرب من الواقع المعيش غير المشبع إلى عالم خيالي، من أجل أن يحقق ذاته، وأن يتوافق مع امكاناته، وأن يقوم بعمليات إشباع موهوم للرغبات اللاشعورية. والفن، وفق ما يراه فرويد، منطقة وسيطة بين عالمين: الواقع المحبط للرغبات من جهة، والخيال الذي يحققها من جهة أخرى.

يؤخذ على فرويد أنه ركز على مضمون العمل الفني دون شكله أو تركيبه، على عكس إيرنزفاتج (Ehrenzweig) الذي ركز على الشكل الفني وليس المضمون، ورأى أن العناصر الشكلية في العمل الفني توحى بالفوضى والعشوائية، لكنها تشتمل على أنظمة جمالية تحتاج إلى حساسية خاصة لكشفها.

أما يونج (Young)، فقد أكد أهمية الجوانب الاجتماعية والمكونات الثقافية والحضارية في العمل الفني، وهي جوانب ومكونات اغفلها فرويد تماماً. ويؤكد يونج (Young) أن اللاشعور عند الانسان نوعان: الأول لا شعور فردي مكتسب من خبرات الحياة، أو من الأفكار والمشاعر التي يتم إدراكها أو كبتها أو نسيانها بطريقة قبل شعورية، والثاني لا شعور جمعي، يشمل الأفكار الدينية والأساطير والدوافع التي يمكن أن تتجدد عبر الأجيال، والتي تأخذ شكل محتوى الذهن الإنساني. واعتبر يونج الشعور الجمعي أساس بناء شخصية الانسان، كما اعتبر أن الإبداع الفني يكمن في خلخلة اللاشعور الجمعي في فترات الأزمة، مما يخلق عدم اتزان في الحياة النفسية للفنان، ويدفعه ذلك للبحث عن اتزان جديد. فيسقط مادة اللاشعور في رموز للتعبير عن حقائق مجهولة نسبياً.

واشترط كارل روجرز (Carl Rogers) توافر ثلاثة أمور في الشخص المبدع، وهي الانفتاح على الخبرة، ووجود محك داخلي للتقويم، والقدرة على اللعب بالعناصر والمفاهيم.

أنماط شخصيات المقدسين ومدى تذوقهم للأدب والفن:

يتأثر الأدب بأنماط شخصيات الأدباء، وميزلهم، ودوافعهم. كما يتأثر بأنماط شخصيات الملتقنين، وتفضيلاتهم. وقد أجريت دراسات ميدانية للوقوف على توزع أبناء الشعب العربي الفلسطيني على أنماط الشخصية الأربعة التي حددها ديفيد كيرسي (David Keirse)، والتي قام المؤلف بتكييفها لتناسب البيئة الفلسطينية. وكان توزع شخصيات الشعب العربي الفلسطيني على النحو الآتي [١: ص ٦٨ - ٧٢]:

النمط الأول: صاحب الشخصية الحسية (Dionysian Temperament)

يشكل أصحاب هذا النمط ما نسبته (١%) من المقدسين على أكثر حد، وأن لها تأثيراً متبادلاً لا يمكن تجاهله. ومن هنا كان من الأهمية بمكان أن يفرد هذا الفصل لتناول الموضوع بصورة معمقة.

ويتصف أصحاب هذا النمط بالتححرر من أية تبعية، والعيش وفق معطيات ظروفهم المكانية والزمنية، والنظر إلى الحياة نظرة وجودية، والميل إلى اتخاذ القرارات والاستمتاع بالأعمال النابعة من ذاتهم على شكل نزوات. ويعبر جون كيتس (John Keats) عن وجهة النظر هذه حين يقول: أتوق إلى حياة تحكمها العواطف لا الأفكار. إنهم يعتقدون ان لكل لحظة من لحظات الحياة جدتها المميزة وفرديتها، لذا ينحصر اهتمامها بالزمن الحاضر دون الاكتراث بكل ما هو قديم أو مألوف، ودون إعطاء تحديد الأهداف المستقبلية أو التخطيط لتحقيقها أي اهتمام. وقد أطلق على هذه الميزة تعبير فلسفة الريح.

يوصف أصحاب هذا النمط بأنهم مرحون ودودون ومتحدثون لبقون، ولديهم معين لا ينضب من القصص والنوادر. انهم كرماء، وتتصف نظرتهم إلى الآخرين بالعطف والحنو، ولديهم استعداد لتقاسم ما يمتلكون مع غيرهم، وقضاء معظم أوقاتهم مع الأصدقاء. يدين أصحاب هذا النمط بالولاء لمجتمع العائلة والرفاق، طالما وفرت لهم هذه المجتمعات حرية التصرف. انهم يعيشون المخاطرة ومواجهة التحدي، ويتصفون بالجرأة والإقدام. وقد عبر كارل ساندربرج (Carl Sandberg) عن هذه الميزة تكمن ثورة الإنسان المدهشة في رفضه لكل لافتة تحمل عبارة ابتعد.

لذا فإن معظم الذين اكتسبوا شهرة واحتراماً بسبب جرأتهم وإقدامهم هم من أصحاب هذا النمط. وهم يحبون الأزمات لأنها تجارب قصيرة المدى تستلزم استخدام كل ما لديهم من قدرات وخبرات، ثم ينتقلون بعدها إلى تجارب أخرى. والواقع إنه من الصعب

التنبؤ بتصرفاتهم بسبب ولعهم بالنزوات. يسعى أصحاب هذا النمط لأن يكونوا عفويين في استجاباتهم للحوافز المختلفة. وهم بحاجة لمساحة كافية تسمح لهم بحرية الحركة، والنشاط، ولدى توفر هذه المساحة الكافية فإنهم يميلون للتشويش. لذا يفترض أن تكون الحصص العملية المقررة لأصحاب هذا النمط قصيرة ومتوازنة مع النشاطات التي تتطلب الإفصاح، كما أن أصحاب هذا النمط يستفيدون بصورة أكثر حيث يتدربون دون وجود مشرف عليهم. ولما كان أصحاب هذا النمط ميالون للمرح، فإنهم يصبحون شديدي التوتر العصبي إذا ما حرموا حوافز التمتع، ويشغلون أنفسهم غي أنشطة عشوائية بحثاً عن صور المتعة لتلافي الملل.

يحتاج أصحاب هذا النمط إلى تغذية مراجعة على أدائهم. فهم يرغبون في التأكد من أن لهم تأثير على الآخرين وانهم يستمتعون بأدائهم. ويشعرهم كل ذلك بالرضا عن أنفسهم وعن من حولهم. إنهم لا يهتمون بالتعلم من اجل التعلم، لأن التعلم يأتي كنتيجة ثانوية للعمل والأداء.

من أصحاب هذا النمط من أمط الرسامين اللامعين بيكاسو وجوج والموسيقى المبدع بهوفن، والشاعرين المطبوعين جون كيتس وروبرت فروست، والروائيين الأفاذاز أرنست همنغواي وفولكنز والسياسيين المحنكين يوليوس قيصر وجون كندي، والعسكريين البطلين رومل وباتون، والممثلين المحبوبين الفيس بريسلي واليزابيث تايلور.

النمط الثاني: صاحب الشخصية البراجماتية (Epimethean Temperament)

يشكل أصحاب هذا النمط ما نسبته حوالي (٤٠٪) من المقدسين. ويتوق أصحاب هذا النمط من أمط الشخصية لأداء الواجب. إنهم اجتماعيون بطبيعتهم، ويقدرن الطبيعة الاجتماعية للإنسان، ويسعون لتحقيق المكانة الاجتماعية اللائقة بهم ويعدون وجودهم أساسياً للمجتمعات التي ينتمون إليها. ومن جهة أخرى فهم يعترفون بالمكانة للآخرين، ويطيعون رؤساءهم في العمل، شريطة الحصول على تقدير هؤلاء الرؤساء. وإذا أراد أصحاب هذا النمط التعرف على الآخرين، فإنهم يستفسرون عن أعمالهم ومراكزهم في أعمالهم وخلفياتهم الاجتماعية، وإنهم يمتازون بالتنظيم والتخطيط واحترام المواعيد وإتباع الروتين. شعارهم الدائم التوسط في الأمور. ويتضح ذلك جلياً من خلال تصرفاتهم في الأمور المالية، حيث يراقبون مصروفاتهم ويميلون إلى المساومة في الأسعار، ويلهثون وراء الاستثمار المجدي وعقد الصفقات المالية الربحية. إنهم يخططون للمستقبل المجهول، ويتحاشون المخاطرة

والاندفاع، ويحولون الاستفادة من تجارب الماضي. لذا فإنهم يحرصون على المحافظة على كل ما مر بهم من خبرات، ويمارسون هواية جمع الصور والطوابع وقطع العملة المختلفة والميداليات وغيرها، كما يتذكرون أسماء الأشخاص الذين سبق أن تعرفوا عليهم، ويهتمون بالاحتفال بالأعياد التقليدية مثل عيد الفطر وعيد الأضحى ورأس السنة وعيد الفصح وغيرها من المناسبات كالزواج والتخرج.

يوصف أصحاب هذا النمط بأنهم عمليّون قادرين على تحمل المسؤولية في ما يسند إليهم من مهام. ويمتازون بالوقار ورجاحة الرأي، ويميلون للعمل كمعلمين ووعاظ ومؤرخين ورجال مال وأعمال وأطباء.

يستمتع أصحاب هذا النمط بالروتين والتنظيم، ولا يحتاجون المرونة والتنوع كأصحاب أنماط التعلم الأخرى. يرغب أصحاب هذا النمط إدخال السرور إلى قلوب مدرسيهم، ويميلون لتلقي المديح والاستحسان على الأعمال التي يقومون بها، ويقدرن الدرجات العالية التي يحصلون عليها، وتعزز أداءهم رموز الاستحسان مثل الجوائز والميداليات والشارات وغيرها. من الأمثلة على أصحاب هذا النمط القائد العسكري الجنرال مونتغمري الذي كان يصر على إتباع النظريات العسكرية وكل ما سبق تجربته، ويأبى المجازفة كما كان يفعل رومل.

النمط الثالث: صاحب الشخصية العقلانية (Promethean Temperament)

يشكل أصحاب هذا النمط ما نسبته حوالي (٢٠٪) من المقدسين. يتصف أصحاب هذا النمط بالكفاءة والرغبة في اكتساب الحذق والمهارة. همهم الأسمى الوصول إلى أقصى درجة ممكنة من حسن الأداء وزيادة معرفتهم وتنمية مهاراتهم وقدراتهم على حل الغاز الحياة. إنهم يشاركون فرانسيس بيكون (Francis Bacon) إيمانه المطلق بأن المعرفة قوة يمتلكها الشخص المبدع. لذا فهم يحبون العلم، ويسعون لكسب القوة عن طريق الأفكار الإبداعية. وينعكس ذلك على مظهر من مظاهر حياتهم، مما يجعلهم متميزين عن غيرهم من أصحاب أنماط الشخصية الأخرى، وبسبب شغفهم بجمع الحقائق والمعلومات، فإن أفضل مكان في الحياة بالنسبة له مكتبة عامرة يقضون فيها معظم أوقاتهم، وينغمسون فيها في التأمل إلى حد ينسيهم كل ما يدور حولهم.

إنهم يحبون جمع نماذج من الطيور والنباتات والصخور، ويهتمون بكل ما ينشر من أخبار الصواريخ، وكل ما يستخدم في مجال موجات الراديو.

يرفض أصحاب هذا النمط ارتكاب أخطاء تتعلق بالمنطق، كما يتحاشون ارتكاب الأخطاء

التي سبق أن ارتكبوها. وإذا اكتشف أصحاب هذا النمط تضارباً بين حقيقتين علميتين، فإنهم يرجئون اتخاذ مواقف محددة بشأنها إلى حين ظهور حقائق علمية وسيطة توفيق بين الحقائق المتناقضة وتزيل اللبس عنها. أما القاعدة العلمية فإنها تشكل جزءاً من ذوات أصحاب هذا النمط.

يمتاز أصحاب النمط العقلاني بالطلاقة اللفظية، واستعمال الألفاظ والتعبيرات الرشيقة، والالتزام بقواعد اللغة، والميل لاستخدام الكلمات الطويلة متعددة المقاطع اللفظية. إنهم يؤمنون بقوة الكلمات، وضرورة انتقائها ولفظها بصورة سليمة. وبالرغم من ذلك كله، فإنهم لا يعدون متحدثين لبقين، بسبب استعمالهم أساليب كلامية معقدة وكلمات يجهلها الكثيرون ولا يفهمون معانيها.

يميل أصحاب هذا النمط إلى استنباط القواعد العلمية اللازمة لتوضيح الظواهر الطبيعية والاجتماعية وتفسيرها والتنبؤ بها، كما يميلون إلى حل المشكلات. ويمتازون بالاستمتاع بالأعمال التي تتطلب التفكير المنطقي، ووضع النظريات المعقدة، واستخدامها في تفسير الواقع وضبطه والتنبؤ به.

لدى أصحاب هذا النمط ميل الاستقلالية والاستقصاء والاستكشاف، لكن زيادة القيود المفروضة عليهم تجعلهم أكثر تحدياً لسلطات المدرسين وأقل احتمالاً وصبراً. يسعى أصحاب هذا النمط للحصول على كفاءة أعلى، ويحتاج للحصول على تغذية راجعة حول نوعية تحصيله.

من أصحاب هذا النمط بيكون ونيوتن واينشتاين ولوك وغيرهم من المفكرين الذين يقتصر إنتاجهم على مجال الأفكار.

النمط الرابع: صاحب الشخصية المثالية (Apollonian Temperament)

يشكل أصحاب هذا النمط ما نسبته (٤٠%) من المقدسين على أكثر حد. ويميل هذا النمط إلى إنكار الذات، وتجاهل الحاجات الروحية وكتبها، وتحقيق هوية متفردة تحظى باحترام الآخرين وتقديرهم بسبب ذواتهم وليس بسبب إنجازاتهم. ويسبب لهم ذلك شعوراً بالنقص، لأن ذواتهم الواقعية أدنى درجة وكمالاً من ذواتهم المثالية. لذا فإنهم يجوبون الدنيا سعياً لإشباع رغبتهم في تحقيق شخصيات متفردة في أعمالهم وعلاقاتهم مع الآخرين. تكمن سعادة أصحاب هذا النمط من الناس في الحصول على تقدير الآخرين، وحبهم للصراحة التي يتمتعون بها. أو الأحاسيس التي يعبرون بها عن أنفسهم، وقد روى عن

مارلين مونرو أنها أرادت أن تكون مشهورة كي يحبها الناس ويغمرونها بعواطفهم. يتمتع الأفراد من أصحاب هذا النمط بإحساس عميق بالتكامل الشخصي: فهم يحرصون على التعامل بصدق مع الآخرين، ويرفضون التظاهر والادعاء، ويرون في التخلي عن صدق التعامل إنكاراً لذواتهم وبناء لحياتهم على أسس فاسدة. إنهم يسعون لفهم الوجود فهماً شاملاً، وانتقاء أهدافهم، والتخطيط لمستقبلهم، والمحافظة على نسق حياتهم. يتشكل فهم هذا النمط للحياة وفق أسلوب التصميم العاطفي الذي يعنى بتصنيف الأشياء وتجميعها حسب العواطف التي تثيرها، ثم تتزايد هذه التصميمات العاطفي لتشكل نظرة ميتافيزيقية للإنسان. أما معيار الاختبار لتشكيل مثل هذه التصميمات العاطفية والإحساس بالحياة فهو درجة أهمية الشيء وفق القيم المجتمعية السائدة. والإيمان بأثر القوى الميتافيزيقية واضح في كل قرار يتخذه، وكل عمل به الفرد من أصحاب هذا النمط. وبالتالي، فإن الأدب الفلسطيني المعاصر يخاطب ما لا يقل عن (٤٠٪) من الشعب العربي الفلسطيني، أي أصحاب النمطين المثالي والحسي. فهم يؤمنون بالفن من أجل الفن، وبالعامل لخير الدار الآخرة بالاستشهاد في سبيل حق إلهي مفروض.

الفن التشكيلي الفلسطيني بين الأيديولوجية والتراث:

يقول كمال بلاطة في موسوعة الفلسطينيين أنه يمكن تقسيم تاريخ الفن الفلسطيني ضمن أربع مراحل أساسية [٩]:

المرحلة الأولى، تضم الأوائل (١٧٩٥-١٩٥٥). فما فيها رسم الايقونات كأحد أقدم التقاليد في صناعة الصورة. وفي مرحلة متأخرة، تعمق أساطين هذا الفن في التقنيات الفنية الغربية، إلا أن اقتلاع المجتمع الفلسطيني من جذوره أجهض التطوير الطبيعي لفن محلي أصيل. المرحلة الثانية، تضم الرواد (١٩٥٥-١٩٦٥). قام رواد ترعرعوا ما بين اللاجئين بتشكيل فن فلسطيني جديد.

المرحلة الثالثة، تضم المنقّبون (١٩٦٥-١٩٩٥). تشمل الفن الذي أُنتج في المنفى وعلى التراب الوطني. استخدم الفنانون الفلسطينيون في الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلّين سنة ١٩٦٧ إنتاجهم الفني للتعبير عن الهوية الجمعية، وغالباً ما تعرضوا إلى القمع والتقييد.

المرحلة الرابعة، تضم الزمن الراهن، اتجاهات جديدة (١٩٩٥-٢٠١٦). توسعت الفنون البصرية الفلسطينية المعاصرة، بالإضافة إلى تحقيق نقلة نحو استخدام الفن المفاهيمي متعدد الوسائط.

اعتبر الفنان الفلسطيني والمؤرخ الفني كمال بلاطة المكان فكرة رئيسية في الفن الفلسطيني طوال تاريخه. عنصر المكان يعد هو المحرك الأساسي للفن الفلسطيني، من حيث القرب والبعد من الوطن الفلسطيني وعلاقته بالمكان الحالي الذي يعيش فيه. ويتضح ذلك من خلال الفن الذي ظهر في العقود الأولى التي تلت عام ١٩٤٨م. فنجد أن الفنانين الذين يعيشون في فلسطين يقدمون فنا رمزياً، في حين أن الذين يعيشون خارج الوطن قدموا فنا تجريدياً إلى حد كبير. قبل عام ١٩٤٨م، كانت القدس هي الموضوع الأهم في الفن. بعد عام ١٩٤٨م، أصبحت الموضوعات الأكثر أهمية هي ذاكرة المكان والمسافة من الوطن. وأصبح موضوع الذاكرة الثقافية والوطن يكبر معهم ويتكرر حتى للفنانين الذين ولدوا ونشأوا في أرض الاحتلال كأغراب في أرضهم.^[٩]

يتصف الفن التشكيلي الفلسطيني بخصوصية مواضيعه، وتشعب قضايا المعاشة، وعمارته التصويرية، والذاكرة البصرية للمكان فيه. إنه يمثل لمسة حضارية لا يُمكن تجاهلها في مساحة الإبداع الفلسطيني، إذ يختصر حقبة زمنية طويلة من الصراع والشهداء والجرحى والمعتقلين بتعبير بسيطة وهادفة، ويؤكد التوافق الأيديولوجي بين السياسة والمقاومة والتراث لدى كافة شرائح الشعب العربي الفلسطيني داخل فلسطين وخارجها. يعكس الفن التشكيلي الفلسطيني الواقع الفلسطيني المعاش، فيقتبس أفكاره من جماهير الشعب العربي الفلسطيني الموزعة في كل أنحاء العالم، مُتأملًا في كافة عذاباتهم، وشواهد القهر والألم وآليات الموت والسجن التي تلاحقهم داخل الوطن الفلسطيني وخارجه. المقاومة ومفاهيم حرب التحرير الشعبية هي ملامح أيديولوجية انطلقت من خلالها مُخيلة وإبداعات الفنانين التشكيليين الفلسطينيين للتعبير عن الانتماء لوطن سليب وشعب مُشرد. لقد شكلت المقاومة المُسلحة لدى الفنان التشكيلي الفلسطيني معابر انتقال من مواقع الحزن والبكاء والنحيب والوقوف على أطلال الذاكرة المستلبة وبؤس الخيمة والمُخيم ليعيش عصر حلم العودة ونشيد الحرية الملونة بألوان العلم الفلسطيني في مدلوله الرمزي ومعناه الكفاحي. وأمسى الفدائي صاحب الكوفية مجالاً تعبيرياً مشرعاً على رايات الأمل، ومفردة فنية تشكيلية حاضرة على الدوام في أعمال الفنانين التشكيليين الفلسطينيين بكل عنفوانها ودلالاتها الرمزية.

أساسيات الفن التشكيلي والأدبي:

ثلاث حقائق أساسية يجب عرضها لدى تناول موضوع معمارية الأدب العربي المعاصر عامة، والفلسطيني خاصة. الحقيقة الأولى هي أن العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين يشهد اهتماماً بالغاً بالصوت، وإمكانية توظيفه في النواحي النفسية والطبية، إلى حد صار يطلق عليه تعبير عقد الصوت. وتجري دراسة الكثير من أبحاث الطبيب الفرنسي ألفرد توماتس (Alfred Tomatis) في مجال الصوت وأثره العلاجي، مما جعل الباحثين يطلقون عليه مصطلح أينشتاين الصوت. ووصل الخيال العلمي حد تصور إنتاج سيارة هجينة (Hybrid) تعمل بالطاقة الصوتية التي يجري تدويرها من أصوات المصانع والناس. وبالتالي تصبح الطاقة الصوتية منتجات ثانوية للمصانع وشركات الاتصالات يجري تحويلها إلى طاقة تشغل الأجهزة المختلفة، كما طاقة الشمس والرياح والأمواج. ومثلما يتم شراء أنبوبة الغاز حالياً، يمكن تصور شراء أنبوبة الطاقة الصوتية في زمن ليس ببعيد. لقد حظيت هذه الطاقة الطبيعية باهتمام يوازي ما يلاقيه كل من الحمض النووي والتكنولوجيا الدقيقة والهندسة الوراثية والإنسان الآلي.

وما دامت الأذن وجهاز السمع مدخل هذه الطاقة إلى الجسم البشري، ومصدر التأثير عليه، فلا يمكن أن يغفل واضع كتالوج الإنسان، سبحانه، عن صياغة الأصوات القدسية بشكل يؤثر إيجاباً على هيئة الإنسان وتعلمه وطرق تفكيره. ولذلك يزداد الحديث عن جدلية الاستماع والإنصات، والعلاج بالأصوات عامة وبالقرآن الكريم خاصة، مما يدفع إلى التفكير في الأصوات القدسية المتمثلة في آيات القرآن الكريم، والبحث في آثارها النفسية والعلاجية. ويفسر ذلك ازدياد عدد الهيئات التي تعنى بالصوت والموسيقى، واستخداماتهما كطاقة علاجية في الشرق والغرب على السواء.

وفي دراسة أجريت في إحدى الولايات الأمريكية، تبين أن معدل ما يقضيه الطلبة في الاستماع للموسيقى في الفترة ما بين الصفيين السابع والثاني عشر يبلغ (١٠٥٠٠) ساعة، أي ما يزيد على الفترة التي يقضونها في قاعة الصف طيلة فترة الدراسة المدرسية. وبالتالي، فإن لذلك أهمية مؤثرة إيجاباً أو سلباً في شخصياتهم وأوضاعهم النفسية والعقلية والاجتماعية. ولا بد من الاهتمام بما يسمعون، خاصة في ظل الربط الحاصل حالياً بين موسيقى الراب والجاز والروك أند رول من جهة والانحرافات السلوكية والعنف بين الشباب من جهة أخرى.

ويلاحظ أن أثر أصوات الأدوات الموسيقية على مراكز الطاقة في الجسم البشري على النحو الآتي:

- صوت البيانو مناسب لتحفيز كافة الطاقات؛
- أصوات القيثارة والأرغن والآلات الوترية كالعود والكمّان تفيد في تحفيز القدرات العقلية والروحية المتمركزة في مراكز الطاقة الخمسة العليا من الجسم البشري، وهي الحجاب الحاجز، والقلب، والحنجرة، والجبهة، والتاج؛
- صوت آلات النقر والنفخ والآلات النحاسية مناسبة لتحفيز القدرات الجسدية والعاطفية المتمركزة في مركزي الطاقة الأول والثاني، ومكانها في المناسل والعجز والطحال. وقد يفسر ذلك ميل الدراويش إلى استخدام الطبل والصنج بهدف تحفيز الطاقات الجسدية والعاطفية. ويعد ذلك مرتكزاً لتبرير الدعوة التي قادها سلطان عمان في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين لنشر الثقافة الموسيقية بشكل عام بين الناس، وموسيقى العود بشكل خاص. ففي ذلك توكيد على أهمية الموسيقى ودورها في تهذيب النفس وتحفيز كافة مراكز الطاقة، والانتقال من الاهتمام بتحفيز القدرات الجسمية والعاطفية إلى التحفيز الموجه للقدرات العقلية والروحية.

أما الحقيقة الثانية، فهي أن المجتمع الإسلامي عامة، والفلسطيني خاصة، استوعب ثقافات الشعوب الأخرى. وبذل جهوداً كبيرة للتكيف مع النموذج الثقافي الأوروبي، ولو على حساب إنكار الذات. فصار ذلك المجتمع ثرياً بصور التعددية الثقافية. لكن هناك محاولات محمومة لتشويه الإسلام، وإظهاره بصورة النظام غير المتوافق مع التنوير من وجهة النظر الغربية. فاتخذت الحداثة الأوروبية الإسلام الأصولي صنعة لها لمقاومة التحديث والتعددية في المجتمعات الإسلامية. من تلك المنطلقات اختار الأدباء والفنانون الشباب موضوعات تدور حول ازدواجية الهوية وجدلية التعددية والعلاقة بالآخر، من أجل الدفاع عن هوياتهم ضد دعاوي التفوق الثقافي، ولدحض التصوّرات السائدة في الغرب حول التناقض بين الإسلام والتنوير.

وأما الحقيقة الثالثة، فتتعلق بالفن المفاهيمي الحديث. إذ يعد فن الجسد أحد أنواع الفن المفاهيمي، ويعتمد الجسد مادة أساسية للعمل الفني، مكرساً بذلك حالة الانحراف بالفن بأبعاده عن صيغته التقليدية. إذ يتخلى الفنان من خلاله عن كل المقاييس الجمالية والأخلاقية. فالعمل الفني يتمثل بحركات تشبه بعض الممارسات الطقسية البدائية، ليقصر

اهتمام الفنان على الحياة التي تحولت إلى عمل فني، فأصبح الفن هو الحياة. فن الجسد تفكيك للخطاب الفني، من خلال ابتكار معالجات وتقنيات وأساليب تعتمد على خامة جديدة هي الجسد الإنساني. وقد مهد فن الجسد للاقتراب من الفن الحدث، والابتعاد عن المقاييس الجمالية والأخلاقية والمعرفية. فالعمل الفني القائم على ممارسات طقسية بدائية، حوّل العمل الفني إلى وجهة نظر جديدة للحياة، ليصبح الفن هو الحياة. أما فن الأرض، الذي تطور بشكل خاص في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين، فيمثل شكلاً فنياً يتم إنشاؤه في الطبيعة، وذلك باستخدام المواد الطبيعية كالطين. يعد فن الأرض أحد اتجاهات الفن المفاهيمي، حيث أن المغزى الأهم لعروضه هو التسجيل الفوتوغرافي، الذي يمثل الخطوة الأهم في استثمار الفكرة، مقارنة بالحدث نفسه، سواءً كان الأثر الفني باق أمام العين، أم لم يكن كذلك. فأصبحت الأهمية في هذا النوع من الفن للجوانب غير المرئية.

القدس أيقونة عبقرية الأدب والفن العربي الفلسطيني:

يتصف الأدب الفلسطيني المعاصر بأنه مقاوم بامتياز، وبأنه يعبر عن روح الأمة، وقضاياها. وفي التفاعلات الشعرية تثويرٌ جذريٌّ للفكر والعلاقة مع الآخر. وتحكم معمارية النص الإبداعي فيه خمسة معايير أساسية تبين مستويات الإبداع والعبقرية: أولها أن له رسالة تتجاوز حدودها إطار المستحيل، وفلسفة يعكس استيعابها على هيئة جملة من الممارسات التي تتجذر في شخصية المتلقي، ورؤية شمولية تتمثل بجعل النفس الإنسانية أكثر هدوءاً وأماناً. وثانيها أن مواضيع النص الأدبي العربي الفلسطيني تتخطى حدود التابو، إلى حد يجعل من تاريخ الأدب العربي الفلسطيني سرداً لوقائع العصيان، ولقطات تصويرية للحظات غير المرئية لأفعال الثورة والتمرد، بحيث تخرج هيكلتها عن إطار محاكاة الطبيعة، وتصوير الأحداث المرئية. وثالثها الحرص على التوافق بين النغم الخارجي المتوقّف في البيئة المحيطة من جهة، والنغم الداخلي للمتلقى من جهة أخرى.

ورابعها الابتعاد عن عبثية النص، على الرغم من أهمية الاستمتاع بالموسيقى الداخلية فيه. وخامسها محاولة إظهار المخفي، والحديث عن المحظور السياسي والاجتماعي والثقافي، على

الرغم من صعوبة ذلك، أو استحالته في ظروف الاحتلال الغاشم. الأدب جزء من ثقافة الشعب العربي الفلسطيني. وهو جزء من الجهاد بالكلمة، حين يتعذر الجهاد بالنفس. وهو مرآة تعكس شخصية الفرد العربي الفلسطيني المتأثرة بالجغرافيا الطبيعية لأرض فلسطين، والتي تتوزع بين المناطق الساحلية والجبلية والصحراوية. فالمناطق الساحلية الفلسطينية يتصف أهلها برقة العواطف والأحاسيس، وباستخدام التعابير الرقيقة الحاملة في اللغة. أما المناطق الجبلية، فيتصف أهلها بالشدة والعناد، وباستخدام المفردات الصعبة. وأما المناطق الصحراوية، فيتصف أهلها بالقسوة، والتأمل، وباستخدام اللغة البعيدة عن مظاهر الحضارة.

ومن ناحية أخرى، فقد حاول الفنانون التشكيليون الفلسطينيون استحضار التاريخ العربي القديم بكافة رموزه، ومعاركه المفصلية. ولم يغيب الموروث الشعبي الفلسطيني عن الأعمال الفنية التشكيلية، فصارت تلك الأعمال ميادين مواجهة مباشرة مع محاولات الكيان الصهيوني المسعورة للاستحواذ على كل ما يتصل بحياة الشعب العربي الفلسطيني من تاريخ، وأساطير، وعادات، وتقاليد، وفنون شعبية. ووجد الفنانون التشكيليون الفلسطينيون أنفسهم في موقف دفاع عن الذات، والهوية، والوجود، والتاريخ، والأرض. وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، وتأتي على قدر الكرام المكارم، وتعظم في عين الصغير صغارها، وتصغر في عين العظيم العظائم.

الأدب والفن أجزاء أساسية من هوية الأمة. والاحتلال الغاشم يسعى لطمس هوية الشعب العربي الفلسطيني بكل مكونات تلك الهوية. وأجزم أنه لن يكون قادراً على ذلك. قول واحد هو قول الله تعالى. ومن أصدق من الله قيلاً..!؟

الجدول رقم (٧)

ميزان الإبداع الشعري

أو الجدول التشريحي للعناصر الإبداعية في القصيدة الفلسطينية

(تطبيق على مقاطع مختارة من قصيدة محمود درويش

(خطبة الهندي الأحمر الأخيرة)

العناصر الإبداعية في القصيدة		أسلوب التقييم	أبعاد التقييم
النسبة المئوية (نسبة عدد مرات ورود التغيير إلى عدد السطور)	العدد		
١٠٨,٨	٣٧	إحصاء عدد الصور الشعرية التي افرزها الشاعر في وحدات القصيدة دون التفصيل في تشعبات هذه الطلاقة بين طلاقة الألفاظ والأفكار والصور، وبصرف النظر عن قيمتها.	الطلاقة (عدد الصور بوجه عام)
٨٢,٤	٢٨	إحصاء الصور الشعرية المبتكرة الجديدة الملائمة التي وردت في ثنايا القصيدة.	الأصالة (عدد الصور الشعرية الأصلية)
٦٧,٦	٢٣	إحصاء التنقل من سياق إلى آخر مما يميز حركة الشاعر تعبيراً عن خصوبة العمل الإبداعي.	المرونة (عدد مرات التنوع في الصور)
٨٥,٣	٢٩	إحصاء عدد مرات تغلب الشاعر على ما يعتزضه من عقبات لرغبته في التنوع والتخصيب. ويشير ذلك إلى القدرة على متابعة فكرة القصيدة.	القدرة على التوسع (تاريخياً، وادراكياً، وخيالياً، ومنطقياً، وإيقاعياً، وجسمياً)
١٠٨,٨	٣٧	إحصاء التراكيب التشكيلية في العمل، ويعبر عنه بعدد مرات التشبيه والاستعارة والحركة في القصيدة	الأبعاد الجمالية (التشكيل والزخرفة)
٦٤,٧	٢٢	إحصاء الأبعاد والقيم الاجتماعية التي تبناها الشاعر وكشفت عن نفسها في سياق القصيدة	القدرة على الإحساس بالمسائل والقضايا (السياقات الاجتماعية)
٨٦,٣		التقدير العام (معدل النسبة المئوية للبنود)	

كلمات بالإزميل على سور القدس

الشاعر الفلسطيني أديب رفيق محمود

لأنني احبّ ان اسيرَ في الشوارع المبلّطه
احتالُ حين قبض راتبي على صفاري
اقول لم اجد لكم من الدمى سوى المكعبات
وغير باشقٍ ينقُصُ فوق حيةٍ مُرَقَّطه
تَحارُ زوجتي
تَهْمُ ان تقولَ في صلاتها حذارِ
حذارِ.. عامنا مجاعةٌ
وعندما ترى الدموعَ احرقت قيثاري
تقول ارجو ان تصلي ركعتين
وترفع العينينَ للسماءِ واليدينِ
وان تقبّل البلاط مرةً ومرتين
هناك في الاقصى وفي الحواري
اسيرُ في الشوارع التي احبّ شارعاً فشارعا
اقلبُ العينين في الجدرانِ
في المطرِ والفضاضِ .. في الشموعِ ..
في الاصابع التي تُكفِّفُ المدامعا
ادوخُ.. او أكادُ ان أقيءَ
عندما تمرُّ شلةٌ يقذفها الجدارِ للجدارِ
الله يا مدينةَ السلامِ
اسمعيني شهقةَ الزمانِ .. والصليب يرفعُ الملك
الله يا مدينةَ السلامِ .. اين روعةُ الصهيل؟

كبة الخيول.. تعبر الابواب في وضح النهار
هذا صلاح الدين .. اين سيفه؟؟
كما الكناري.. اريد ان اكون ضاحكاً كما الوليد
اريدُ ان احطّ فوق داربي
اريدُ ان ازور بيت جاري
حريتي هي التي اريد
حريتي هي التي اريد
امغمّد ؟
يزجر الغراب.. يُرهقُ الخيول من سفاري
الله يا مدينة السلام.. اين روعتك ؟
اقول.. اين بهجتك؟؟
احبُ باب السلسله
احبُ في مدينة السلام كلّ قوس
وعندما امرُ تحت قوس كل باب
اطأطيء الجبين مرة.. ومرة اناطحُ السحاب
عشقتُ هذه النقوش والزخارف
ماذا يضير لو رميتُ نفسي؟
مرّغتُ وجهي الحزين بالتراب
ماذا يهم؟ انني ككل عاشق
كمثل طرفة الحرودي
مثل قيس.. اسائل التلول
باكياً وجائياً وواقفا
لستُ الذي يموت قلبه على العذاب
انا المدله الحزين في مفارق الطرق
انا الذي تقتاده المجاعه

ولست من قيسٍ ولا خزاعه
انا الطريدُ والخليعُ
والمعبدُ المنفي في بلادي المّضاعه
لو انني صمدتُ تحت وطأة السياطُ
يا ايها المدججُ العتيد
هلا عرفتَ ما اريد ؟
اريد ان اكون صادقاً
ماذا يهمُّ.. لو جثوتُ
بُست جبهة البلاطُ
يا ليتني استلتهُ من لحظةٍ
من ذا يداوي هذه الحضارة المحنطه؟؟
من ذا يزيل القار؟

الفصل الثامن

عبقرية المقاومة العربية الفلسطينية

- القدس بين ثقافة المقاومة والمقاومة الثقافية للاحتلال
- معادلات المقاومة الثقافية
- المعادلة الأولى: معادلة ثلاثية سبل الانتصار وحل النزاع
- المعادلة الثانية: معادلة ثلاثية سبل النجاح والإنجاز
- المعادلة الثالثة: معادلة العيش في عصر الحياة
- المعادلة الرابعة: معادلة التسامح كقيمة إنسانية إيجابية
- المعادلة الخامسة: معادلة نجاح مساعي تحقيق المقاصد
- المعادلة السادسة: معادلة المستوى الثقافي الفردي والجمعي
- معايير قياس مدى تحقق شروط انتصار المقاومة الثقافية
- المقاومة الديموغرافية قمة استراتيجيات المقاومة الفلسطينية
- المقاومة بالكفاح المسلح
- القدس أيقونة المقاومة العبقرية
- هذي الملايين: الشاعر الفلسطيني يوسف الخطيب



الفنان التشكيلي الفلسطيني اسماعيل شموط

الفصل الثامن

عبقرية المقاومة العربية الفلسطينية

القدس بين ثقافة المقاومة والمقاومة الثقافية للاحتلال:

هناك عوامل نفسية مهمة تستنتج من خلال دراسة المجتمع الفلسطيني، وتلخصها نظرية التحدي والاستجابة للمؤرخ البريطاني آرنولد توينبي. ومفادها أن الفرد عند تعرضه للأزمات يستجيب سلباً أو إيجاباً. الاستجابة السلبية تتمثل في النكوص إلى الماضي لاستعادته والتمسك به تعويضاً عن واقعه المر. أما الاستجابة الإيجابية فتتطوي على تَقَبُّل الصدمة والإعتراف بها، ثم محاولة التغلب عليها. وينطبق ذلك على الفرد والجماعة. الحالة الأولى من النظرية تنطبق تماماً على حال العرب، إذ أنهم تعرَّضوا لصدمة الحضارة، فلبَّجوا إلى النكوص إلى الماضي دفاعاً عن النفس. أما الاستجابة الإيجابية فتتمثل في العمل على استعادة الأمجاد، عن طريق العلم والعمل بدلاً من العيش على أطلال عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي رضوان الله عليهم أجمعين. ومن صور الاستجابة الإيجابية للفلسطينيين الخصوبة الثقافية الهائلة في ظل الاحتلال، فقد غدت البيئة المتردية سياسياً حافزاً مهماً لدى الشباب الفلسطيني للتعلم والإبداع.

الحوار بين القوة والثقافة مثل حوار الطرشان. المثقفون الصهاينة تظاهروا في تل أبيب رفضاً لقانون القومية، لكن أصواتهم ذهبت أدراج الرياح. وفي ضوء التعنت الصهيوني النابع من ثقافة التعالي على الآخر، لا يجد الفلسطينيون بديلاً عن المقاومة بكل أشكالها، بما في ذلك المقاومة الثقافية، والتجذر في أرض الرباط.

تتجلى الحيوية التاريخية للشعب العربي الفلسطيني في القدرة على الصمود الطويل في وطنه المغتصب عنوة على الرغم من احتلاله، والتحدي العنيد للحفاظ على الهوية. كما تتجلى في التماسك الاجتماعي والاقتصادي والحضاري والثقافي لهذا الشعب، وفي خلق صور إبداعية إيجابية للمقاومة الراضية للاستعمار الاستيطاني في فلسطين، وبصورة متطورة وصلت حد استخدام الطائرات الورقية الحارقة، وهي مقاومة فاعلة أجدى نفعاً، وأوقع تأثيراً، من المقاومة لبسلبية التي دعا إليها غاندي في الهند.

فهل يمكن تحديد استراتيجيات ثقافية تساهم في المقاومة الإيجابية للاحتلال..؟ وهل تفيد العبقرية في استحداث طرق مقاومة مبتكرة..؟ وهل يفيد جسر الهوية الثقافية الكبيرة بين

الشعب العربي الفلسطيني الذي يمر بالمرحلة الثقافية المتمثلة بقبول الآخر وتحمله على قاعدة أن الناس سواسية كأسنان المشط، والصهيوني المحتل ذو المستوى الثقافي الموزع بين مرحلة التمركز حول القومية ومرحلة التعالي على الآخر والنظر إليه بدونية... [١٠٧:١١٧] إن الشعب العربي الفلسطيني، وفق مستواه الثقافي، يحاول جاهداً إكراه الذات على قبول الآخر، والتوافق معه، وتحمل سلبياته، على الرغم مما يديه الآخر من مخالفة للقيم الثقافية الإنسانية. والصهيوني الغاصب، من ناحيته، يعد ذاته أكثر قوة وقدرة، وأعلى شأناً من الآخر العربي الفلسطيني، باعتباره شعب الله المختار من وجهة نظره الذاتية. وبقاء الحوار بين مستويين ثقافيين: أولهما صهيوني يتمسك بمرحلة التعالي على الآخر، وثانيهما عربي فلسطيني يتمثل قيماً إنسانية سامية، أمر يستحيل معه التعايش ضمن مجتمع متناغم واحد.

ومن ناحية أخرى، يقال أن الدول الغربية تدعم جانب كيان الاحتلال في كل طروحاته بسبب مصالحها المادية. ومما يقوله الاقتصادي الأمريكي توماس ستوفر، الأستاذ في جامعة هارفارد، أن تكلفة الصراع العربي- الصهيوني على دافع الضرائب الأمريكي بلغت حوالي ثلاثة تريليونات دولار منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية حتى العام ٢٠٠٢م، أي ما يعادل أربعة أضعاف كلفة حرب فيتنام. ولا بد من الإشارة إلى لجنة الشؤون العامة الأمريكية الصهيونية، المسماة منظمة أيباك (AIPAC)، التي تعتبر أبرز مجموعات الضغط في أمريكا، وتعمل لدعم كيان الاحتلال، وضمان بقائه قوياً في وجه كافة أشكال المقاومة لوجوده. يضم اللوبي اليهودي حوالي مائة ألف منتسب، ينشطون في كافة الولايات الأمريكية، بهدف ضمان الفيتو الأمريكي ضد أي قرار في الأمم المتحدة يدين كيان الاحتلال، والضغط على السلطة الوطنية الفلسطينية للاعتراف بدولة الاحتلال، وتعزيز العلاقات بين واشنطن وكيان الاحتلال من خلال التعاون ما بين أجهزة مخابرات البلدين والمساعدات العسكرية والاقتصادية، ومراقبة عمليات التصويت التي تجري داخل الكونغرس الأمريكي، والمتعلقة بمسائل تهم كيان الاحتلال، والإشراف على إعداد مرشحين لقيادة أمريكا من الأجيال الناشئة، ممن يتصفون بالولاء لكيان الاحتلال، والإشراف على توجيه الهبات التي يمنحها الممولون اليهود الأمريكيون لمرشحي الانتخابات في أمريكا. [١٠٨:٩].

ويتفهم الغرب وجهات النظر الصهيونية، لأنه من ذات المستوى الثقافي. وعلى الأمة العربية عامة، والفلسطينيين خاصة، أن يرتقوا بثقافتهم العامة من مستوى التمركز حول القومية

كما في العراق وسوريا ومصر مثلاً، ومستوى قبول الآخر كما في فلسطين، إلى مستوى فهم الآخر واستيعابه ضمن مجتمع عالمي تكافلي، يدعو لإسلام إلى الوصول إليه، وهو الصراط المستقيم الذي يطلب المسلم الهداية إليه حين يتلو سورة الفاتحة في القرآن الكريم، وهو مستوى كمالي مثالي لم يصل إليه أي من شعوب العالم حتى تاريخه، سوى المسلمون أيام الخلفاء الراشدين. فأعلى مستوى ثقافي حققه البشر هو مستوى التعالي على الآخر، وفرض الرأي عليه، كما في أمريكا ودولة الاحتلال. وهو مستوى يقصر عن بلوغ حد الكمال المنشود.

معادلات المقاومة الثقافية:

في بداية القرن الحادي والعشرين، يعيش الناس في مجتمعات تعمها أسباب العداوة والصدام والخصام، نظراً لتضارب المصالح والأهواء، واختلاف المصالح واستراتيجيات التفكير والثقافة، بما في ذلك اللغات والعادات والتقاليد والأعراف. وكل ذلك يجعل النفس الإنسانية في حالة من التوتر الدائم في العلاقة مع الآخر، على كافة مستويات التفاعل الاجتماعي، سواء على مستوى الأسرة وغير ذلك من المجالات الاجتماعية، أو على المستوى الوطني والإقليمي والدولي. وذلك نتيجة التضخم الزائد في الدوافع الإنسانية الأساسية الدفينة عند الإنسان، وهي التملك وتقدير الذات والشهوة وحب التعرف. لذلك تمتلئ قلوب الناس عامة، إلا من رحم ربي، بالجفاء والحقد والضغينة والحسد.

سورتان كريمتان في القرآن الكريم تعالجان مجال التواصل الاجتماعي بين الناس، ويبدأ الوعيد فيهما بكلمة ويل . والآيتان هما ويل للمطففين و ويل لكل همزة لمزة. أما الأولى ففي حفظ أموال الناس، وأما الثانية ففي حفظ أعراضهم. وكسبيل لنقاء النفس، ورد في الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم: من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة . ومن الأقوال المأثورة: عجباً لمن يرفع رأسه للسماء ليتدبر في عظمة الخلق، ويعمى عن الإحساس بعظمة الخالق . وتشير كل تلك المقططات، وكل ما ورد في الكتب المقدسة، إلى عدد من فضائل الأخلاق عند الناس، ووجوب التحلي بها، والالتزام بأدابها. ويقصد بالفضيلة الصفة الحسنة، كالطهارة والعصمة والعفة والنزاهة. ووصل الأمر إلى حد قول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم: إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق. كما ورد في الحديث الشريف (على الرغم من التشكك بمدى قوة

(السند): اتق المحارم تكن أعبد الناس، وأرض بما قَسَمَ اللهُ لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر من الضحك، فإن كثرة الضحك تُميت القلب.

يكمن سبيل التحرر والتحرير في استيعاب معادلات اتفق القاصي والداني على فعاليتها وجدواها، لأنها تشكل محكاً لاستحقاق النجاح والسعادة على المستوى الفردي، والتحرر على المستوى الجمعي الوطني أو القومي. ويمكن تقديم ست من هذه المعادلات على النحو الآتي:

المعادلة الأولى: معادلة ثلاثية سبل الانتصار: [٣: ص ٦٦]

هناك معادلة تعتبر أساساً للانتصار في أي نزاع على المستوى الفردي، أو الوطني، أو القومي، وهي تتمثل بما يأتي: (الانتصار = التوحيد + الوحدة + الجهاد).

أما الوحدة وأثرها في قوة الفرد والجماعة، فمسلمة يفهمها كافة الناس وفق مقولة: تأبي العصي إذا اجتمعن تكسراً، وإذا افتقرن تكسرت آحاداً.

وأما الجهاد بالنفس والمال والقول والفكر، والالتزام به، وعدم التهرب من أوائمه، فهو فريضة واكبت الانتقال التدريجي للإنسان من عصور التوحش إلى عصور الأنسنة والتمدن. وأما التوحيد وأثره في فكرة الانتصار للحقوق الفردية، والحفاظ على المصالح الوطنية، فيحتاج إلى تفسير علاقة الانتصار بالإيمان وعدد من الفضائل التي يتمتع بها المجاهد في سبيل الله والحق والواجب، ومنها فضيلة التسامح. وقد ميّز التوحيد في العقيدة الإسلامية بين منهج التعامل مع أتباع الديانات السماوية في مقابل التعامل مع أتباع المعتقدات الأخرى. ففي حين اعترف لأبناء الديانتين اليهودية والمسيحية بحقهم الإيماني، ووجودهم، وممارسة شعائريهم الدينية، وحرية حياتهم بكامل تفاصيلها، وحفظ لهم ذلك الحق انطلاقاً من الإيمان بوجود هاتين الديانتين السماويتين على قاعدة الإيمان بوحدانية الله، رفض الإسلام كافة المعتقدات التي لا تقوم على مبدأ التوحيد، ودعا إلى محاربتها. إلا أن من الملاحظ أن النص القرآني أعطى موضوع الجدل أهمية خاصة. ومنه الآية الكريمة: أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن. وينطبق ذلك على الموحدين وغير الموحدين، وخصّ القرآن الكريم أهل الديانات الأخرى في بعض آياته، ومنها قوله تعالى: ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم. وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم. وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون. كما ميّز

الإسلام أصحاب الديانات السماوية الأخرى أهل الذمة عن غيرهم، ووضع لهم شروطاً للعيش في ظل الكيان الإسلامي. وكانت الشروط قائمة على دفعهم الجزية مقابل حمايتهم، واستمرار عيشهم داخل المجتمع الإسلامي. وأعطى النبي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم نماذج رائدة في التسامح مع أهل الذمة، واعتبر الاعتداء على أي منهم اعتداءً عليه شخصياً. فقد ورد في الحديث الشريف: من آذى ذمياً فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله، وكذلك من ظلم معاهداً أو انتقصه حقاً أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه، أي خصمه، يوم القيامة .

وجاءت العهدة العمرية لتضرب مثلاً متقدماً وواقعياً آخر في سلوك التسامح، وقيمه. فقد أعطى عمر بن الخطاب الصليبيين الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم. فلا تسكن كنائسهم، ولا ينتقص منها، ولا من خيرها، ولا من صلبانهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم. ويذكر ذلك بالنجاح وأسس تحقيقه من خلال تطبيق المعادلة:

أسس تحقيق النجاح = العقل + القلب + فريق العمل

والمقصود بالعقل ما لدى المرء أو الجماعة من قدرات عقلية. ويقصد بالقلب ما لدى الفرد أو الجماعة من فضائل. أما الحديث عن فريق العمل، فيعيد إلى الذاكرة الفرق بين النبي محمد صلى الله عليه وسلم وسيدنا موسى عليه السلام في جهودهما لنشر الدعوة. الأول كان له أتباع يؤمنون به، ويفتدونه بأعز ما لديهم لنشر فكره، والثاني قال له أتباعه إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. وفريق العمل المقصود بالنسبة للقضية الفلسطينية هو الجيش الوطني المدرب الافتراضي، الذي يتمنى الفلسطينيون تشكيله وتمركزه في قواعد على ترابه الوطني.

إن الشعب العربي الفلسطيني أهل إيمان، فاستكملوا عنصر التوحيد والإيمان كشرط للانتصار. وهم أولو بأس وقوة وتفان في سبيل العقيدة والوطن، فاستكملوا شرط الجهاد للانتصار. ولكن تنقصهم الوحدة الوطنية لاستكمال ثلاثية الانتصار في الصراع العربي الإسرائيلي. الشعب العربي الفلسطيني متمسك بالتوحيد وبالجهاد إلى أبعد مدى، لكن عامل الوحدة ضعيف لديه، بسبب الخلافات الحادة بين فصائل المقاومة، مما يجعل سبيل الانتصار من خلال تلاحم ثلاثية التوحيد والوحدة والجهاد مختلفاً. وتدرك دولة الاحتلال ذلك، فتسعى لتعميق الخلاف بين فتح وحماس مثلاً. كما لا يمكنه تشكيل الجيش النظامي على ترابه الوطني بسبب ظروف الاحتلال. فهو بذلك لا يحقق تماماً معادلة الانتصار اللازمة لاستعادة حقوقه السليبة.

المعادلة الثانية: معادلة ثلاثية النجاح والإنجاز: [٣: ص ٦٩]

يحتتم بلوغ مستوى مرحلة فهم الآخر واستيعابه على المستوى الفردي والجمعي التفكير بثلاثية الحكمة والمهارة والفضيلة التي تعتبر أساس التطور والنجاح والإنجاز.

(شروط النجاح والإنجاز = الحكمة + المهارة + الفضيلة)

وقد نقل عن ديفيد ستار جوردان (David Starr Jordan) قوله إن الحكمة تكمن في معرفة ما يجب أدائه في موقف معين (أي الإجابة على السؤال: ماذا يفعل المرء..؟)، وإن الدربة أو المهارة تتمثل في الحدق أو معرفة كيفية الأداء (أي الإجابة على السؤال: كيف يقوم المرء بذلك..؟)، وإن الفضيلة الكبرى تترجم في القدرة على تحديد الأثر الانفعالي الاجتماعي للإنجاز، الذي يصاغ على شكل نتائج أداءية واقعية محددة (أي الإجابة على السؤال: لماذا يتصرف المرء كذلك..؟). ولضمان توفر الحكمة أو الحصيلة المعرفية الإدراكية، يجري الحث على طلب العلم من المهدي إلى اللحد، وكذلك الأخذ بالمثل الصيني الذي يقول إن من يسأل قد يبدو جاهلاً مدة خمس دقائق وحسب، أما من لا يسأل فيبقى جاهلاً مدى العمر. فكلما سأل المرء أكثر ازداد معرفته، شريطة أن يحسن عملية الإنصات.

يتضمن فن التعلم جوانب المهارة والدربة والمراس أيضاً. فالمثل الهندي يقول إن السهم الصائب يأتي نتيجة مئة سهم خاطئ. والدربة لا تقتصر على المهارات الأدائية وحدها، فهناك مهارة تربية الأبناء بصورة سليمة مثلاً، وهي في حقيقة الأمر دربة لا بد من إتقانها، والالتحاق بدورات تدريبية مخصصة لتلك الغاية، وقراءة كتب متخصصة في ذلك المجال. ومن غرائب الحياة ومفارقات الأقدار، على حد تعبير سومرست موم، أن مثابرة المرء وإصراره على تحصيل أفضل الغايات والأهداف يجعله يحصل عليها في النهاية على الأعم الأغلب.

يقال إن الحكمة ضالة المؤمن. والحقيقة أن الأمر لا يستقيم بالحكمة والدربة وحدهما، إذ لا بد من اكتمال ثلاثية الحكمة والمهارة والفضيلة (ماذا؟ كيف؟ لماذا؟). والواقع أن معظم الناس يمتلكون الحكمة الكافية لتحديد ما يجب أدائه، وربما تتوفر لديهم المهارات الأدائية اللازمة والدربة الكافية لمعرفة طريقة الأداء، ولكن تنقصهم الفضيلة المتمثلة بتقدير البعد الانفعالي الاجتماعي لإنجاز عمل يعرفون كل ما يتعلق به، ويملكون المهارات الأدائية اللازمة لأدائه. ويجب أن يتذكر كل امرئ القاعدة الأزلية للنجاح، والتي تقول إن الحياة لعبة أرقام. وإنه كلما زاد عدد مرات المجازفة التي يقوم بها المرء للإنجاز، زادت فرص

نجاحه، وتقل فرص فشله. وإن الحظ وحسن الطالع، كما يقول سوفوكليس، لا يمكن أن يكونا من نصيب الجبناء الذين يخشون ارتياد المخاطر، ويفضلون الاستكانة والبقاء بين الحفر، مصداقاً لقول الشاعر: ومن لا يحب صعود الجبال يعيش أبد الدهر بين الحفر. ولا يتركز ما يندم عليه المرء في نهاية حياته على ما لم يقم به من مخاطرة، بل على ما قام به بصورة ما، وكان عليه أن يقوم بها بصورة أفضل، حسب ما استدل عليه فيما بعد. وبذا فإن مقولة المعرفة قوة غير دقيقة تماماً، فالأصح أن يقال إن المعرفة في حقيقة الأمر طاقة (Knowledge is potential power)، وإنها قوة افتراضية تتحول إلى طاقة دافقة حين يتم استخدامها وإطلاق العنان لها. وصاحب الشخصية الفذة هو من يؤدي ما يجب القيام به، وليس من يميل إلى أداء السهل من الأعمال، أو من يحس أن لديه الرغبة في أداء عمل معين.

أما الدربة، أو اكتساب المهارات، فهي التطبيق الأدائي العملي للحصيلة المعرفية. والتكرار وحب العمل أساسيان في بنائها. ويحتاج تطوير القدرات الأدائية تمريناً موجهاً، مما يستوجب الالتحاق بدورات خاصة حول مواضيع التدريب، وكذلك القراءة المعمّقة في المجال، والاستماع إلى مفكرين متخصصين في مجال التدريب. كما يحتاج جرأة وإقداماً لمواصلة محاولة تطوير الحصيلة المعرفية في مختبرات الحياة اليومية، من أجل صياغة دربة خاصة مناسبة.

وأما الفضيلة التي تتمثل بالجانب الانفعالي الاجتماعي، فتقتضي النظر إلى المردود الانفعالي والاجتماعي لكل عملية التعلم والتحصيل المعرفي والأدائي. فلا فائدة من معارف لا تنعكس إيجاباً على الذات وعلى الآخر. وليس أضمن لبلوغ السعادة من تكوين علاقات إيجابية مع الآخرين، ولو أن ذلك يستغرق أوقاتاً طويلة. فمن يستنكف عن تشكيل علاقات إيجابية مع الآخرين يكون كمن يريد أن يحجب نور الشمس عن الأرض.

لقد حقق الشعب العربي الفلسطيني درجة معقولة على طريق الوصول إلى مستوى مرحلة فهم الآخر واستيعابه، على المستويين الفردي والجمعي. وبالتالي، فإنه أعلى درجة من غيره من الشعوب العربية من ناحية المستوى الثقافي، بينما يحقق الندية الثقافية مع الصهاينة الغاصبين. وتنقص السلطة الوطنية الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية الدربة الموجهة على التطبيق الأدائي العملي في المجالات السياسية والاقتصادية، مما يستوجب الالتحاق بدورات خاصة، والاستماع إلى مفكرين متخصصين. والخطأ الذي وقع فيه قياديو السلطة

هو الانتفاخ الكبير، الذي وصل حد الانبعاث، في تقدير الذات، فصاروا يقررون حسب رؤية ضيقة، ووفق آراء مستشارين محليين اختيروا من بينهم على أسس حزبية، من دون خبرات استشارية دولية ناضجة، فيما يتعلق بالعلاقات الدولية بشكل عام، والعلاقة مع المحتل الغاصب بشكل خاص.

المعادلة الثالثة: معادلة العيش في عصر الحياة: [٣١ ص: ١٧]

يعد القرن العشرون عصر التقدم العلمي والتقني والصناعي. وقد تم التوافق على اعتباره عصر الحروب والموت، إذ كانت الصناعة فيه موظفة لأغراض العدوان والسيطرة على الآخر، وابتزاز ثرواته، وهضم حقوقه. وطغى العلم والتجريب فيه على الجانب الروحي للإنسان. وفي الوقت الذي يتشكل التعليم العالي في إسرائيل من خلال ثماني جامعات، فإن لدى الفلسطينيين ثلاثاً وثلاثين جامعة، مع الفارق الكبير في التصنيف والتنوعية. لكن العلم وحده لا يغطي كافة نواحي الحياة الإنسانية، فهناك صور أخرى من الجوانب الروحية والذاتية المختلفة للحياة، وهي لا تقل أهمية عن العلم والمعرفة. وقد يقود التشبث بالاعتبارات الروحية إلى تضليل المرء، وسيادة الخوف والخرافة، مما يوجب الحفاظ على التوازن بين المعرفة العلمية من جهة والتمسك بالجانب الروحي من جهة أخرى.

(معادلة العيش في عصر الحياة = امتلاك المعرفة + التمسك بالاعتبارات الروحية)

ومن سخرية الأقدار أن يكون العلم، الذي يسمو بالفكر الإنساني إلى درجة أن ولاه الله خلافته في الأرض، يقر بأن للتفكير حداً لا يمكن تجاوزه، فيحنى نحو الأرض كما شجرة الحياة، إذ تتدلى أغصانها لتخرج مرة أخرى جذوراً جديدة تنجّه إلى الأعلى. وذاك هو سر الانتقال إلى عصر الاهتمام بالإنسانية، وبالجانب الروحي للحياة في بداية القرن الحادي والعشرين، والذي سمي عصر الحياة، في مقابل القرن العشرين الذي سمي عصر الموت. وإن لم يكن المرء في بداية القرن الحادي والعشرين راضٍ عن وضعه السياسي والاجتماعي والاقتصادي، فعليه أن لا يحمل الآخرين مسؤولية ذلك، كأن يلقي باللائمة على الوضع الاقتصادي أو نظرية المؤامرة. وليتحمل مسؤولية ظروفه بنفسه. وليتبع مقولة برنارد شو: الناجحون في الحياة هم أولئك الذين يسعون للعثور على الظروف المواتية لإنجاز ما يرغبون تحقيقه، وإن لم يجدها فإنهم يخلقون مثل تلك الظروف. فليدرك الفلسطينيون أنهم يعيشون في عصر الحياة، عصر التركيز على إنسانية الإنسان، بكل معطياته، وتحدياته، وظروفه. وتلك خطوة أساسية على طريق تحرير القدس من الغاصبين.

إن اكتشاف أمريكا عام ١٤٩٢م، وحركة لوثر ضد النظام البابوي عام ١٥١٧م، تعتبران منارتان بارزتان تعلنان ميلاد فترة تاريخية اصطلاح على تسميتها بالعصر الحديث، على الرغم مما يكتنف ذلك من خلط مع مفهوم الحداثة والجدّة. ويعد إعلان استقلال أمريكا عام ١٧٧٦م، والثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، مؤثران على بلوغ العصر الحديث أوج تطوره. أما إطلاق القنبلة الذرية على هيروشيما عام ١٩٤٥م، فيعد الحدث الأهم الذي يشير إلى بداية النهاية للعصر الحديث، على الرغم مما دعا إليه البعض أمثال ماكس فابر (Max Weber) وفوكوياما (Fukuyama Francis) من أن العصر الحديث يشكل نهاية التاريخ، وأنه لا وجود لمراحل تاريخية أخرى بعده، وأن أهمية الماضي تكون بقدر ما يؤثر في العصر الحديث. ثم تتوالى المؤشرات لبزوغ عصر جديد هو عصر العولمة أو العالمية. وترتكز العولمة (Globalization) على أساس تطبيق النظرية الداروينية في المجال المجتمعي، وتدعو إلى النظر إلى العالم ككيان شمولي، وإلى الأفراد كمواطنين في قرية عالمية تسودها فلسفة التفكير الجمعي والتكافل الاجتماعي. وإذا كانت بداية ظهور حركة العولمة تعود إلى عقد الثمانينيات من القرن العشرين، فإن جذورها تعود إلى عام ١٩٧٤م، حين أعلنت الأمم المتحدة نظاماً اقتصادياً عالمياً جديداً يشكل جانباً من جوانب العولمة. وفي مقابل حركة العولمة، تقف النزعات المحلية والوطنية والقومية والإقليمية (Localization). وينحصر الاهتمام فيها بمحاولة إزالة الفروق الفردية بين أفراد المجتمع المحلي، وجعل أفراد المجتمع أكثر توافقاً، وصولاً إلى حالة من الانتعاش الاقتصادي، وحل المشكلات المجتمعية. وكتعريف إجرائي للعولمة، يمكن القول أنها جعل الشيء عالمياً في حالات محددة، عن طريق تعميم قيم وتقنيات وممارسات ومنتجات معينة على جميع أنحاء العالم، شريطة أن يكون لهذه القيم والمنتجات والممارسات السائدة والمستخدمة عالمياً أثر كبير على حياة الناس، وباعتبار العالم ككل حقلاً واحداً للنشاطات الإنسانية كافة وميداناً لتطورها، وشريطة أن يكون التطور تدريجياً، ونتاجاً عن التفاعل بين مثل هذه الحالات، بحيث يتم النظر لهذه الحالات نظرة عمومية ومجردة. أو أنها عملية جعل الشيء عالمياً في كل المجالات أو بعضها. أو أنها التغيير التاريخي الناتج عن مجموعة التحولات. وبشكل عام، تتضمن العولمة تغييراً في مجالات أساسية هي النتائج البيئية للأنشطة الإنسانية على المستوى العالمي، وانحسار الشعور بالأمان نتيجة انتشار أسلحة الدمار الشامل، وانتشار وسائط الاتصال في جميع أرجاء العالم إلى حد صارت فيه الأقمار الصناعية تمثل عصر العولمة، مثلما كانت قصة رحلة

ماجلان تمثل العصر الحديث، وظهور الاقتصاد العالمي، واعتبار العالم وحدة واحدة تضم مختلف الأفكار والمبادئ والمعتقدات.

على المستوى الفكري، يمتاز العصر الحالي بتغليبه المنطق إلى حد جعل إميل دوركهايم يصف الجريمة بأنها إيجابية، لأنها زادت درجة الإحساس بضرورة الحفاظ على الضبط الاجتماعي. وعلى المستوى الاجتماعي، يمتاز باعتماده نظام الدولة القومية (-Nation State). وعلى المستوى الاقتصادي، يمتاز بتبنيه للرأسمالية. وبالتالي، فإن عصر العولمة يمتاز على المستوى الفكري بعدم تغليب المنطق بشكل مطلق، وتخطي حدود الدولة الوطنية والقومية على المستوى الاجتماعي، واعتماد مبدأ السوق الحر على المستوى الاقتصادي، مما يستلزم التنافس في السوق العالمي، والاهتمام بالأمور العالمية أكثر من الشؤون الدولية على المستوى السياسي. لذا فإن حركة العولمة، التي تهتم بالتهيئة لدخول عصر عالمي، تقتضي اتباع الإجراءات الأربعة الآتية:

- عدم اعتماد مرجعية العقلانية المطلقة على المستوى الفكري، بمعنى أن لا تسود استراتيجيات التفكير المنطقي بصورة مطلقة، وزيادة درجة الحدس المتضمن في نمط التفكير.

- وعدم اعتماد الدولة القومية على المستوى الاجتماعي، والبحث عن نقاط تقاطع جديدة بين الناس كالمعتقد أو الأساس الحزبي.

- وعدم اعتماد السوق المحلي القطري أساساً لدراسات الجدوى، بل النظر للعالم كوحدة واحدة تشكّل سوقاً واحداً على المستوى الاقتصادي.

- وعدم اعتماد المصالح القطرية أساساً للعلاقات بين الأمم، بل النظر للمسائل العالمية بشكل شمولي.

لقد خاض بيل كلينتون (Bill Clinton) الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة على خلفية التلويح بالتهديد الذي سيلحق بالمجتمع الأمريكي نتيجة تطبيق النظام العالمي الجديد. فصار شعاره الانتخابي هو التنافسية في الاقتصاد العالمي. وضمن آل جور (Al Gore) كتابه الموسوم الأرض في الميزان (Earth in the Balance) بعض الأفكار التي تهتم العالم ككل، مثل الأزمة البيئية التي تهدد العالم، وذلك كشعار انتخابي مؤثر يخاطب به الناخبين.

إن لحركة العولمة إيجابيات يجدر الانتفاع بها من قبل الدول الفقيرة. لكن من الواجب أن يتم التعامل معها بحذر شديد، بسبب ما ينسب إليها من اتهام بأنها نظرية استعمارية تستخدمها الدول الغنية لنهب ثروات الدول الفقيرة، واستغلال القوى العاملة الرخيصة

فيها، فضلاً عن جعلها سوقاً لمنتجاته. ويستلزم ذلك الانتقال بشكل متوازن من الحداثة إلى العالمية، عبر مرحلة أطلق عليها رولاند روبرتسون (Roland Robertson) مصطلح العولمالية (Glocalization)، وهو تعبير يستخدم في السوق اليابانية ليعني المحافظة على الهوية الثقافية الوطنية والثروات الطبيعية. وكذلك التفاعل مع الثقافات العالمية والتأثير فيها، مع الاستفادة من منتجات الحضارة الإنسانية. وخير مثال على ذلك الاتحاد الأوروبي، الذي تحاول كل واحدة من دوله تطوير إمكاناتها التقنية، وتدريب كوادرها الفنية، والمنافسة ضمن سوق التجارة العالمية، مع الحفاظ على الشخصية الوطنية، والثقافة المحلية، ضمن وحدة اقتصادية وسياسية كجزء من حركة العولمة.

يستلزم خلق ثقافة عالمية سيادة لغة معينة، ومعتقدات وأيديولوجيات محددة، وقبول عادات الآخرين وتقاليدهم، ونبذ التعصب الشخصي أو الوطني، والابتعاد عن النزعة الخصوصية. ولعل أبرز سمات التطور الثقافي الذي شهده العقد الأخير من الألفية الثانية التوجه نحو توحيد العالم ضمن وحدة غير متوازنة سماها مان (Mann) مجتمع العولمة، الذي يبدو مناهضاً للنزعة إلى الخصوصية، والتحول في قيادة الحركة الثقافية من شمال الأطلسي إلى غرب المحيط الهادئ، وسيادة اللغة الإنجليزية.

إن الشعب العربي الفلسطيني متعصب لوطنه، ويعيش عصر الموت بدلاً من الانتقال إلى عصر الحياة. فتزغرد الأم حين يستشهد ابنها، وتطغى صفة حب الموت على حبهم للحياة. وأحسب أن استراتيجيات المقاومة الديموغرافية أشد وقعاً، وأكثر مفعولاً، من كل أشكال المقاومة في ظل المعطيات التي يعيشونها.

المعادلة الرابعة: معادلة التسامح كقيمة إنسانية إيجابية [٢: ص ٧٥]

التسامح قيمة أخلاقية واجتماعية وسياسية ودينية وقانونية، أساسها مبادئ حقوق الإنسان، وفي مقدمتها العدل، والتعددية، واحترام العقيدة والرأي. وأقرر بداية أنه لا يجوز التسامح مع من يتصف بالعنصرية والتعصب والفاشية والعنف والعدوان، وأن قيمة التسامح تقوم على مبدأ الانسجام في الاختلاف، بهدف تحقيق السلم والأمن والتقدم الاقتصادي والاجتماعي للأفراد والشعوب. فلا تسامح مع مغتصبي فلسطين. ويعني ذلك أن التسامح يتضمن الاحترام المنضبط دون شطط، والقائم على التعامل بالمثل، والانفتاح الفكري، وبقدر معين من التحفظ، شريطة أن لا يشكل أية خطورة على الذات أو المجتمع ومؤسساته. فالتسامح قيمة أخلاقية لا يمكن فهمها إلا كنقيض للتعصب، وقيمة فلسفية تصقلها تجارب

التعايش الإنساني، وقيمة دينية لا يمكن استيعابها بعيداً عن مفهوم المحبة والإخاء، وقيمة سياسية تقبل بالحجة والاختلاف، وقيمة حقوقية تُشَرِّعُ لعدم التمييز وتجاوز الحقوق والواجبات في إطار المواطنة. ولا يجوز تغوّل دول على أخرى لنهب ثرواتها، والسكوت على احتلال أراضيها بدعوى التسامح. فكيف ينادي البعض بمعاهدات سلام وصكوك تسامح مع مغتصبي أرض فلسطين مثلاً..؟! ومن يحق له التوقيع على تسامح بشأنها، وهي وقف إسلامي يخص كل واحد من أبناء الأمة الإسلامية..؟!!

وفق هذه المقاربة الاجتهادية لتعريف مفهوم التسامح، ببعديه الشخصي والجمعي، يظهر أنه يتضمن مجموعة من القيم الأخلاقية، والفلسفية، والدينية، والحقوقية. ولا تشكل مثل تلك القيم بين عشية وضحاها. فمع تطور المجتمعات، وما نتج عن ذلك من بناء الحضارات القديمة، تطور مفهوم التسامح ليشمل البعدين الأخلاقي والفلسفي معاً. وقد ساهمت الحضارات القديمة في تطوير المفهوم، ليشمل كلاً من التسامح في مجال الأمن الاجتماعي والعقائدي والفكري، فضلاً عن التسامح في مجال الحفاظ على الأمن الثقافي والسياسي والاقتصادي.

ويقف مفهوم التسامح في مواجهة ضدية مع مفهوم التعصب بأبعاده الاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية. ففي حين يركز مفهوم التسامح، بما يحمله من قيم الخير على صفة الصّح، يقوم مفهوم التعصب، بما يحمله من قيم الشر، على الانتقام والكراهية والجحود والعدوان. وفي حين يقوم التسامح في تجليات معانيه على مبدأ الحوار الذي يتسع للرأي والرأي الآخر، يقوم التعصب على مبدأ احتكار الرأي ورفض الرأي الآخر. فمفهوم التسامح يستخدم الحوار أسلوباً وحيداً بين بني البشر، بحيث يتسع لمختلف وجهات النظر المتداولة بين الناس، وبما يفسح المجال لتصارع الأفكار بشكل سلمي، مما يؤدي إلى تحقيق التعايش والسلم الاجتماعي داخل المجتمع الواحد، بغض النظر عن عدم تجانسه، وتنوع انتماءاته العرقية والدينية والثقافية. وبالتالي، فإنه يحقق التعايش والسلم بين الشعوب أيضاً.

مفهوم التعصب، الذي يقف على النقيض من التسامح تماماً، يستخدم التناحر والقتال والعدوان أسلوباً لفض النزاعات والخلافات، ويفسح المجال لاستخدام العنف بين الناس كأسلوب لحل التناقضات، مما يؤدي إلى خلق حالة من التصارع المجتمعي العنيف، وتنمية العداء بين الشعوب، وبالتالي تعريض المجتمع والعلاقات بين الشعوب للخطر.

التعصب الديني موجود في المجتمعات التي تعتنق أياً من الديانات، وهو واضح لدى

أصحاب الديانات الإبراهيمية. في العصور الوسطى قامت الحروب الصليبية ، ولعب التعصب الديني فيها دوراً كبيراً. فالمسيحيون هاجموا المجتمعات اليهودية في أوروبا، وقاموا بمذابح فظيعة باسم المسيحية، كما حصل في مذابح اليهود في الراين، وفي مذبحه يورك. لقد انتشر التعصب بطريقه مريضة، والمسيحيون سمو المسلمين كفاراً، كما سمي المسلمون المسيحيين كفاراً. وارتكبت فظائع باسم أصحاب الديانتين. وبعد ظهور البروتستانتية انتشر التعصب المذهبي بين المسيحيين الكاثوليك والبروتستانت.

وقامت حروب دموية استمرت خلال العصر الحديث كما حصل في الحرب الاهلية في ايرلندا. ولم يظهر التعصب المذهبي بين المسيحيين بعد ظهور المذهب البروتستانتى أو بعد نشوب الحروب الصليبية، إنما ظهر قبل ذلك بقرون، حين سادت حالة من التعصب الديني المذهبي ما بين اتباع الكنائس البيزنطية والكاثوليكية من جهة وأتباع الكنيسة المصرية من جهة ثانية. وارتكب المسيحيون البيزنطيون مذابح رهيبة ضد المسيحيين في مصر. كان ذلك في العصور القديمة، قبل أن تتطور البشرية، وتشع عصور التنوير، وتظهر مبادئ حقوق الانسان.

ومع نهايات القرن العشرين، انتشر التعصب الديني في المجتمعات الإسلامية، وسادت أفكار متطرفة، واستجدت صراعات مذهبية ما بين السنة والشيعة في شرق المنطقة العربية، وحصلت اعتداءات على المسيحيين عن طريق أفراد وجماعات متعصبة. ولم يكن الصراع السنى الشيعي، والتعصب المذهبي الذي نتج عنه، جديداً أيضاً. فحتى قبل سقوط بغداد بأيدي المغول سنة ١٢٥٨م، كان الصراع يدور ما بين أتباع السنة والشيعة في تلك المنطقة. وفي العصر الفاطمي سادت حالة من التعصب ما بين أتباع الخلافة العباسية السنية في بغداد واتباع الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر.

أما في المجتمعات الغربية، فقد ظهرت أحزاب وجماعات يمينية متطرفة أيضاً. وقد اختلطت مفاهيمها بالأفكار العنصرية والدينية والسياسية، واستغلت تطرف الإسلاميين وأعمالهم الإرهابية للترويج لأفكارها، وتحقيق مكاسب سياسيه.

يخلق التعصب الديني، شأنه شأن التعصب العنصري، جواً من الكراهية بين البشر، إلى حد قد يصل إلى نتائج كارثية، وارتكاب جرائم بشعة ضد الغير، مثلما حصل في حالات الإرهاب، والاعتداء على المنتميين لأديان أو أفكار مخالفة لما يؤمن المتعصب بها. يذكر التاريخ أن خمسة من الزعماء قتلوا مائة وسبعة وثمانين مليون إنسان: الزعيم

الصيني ماوتسي تونج قتل (٧٩) مليوناً؛ والزعيم الروسي جوزيف ستالين قتل (٥٠) مليوناً؛ والزعيم النازي أدولف هتلر قتل (٤٠) مليوناً؛ وملك بلجيكا ليوبولد قتل (١٥) مليوناً في الكونغو؛ والزعيم الكمبودي بول بوت قتل ثلاثة ملايين إنسان. فلماذا تلتصق صفة التعصب والإرهاب بالإسلام، وليس بين هؤلاء أي مسلم..!!

التعصب الديني لا يتجسد بالضرورة على شكل اعتداءات جسدية. فيأخذ أحياناً شكل اعتداء كلامي ضد أصحاب الديانات والمذاهب الأخرى، وربما ضد المنتمين لنفس الدين والمذهب، ولكن لديهم وجهات نظر وتفسيرات مخالفة لأفكار المتعصب الذي يعاني في الأعم الأغلب من أحادية التفكير.

في الاعتداءات الكلامية، يوضح المتعصب أنه هو المحق في رأيه، بينما المخالفون لدينه أو مذهبه أو افكاره على باطل. ويستخدم عبارات دينية ونصوصاً من كتابه المقدس، ويمكن أن يستخدم أحداثاً تاريخية قديمة بطريقه سطحية وساذجة كالحروب الصليبية التي حدثت قبل قرون. فيسمى الغرب الحديث بالغرب الصليبي، أو أن المسلمين اضطهدوا المسيحيين ففرضوا عليهم جزية، لشحن المتلقي بمشاعر الكراهية. كما قد يستخدم التهكم والسخرية أو حتى الوعيد والتهديد. المتعصب بطبيعة الحال يبنى ادعاءاته على ما يؤمن به، ويستعين بكل الحيل اللفظية إلى أن ينتهي بالتهديد والوعيد بالعقاب في الآخرة، أو حتى في الدنيا عن طريق المتعصب نفسه لإرهاب المتلقي نتيجة رفضه أفكاره. ومن أشكال التعصب الديني الاعتداء الصامت، بمعنى أن لا يتعامل المتعصب مع أصحاب الديانات أو المذاهب الأخرى قولاً وعملاً. أيام الحروب الصليبية، كان الملك أو الأمير الصليبي يعقد اتفاقاً مع الملك المسلم، لكن الكنيسة تحله من اتفاهه، بحجة أن المسلم كافر، ولا يجوز عمل اتفاق معه أصلاً.

المجتمعات المنغلقة هي المجتمعات التي ترعى التعصب، على عكس المجتمعات المنفتحة، حيث يفكر الناس بحرية، ويعدون أنفسهم جزءاً من العالم كله. المجتمعات الاوربية قبل الحروب الصليبية كانت مجتمعات منغلقة، ومتخلفة، ويعمها التفكير الغيبي. وكان يسيطر عليها القساوسة والإقطاعيون. فكان من السهل نشر الأفكار الدينية المتطرفة، ومشاعر الكراهية بين الناس، لاستخدامهم في حروب ضد المسلمين.

يتعلم الطفل التعصب الديني من أمه وأبيه وهو صغير، أو عن طريق الاختلاط بأشخاص متعصبين، أو بالسيطرة على تفكيره عن طريق رجال دين يروجون لأفكارهم المتطرفة

والمعادية للغير. ومع التطور التكنولوجي صار بإمكان رجال الدين أن يثيخوا أفكارهم العدوانية للمتعصب المتلقي وهو في بيته، كما صار بإمكان المتعصبين الدينيين نشر أفكارهم عن طريق الانترنت، والتحريض ضد أتباع الديانات والمذاهب الأخرى. وعلى المستوى الفردي، تمتلك الشخص المتعصب أحاسيس بالكراهية ضد أتباع الديانات والمذاهب والفلسفات الأخرى. وتلعب الأمراض النفسية المرتبطة بالكبت والعدوانية وغيرها أدواراً محورية في تكوين مزاج الشخص المتعصب.

مفكرون أوروبيون، ومن بينهم فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م)، حاربوا التعصب. واستطاعت أوروبا أن تخرج من ظلمات الغيبيات، وأن تؤسس الدولة العلمانية التي فصلت الدين عن الدولة. وصار المواطنون رعايا للدولة المدنية الحاكمة، بغض النظر عن دياناتهم أو مذاهبهم. فخفت حدة التعصب الديني إلى درجة كبيرة. واستمرت الصراعات الدينية والمذهبية في منطقة الشرق الاوسط في العصر الحديث، وانتشر المتعصبون الدينيون والوعاظ المتعصبون، ومن وقت لآخر تجري اعتداءات على أتباع الديانات والمذاهب الأخرى، ودور عبادتهم. وصارت المنطقة مرتبطة في أذهان العالم بالتعصب الديني.

يطرح التسامح إشكالات عديدة تتعلق بمضمونه، وتاريخه، وحدوده، ومجالاته، وإمكاناته، وعلاقاته بالدين والسياسة والفلسفة. فهو أخلاقي وديني وفلسفي وسياسي وحقوقى، وله مضامين عديدة، ومستويات مختلفة تتمثل أساساً في حرية المعتقد، والإقرار بالاختلاف، والتنوع، مع مراعاة ضرورات التعايش والتعاون. ومع التقدم الحضاري وتطور العلوم الإنسانية، تغير مفهوم التسامح ليجمع بين مجموعة القيم الأخلاقية والفلسفية والدينية والسياسية، التي صاغها المجتمع الدولي في العقود الأخيرة في قانون عبرت عنه المواثيق الدولية المختلفة:

(التسامح = حرية المعتقد + حرية الاختلاف والتنوع + مراعاة ضرورات التعايش والتعاون +

الالتزام بالمواثيق الدولية)

ومن إشكاليات تعميم قيمة التسامح في المجتمعات العربية ما يمكن تلخيصه بعناوين أساسية تعتبر مناطق تابو خلافية يحظر مناقشتها في كثير من المجتمعات. ومن بينها مبدأ المساواة التامة بين الرجل والمرأة، في مقابل تطبيق بنود الشريعة الإسلامية؛ ومنها التمييز في التعامل بين أتباع الديانات السماوية وأتباع المعتقدات الأخرى؛ واعتماد مبدأ المواطنة في الدولة القومية مصدراً للحقوق والواجبات، بدلاً من التعامل على أساس الانتماء

الديني، أو وفق اعتبارات الأثرية والأقلية؛ ومنها أن للعلاقات الدولية منطقتها الخاص، وأصولها المتعارف عليها. فلا يجوز تغوّل دول على أخرى لنهب ثرواتها، والسكوت على احتلال أراضيها بدعوى التسامح. فكيف ينادي البعض بمعاهدات سلام وصكوك تسامح مع مغتصبي أرض فلسطين مثلاً..؟! ومن يحق له التوقيع على تسامح بشأنها، وهي وقف إسلامي يخص كافة أبناء الأمة الإسلامية فرداً فرداً..؟! تلك هي ملامح جدلية التسامح. وعلى كل امرئ أن يعيها، وأن يعمل بهدي منها، وأن يشكل ذلك جزءاً أساسياً من تفكيره الاستراتيجي.

المعادلة الخامسة: معادلة نجاح مساعي تحقيق المقاصد [ص: ٣٧٩]

لقد درس الخبراء المتخصصون أسرار السعي لتحقيق المقاصد، وأسباب فشله. وخلصوا إلى وصفة مجربة للنجاح في تحقيق مقاصد الأعمال، تتلخص في أن العناصر الأساسية اللازمة لذلك هي وضع رؤية واضحة ومحددة، وترجمة تلك الرؤية في رسالة تبين الأهداف، وكيفية تحقيقها، وتشكيل فريق عمل متماسك ومتناسق يقوم بالتشغيل والإدارة. ويستلزم شرط تحديد الرؤية توفر مهارات عقلية تساهم في تحديد ماهية الأهداف التي يرغب الفرد أو الجماعة في تحقيقها. وأما شرط الرسالة، فإنها تصف القوى الداخلية التي تشكل نظام إرشاد داخلي يدل على استراتيجيات الانتقال من نقطة البداية وحتى نقطة النهاية المطلوبة. وأما الشرط الثالث، فيشير إلى فريق العمل وكيفية بنائه. ويشار إلى ذلك كله بمعادلة بسيطة على النحو الآتي:

(نجاح مساعي تحقيق المقاصد = العقل + القلب + فريق العمل)

ومعنى ذلك أن النجاح حصيلة تفاعل ثلاثة عناصر، وهي العقل (Mind) الذي يتصف بالقدرة على التركيز، والقوى الدافعة الفطرية والمكتسبة التي يرمز إليها بالقلب (Heart) المتصف بالنزعة إلى التصميم وقوة الإرادة، وفريق العمل (Team) الذي يتمتع بالدافعية وإرادة الإنجاز. والجيش وحده صور فرق العمل لإنجاز المساعي العسكرية والسياسية بالطبع.

وقد حدد نابليون هيل (Napoleon Hill) عدداً من العوامل الأساسية الأخرى اللازمة للنجاح، وهي: فاعلية دافع الشهوة، والإيمان، والقدرة على الإيحاء الذاتي، والخيال، والمعرفة التخصصية، والقدرة على اتخاذ القرار، والقدرة على التنظيم المؤسسي، والمثابرة، والقدرة على العمل بروح الفريق، والتفكير الإيجابي، والطاقة الكامنة في العقل الباطن، والحاسة السادسة.

المعادلة السادسة: معادلة المستوى الثقافي الفردي والجمعي [ص: ١٤٣]

تعتبر العبقرية أساساً لمواكبة التطور الحضاري الإنساني. والقدس أيقونة العبقرية، والأنبياء يقتسمون تاريخ المقدس فيها، وبالتالي فإنها رمز للتطور الإنساني. فقد حكمتها اثنتان وثلاثون دولة. وأخذت من كل واحدة من تلك الدول أفضل ما لديها. لكن القدس، بطبيعتها الروحية، لا تتقبل سوى أصحاب المستوى الثقافي الأسمى، والمتمثل بفهم الآخر واستيعابه والتعايش معه. وذلك المستوى هو ما يدعو إليه الإسلام الحنيف.

معادلة المستوى الثقافي = الانتقال من مستوى التمرکز حول الذات (المستوى الأدنى) إلى مستوى التمرکز حول القومية إلى مستوى قبول الآخر إلى مستوى التعالي على الآخر إلى مستوى فهم الآخر واستيعابه (المستوى الأعلى).

إن القدس مدينة الله، أو بيت إيل كما يطلق عليها، وهي قدس الأقداس ومدينة السلام بالمعنى الثقافي الأشمل. وبالتالي تتنافر القدس كمكان عبقرى مع من يتمتع بمستوى ثقافى أدنى من تفهم الآخر واستيعابه والتعايش معه.

والإسرائيليون لم يصلوا ذلك المستوى من التطور الثقافى، لأنهم من مستوى التعالي على الآخر، بل تراجعوا إلى مستوى التمسك بالقومية، بعد اعتماد قانون القومية العنصرى. وهم يؤمنون وفق ثقافتهم الدينية اليهودية بأنهم شعب الله المختار. فتتعامل الصهيونية بعقلية الجيتو الداعية للتكاتف في وجه الأخطار، وتجنب الذوبان والانفتاح الكامل على المجتمعات العربية. وفي ذلك مؤشر على التردى إلى مستوى التمرکز حول الذات. وحوارها مع الآخر ضرب من حوار الطرشان، ولا يمكن أن يؤدي إلى أية نتائج إيجابية. وما دام المغتصب يصر على مثل ذلك السلوك البربرى، والتردى في مهاوى التخلف الثقافى، فلا بد من مقاومته بكل السبل.

ولم يستوعب العرب ذلك أيضاً. وظلوا في مستويات ثقافية متدنية من التمرکز حول الذات، والتمرکز حول القومية، أو حتى قبول الآخر كما هو حال الشعب العربى الفلسطينى. ونسوا قول الله تعالى للمسلمين بأنهم كانوا خير أمة أخرجت للناس، وأن عليهم الارتقاء إلى مستوى فهم الآخر واستيعابه، كما كانوا أيام الحكم الإسلامى بشكل عام. وتقع على العرب والمسلمين مهمة تحديد معالم الطريق لاستحقاق القدس بجدارة، وأداء الأمانة التى كلفوا بها، والمتمثلة بحماية المقدسات والمبادئ السامية التى دعت إليها كافة الديانات السماوية. وبغير ذلك فإن القدس ستلفظهم، وتأبى أن تكون لهم حتى يغيروا ما بأنفسهم،

من أجل أن تظل محافظة على صورتها الأصيلة التي خصها الله بها، كرمز للقبول الثقافي بالآخر، والتعايش معه ضمن مجتمع يؤمن بالتعددية ويتحلى بالتسامح دون تفريط. قلا تسامح مع الغاصبين من دون إعادة الحقوق إلى أصحابها. تلك بعض معالم الطريق إلى روح القدس، رسمها الخليفة عمر بن الخطاب تسامحاً، وتواضعاً، وتقبلاً للآخر المغلوب على أمره، حين استقبله صفرونيوس ليسلمه مفاتيح القدس. كما رسم بعض ملامحها صلاح الدين الأيوبي أيضاً، وذلك في تعامله مع القائد الصليبي ريتشارد قلب الأسد، وكذلك حين أحترم رجل الدين المسيحي الذي جاء من السويد محارباً في حملة صليبية بربرية غاشمة، ووقع في الأسر بأيدي المسلمين، فأكرمه وأعادته سالمًا مبعلاً إلى بلاده، رأفة برجال الدين. وفي ذلك مقابلة الإساءة بالإحسان عند المقدرة. ونتيجة لذلك، ما زال اسم صلاح الدين الأيوبي يذكر في تلك البلاد حتى اليوم كنموذج للتسامح.

إن الآية الكريمة المتضمنة في سورة الفاتحة: إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، تعني ثمني الوصول إلى المستوى الثقافي الأسمى وفق تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، والمتضمن فهم الآخر واستيعابه والتعايش معه. وذلك المستوى أسمى مما تم تحريفه عن الديانات السماوية الأخرى، ومن المناداة بالتشبهت بالمستوى الثقافي المتمثل بالتعاليم على الآخر. إن عدم فهم تلك الحقيقة يشكل جدلية تسبب إشكالية التطرف والتعصب الديني في المجتمعات الإنسانية.

معادلات التحرر والتحرير ستة، ويمكن تلخيصها على النحو الآتي:

الأولى: معادلة الانتصار = التوحيد + الوحدة + الجهاد.

الثانية: معادلة النجاح والإنجاز = الحكمة + المهارة + الفضيلة.

الثالثة: معادلة العيش في عصر الحياة = امتلاك العلم + التمسك بالاعتبارات الروحية.

الرابعة: معادلة التسامح = حرية المعتقد + حرية الاختلاف والتنوع + مراعاة ضرورات التعايش والتعاون + الالتزام بالمواثيق الدولية.

الخامسة: معادلة نجاح المسعى لتحقيق المقاصد = العقل + القلب + فريق العمل.

السادسة: معادلة المستوى الثقافي = الانتقال من مستوى التمركز حول الذات (المستوى الأدنى) إلى مستوى التمركز حول القومية، ثم إلى مستوى قبول الآخر، ثم إلى مستوى التعالي على الآخر، ثم إلى مستوى فهم الآخر واستيعابه (وهو المستوى الأعلى). وبالإجمال، فإن الجدول رقم (٨) يلخص معايير قياس مدى توافق الوضع الفلسطيني مع

معطيات معادلات التحرر والتحرير آفة الذكر. وبين التأمل فيها حاجة الفلسطينيين لعدد من العناصر اللازمة لتصويب أوضاعهم لتحقيق الانتصار المبين في نزاعهم مع الصهاينة الغاصبين.

الجدول رقم (٨)

معايير قياس مدى تحقق شروط انتصار المقاومة الثقافية *

الرقم	المعادلة	الشروط المتضمنة في المعادلات	مدى تحقق الشرط
١	معادلة ثلاثية سبل الانتصار (الانتصار = التوحيد+الوحدة + الجهاد)	التوحيد بمعنى الاعتراف لأبناء الديانات السماوية بحقهم الإيماني، ووجودهم، وممارسة شعائرهم الدينية.	
		الوحدة الشعبية (تأبي العصي إذا اجتمعن تكسراً، وإذا افتقرن تكسرت أحاداً).	
		الاستعداد للجهاد بالنفس والمال والقول والفكر، والالتزام به، وعدم التهرب من أدائه.	
		عدم توفر التدريب العسكري اللازم للجهاد بالنسبة للفلسطينيين في الشتات.	
٢	معادلة النجاح والإنجاز = ثلاثية الحكمة والمهارة والفضيلة	الحكمة بمعنى معرفة ما يجب أدائه في مواقف معينة.	
		المهارة بمعنى الحذق أو معرفة كيفية الأداء.	
		الفضيلة بمعنى القدرة على تحديد الأثر الانفعالي الاجتماعي للأداء الذي يصاغ على شكل نتائج أدائية واقعية محددة، وقبوله أو رفضه وفق القيم الإنسانية الرفيعة.	
٣	معادلة العيش في عصر الحياة	عدم التشبث بالقيم السائدة في عصور التخلف، عصور سيادة الخواف والخرافة.	
		الاعتراف بإنسانية الإنسان، بكل معطياته، وتحدياته، وظروفه.	
		البعد عن التقوقع، والاحتماء وراء ذكريات الماضي وتاريخه المجهيد.	
		التمسك بمبادئ التراحم والتشاركية.	

	الإيمان بحرية المعتقد.	معادلة التسامح كقيمة إنسانية إيجابية	٤
	الإقرار بالاختلاف، والتنوع، مع مراعاة ضرورات التعايش.		
	الاعتراف بتعدد الثقافات في المجتمع العالمي.		
	الاعتراف بهويات الآخرين ضمن النسيج الاجتماعي الوطني.		
	الموازنة بين العقل والعاطفة في حل القضايا.	معادلة نجاح المسعى = لتحقيق المقاصد العقل + القلب + فريق العمل	٥
	عدم التصرف من منطلقات عاطفية بحتة.		
	توفر فريق عمل سياسي وطني مدرب وملتزم.		
	توفر الجيش الوطني المنظم على التراب الوطني أو في قواعد حليفة.		
	مدى الارتقاء من مستوى التمركز حول الذات / إلى التمركز حول القومية / إلى قبول الآخر والتعايش معه / إلى التعالي على الآخر/ إلى التكامل مع الآخر.	معادلة المستوى الثقافي الجمعي	٦
المجموع الكلي للتقديرات			

* (يجري تقدير مدى تحقق كل شرط على مقياس حده الأعلى خمس علامات وحده الأدنى صفر)

ولدى استفتاء مجموعة من الأكاديميين العرب حول مدى تحقق هذه الشروط لدى الشعب العربي الفلسطيني، الذي يتحلى بالقدرة على خلق صور إبداعية إيجابية للمقاومة الراضية للاستعمار الاستيطاني في فلسطين، كانت النتيجة العامة أنه يحقق ما نسبته (٨٣٪) منها. كما يؤخذ من الاستفتاء ملاحظات حول أسباب تأخر الانتصار في الصراع مع الصهاينة الغاصبين، وهي على النحو الآتي:

- عدم توفر الجيش الوطني المنظم على التراب الوطني في الضفة الغربية كما هو الحال إلى حد ما في غزة، أو في قواعد حليفة خارج فلسطين.

- عدم توفر التدريب العسكري اللازم للجهاد بالنسبة للعرب الفلسطينيين في الشتات.

- عدم توفر فريق عمل سياسي وطني كفؤ وشاب ومدرب وملتزم ومتنور، ولا يقوم على الحزبية.

- عدم توفر الوحدة الوطنية التي تجمع القوى وتلم القدرات، ولا تعترف بحزبية تفرق الناس، وتشقت القوى، وتفصل غزة عن باقي أراضي فلسطين.

وعلى الرغم من عدم توفر الظروف المواتية لبناء جيش وطني، يدرك الفلسطينيون أنه لا يمكن استرداد الوطن السليب من دون وحدة وطنية ووجود جيش مدرب ومسلح، وفريق عمل سياسي كفؤ ومؤهل ومحرك وملتزم، ومن نوعية عالية غير ما تعتمد السلطة الوطنية الفلسطينية، بناء على معايير حزبية أو مناطقية أو شخصية. ولا بأس من الاستفادة من الخبرات العالمية في هذا الشأن.

الخطة الاستراتيجية للفلسطينيين واضحة. وهي تلتزم بمضمون العبارة الأساسية لتقييم مدى نجاح الخطط، وفحواها: سوية الاهداف وسوية الوسائل لتحقيقها

(Fitness of Purpose, and Fitness for Purpose)

إن حوكمة الرؤية والرسالة والأهداف عند الفلسطينيين تبين أن ما هو متضمن في الجزء الأول من العبارة ما زال سليماً ثابتاً، وتتمحور حول تحرير فلسطين من المحتل الغاصب. أما بالنسبة للإجراءات المتضمنة في الجزء الثاني من العبارة، فلا بد من مراجعة عناصر معادلات التحرر والتحرير، وفق خطة خمسية مثلاً، وتصويب كل خلل فيها.

لقد ركز المشروع الصهيوني قبل قيام إسرائيل وبعدها على التخطيط الإستراتيجي المتواصل الذي يقدم تنبؤات بديلة، وي طرح سلم أولويات وأفضليات قومية، في حين تميز الأداء العربي وباستثناءات قليلة في الخمسينيات والستينيات، بالتعامل العملي الإراغماتي والظرفي مع

تطورات وأحداث الصراع مع إسرائيل. وفي حين تخصص العديد من المؤسسات والأوساط البحثية في مختلف المجالات النووية والعسكرية والأمنية والاقتصادية والديموغرافية في التعامل مع الصراع وإدارته، ما زال التعامل العربي مقتصرًا على الإدارة الرسمية البيروقراطية التي تضم مؤسسات الحكم ووزارات الخارجية والدفاع وإدارات المخبرات فقط، ونادرا ما تعتمد الحكومات العربية على مراكز التخطيط الإستراتيجي العامة والخاصة.^[٣٧]

لقد منح مسار أوسلو الدبلوماسي منظمة التحرير الفلسطينية موطن قدم شبه سيادي في الضفة الغربية وقطاع غزة، وهو إنجاز استراتيجي لم تكن منظمة التحرير الفلسطينية تحلم بتحقيقه لو أنها تمسكت بطريق الكفاح المسلح. وعلى أرضية هذه الإستراتيجية، والتي تسخر الدبلوماسية في خدمة المعركة ضد الدولة الصهيونية، يمكن فهم سبب رفض عرفات نبذ طريق العنف بعدما حصل على موطن القدم المنشود في الضفة والقطاع. وقال إنه بدلاً من استثمار كل جهودهم في بناء الدولة، فضل الفلسطينيون أن يقيموا في المناطق التي سلمت لهم كياناً شبه منظم. ولكن الأثر النهائي للاتفاقية كان سلبياً. ولذلك قام الفلسطينيون بإعلان انفكاكهم من كل تلك الاتفاقيات التي مزقت أرض فلسطين إلى ثلاث مناطق (أ، ب، ج)، وتتبع غالبيتها لسلطة الاحتلال بصورة شبه مباشرة.

لقد كان لزاماً على الفلسطينيين أن يتداعوا لإعادة النظر في اتفاقيات مدريد وأوسلو وكامب ديفيد وغيرها في بداية سبتمبر ٢٠١٩م، بسبب عدم التزام إسرائيل بها، واستخدامها لها للاستحواذ على (٦٠٪) من البقية الباقية من أراضي السلطة الفلسطينية. كما يجدر بهم إعادة تقييم فك الارتباط مع الأردن، الذي أعطاهم فرصة الإحساس بهويتهم الوطنية، لكنه في الوقت ذاته حرمهم القاعدة الرئيسة لوجود قاعدة حليفة خارج فلسطين، وهو عنصر أساسي على طريق التحرير. كما يجدر بالفلسطينيين إعادة تقييم المقاومة داخل الأرض المحتلة، وما يقوم به الأبطال في غزة هاشم، وكذلك المقاومة خارج فلسطين.

يعي الفلسطينيون تماماً أنه لا تحرير للقدس من دون تحقيق مستوى عال من التوافق مع معادلات التحرر والتحرير، فهي السبيل القويم لنيل وسام استحقاق القدس.

القدس أيقونة العبقرية، وهي بطبيعتها الروحية لا تتقبل سوى أصحاب المستوى الثقافي الأسمى على سلم التطور الثقافي. وذلك المستوى هو ما يدعو إليه الدين الإسلامي الحنيف. فالقدس مدينة الله، أو بيت إيل كما يطلق عليها، ومدينة السلام والعبقرية بالمعنى الثقافي الأشمل. وبالتالي تتنافر القدس كمكان عبقرى مع من يتمتع بمستوى ثقافي أدنى من

تفهم الآخر واستيعابه ضمن النسيج الوطني الفلسطيني، أصحاب الأرض الحقيقيين. ويذكر هنا أن جولدا مئير كانت تحمل جواز سفر فلسطيني، وأن +شمعون بيرس رئيس وزراء ما سمي بإسرائيل طلب تأشيرة سفر من دولة فلسطين، ليأتي إليها لاجئاً. وفي طلب تأشيرة السفر عبارة: أقسم بالله العظيم أن أكون مخلصاً وأميناً لدولة فلسطين.

ودولة الاحتلال الصهيوني لم تصل ذلك المستوى من التطور الثقافي، لأن الصهاينة بصنفون ضمن أصحاب مستوى التعالي على الآخر، لا بل تراجعوا إلى مستوى التمرکز حول القومية بعد صدور قانون القومية. وهم يؤمنون وفق ثقافتهم الدينية اليهودية بأنهم شعب الله المختار. ونسوا قول الله تعالى للعرب المسلمين أنهم كانوا خير أمة أخرجت للناس، وأن عليهم الارتقاء إلى مستوى المجتمع المتكافل، كما كانوا أيام حكم المسلمين الأوائل بشكل عام. وتقع على عاتق العرب والمسلمين عامة، والفلسطينيين خاصة، مهمة تحديد معالم الطريق لاستحقاق القدس بجدارة، وأداء الأمانة التي كلفوا بها، والمتمثلة بحماية المقدسات. وبغير ذلك فإن القدس ستلفظهم، وتأتي أن تكون لهم حتى يغيروا ما بأنفسهم، لتظل محافظة على صورتها الأصيلة التي خصها الله بها، كرمز للقبول الثقافي بالآخر، ضمن مجتمع متكافل يؤمن بالتعددية وإعطاء كل ذي حق حقه.

تلك بعض معالم الطريق القويم إلى روح القدس، رسمها الخليفة عمر بن الخطاب تسامحاً وتواضعاً وتقرباً للآخر المقهور والمغلوب على أمره، حين استقبله صفرونيوس ليسلمه مفاتيح القدس. كما رسم بعض ملامحها صلاح الدين الأيوبي أيضاً، وذلك في تعامله مع القائد الصليبي ريتشارد قلب الأسد، وكذلك حين احترم رجل الدين المسيحي الذي جاء من السويد محارباً في حملة صليبية بربرية غاشمة، ووقع في الأسر عند المسلمين، فأعاده سالمًا مبعلاً إلى بلاده، وأفة رجال الدين. وفي ذلك عفو عند المقدرة. ونتيجة لذلك، ما زال اسم صلاح الدين الأيوبي يذكر في تلك البلاد حتى اليوم كنموذج لتسامح المسلمين.

المقاومة الديموغرافية قمة استراتيجيات المقاومة الفلسطينية:

تؤكد الإحصاءات السكانية الصادرة عن الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني والبيان البرلماني الإسرائيلي وجمعية الجليل في الناصرة أن عدد الفلسطينيين يتساوى مع عدد اليهود في فلسطين التاريخية. فوق إحصائيات عام ٢٠١٨ م، بلغ عدد الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة حوالي (٤,٨) مليون نسمة (٢,٩ مليوناً في الضفة الغربية، و١,٩ مليوناً في غزة)،

كما وصل عددهم في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨م (١,٤) مليون نسمة، أي بمجموع يقارب (٦,٢) مليون نسمة، وهو مساوٍ لعدد اليهود في فلسطين، على الرغم من كل حملات الاستقطاب لليهود والتهجير للفلسطينيين. [٩:ص ٣٧].

تلك البيانات الإحصائية مدعاة للتساؤل، إذ أن القبلة الديموغرافية ما زالت تؤرق كيان الاحتلال الإسرائيلي. ولم ينجح الاحتلال في رفع عدد سكان فلسطين اليهود ليتجاوزوا عدد السكان الفلسطينيين الأصليين. ولم ينفخ الغاصبين ما وظفوه في سبيل ذلك من طرد السكان، واستقدام مهاجرين جدد من إثيوبيا والاتحاد السوفياتي السابق، عدا عن المهاجرين الأوروبيين. وطرح تلك البيانات على لجنة الخارجية والأمن في الكنيست، وطلب استجواب المسؤول الإسرائيلي عما يسمى الإدارة المدنية للأراضي المحتلة، تعبير واضح عن المخاوف الإسرائيلية التي تعرض باستمرار في مؤتمر هيرتسليلا السنوي. ويؤكد تلك المخاوف تناقص الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وفقدان الحوافز بريقها لجذب المهاجرين، وتزايد القلق من الهجرة المضادة، وتفاقم التشرذم وعدم التجانس في المجتمع الإسرائيلي المغتصب لأرض فلسطين. الكلمة المفتاحية تكمن في تداعيات تلك الأرقام على المحددات السياسية للطرفين، خصوصاً لجهة الحلول المقترحة بين إعلان دولة فلسطينية مستقلة، وقبول إسرائيل بالانسحاب إلى حدود عام ١٩٦٧، أو الضم الإسرائيلي للضفة كاملة، وما يعنيه ذلك من القبول، عاجلاً أو آجلاً، بدولة ثنائية القومية.

من وجهة النظر الفلسطينية، يكمن المدلول السياسي المباشر لتلك الإحصاءات في أن خيار الصمود والثبات في فلسطين يتفوق على كل الاجتهادات الأخرى، مما يوئد شعوراً قومياً ووطنياً عابراً للخلافات بين الفلسطينيين، وللاحتلال، ومولداً للمقاومة المشروعة. تلك النتيجة تعزز المدلول الاستراتيجي غير المباشر لنتائج الإحصاء، وهو الحقيقة التاريخية لشعب يعيش على أرضه، مندمجاً طبيعياً وبيئياً بحيطه، ومكانه، في مقابل مجتمع إسرائيلي مصطنع، وغير منتمي إلى الأرض، ولا إلى المحيط الحضاري الإقليمي، واعتماده الأساسي على المساعدات الأميركية والأوروبية الكفيلة بحفظ مستويات معيشة أفضل من تلك التي عاشها في أوروبا وروسيا وغيرها. لكن الترجمة النظرية المهمة تبقى في امتلاك الفلسطيني الحيوية التاريخية التي تتولد من الهيمنة على المكان. والهيمنة هي في الرسوخ، وحجم الامتداد، والقدرة على الصمود في مواجهة أقوى تحالف عدواني شهده التاريخ الحديث ضد الشعب العربي الفلسطيني الأعزل، على الرغم مما فقده من أرضه في نكبة عام ١٩٤٨م،

وما واجهه من قمع وإرهاب وتعسف واقتلاع من الأرض. [٨: ص ٣٣].

الإحصاءات الجديدة مدعاة للتأمل أيضاً في انتصار الواقع الطبيعي على التخطيط الخارجي المضاد. وأمام رفض الاحتلال وقيادات إسرائيل للخيارات التي لا يمكن إلا أن يكون الفلسطيني في جوهرها، سواء الضم أو الدولة المستقلة أو الحكم الذاتي، فإن البديل أمام الكيان الصهيوني هو الإمعان في الاستعباد والقهر للفلسطينيين العزل أمام آلة الحرب والعدوان الغاصب، وتفعيل آليات الاحتلال إلى أقصاها. وكلها لا تغير شيئاً من واقع الحال المقاوم الذي يتمتع به الفلسطينيون. ويشير ذلك لدى يهود العالم والداعمين لإسرائيل حول جدوى الدعم الموصول لإسرائيل، وبخاصة بعد مسيرات العودة في غزة، التي تمثل الإصرار العنيد على مواصلة الكفاح حتى تحرير الأرض وما عليها.

الحيوية التاريخية للشعب الفلسطيني تكمن أيضاً في القدرة على امتصاص الصدمات، وعلى الصمود الطويل على امتداد الصراع، وهو في النهاية دليل الهيمنة، وصورة تطور المجتمع، وتفاعله مع المكان والزمان، وتماسك كتلته الاجتماعية والاقتصادية والحضارية والثقافية الفلسطينية العربية المسلمة. تلك هي عبقرية الزمان، والمقاومة السلمية المؤثرة في وجه الاستعمار الإسرائيلي الاستيطاني في فلسطين، بصورة أجدى وأوقع مما دعا إليه غاندي في الهند.

في بداية الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية عام ١٩٦٧م، قاطع الفلسطينيون البضائع الإسرائيلية، وأعلنوا العصيان المدني. وظلوا على ذلك الحال مدة ثلاثة أشهر، ذاقوا خلالها الأمرين جراء عدم توفر المواد الغذائية الأساسية. وبعدها اضطروا لشراء الغذاء من إسرائيل. ووقف الحاكم العسكري التابع لسلطة الاحتلال ليعلم في نابلس: اليوم أتمنا احتلال الضفة الغربية، ويقصد بذلك الاحتلال الاقتصادي. وعاود الفلسطينيون اتباع سبل المقاومة بمقاطعة البضائع الإسرائيلية، فأعلنوا عام ٢٠١٩م مشروع العناقيد الزراعية والصناعية والسياحية، ليصلوا مراحل الاكتفاء الذاتي، وتقليل حجم التبادل التجاري مع سلطات الاحتلال إلى أدنى مستوى ممكن. ويحاول المكتب الإقليمي للاتحاد العربي للعمل الإنساني والتنمية المستدامة في فلسطين إيجاد التمويل اللازم لتفعيل مشروع تربية أبقار في الضفة الغربية المحتلة، لسد حاجة المجتمع الفلسطيني من اللحوم، إذ يستورد من الكيان الصهيوني المحتل ما لا يقل عن ثلاثة عشر ألف رأس من الأبقار سنوياً. وتتضمن دراسة الجدوى للمشروع زراعة مساحات واسعة من البرسيم كأعلاف، مما يشغل مزيداً

من القوى العاملة، ويستغل مياها عادمة بعد تنقيتها. وكانت تلك المياه تنساب إلى أراضي فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨، وتتقاضى سلطات الاحتلال ضريبة لقاء ذلك تتقدر بمبلغ سبعة ملايين ديناراً سنوياً.

وحين قبل الفلسطينيون العمل في المؤسسات والشركات الإسرائيلية لكسب قوتهم، وتوفير مقومات البقاء على الأرض في غياب الدعم الاقتصادي العربي لهم، قالت إسرائيل أنها وجدت الأيدي العاملة الرخيصة اللازمة لنهضة كيان الاحتلال وتعميره. وعلى الرغم من كافة نداءات الاستغاثة للدول العربية والإسلامية لمساعدتهم على الصمود، لم تقدم لهم أية مساعدات ذات قيمة.

وتفتق العبقرية الفلسطينية كل يوم عن صور مقاومة جديدة، وتتجذر روح المقاومة في نفوس الأجيال الصاعدة، حتى صار انتهاجها أضعف الإيمان، حين يجرمون سبل الكفاح المسلح ضد المحتل الغاصب.

المقاومة بالكفاح المسلح:

في ظل التنافر الثقافي غير القابل للتجسير بين الفلسطينيين والصهاينة الغاصبين، يبدو أن خارطة الطريق القويم للحفاظ على القدس بالنسبة للفلسطينيين، تكمن في الارتقاء إلى المستوى الثقافي الأعلى، واتباع ثقافة المقاومة المتجذرة في نفوسهم كواحدة من صور العبقرية التي يتضافر المكان والزمان والإنسان في تشكيلها. كما تتضح أهمية الوحدة الوطنية بين كافة الفصائل الفلسطينية، لاستكمال معادلة الانتصار المتمثلة بالتوحيد والوحدة والجهاد.

تعتبر المقاومة الديموقراطية أبرز الاستراتيجيات التي ألهم الله الشعب العربي الفلسطيني لاتباعها. إذ الدراسات إلى أن أية ثقافة تحتاج توفر معدل إنجاب في الأسرة قدره (٢,١١) كحد أدنى شرطاً للاستدامة والانتقال إلى جيل لاحق. وبدون ذلك تندثر تلك الثقافة. والواقع أن معدل الخصوبة الكلي في الأراضي الفلسطينية يبلغ حوالي (٤,٢) مولوداً، منهم (٣,٨) مولوداً في الضفة الغربية وحوالي (٤,٩) مولوداً في قطاع غزة. وهي من أعلى المعدلات الموجودة في العالم. ولعل ذلك هو الدافع لسن قانون القومية، الذي أعلن لتدارك الخطر الديموغرافي الداهم. ولعله أيضاً سر استعداد عدد من مسؤولي سلطات الاحتلال للتخلي عن قطاع غزة.^[٩]

إن المقاومة التي يفهم عالم اليوم لغتها هي المتمثلة بكلمات الشاعر الفلسطيني الشهيد عبدالرحيم محمود في قصيدته الشهيد :

سأحمل روحي على راحتي وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسر الصديق وإما ممات بغیظ العدى
وما العيش؟ لا عشت إن لم أكن مخوف الجناب حرام الحمى

كما تتمثل في قصيدته الشعب الباسل المثبتة في نهاية الفصل السادس أيضاً. وأقتبس منها ما يأتي:

الحق ليس براجع لذويه إلا بالحراب
والصرخة النكراء تجدي لا التلطف والعتاب
والنار تضمن والحديد لمن تساءل أن يجاب
حكمهما فيما تريد ففيهما فصل الخطاب

لا شك في أن المقاومة السلبية فاعلة، ومنغصة لوجود المحتل الغاصب. ولكنها لا ترقى إلى درجة أن تكون أداة لتحرير الأرض منه بالمطلق، من دون انخراط كافة فصائل المقاومة ضمن جيش وطني موحد له قواعد عسكرية على الأرض، أو في قواعد حليفة. ولا بد من المقاومة الإيجابية الفاعلة المتمثلة بالجهاد. ومن هنا يبرز دور الدول العربية والإسلامية في توفير القواعد اللوجستية اللازمة لذلك. وأحسب أن ذلك حتماً بعيد المنال في زمن تتسم فيه الأوضاع في العالمين العربي والإسلامي بالوهن، والتبعية السياسية والاقتصادية، والخوف من الاتهام بالإرهاب. وذلك ما دفع الشاعر الفلسطيني يوسف الخطيب إلى القول:

أَكَادُ أُوْمِنُ، مِنْ شَكِّ وَمِنْ عَجَبٍ *** هَذِي الْمَلَايِينُ لَيْسَتْ أُمَّةَ الْعَرَبِ
أُمَّتِي، يَا شُمُوخَ الرَّأْسِ مُتَلَعَةً *** مَنْ عَلَّ رَأْسَكَ فِي الْأَقْدَامِ وَالرُّكْبِ
أَأَنْتِ أَنْتِ، أَمِ الْأَرْحَامُ قَاحِلَةٌ *** وَبُدِّلْتُ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، أَبَا لَهَبٍ !!

تشير المقارمة الفلسطينية إلى الحراك والسياسات والدعوات والعمليات التي تدعو لمقاومة الاحتلال والاستعمار الصهيوني الأرض الفلسطينية، وتسعى لرفعه. وتقوم بحركات متنوعة تتراوح بين المقاومة المدنية والشعبية والمسلحة. ويستخدم المصطلح للإشارة إلى الفترة

بين بدء الإحتلال البريطاني لفلسطين عام ١٩١٨م وحتى الوقت الحالي، من أبرزها ثورة ١٩٣٦م وإعلان الإضراب العام الكبير. وبعد عام ١٩٤٨م وسحق المقاومة، وتهجير السكان، بدأت تظهر فصائل فلسطينية ذات طابع سياسي. وأصبح مصطلح المقاومة جزءاً من هوية

الشعار	سنة التأسيس	فصائل المقاومة الفلسطينية
	١٩٦٤	منظمة التحرير الفلسطينية
	١٩٦٥	حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)
	١٩٦٧	الجهة الشعبية لتحرير فلسطين
	١٩٦٩	الجهة الديمقراطية لتحرير فلسطين
	١٩٧٠	حركة الجهاد الإسلامي
	١٩٨٧	حركة المقاومة الإسلامية (حماس)
	٢٠٠٠	لجان المقاومة الشعبية

الجدول رقم (٩): أبرز فصائل المقاومة الفلسطينية وفق الترتيب الزمني لتشكيلها

الفصائل الفلسطينية حسب الترتيب الزمني لتشكيلها^[٩].

ومن أبرز كتائب المقاومة الفلسطينية المسلحة كتائب الشهيد عز الدين القسام، وسرايا القدس، وألوية الناصر صلاح الدين، وكتائب أبو علي مصطفى، وكتائب المقاومة الوطنية، وكتائب شهداء الأقصى (وقد توقفت الأخيرة عن المقاومة رسمياً عام ٢٠٠٧ في الضفة الغربية المحتلة).

وما دامت معادلة الانتصار تقتضي الجمع بين التوحيد والوحدة والجهاد، فإن عدم وحدة الفصائل تحت مظلة جهاد مقدس هدفه تحرير فلسطين سيحرمها فرصة الانتصار المبين. وكنماذج من العمليات التي نفذتها منظمات المقاومة الفلسطينية ضد المستوطنين

عدد القتلى	التاريخ	الإسم/ المكان
١٢	٢٢ نوفمبر ١٩٦٨	سوق محانيه يهودا في القدس
١٢	٢٢ مايو ١٩٧٠	باص قادما من أفييم
١	٨ مايو ١٩٧٢	اختطاف طائرة ساينا
٢٥	٣٠ مايو ١٩٧٢	مذبحة مطار اللد
٢٨	١٥ مايو ١٩٧٤	مذبحة معالوت
١٣	٤ يوليو ١٩٧٥	ساحة تسيون في القدس
٣٧	١١ مارس ١٩٧٨	باص سافرا من منطقة حيفا إلى تل أبيب
٣	٧ مارس ١٩٨٨	قرب ديمونا
٨	٦ أبريل ١٩٩٤	العفولة
٥	١٣ أبريل ١٩٩٤	الخصيرة
٢٢	١٩ أكتوبر ١٩٩٤	تل أبيب
٢٢	٢٢ يناير ١٩٩٥	مفترق بيت ليد
٦	٢٤ يوليو ١٩٩٥	رمات غان
٤	٢١ أغسطس ١٩٩٥	مدرسة رينيه كاسين في القدس

عدد القتلى	التاريخ	الإسم / المكان
٢٦	٢٥ فبراير ١٩٩٥	المحطة المركزية في القدس
١٩	٣ مارس ١٩٩٦	شارع يافا في القدس
١٣	٤ مارس ١٩٩٦	متجر ديزنغوف سنتر في تل أبيب
٣	٢١ مارس ١٩٩٧	مقهى أبروبو في تل أبيب
١٦	٣٠ يوليو ١٩٩٧	سوق محانيه يهودا في القدس
٥	٤ سبتمبر ١٩٩٧	منتزه بن يهودا في القدس
٣	٤ مارس ٢٠٠١	نتانيا
٥	١٨ مايو ٢٠٠١	متجر هشارون في نتانيا
٢١	١ يونيو ٢٠٠١	مذبحة دولفيناريوم في تل أبيب
١٥	٩ أغسطس ٢٠٠١	مطعم سبارو في القدس
١١	١ ديسمبر ٢٠٠١	منتزه بن يهودا في القدس
١١	٢ ديسمبر ٢٠٠١	باص رقم ١٦ في حيفا
١١	٢ مارس ٢٠٠٢	يشيفا بيت إسرائيل في القدس
٣	٥ مارس ٢٠٠٢	سي فود ماركت في تل أبيب
١١	٩ مارس ٢٠٠٢	مقهى مومينت في القدس
٣٠	٢٧ مارس ٢٠٠٢	مذبحة عيد الفصح في فندق بارك بنتانيا
١٥	٣١ مارس ٢٠٠٢	مطعم متسا في حيفا
١٠	١٠ أبريل ٢٠٠٢	مفترق ياغور
١٦	٧ مايو ٢٠٠٢	ريشون لتسيون
١٧	٥ يونيو ٢٠٠٢	مفترق مجيدو

عدد القتلى	التاريخ	الإسم / المكان
١٩	١٨ يونيو ٢٠٠٢	باص رقم ٣٢ في القدس
٢٣	٥ يناير ٢٠٠٣	المحطة المركزية في تل أبيب
١٧	٥ مارس ٢٠٠٣	باص رقم ٣٧ في حيفا
١٧	١١ يونيو ٢٠٠٣	مركز كلال في القدس
٢٣	١٩ أغسطس ٢٠٠٣	باص رقم ٢ في القدس
٢١	٤ أكتوبر ٢٠٠٣	مطعم ماكسيم في حيفا

الإسرائيليين أو المواقع الإسرائيلية، يمكن ذكر الآتي عن الفترة ١٩٦٨ - ٢٠٠٣ م^[٩]:
ويلاحظ أن تلك العمليات فردية غير مخططة على مستوى شمولي، وأنها مبادرات شخصية تتبناها الفصائل، وبذا فإنها تكسر قاعدة نجاح المقاصد، التي تعتمد ثلاثية الحكمة (معنى التخطيط الاستراتيجي) والمهارة والفضيلة.

القدس أيقونة المقاومة العبقريّة:

تتسم القدس وأكنافها بالعبقرية مكاناً وزماناً وإنساناً. وهي فلسطينية كنعانية عربية. القدس عاصمة بلد الجبارين الأولين والشهداء البواسل الآخرين. والحفاظ على مدينة السلام والعبقرية، وأولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، وأرض الرباط، أمانة في أعناق الفلسطينيين إلى يوم الدين بأمر الله، وهو موهن كيد الغاصبين. وللقدس، سرة الأرض، قدسية إسلامية تغطي على حس المسلمين ووعيهم. وإن ملائكة الرحمن بأسطة أجنحتها على القدس، قولاً واحداً هو قول الله، وليس أصدق من الله قيبلاً. ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يؤكد في الحديث الشريف أنه لا تزال طائفة من أمته منصورين، لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة، ويعني بذلك الفلسطينيين. وللقدس، نقطة الارتقاء إلى السماء، قدسية دينية عند المسيحيين أيضاً. فهي ترتبط ببيت لحم والناصرّة تعبيراً عن ثلاثية نشأة المسيح ونهايته. فليصدق الفلسطينيون الله فيصدقهم، ويثبت أقدامهم في أرض الرباط. وليعلموا أن نصر الله

قريب، وأن أصوات المآذن وأجراس الكنائس في القدس لن تصمت. وستظل تستصرخ همم الفلسطينيين للحفاظ على مدينة السلام، وتدعوهم للتوافق مع المعادلات الست للانتصار، عن طريق توحيد الجهود، وتحويل ما لدى أحزابهم من كتائب وفصائل إلى جيش وطني موحد، والارتقاء بالمستوى الثقافي إلى حد التعايش مع الآخر وقبوله بين ظهرانيه وعلى ترابه الوطني، والمقاومة الثقافية الإيجابية والسلبية، والكفاح المسلح سبيلاً للنصر المبين.

لقد جاء دورهم في التغيير الإيجابي نحو ما هو أقوم، وخطتهم الاستراتيجية لذلك تؤكد أهمية توفير الجيش الوطني المنظم على التراب الوطني أو في قواعد خارجية حليفة، وإتاحة فرص التدريب العسكري اللازم للجهاد، بالنسبة لكافة الفلسطينيين في الداخل والخارج على حد سواء، وإعداد فرق عمل سياسي وطني كفؤة وملتزمة، يتم اختيار أعضائها على أساس الكفاءة، دون أي اعتبار للخلفية الحزبية أو الاجتماعية، قال أينشتاين: إن (٢٪) من الناس يفكرون، وإن (٣٪) منهم يظنون أنهم يفكرون، وإن (٩٥٪) منهم يضلون الموت على أن يفكروا. اللهم اجعل الشعب لفلسطيني من الفئة الأولى، فيتدبروا في خارطة الطريق القويم هذه لتحقيق الأهداف الوطنية، وإقامة الدولة الفلسطينية التاريخية المستقلة المنشودة على كامل التراب الوطني، وعاصمتها الأبدية القدس الشريف، أيقونة عبقرية المكان والزمان والإنسان.

هذي الملايين

الشاعر الفلسطيني يوسف الخطيب

هذي الملايين لَيْسَتْ أُمَّةَ الْعَرَبِ
ولا يذِي قَارَ شَدَّتْ رَايَةَ الْعَلْبِ
ولا تَبَوَّكَ رَوْتٌ مِنْهَا غَلِيلَ نَبِي
تَوْهَجَ الصَّبْحِ تَيَّاهَا عَلَى الْحَقْبِ
مَنْ غَلَّ رَأْسَكَ فِي الْأَقْدَامِ وَالرُّكْبِ
وَوَدَّعَتْ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، أَبَا لَهَبٍ !!

أَكَادُ أُؤْمِنُ، مِنْ شَكِّ وَمِنْ عَجَبِ
هذي الملايينُ لم يَدِرِ الزَّمَانُ بِهَا
ولا تَنْزَلَ وَحْيِي فِي مَرَابِعِهَا
ولا على طَنَفِ الْيَرْمُوكِ مِنْ دَمِهَا
أُمَّتِي، يَا شُمُوخَ الرَّأْسِ مُتَلَقَّةً
أَأَنْتِ أَنْتِ، أَمِ الْأَرْحَامُ قَاجِلَةٌ

*

هذي الملايينُ لَيْسَتْ أُمَّةَ الْعَرَبِ
يا شُعْلَةَ الصَّبْحِ، رُدِّي حَالِكَ الْحُجْبِ
وَيَعْتَرِينِي الْأَسَى حَوْلِي، فَيَقْعُدُ بِي
الذُّلُّ فِي النَّاسِ، وَالْعَلِيَاءُ فِي الْكُتْبِ
مُعَدَّبُ الرُّوحِ فِي غَمَجٍ مِنَ الْخَشْبِ
وَشَلُّوْ أختي غِذَاءَ الطَّيْرِ فِي النَّقْبِ

أَكَادُ أُؤْمِنُ، مِنْ شَكِّ وَمِنْ عَجَبِ
لولا تَشَقُّقُ سَجُوفِ اللَّيْلِ بَارِقَةٌ
تَهِيحُ بِي ذِكْرُ التَّارِيخِ جَامِحَةٌ
تَوَزَّعْتَنِي دُرُوبٌ لَا لِقَاءَ لَهَا
كأنما أَنَا جَمْعُ اثْنَيْنِ: سَيْفٌ وَعَعَى،
أَغْزَوْ عَمُورِيَّةً فِي اللَّيْلِ أَحْرَقُهَا

*

هذي الملايينُ لَيْسَتْ أُمَّةَ الْعَرَبِ
ولا حَلِيمَةُ هَزَّتْ مَهْدَ مُرْتَقِبِ
عِينَاهُ فِي زُمْرَةِ الْأَرْحَامِ وَالنُّصْبِ
وَعَلَّمَ النَّاسَ دِينًا، شِرْعَةَ الْكُذْبِ
رَبًّا، وَسُقَّتْ لَهُ النَّجْوَى، وَلَمْ يُجِبْ
كُنْ مِعْوَلًا فِي جَبِينِ الصَّخْرِ ثَانِيَةً

أَكَادُ أُؤْمِنُ، مِنْ شَكِّ وَمِنْ عَجَبِ
كأنما لم تَلِدْ فِي الْيَتِيمِ آمِنَةٌ
كأنما الصَّنَمُ الْأَعْلَى مُحَدَّقَةٌ
وَكَمْ مُسِيلِمِيَّةً، عَمَّتْ حَوَارِقُهُ
إِزْمِيلَ شَعْبِي، يَا مَنْ صَفَّتْ مِنْ حَجَرٍ
كُنْ مِعْوَلًا فِي جَبِينِ الصَّخْرِ ثَانِيَةً

الخاتمة

يهدف الكتاب في مجمله إلى رسم ملامح عبقرية القدس، والإحاطة بالواقع الجغرافي والثقافي والاجتماعي والديموغرافي فيها، من أجل صياغة أطر تفكير شمولية إبداعية فاعلة تساهم في الحفاظ على هويتها العربية الفلسطينية العبقريّة الأصيلة، وتشكيل ركيزة تخطيط للنشاط المقاوم للاحتلال الاستيطاني الغاشم لها. ومن مداخل تلك الأطر رسم معالم الموروث الثقافي فيها، ودراسة العلاقة بين هوية المدينة من جهة، وعبقرية المكان والزمان والإنسان فيها من جهة أخرى.

يبدأ الكتاب بتوضيح إطار مفاهيمي يضم أربعة أبعاد مفتاحية أساس، وهي: هرم المستوى الثقافي، والتفكير الإبداعي كنوع من الصراع الدائم بين الثقافتين الذاتية والجمعية، وتقنيات الحرية واستراتيجياتها، وسمات البيئة الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية الفلسطينية في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين.

يعرض الكتاب عبقرية المكان في القدس، وهو مزيج من عنصرين: أولهما روح المدينة، وثانيهما الإحساس الذي تتركه في النفس، بمعنى الإحساس الفردي الداخلي بالمكان ضمن البيئة الاجتماعية السائدة، مما يضيف على المكان معنى فريداً يتمسك المرء به. وعبقرية مدينة القدس تكمن في روحها، أو ما فيها من جبال، وأسوار، وشوارع، وأزقة، ومناظر طبيعية، وأبنية جميلة، ومساجد، وكنائس، وزوايا، ومقاهي، ومطاعم، وسكان، والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي تحكم تصرفاتهم. كما تكمن في الإحساس بها. فالقدس بالنسبة لبعض الناس تعني الكثير، وربما بصورة تفوق مشاعر الكثيرين من سكانها. إن ما يشكّل عبقرية القدس بامتياز هو مجموعة المواقع التاريخية الإسلامية والمسيحية. وروح المكان ثابت، أما الإحساس بالمكان فمتغير وفق طبيعة الفرد وحالته النفسية.

يشكّل مفهوم روح المكان والإحساس به قاعدة أساس للتمعن بعناصر الشخصية العبقريّة التي تشكلت عبر العصور. فالمكان حاضنة تاريخ الشعوب، وهو بوتقة تتجمع فيها الثقافات المتعاقبة عليه، والآمال والآلام المتراكمة فيه، لتصاغ في كل واحد يعرف بتاريخ المكان. لكن تحريف المكان، وتعديل النقوش المحفورة على جدرانها، وتشويه صورته بدعوى التحديث، وإعادة التسمية، والاحتلال الاستيطاني العنصري، لا يصنع لأيّ شعب تاريخاً. وتلك مشكلة أساس تعاني منها سلطات الاحتلال لأرض فلسطين. فقد قامت قبل سنوات بأعمال حفر ضخمة في منطقة باب العامود في القدس، مروراً بباب خان الزيت وشارع الوادي

وصولاً إلى حارة اليهود. واكتشفت على عمق أمتار في منطقة باب العامود مكتبه مليئة بكتب قديمة، فأخفتها، ربما لأن ما فيها يدحض ما يلفقونه من مزاعم تاريخية حول المكان. كما اكتشفت بالقرب من نفس الموقع آثار كنيسة وأرضية فسيفسائية، فردمتها للتقليل من شأن الآخر المهم في تاريخ المكان. وتناوب سلطات الاحتلال على القيام بأعمال الترميم المتلاحقة، بصورة تشير إلى التغيير التدريجي الدائم لتشكيل مؤشرات تاريخية لتزوير حَقِّ في ما لا يملكون، ومحاولة خلق تاريخ ملفق سرعان ما يتبين زيفه. فيطلقون على حائط البراق في الجانب الغربي للمسجد الأقصى اسم حائط المبكى. ويعترفون أن الأنفاق تحته من آثار الأمويين والأيوبيين والمماليك. ومن الأماكن العبقرية الأخرى من وجهة نظرهم قلعة القدس المسماة قلعة داود، وهو غير داود بن سليمان، وكنيس في حارة اليهود مبني في القرن الثامن عشر.

إن عبقرية القدس واحدة من صور الإعجاز الإلهي، قضى به الله حين أمر نبيه إبراهيم عليه السلام أن يبني بيتاً يذكر فيه اسمه في مكة، وبعد ذلك بيتاً ثانياً في القدس، وثالث في الخليل. فالله خالق الكون، وهو الخبير بطبيعة المكان، قضى أن تكون القدس مركز عبقرية إنسانية. فقد بُني المسجد الأقصى قبل نزول الديانات السماوية الثلاث. وهو إرث إنساني، تم اختياره بهدى من الله سبحانه وتعالى. وهو نموذج لعبقرية المكان في أجلى صورها. وليس أدل على عبقرية القدس كمكان من تسمية الله رب العالمين للمسجد الأقصى بأنه أولى القبليتين وثالث الحرمين الشريفين. وذلك الربط بين المساجد الثلاثة هو ما يشد المسلمين إلى القدس وفلسطين أكثر من أصحاب الديانات السماوية الأخرى.

ولا تقتصر عبقرية القدس على الجوانب التي خصها الله بها. بل تتعدى ذلك إلى التفاعل الحيوي بين عناصر روح المكان والإحساس به. وتتجلى عبقرية القدس بصورة جلية لدى الدراسة المعمقة للجغرافيا الطبيعية والسكانية والتاريخية والروحية للمكان. فمن أهم معالم مدينة القدس المسجد الأقصى الذي يقع في ناحيتها الشرقية. وتضم القدس عدداً كبيراً من المساجد غير المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة، أبرزها في ساحة الحرم مسجد عمر بن الخطاب، وجامع قبة موسى، وجامع باب حطة، وجامع كرسي سليمان، وجامع المغاربة، وجامع باب الغواصة، وجامع دار الإمام. وتعود غالبية المساجد والمآذن فيها إلى العصر المملوكي.

إن كل واحد من حجارة شوارع القدس القديمة يحكي تاريخاً يمتد آلاف السنين. فمن طريق

الآلام، إلى حائط البراق، إلى مكان دخول صلاح الدين الأيوبي، إلى مكان وقوف الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب، وإلى المكان الذي سرقت منه ساعة بيج بن الموجودة في لندن. ولتوكيد حق الفلسطينيين التاريخي بأرضهم، يذكر أن الإشارة إلى فلسطين وأرضها وشعبها وردت في التوراة (٢٩١) مرة، كما ورد اسم كنعان وأرض كنعان والكنعانيين (٦١١) مرة، وذكرت أسماء مدن عربية فلسطينية على أنها مساكن للفلسطينيين (١٠٥٤) مرة. وأما اسم أرض إسرائيل فلم يرد في التوراة إطلاقاً.

تعاني القدس العربية من التهويد الممنهج لتغيير طبيعتها. فهويتها كمركز ديني وروحي، وكمركز تجاري، أخذت بالتحوير تدريجياً مع الزمن، لأن سلطات الاحتلال تعتمد محور شخصيتها الإسلامية والمسيحية. وما تفعله في أسواقها، يعكس هذه الحقيقة المرة. ففي عام ١٩٦٧م، احتل الصهاينة القدس الشرقية، واقتحموا الحرم القدسي الشريف، وأول ما فعلوه حينئذ إجراء تغييرات جوهرية على أسواقها، فبنوا الحي اليهودي، وبدأوا بنسج حكايات مصطنعة في محاولة لتغيير الطابع الديني للمدينة الذي يشكل روحها.

لقد خضعت القدس خلال تاريخها الطويل لاثنتين وثلاثين سلطة حاكمة وثقافة سائدة، وتعرضت للتدمير مرتين، وحوصرت ثلاثة وعشرين مرة، وهوجمت اثنتان وخمسون مرة. لكنها بقيت عبر التاريخ عاصمة فلسطين العربية، وقبله العرب أتباع الديانات السماوية الثلاث. وشكلت تلك المعاناة جذور عبقرية الزمان والمكان والإنسان فيها.

وتتجذر عبقرية الزمان من خلال تراكم الخبرات وتلاقحها، وتفاعل الثقافات للسلطات المحتلة المتعاقبة عليها، والمعاناة المستمرة للظروف الصعبة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً. ومن خلال التفاعل الحيوي بين عبقرية الزمان والمكان تولدت عبقرية الإنسان الفلسطيني المعاصر. ومن تلاحق كل تلك الثقافات نتجت ثقافة هجينة ثرية، هي الثقافة العربية الفلسطينية. والتمعن في قائمة السلطات الحاكمة يبين أن النكهة الطاغية على الثقافة الفلسطينية هي الثقافة العربية والإسلامية، على الرغم من كل محاولات التشويه والتحريف.

إن القدس قبلة الديانات السماوية الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام. وقد عاش فيها أو مر بها معظم الأنبياء والمرسلين، ومنهم إبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان ويحيى وعيسى ومحمد عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم. وتعاقب على حكم فلسطين، كل من الكنعانيين، ومملكة إسرائيل، والآشوريين، والبابليين، والفرس، واليونان، واليهود، والرومان، والبيزنطيين، والعرب (منذ الخلفاء الراشدين،

والأمويين، والعباسيين، والفاطميين)، ثم الصليبيين، ومملكة القدس اللاتينية، وبعدها الأيوبيين، والمماليك، والعثمانيين المسلمين، والانتداب البريطاني، ثم العرب الفلسطينيين وسلطات الاحتلال.

تشير الأبحاث إلى أن الثقافة تحتاج للاستدامة والانتقال إلى جيل لاحق، أي لمدة خمسة وعشرين عاماً، توفر معدل إنجاب في الأسرة قدره (٢,١١) كحد أدنى. وبدون ذلك تندثر الثقافة. أما وصولها إلى حد (١,٣) كما هو الحال في اليونان وألمانيا، فيعني استحالة عودتها إلى وضع سليم، لأن تصويب مسارها يحتاج (٨٠-١٠٠) سنة. ولا يمكن لأي نظام اقتصادي أن يصمد كل تلك الفترة. ويفسر ذلك بأنه إذا أنجب زوجان طفلاً واحداً، فإن عدد الأطفال يساوي نصف عدد الآباء. وإن أنجب الأبناء طفلاً واحداً أيضاً، فإن عدد الأطفال يصبح ربع عدد الأجداد. وهكذا يتضح أنه لو كان عدد المواليد في عام ما مليوناً مثلاً، فإن من الصعب أن تجد في المجتمع مليونين من القوى العاملة بعد عشرين عاماً.

وتشير نتائج التعداد السكاني في عام ٢٠١٧م إلى أن عدد الفلسطينيين داخل حدود عام ١٩٦٧م بلغ أربعة ملايين وثمانمائة وأربعة وثمانين ألفاً، إضافة إلى (١,٥) مليون داخل الخط الأخضر المحتل عام ١٩٤٨م، بزيادة مليون فلسطيني خلال السنوات العشر الأخيرة. أي أن عدد الفلسطينيين داخل فلسطين يبلغ ستة ملايين وثلاثمائة وأربعة وثمانين ألفاً. وهي أرقام تفزع سلطات الاحتلال التي تزعم أن لها الأغلبية العددية، وتدعو إلى يهودية الدولة. وعدد اليهود في المقابل مساوٍ تقريباً لمجموع الفلسطينيين، إذ يصل عددهم، حسب ما يذكرون من إحصاءات، إلى (٦,٥) مليون نسمة.

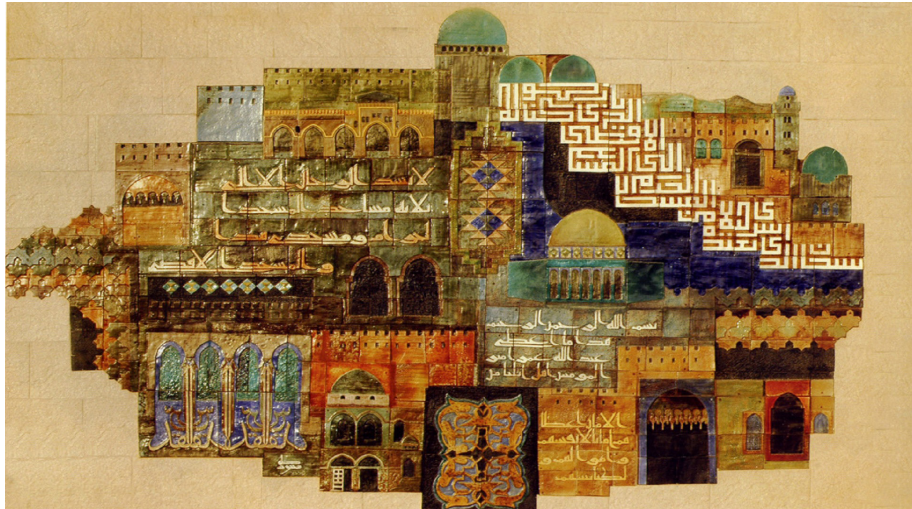
إن الحيوية التاريخية للشعب العربي الفلسطيني تتجلى في القدرة على الصمود الطويل في وطنه المغتصب عنوة على امتداد فترة احتلاله، والتحدي العنيد والإصرار الذي لا يلين في سبيل الحفاظ على الهوية. كما تتجلى في التماسك الاجتماعي والاقتصادي والحضاري والثقافي لهذا الشعب، وفي خلق صور إبداعية للمقاومة الراضة للاستعمار الاستيطاني في فلسطين.

إن الشعب الفلسطيني، وفق مستواه الثقافي، يحاول جاهداً إكراه الذات على قبول الآخر، والتوافق معه، وتحمله، على الرغم مما يبديه الآخر من مخالفة للقيم الثقافية الإنسانية. والصهيوني الغاصب، من ناحية أخرى، يعتبر ذاته أكثر قوة وقدرة، وأعلى شأناً من الآخر، وهو من وجهة نظره الذاتية شعب الله المختار. وبقاء الحوار بين مستوى ثقافي صهيوني

يتمسك بمرحلة التعالي على الآخر، وفلسطيني يتمثل بقبول الآخر، وتحمله، ومحاولة التوافق معه، أمر مستحيل، ويمثل حوار طرشان، ولا يمكن أن يؤدي إلى أية نتائج إيجابية. القدس أيقونة الشخصية العبقريّة، وهي بطبيعتها الروحية لا تتقبل سوى أصحاب المستوى الثقافي الأسمى على سلم التطور الثقافي، والمتمثل بفهم الآخر واستيعابه والتعايش معه. وذلك المستوى هو ما يدعو إليه الدين الإسلامي الحنيف. فالقدس مدينة الله، أو بيت إيل كما يطلق عليها، ومدينة السلام بالمعنى الثقافي الأشمل. وبالتالي تتنافر مدينة القدس كمكان عبقرى مع أصحاب المستوى الثقافي الذي يكون أدنى من تفهم الآخر واستيعابه. والصهيانية الغزاة لم يصلوا ذلك المستوى من التطور الثقافي، لأنهم من مستوى التعالي على الآخر، أو مستوى التمرکز حول القومية بعد صدور قانون القومية عندهم، وهم يؤمنون وفق ثقافتهم الدينية اليهودية بأنهم شعب الله المختار. ولم يستوعب العرب الفلسطينيون ذلك أيضاً. وظلوا في مستويات ثقافية متدنية تتمثل بالتمركز حول الذات، أو التمرکز حول القومية، وقبول الآخر. ونسوا قول الله تعالى للمسلمين بأنهم كانوا خير أمة أخرجت للناس، وأن عليهم الارتقاء إلى مستوى فهم الآخر واستيعابه في مجتمع متكافل، كما كانوا أيام الحكم الإسلامي بشكل عام. وتقع على العرب عامة، والمسلمين خاصة، مهمة تحديد معالم الطريق لاستحقاق القدس بجداره، وأداء الأمانة التي كلفوا بها، والمتمثلة بحماية المقدسات. وبغير ذلك فإن القدس ستلفظهم، وتأتي أن ترتبط بهم حتى يغيروا ما بأنفسهم، لتظل محافظة على صورتها الأصيلة التي خصها الله بها، كرمز للقبول الثقافي بالآخر، والتعايش معه ضمن مجتمع متكافل يؤمن بالتعددية. تلك بعض معالم الطريق إلى روح القدس، رسمها الخليفة عمر بن الخطاب تسامحاً وتواضعاً وتقبلاً للآخر المقهور والمغلوب على أمره، حين استقبله صفرونيوس ليسلمه مفاتيح القدس. كما رسم بعض ملامحها صلاح الدين الأيوبي أيضاً، وذلك في تعامله مع القائد الصليبي ريتشارد قلب الأسد.

إن الاستعمار الاستيطاني الذي يقصي الآخر، ويغتصب حقوقه، ويفرض قانون القومية المتعصب الذي يحرم صاحب الأرض من حق المواطنة، مرفوض جملة وتفصيلاً. وما دام المغتصب الصهيوني يصر على مثل ذلك السلوك البربري، على الرغم من الرمزية الدالة على ترديه في مهاوي التخلف الثقافي، فلا بد من مقاومته بكل السبل. والثبات في الأرض، وثقافة المقاومة في مجملها صور للعبقرية التي يتضافر المكان والزمان والإنسان في تشكيلها. القدس وأكناؤها فلسطينية كنعانية عربية. والحفاظ على مدينة السلام وأولى القبليتين وثالث

الحرمين الشريفين وأرض الرباط أمانة في أعناق العرب الفلسطينيين خاصة، والمسلمين عامة، وذلك إلى يوم الدين بأمر الله.
إن مدينة بيت المقدس تستصرخ همم المسلمين والعرب والفلسطينيين للتوافق مع المعادلات الست الموصوفة للانتصار، وقد جاء دورهم في التغيير الإيجابي نحو ما هو أقوم، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. فليتمسك الفلسطينيون بحبل الله جميعاً ولا يفرقوا، وليصدقوا الله فيصدقهم ويثبت أقدامهم.



الفنان التشكيلي الفلسطيني محمود طه

المراجع والمصادر

أ - بالعربية:

١. الفقهاء، عصام (٢٠٠٢)، تجليات الإبداع، دار البركة، عمان.
٢. الفقهاء، عصام (٢٠١٤)، أبجدية الصوت وصوت الأبجدية، القاهرة: دار الكتب العلمية.
٣. الفقهاء، عصام (٢٠١٦)، أسرار النجاح والسعادة، القاهرة: دار الكتب العلمية.
٤. جارودي، رجاء (٢٠٠٨). فلسطين أرض الرسالات الإلهية، ترجمة وتعليق عبد الصبور شاهين، القاهرة: نهضة مصر.
٥. غازي، خالد محمد (٢٠١٧)، القدس سيرة مدينة.. عبقرية المكان، وكالة الصحافة العربية (كتاب إلكتروني).
٦. سعيد، إدوارد (٢٠٠٠)، خارج المكان، بيروت: دار الآداب.
٧. سعيد، إدوارد (٢٠٠٤)، فرويد وغير الأوروبيين، بيروت: دار الآداب.
٨. سعيد، إدوارد (٢٠٠٦)، الثقافة والمقاومة، بيروت: دار الآداب.
٩. صالح، محسن (٢٠١٢). القضية الفلسطينية: خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة، بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات.
١٠. رمضان، بسام (٢٠١٤). ٢٠ حقيقة عن أرض فلسطين: أقدم المناطق الحضارية في العالم، بيروت: المركز الفلسطيني للإعلام.
١١. العسلي، كامل جميل (١٩٨٨)، تحولات جذرية في فلسطين، عمان .

ب - بالإنجليزية:

11. Apap, Christopher (2016). The Genius of Place, University of New Hampshire Press.
12. Dhawan, Erica & Saj-nicole Joni (2015) Get Big Things Done: The Power of Connectional Intelligence, ISBN-10: 1137279788, Macmillan Publishing Press, New York.
13. Gowan, J. C. (1972). The Development of the Creative Individual, San Diego: Robert R. Knapp.
14. Hawking, Stephen (2016). Brief History of Time, London: Bantam Books Publishing Group.
15. Manning, Matthew (2007). Your Mind Can Heal Your Body. Piatkus Books Co., London,UK.

16. Karson, Robins (2007). A Genius for Place, University of Massachusetts Press, <http://lah.org/>
17. Moustakas, C. (1967). Creativity and Conformity, New York: Van Nostr and Reinhold.
18. O'Connor, Dermot (2009). The Immortality Code. Hodder& Stough, Ltd., London, UK.
19. Roizen, Michael F. (2005) The Real Age Makeover. Harper Collins Publishers Inc., New York, USA.
20. Taylor, C. (1972). Creativity: Progress and Potential, in Stroycock (ed.) Educational Psychology, Canada: The Copper Book Pub. Co.
21. Weiner, Eric (2016). The Geography of Genius, New York: Simon & Schumer.
22. Williams, Ben (1998). The Genius of Place. Washington: ERIC Clearinghouse.

ج. المواقع الإلكترونية:

23. Dabbagh, Mustafa (2016). Our Country Palestine, Institute for Palestine Studies, Beirut, ISBN:9787-013-448-614-, <https://www.palestinestudies.org/sites/default/files/Biladuna%20Filastin.pdf>
24. (درزي، براءة. موقع مدينة القدس، (تم الدخول للموقع آخر مرة في 2019/8/19 <http://www.alquds-online.org>
25. (القدس عبر العصور (تم الدخول للموقع آخر مرة في 2019/8/19 <https://arabi21.com/story/1053606>
26. (السرجماني، راغب. موقع قصة الإسلام (تم الدخول للموقع آخر مرة في 2019/8/9 <http://www.islamstory.com>
27. ثابت، أحمد. جوانب الصراع العربي الإسرائيلي ومجالاته (تم الدخول للموقع آخر مرة في 2019/8/9
28. <https://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/853b454b-a3b34705--a41b-4abbd5540589>
29. السعدني، عزت (2007) الشيطان يسكن المدينة، دار نهضة مصر للنشر والتوزيع، القاهرة <https://books.google.jo/books?id=FK99DwAAQBAJ&printsec=frontcover&hl=ar#v=onepage&q&f=false>

عبقرية القدس



خلال تاريخها الطويل، خضعت مدينة القدس لأنتين وثلاثين سلطة حاكمة وثقافة سائدة، وتعرضت للتدمير مرتين، وحوصرت ثلاثاً وعشرين مرة، وهوجمت اثنتين وخمسين مرة، لكنها بقيت عبر التاريخ عاصمة فلسطين، وأرض الإسراء والمعراج، وقبله كافة أتباع الديانات السماوية الثلاث، ووصفت أرضها بالبركة في خمس من آيات القرآن الكريم، وفيها مؤشرات على رسوخ بذور العبقرية التي تتسم المدينة بها، وصيرتها أيقونة لعبقرية المكان والزمان والإنسان.



1 681202 095606